

هاري ساغز

عظمت

آفتاب

ترجمة
خالد اسعد حميد
احمد حسين سياف

دار السلام

عظيمة آشور

عظمة آشور

تأليف

هاري ساغر

ترجمة

خالد أسعد عيسى

أحمد غسان صبيح

عظمة آشور

تأليف: هاري ساغر

ترجمة: خالد اسعد عيسى / أحمد غسان سيانو

الطبعة الأولى: ٢٠٠٨.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعة تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

بمقر الطباعة محفوظة

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - جرمانا

هاتف: ٥٦٣٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص.ب: ٢٥٩ جرمانا

القيمة

جرت العادة تقديم تبرير إيضاحي لأي كتاب من نوع كتابنا هذا ، فالسبب الموجب لكتابة هذا الكتاب بسيط، فلقد قضيت حوالي نصف عمري في دراسة موضوع الآشوريين، ولهذا أود أن أتميز بإشراك الآخرين في معرفة بعض الفوائد التي وجدتُها بعد دراسة أحوال ذلك الشعب.

والحقيقة أن الفارئ سرعان ما سوف يدرك أنني أحب الآشوريين حقاً، مع ما فيهم من سلبيات وإيجابيات دون الشعور بوجوب الاعتذار عن هذا الحب، ومع أن الآشوريين شأنهم شأن الشعوب الأخرى القديمة والحديثة قد أظهروا أساليب لا نعتبرها الآن لائقة في تعاملهم مع بني البشر حولهم، إلا أنني لا أشعر بأي حرج عند الترويج لفكرتي وصوابها عن طريق تقديم الحكم على كل فعلٍ فعلوه، وكل موقف اتخذوه على أساس معتقدات دينية قديمة أو لبرالية متداولة.

إنني أعلم علم اليقين أن هناك كثيراً من الموضوعات التي قد حُذفت وكان من الأجدر مناقشتها، إذ إن لدي ملاحظات تحتوي مواد ربما تُولف كتاباً ضئيف حجم هذا الكتاب، غير أنه من الواجب أن نضع حداً لممارسة أي عمل، لأنني عند اختياري لما يجب مناقشته تَوَخَّيتُ أن أركز على الشؤون التي يسهل إثباتها وعلى المناطق المتصلة بالعالم الحديث بشكلٍ أكثر وضوحاً وعلى الموضوعات التي تبدو أكثر مُنعة وإمتاعاً.

ولكن من الواضح أن لا تلتقي هذه المعايير الثلاثة دوماً ولذلك كان من واجبي أن أضحي بواحد منها أو أكثر.

ربما كان من الأجدي قول كلمة حول التواريخ، إذ إننا نجد كتاباً آخرين يقدمون بعض تواريخ تختلف عن تواريخي بالنسبة للآلاف الأول قبل الميلاد بواقع سنة أو سنتين، وبالنسبة للآلاف الثاني قبل الميلاد بواقع عقد أو أكثر، وبالنسبة للآلاف الثالث بواقع قرن واحد، ويمود وجود مثل هذه الفروق إلى الطريقة التي تتلاحم فيها مجموعات الشواهد التي قلَّما تتواجد فيها تلك الحقيقة المطلقة

(باستثناء الطواهر الفلكية) وفي رأيي أن التواريخ الدقيقة ليست ذات أهمية شريطة وضوح تماهب الحوادث نسبياً.

ولكن التواريخ تؤلف كياناً مفيداً يُجبرني على تقديمها بحرية نسبياً.

هذا، وسوف يلاحظ أولئك المتعمسون بمناقشة تواريخ منطقة ما بين النهرين أنني قد اتبعت النظام الذي اتبعه أستاذي السابق المحترم سيني سميث، وأتمنى لو كان باستطاعتي أن أتمكن من الموضوع كما فعل، حيث لا يستطيع أحد غيره أن يفعل ذلك، ولهذا فإن جميع التواريخ المتعلقة بأشور القديمة ينبغي أن يكون من المفهوم بأنها ترجع إلى فترة ما قبل الميلاد دون وجود أي دلالات خاصة.

وفي بعض الحالات أشير إلى أي تاريخ ذي علاقة بمنطقة ما، وخوفاً من وقوع بعض الإشكالات البسيطة، أضيف سكتي بـ م أي: بعد الميلاد.

وليس بإمكانني أن أنهي هذه المقدمة دون التويه بشكري وامتناني لزوجتي التي كان لروحها المتفائلة التي لا تتوقف ولحماسها وآرائها العملية، ما عزز تلك المتعة والاهتمام بالقيم طيلة تلك الرحلات العديدة التي قمنا بها معاً إلى بلاد آشور، وفي آشور نفسها، خلال سنوات وسنوات.

هاري ساغز

Hary Sags

الفصل الأول

آشور - الخلفية - البدايات

لا بُدَّ أن القراء في العالم الغربي قد سمعوا بالآشوريين فيما ذكرته التوراة عنهم، فقد أشارت إليهم التوراة بأنهم القوة الإمبراطورية التي قضت على مملكة إسرائيل، وأوقعت ما يسمى بالقبائل العشر في الأسر.

وبعد جيل من ذلك التاريخ قام الآشوريون بمهاجمة أورشليم عاصمة ما كان يسمى دولة يهوذا، ذلك الهجوم الذي أوحى إلى الشاعر بايرون نظم قصيدته التي تبدأ ب: **هجم الآشوريون كالذئاب على قطع الغنم.**

وكانت كسائبهم الحربية تلمع بالألوان الأرجوانية والذهبية.

ونتيجة لما ذكرته التوراة وما ذكره الشاعر بايرون، فقد وُصِمَ الآشوريون بالنسبة للعالم المتكلم باللغة الإنكليزية بصفاتهم البربرية الخالصة من الشفقة والرحمة، فكما وصفوا بالضرر والخبث.

والحقيقة أنهم كانوا حشنيين وقساة وغلاظ القلوب عند معاضلتهم على النظام، ولكنهم كانوا حماة للمدنية ولم يكونوا مخربين أو بربابرة.

لقد حدثت فصول حوادث أورشليم خلال قرن اختفى فيه الآشوريون نهائياً كشعبٍ مميز، ولكن معظم ما ميز الآشوريين في تاريخ العالم كان له جنوره خلال ألف سنة أو ما يزيد ظهرت فيها هويتهم الوطنية التي كانت خلفهم عندما هاجموا فلسطين.

الإطار الجغرافي

لقد كانت الإمبراطورية الآشورية في أقصر امتدادها واسعة، فقد امتدت تلك الإمبراطورية لمدة قصيرة خلال تلك الفترة التوراتية من مصر من جهة إلى بلاد المجمع (إيران) من الجهة الأخرى، والحقيقة أن الوطن الآشوري المركزي الذي

سيطر على أراضي الشرق الأدنى كل منطقة صغيرة جداً ، فلم يكن أكبر من منطقة انجليا الشرقية أو ويلز في بريطانيا أو فلسطين ، أو ولاية كونيتيكت في أمريكا.

فلقد كانت آشور أصلاً تضم الأرض الممتدة على طول نهر دجلة الأوسط ، وكانت حدودها الشمالية ممتدة من شمال الموصل حيث سفوح الجبال لتصبح سهلاً ، وأما جنوباً فقد امتدت إلى مسافة مئة وثلاثين ميلاً شمال غرب بغداد ، في منطقة ينساب فيها نهر دجلة خلال سلسلة من التلال تدعى جبل مغول غرب دجلة ، وجبل حميرين إلى الشرق ، ويقع إلى غرب دجلة سهل واسع (وهو عبارة عن هضبة منخفضة من الحجر الكلسي) يدعى: منطقة الجزيرة ، حيث هناك سلسلة جبلية تدعى: جبل سنجار في نهايتها الشمالية ، وتمتد منطقة الجزيرة دون أي تقاطع شرقي غربي حتى نهر الخابور ، وفي هذا السهل المفتوح أمام البدو الرُحَّل من جهة الصحراء السورية كان امتداد السيطرة الآشورية في أي وقت من الأوقات يعتمد على القوة العسكرية والتصميم والعزم الآشوري.

وفي الجهة الجنوبية الشرقية لهذه المنطقة وعلى محاذاة نهر دجلة كانت تقع مدينة آشور وهي أقدم عواصمهم.

وفي المنطقة الشرقية داخل بلاد آشور كان هناك راقدان رئيسان لنهر دجلة وهما يحملان اسم الزَّاب ، وكان الزاب الأصغر أو الأدنى يلتقي بدجلة شمال جبل حرمين ، بينما كان الزاب الأكبر أو الأعلى يرفد دجلة على بُعد خمسة وعشرين ميلاً منعبراً من الموصل.

وتؤلف سلاسل الجبال العالية التي يبدأ منها نهر الزاب منطقة ربع دائرية تحيط بدولة آشور من الشرق والشمال.

وهكذا وبينما نجد هناك سهلاً متصراً إلى الغرب من دجلة ، إلا أن آشور الشرقية تنقسم إلى ثلاث مناطق ، فالقطاع الأول: عبارة عن سهل واقع بين الزاب الأكبر والجبال الشمالية ، وهذا ما جعل نينوى أعظم مدينة في الأزمنة القديمة ، كما هو الحال بالنسبة إلى الموصل في هذه الأيام.

أما القطاع الثاني: فهي المنطقة الواقعة بين الزابين ومركزها أرييل، وكان هذان القطاعان دوماً ابتداءً من الزمن الذي ظهرت به آشور هما العنصرين الرئيسيين في دولة آشور.

أما القطاع الثالث: فهو المنطقة الواقعة جنوب الزاب الأصفر الممتدة حتى جبل حرمين، وتضم هذه المنطقة كركوك وهي الآن مركز آبار البترول، أما في الأزمنة القديمة فكانت تدعى أرابخا Arabkha ولكن دولة آشور لم تسيطر على هذه المنطقة، وكانت أرابخا وأرييل ونيوى مع مدينة آشور الواقعة على الضفة الغربية لنهر دجلة، هذه المدن كانت هي المدن الرئيسية المهمة، وذلك لأن دولة آشور كانت على الغالب مؤلفة من مناطق ريفية.

وباعتبار هذه الأقسام الرئيسة الأربعة لم تكن آشور عبارة عن وحدة جغرافية متكاملة، فقد كانت هنالك فروق بارزة ذات علاقة بالأرض والمناخ موجودة بين كل جزء من هذه الأجزاء والجزء الآخر.

ولكن ومن جهة أخرى فقد كانت الجهات الرئيسة الأساسية متشابهة بحيث تصبح المنطقة بأكملها بلداً واحدة منفصلة ومتميزة عن المنطقة الواقعة جنوبها، وفي معظم أراضيها كان معدل هطول الأمطار كافياً للزراعة دون اللجوء إلى عمليات الري وذلك على الأقل في السنوات الخصبة الجيدة، مع أنه وبالنسبة إلى المناطق الجنوبية القصية في آشور كان الوضع الزراعي هامشياً يتصف بتخلف وقصور زراعي أثناء الفصول الرديئة المحاصيل.

وإذا تابعنا الاتجاه جنوباً فيما وراء خط عرض جبل حرمين ينخفض معدل هطول الأمطار الكلي لنمو الحبوب دون اللجوء إلى عمليات الري، وفي نفس منطقة خط العرض هذه هناك تغيرات في التربة وذلك لأن سهول آشور هنا معرضة لوجود الطمي الذي يسببه مجرى نهر دجلة، وتتحد هاتان الميزتان لإنشاء حدود جغرافية فيما بين آشور والأراضي المجاورة في الجنوب.

وخلال الألف الأولى والثانية قبل الميلاد كانت تلك الأراضي الجنوبية تعرف باسم بابل، وفي زمن أقدم كانت تعرف باسم أكاد وسومر (وهما نصفاهما

الشمالي والجنوبي) ولم تكن الحدود ما بين آشور وبابل في الأزمنة القديمة لتتبع الحدود الطبيعية، ولكنها كانت تتقدم وتتراوح إلى الأمام والخلف طبقاً لمقايير حياة الدولتين، هذا وتبقى الميزات الجغرافية التي تميز آشور عن بابل واضحة في هذه الأيام، فالرحلة في فصل الربيع من بغداد وهي عاصمة العراق الحديثة وخلال منطقة بابل القديمة إلى الموصل التي تقع قرب عدة عواصم آشورية تقود السائح إلى منطقة مختلفة، ففي منطقة بغداد جنوباً تصبح الزراعة المائدة هي زراعة أشجار النخيل، وليس هناك من غطاء عشبي عدا المناطق التي تكثر فيها الحدائق والمزارع، فالأراضي تبدو منبسطة في الأفق، وفي معظم أوقات السنة تصبح الأرض المعرضة لحرارة الشمس قاحلة وميتة ولا سيما حيث لا تصل إليها أفتية الري، ولكن عندما يقترب السائح من الموصل يجد هناك تغييراً جذرياً، فالأراضي المنبسطة تتحول إلى سهول منخفضة، وفي فصل الربيع تصبح خضراء بما تحمله من محاصيل الحبوب والمراعي المزدهرة بما فيها من الأزهار والأعلاف، وتخترق الوديان تلك السهول المتماوجة وتمتلئ تلك الوديان بالمياه بعد سقوط أمطار الربيع حيث ترى سلاسل التلال العالية في الأفق، وهنا يشعر السائح أنه قد وصل إلى آشور.

وتعتمد القوى الرئيسية في آشور القديمة على أراضيها الخصبة المزروعة بالذرة، ففي كل منطقة من مناطق آشور هناك بقع من الأرض مزروعة بالذرة، ولكن هناك منطقتين كبيرتين بصورة خاصة متميزتين بالقدر على الإنتاج وقد كانتا دوماً بهذا الشكل إحداهما سهل أربيل الذي يوصف بأنه أفضل منطقة منتجة للقمح في العراق، أما المنطقة الثانية فهي منطقة سهل الموصل، وإلى الغرب من نهر دجلة هناك حزام مزروع بالذرة الجيدة، وفي الجزيرة الواقعة إلى الجنوب من جبل سنجار يستطيع المرء أثناء السنوات الخصبة رؤية نبات الشمير النامي في ذلك السهل، مع أنه يقل حالماً ينتقل المرء إلى الجنوب حتى يصل إلى الخط الواصل بين الحرة وقلعة شرفاوط (وهي موقع عاصمة آشور القديمة).

وتذكر التوراة شيئاً عن أصل مملكة آشور ولكن باختصار، ويذكر في سفر التكوين رقم (١٠ و ١١) أن مملكة ممرود كانت تتألف من بابل وأريش وأكاد وكلانة وكلها واقعة في أرض شنعار، ومن تلك الأرض هاجر ممرود إلى آشور وبني ييوى وقلة مكالخ **Calah**، وليس هناك سوى قلة من علماء آثار آشور مستمدين للدفاع عن تلك التفاصيل، ولكن بالنسبة لآشور فإن الملابس الرئيسية متفقة مع ما نعرفه من علم الآثار، فشنعار ما هي إلا صورة طبق الأصل عن سومر التي كانت هي الاسم القديم لأقصى جنوب العراق التي يرويها التهران العظيمان دجلة والفرات، فهي سومر بالذات بدأت الحضارة الأولى، وفي حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م. ولا يعرف إلا القليل عن المكان الذي أتى منه السومريون فيما لو كانوا حقيقة مهاجرين أم كانوا من أهل البلاد الأصليين، ولكننا نعرف الكثير عن حضارتهم القديمة في جنوب العراق.

وكانت إحدى مراكزهم الثقافية تدعى أوروك، وإن اسم أيرشين التوراتي هو شكل من أشكال هذا الاسم، وكانت ييوى وكالا عاصمتين آشور يتبع في أزمان مختلفة، وكانت الأولى أقدم عهداً من الثانية ولكن مؤسستها المزعومة ممرود الذي يُعد أحجية من الأحاجي، وإن اسم آشور (الذي نُقِلَ على شكل أسهور أو اسشور أو أسور) ربما انطبق على اسم البلاد ككل، أو على اسم أقدم عاصمة من عواصمها، أو على اسم الإله الرئيسي فيها، مع أن ذكرها في التوراة يدل على البلاد فحسب.

هذا وقد انتشرت الحضارة السومرية في أعالي الفرات ودجلة وإن المقولة التوراتية حول الهجرة من شنعار إلى آشور ما هي إلا انعكاس للحقيقة التي معادها: إن أصول الحضارة الآشورية كانت على الأغلب من سومر.

لاحظ استعمال كلمة على الأغلب، فلقد كانت الأحوال الجغرافية شديدة الاختلاف بالنسبة إلى المنطقتين بحيث كان من الصعب انتقال الحضارة السومرية دون تغيير أو تبديل إلى آشور.

ولكن ظهرت عوامل جديدة لعبت دورها ، فقد كانت هناك وسيلة سهلة للاتصال عن طريق وادي نهر الخابور مع سورية ومع منطقة البحر الأبيض المتوسط والأناضول (أواسط سورية) وراء ذلك ، ولقد فتحت هذه الطريق في جميع الأرمنة وسائل التواصل فيما بين آشور وأجزاء المشرق الأدنى الأخرى مما سبب حدوث نتائج ثقافية ، فنحن نعلم الآن أنه قد حدثت تطورات مرموقة في الحصار في فترة مبكرة في سورية الشمالية ظهرت آثارها في آشور ، إذ لم تكن التلال والجبال المحيطة بآشور من الشمال والشرق الحالية من المسكان لتشكل حواجز تامة تمنع الاتصال مع الأراضي حولها (وهي التي تدعى الآن تركيا وإيران) وهكذا أصبحت آشور مفتوحة لتلقي التأثيرات ذات الأنواع المختلفة من تلك الجهات أيضاً

فترة ما قبل التاريخ

إن للمناطق المتاخمة لشمال وشرق آشور أهمية رئيسية بالنسبة للتاريخ البشري ككل فضلاً عن صلتها بتاريخ آشور ، وتحتص أهميتها على المدى الواسع ببداية القرى والزراعة

وبالنسبة لأية فترة واقعة قبل عشرة آلاف عام قبل الميلاد ، هلا يلزم أن نتحدث عن وجود قرى في أو حول آشور أو في أي بقعة من بقاع العالم ، فقد كانت الكائنات البشرية لا تزال عبارة عن مخلوقات نادرة الوجود ، فعلى سحوح التلال كانت الكائنات البشرية أهل وجوداً من الأغنام البرية والماعز ، بينما قلما كانت هذه الكائنات البشرية ترى في سهول آشور عدا عن وجودها أشاء حملات صيد الحمر الوحشية التي كانت ترعى النباتات حتى بداية القرن العشرين بعد الميلاد

ثانياً كانت مثل هذه الكائنات تعيش على صيد الحيوانات وجمع النباتات البرية والنبور والفواكه بحيث لم يكن هناك من جامع يجمعهم بشكل دائم في بقعة معينة ، ولا يمكننا إبتكار وجود قواعد موسمية بشكل كهوف أو مواقع في الهواء الطلق أو مساكن تعود إلى العهد الأول من العصر الحجري ، وهي معروفة قرب السليمانية ورواندوز Rowandoz بينما عثر على موقع في الهواء الطلق إلى

الشرق من كركوك، وعلى كل حال فإن عدم وجود الزراعة يُسقط من وجود المستوطنات الدائمة، فهناك موقع على صغاف الفرات في سورية بُنيت فيه المستوطنات الدائمة قبل أن يبدأ الإنسان في ممارسة الزراعة المبكرة أو تربية الحيوانات، ولقد باثت الخطوة الأولى تجاه الزراعة تُعد أكبر تمبير حدث في أساليب البشر المعيشية نحو عام ٩٠٠٠ ق.م.

وتتراكم الشواهد حول المراحل الأولى لهذا التطور بشكل سريع من المواقع المكتشفة حديثاً في فلسطين وسورية، وفي مواقع ومناطق واقعة شمال وجنوب جبال طوروس، وعلى طول الجانب الغربي لزاغروس، ولقد نمت أنواع مختلفة من النباتات التي أصبحت في أشكالها المدججة من الأغذية الأساسية في العالم العربي في هذه الأيام، وأهم هذه النباتات وحبيرة خاصة القمح البري والشعير البري والبقول المختلفة، وقد كانت الأغنام البرية والماعز تتجول في تلك المنطقة نفسها، وبالتدريج بدأ الناس القاطنون على سفوح الجبال في ممارسة زراعة النباتات المفدية، ولا تزال الأنواع البرية الأصلية للقمح والشعير تنمو في بعض الأجزاء النائية من سفوح التلال، ولقد استطاع علماء الوراثة النباتية تتبع التغيرات ابتداءً من الأشكال البرية إلى الأشكال المعروفة التي وجدت في المواقع المكتشفة.

ولقد وصل تدجين الأغنام البرية والماعز مرحلة مرموقة في نفس تلك الفترة مع أنها لم تكن من المجموعة نفسها من الناس، أو مع أنها ربما لم تكن بدعة مماثلة، ومن الممكن أن يكون الصيادون قد تعلموا خلال ألف سنة تنظيم حركات قطعانهم والحيوانات التي اصطادوها، وحصر الحدود التي تتجول فيها تلك الحيوانات، وإن توسيع هذا المجال بشكل عقلائي بقصد وضع قطعان المواشي تحت المراقبة سوف يصبح بداية عملية التهجين والانتقاء، وذلك إما بدبها أو إطلاق سراح الحيوانات التي لا يمكن صيبتها لتذهب إلى البراري، وهنا تنتج فعلاً سلالات مستقرة للحصول على نوع من الحيوانات سهلة القيلة.

ويشار إلى هذه التطورات أي: ضبط المواد الأولية نظراً لأهميتها بأنها ثورة العصر الحجري الحديث، ولكن المصم الزماني يجعل اصطلاح الثورة غير

مناسب، وقد انتشرت هذه التغيرات خلال آلاف السنين ، هذا ولم تستطع عملية رعي المواشي وزراعة الحبوب أن تحل محل المصادر القديمة لإنتاج الطعام خلال عقود أو حتى قرون، والحقيقة أنه ولمدة فترة تقاس بالآلاف السنين بدلاً من مئات السنين، فإن عملية الصيد قد بقيت ذات أهمية مرموقة لأجل زيادة كميات المواد الغذائية.

وتعكس هذه الآثار في الحقيقة التي مفادها أن عملية الصيد بقيت عبارة عن نشاط شعائري مهم يظهر حق الملوك حتى نهاية الإمبراطورية، بينما كانت عملية صيد الأسماك (التي تختلف عن عملية تربية الأسماك) شغلاً من أشكال الصيد التي لا تزال من المصادر الرئيسة للحصول على الطعام.

ومع ذلك فقد أصبح إنتاج الطعام الطريقة السائدة للمعيشة في سموح التلال الملاصقة لآشور، وحالما حدث هذا فقد حدثت حتماً نتائج أبعد تأثيراً، ولشدة التناقض فقد اشتملت هذه النتائج على أمرين متناقضين الاستقرار والهجرة، فمن جهة أولى فقد ربطت الأعمال الزراعية (مع أنها لا تشمل تربية الأغنام والماعز) الأفراد المختصين لخدمة مساحة خاصة من الأرض، وكنتيجة لذلك تمت المستوطنات الدائمة - بشكل قري وبعدها مدن- ومن جهة أخرى فإن تقنيات التدجين الجديدة كانت تعني أن لا ينحصر الإنسان في موطن معين عند عمله في تربية الأغنام والماعز، إذ من الممكن إطعام هذه المواشي وتربيتها في أي مكان مناسب، حيث يوجد الشغل المناسب.

وكذلك فإن معاصيل الذرة من الممكن إمرارها بعيداً عن المستوطنة الأصلية حيث توجد التربة مع كميات من المطر كافية، وهكذا لم يعد الناس مرتبطين بنوع خاص من الأراضي والمناطق، فأصبح استعمار السهول الآشورية ممكناً، وهكذا نشأت في هذه الطريقة أولى القرى في تلك المنطقة.

ولقد كانت لهذه التغيرات نتائج مرموقة على كل من المسكن البشر وعلى المؤسسات البشرية الاجتماعية، فقد أصبح الإنسان والحالة هذه قادراً على توسيع مدى نفوذه لاسيما بعد تطوير أدوات الري، فأصبحت منطقة معينة من الأرض

قادرة على إعالة أعداد أكثر من البشر بعد إعطاء القدرة لعدد أكبر من السكان على استثمار مناطق كاملة من المستوطنات، وهكذا عند ازدياد عدد السكان في مستوطنات بعينها توجب إيجاد مؤسسات اجتماعية قادرة، بهما أصبحت زيادة عدد المستوطنات قادرة على جلب نوع من البنى التحتية، وعلى تطبيق قواعد السلوك عند هؤلاء، وذلك بقصد تقليل عدد الخصومات.

وعندما امتلكت العائلات أو المستوطنات المولفة من مجموعات من العائلات مخازن القمح وقطعان المواشي فقد أصبح من الواجب أن يستطيعوا حماية أنفسهم ضد المجموعات الأخرى من البشر الذين كانت تمرهم تلك المزارع والقطعان، وكان هؤلاء ينظرون بأعين هارغة حائرة إلى تلك الممتلكات، وهذا ما أدى إلى ظهور المؤسسات الاجتماعية للدفاع والحرب، وبهذا نجد أن تهجين النباتات والحيوانات قد عدل وأملأ أشكالا في المجتمعات الأولى.

وتبع ذلك تمييزات أخرى، فقد دعت الحاجة عندها لاستخدام الأدوات والأواني لغير الفائض من الطعام، وكان هناك عدة مواد متواجدة تحت الطلب ابتداء من الحجارة التي كان من الممكن اقتلاعها حتى القصب المجذول، ولكن سوف تظهر مادة مناسبة بشكل أكثر لتستعمل بشكل عام حالما يتم اكتشاف الحقيقة التي معادها أن العضار إذا تعرض للنار فإنه يصبح قاسياً ضد الماء وأطول دواماً، هذا وقد استعمل الإنسان النار منذ عهد بعيد قبل وقت طويل من تدجين مواد الطعام والحيوانات، ولكننا لا نعلم متى حدث استعمال النار في صنع الفخار، فمن المحتمل أن ذلك الاكتشاف قد حدث من خلال احتراق القصب أو حاويات القصب من السلال المبطنة بالفضار، وهكذا بدأ عصر الفخار بهذه الطريقة.

ولقد تبع ذلك عدة نتائج، فقد أدت الحاجة إلى وجود نار حامية من الممكن السيطرة عليها، والتي تنتج درجات حرارة عالية وذلك لإنتاج الأواني الفخارية الجيدة، أدى ذلك إلى تطوير صنع المواد القادرة على إنتاج حرارة هائلة، وهذا ما

أعطى الوسيلة التي استطاعت بها الأجيال القادمة القدرة على صهر المواد المعدنية الخام.

وتأتي الشواهد الأولى على هذه التطورات في منطقتنا من مواقع راوي وتشيمي وشانيدار، فالموقع الأول على بعد ١٥ ميلاً إلى الشمال الشرقي من أنقرة ، وعلى بعد نحو ثلاثين ميلاً من مهل الموصل قد حدد تاريخه عن طريق تحليل الكربون بواسطة الأشعة السينية بحوالي (٩٠٠٠) عام ق. م، وكانت المساكن هناك عبارة عن أكواخ دائرية بُنيت جدرانها من جلاميد النهر، وتظهر الأدوات الحجرية أن بعض المنوجات النباتية قد روعت لاستعمالها كطعام، مع أننا في الوقت الحاضر ليس لنا أي وسيلة لمعرفة فيما إذا كانت هذه المنوجات من الحبوب أو حبوب البلوط أو الجوز أو المكسرات الأخرى المتوفرة في تلك المنطقة

وأما الصيد فلا يزال المصدر الرئيس للحصول على الطعام مع أن هناك بقايا الأغنام وعظامها تدل على ترويض الأغنام مما يظهر أن تربية الماشية قد بدأت.

وأما (شانا دار) قرب رواندوز فهو عبارة عن كهف يعود إلى نفس فترة زاوي تشيمي، وهناك إمكان اتصال هذين الموقعين وذلك لأن شانيدار من الممكن أن تكون المبدأ الشتوي للأشخاص الذين كانوا يقضون الصيف في زاوي تشيمي، وهذا الموقع مهم بالنسبة لما تكونه بمطينا فكرة عن الاتصالات العائدة، وقد وجد هناك على السطح وهو صخر بركاني زحاجي قاسي حذاب يستعمل في عمل أدوات الرية، ولما لم تكن هناك أي مصدر للحصول على ذلك الحجر أقرب من منطقة بحيرة فان الواقعة على بعد أكثر من مئة ميل إلى الشمال فوق أراضي جبلية صعبة لذلك فلا مانع من وجود نوع من التجارة والصلات التجارية فيما بين هذه المناطق.

نستطيع تتبع عمليات التطور في ضبط مواد الطعام من مواقع تعود إلى فترات متأخرة، ففي الحافة الشمالية لآشور عند جازمو إلى الشمال الشرقي من كركوك كان هناك مستوطنة تبلغ مساحتها من ثلاثة إلى أربعة فدادين قد احتلها الآشوريون ابتداءً من ٧٠٠٠ سنة ق.م فصاعداً، ويميل علماء الآثار لأن

يَكُونُوا أَكْثَرَ كَرَمًا بِالنَّمْبَةِ إِلَى الرَّمْنِ وَهُمْ يَفْكَرُونَ أَنَّ هَذَا الرَّمْنَ قَصِيرٌ بَعْدَ
بَدَايَةِ عَصْرِ الزَّرْعَةِ ، وَلَكِنْ عَلَيْنَا أَنْ نَلْحِظَ أَنَّ فِتْرَةَ هَذَا التَّطَوُّرِ قَدْ دَامَتْ مَدَّةً
تَقْرِبُ مِنْ مَدَّةِ عَصْرِ الْمَسِيحِ حَتَّى يَوْمًا هَذَا ، وَقَدْ كَانَتْ جَارِمُو قَرْيَةِ صَفِيرَةٍ تَحْتَوِي
عَلَى عَشْرِينَ بَيْتًا أَوْ مَا يَقَارِبُ ذَلِكَ وَبِهَا مِنَ السَّكَّانِ مَا يَقْدَرُ بِمِئَةِ أَوْ خَمْسِينَ
نَسْمَةً ، وَقَدْ رِيعَ هُنَاكَ بَوَاعُنُ مِنَ الثَّمَعِ (يَمْرَهَانُ بِالْأَمِيرِ وَالْإِبْنِ كُكُورُنَ) وَنَوْعٌ مِنَ
الشَّعِيرِ وَقَدْ دَلَّتْ بَعْضُ الشُّوَاهِدِ عَلَى وَجُودِ مَاعِزٍ مَدْحَنٍ وَخَزَائِرٍ وَكَلَابٍ فِي
جَارِمُو ، وَلَكِنْ مِنَ الْعَرَاةِ عَدَمُ وَجُودِ أَعْنَامٍ مَدْجَمَةٍ وَذَلِكَ بِشُّوَاهِدٍ مِنْ زَاوِي
تَشِيمِي ، وَلَوْ كَانَ عَدَمُ وَجُودِ هَذِهِ الشُّوَاهِدِ مُجَرَّدَ حَادِثٍ اِسْتَشْكَافٍ فَإِنَّ الْفَارْقَةَ مَعَ
زَاوِي تَطْلُغُ وَجُودَ عِدَّةِ طُفْرَاتٍ هَجَائِيَّةٍ عِنْدَ تَدَجِيحِ أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مَعَ
اِفْتِقَارِ أَهَالِي جَارِمُو لِلْأَغْنَامِ .

أقدم القرى الأولى

وَحَدَّتْ أَقْدَمُ أَنْوَاعِ الْمُسْتَوَلَنَاتِ فِي سَهُولِ أَشُورَ وَسَمِيَتْ بِاسْمِ مَوْقِعِ أُمِ الدِّبَاغِيَّةِ
عَلَى بُعْدِ ١٥ عِيلاً إِلَى الْمَرْبِ مِنَ الْحُدُودِ ، أَوْ مَا يَقَارِبُ ذَلِكَ عَلَى الْحُدُودِ الْجَنُوبِيَّةِ
الْقَاصِيَةِ لِلْمَنْطِقَةِ حَيْثُ مِنَ الْمُمْكِنِ الزَّرْعَةُ بَعْدَ هَطُولِ الْأَمْطَارِ ، وَهُنَاكَ اِحْتِلَافٌ
حَوْلَ مَا إِذَا كَانَتْ هَذِهِ مَحْنُوطَةٌ زَرَّاعِيَّةً ، فَهُنَاكَ بَقَايَا بُيُوتٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا
الْمَوْقِعَ كَانَ مَسْكُونًا بِاسْتِمْرَارٍ وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ أَوَّلِ الْمَسَةِ إِلَى آخِرِهَا ، وَلَكِنْ
الْمَعْمَرُ الْأَسَاسِيُّ فِي حَيَاةِ مُسْتَوَلَنَاتِ أُمِ الدِّبَاغِيَّةِ كَانَ الصِّيدَ مَعَ وَجُودِ الْهَدَفِ
الرَّئِيسِ وَهُوَ حِمَارُ الْوَحْشِ ، وَهُنَاكَ عِدَّةُ شُّوَاهِدٍ تُشِيرُ إِلَى هَذَا الْاِتِّجَاهِ .

وَتُظْهِرُ الرِّسُومَاتُ الْجِدَارِيَّةُ فِي الْبُيُوتِ مَشَاهِدَ الصِّيدِ وَتَشْمَلُ الْبَنَائِيَّاتُ صَمُوعًا
مِنَ الْقُبُورِ الْمُسْتَعْمَلَةِ لِحَرْنِ الْجُلُودِ (مَعَ أَنَّ هَذَا الْاِسْتِعْمَالُ لَمْ يَنْتِهِ تَمَامًا) وَقَدْ وَجَدَ
نَحْوَ سَبْعِينَ فِي الْمِئَةِ مِنَ عِظَامِ الْحَيَوَانَاتِ فِي الْمَوْقِعِ وَكَانَتْ عِظَامُ حَمَرِ الْوَحْشِ ،
وَمَعْظَمُ الْعِظَامِ الْآخَرَى كَانَتْ عِظَامَ عِزْلَانٍ ، مَعَ أَنَّ هُنَاكَ بَعْضُ عِظَامِ حَيَوَانَاتٍ
مُدْجِئَةٍ

وهناك دلائل على تقنيات الصيد التي كانت تستعمل هناك وهي عبارة عن ألوف من كُرّات من الفخار كانت تستعمل في المقايح ، ولهذا فمن الممكن لذلك أن لا يكون موقع أم الدباغية هو مستوطنة زراعية بل قاعدة للصيد ، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذه من المظنون أنها بُنيت من قِبَل شعب متحرك على سطوح التلال يريدون استثمار الحمر الوحشية التي كانت متواجدة في الجريرة (وظلت حتى استقذنت في القرن العشرين).

ولقد وجدت مواقع لشقاة أم الدباغية إلى الشمال تجاه جبل سمحار ، وما لم نعد أم الدباغية نفسها مستوطنة زراعية ، فإنها إحدى تلك المستوطنات ، وبعد تل سوتو ممثلاً لأقدم مستوطنة زراعية مسكرة في السهول الآشورية مع وجود أول دليل مؤرخ من قبل الحميريات الرومية الذي يعود إلى حوالي عام ٦٠٠ ق.م ، هذا وبعد تل سوتو من المستوطنات (وهي القرى الصغيرة) الحلمية التي تكمن وراء بعض التطورات في أممكة أخرى ، مثل كاهال هوبوك في الأناضول حيث تمت بلدة مساحتها نحو اثنين وثلاثين هكتاراً أو في أريحا في فلسطين.

ولقد سُيِّقت أول مستوطنات معروفة في آشور من قبل بعض القرى في فلسطين التي سبقتها زعباً بمدة ألفي عام أو يزيد ، وكذلك في الأناضول وإيران ، ولكن ربما كان هناك بعض القرى المتقدمة والأقدم عهداً في آشور وهي أقدم من تلك القرى التي ذكرناها ، لأنه من الواجب أن نتذكر أن معلوماتنا محدودة ومعرضة لضغوط من قبل البحوث في علم الآثار ، مثلاً تقع مدينة أربيل في سهل تكسر مياهه ، يمد الآن أفضل منطقة لزراعة الدرة في العراق ، وهو على بعد مسيرة يوم واحد عن المناطق التي يمكن أن توجد فيها حتى الآن الحبوب البرية ، والتي لا تزال نامية هناك ، وإنه لتخمين محقول قولنا: إن أربيل كانت إحدى أقدم المستوطنات الزراعية الدائمة ، ولكن أربيل كانت مدينة ناحية جداً بحيث تعرضت للاحتلال باستمرار منذ نشوئها.

وهذا ما أنتج وجود روابي أو تلال كبيرة ضخمة (لا تزال مسكونة) وكانت المسافة عميقة من قمة التلة حتى الأرض البكر بحيث أصبح من المستحيل إحراء

أي حمريات من مستويات باكرة، وعادة ما يسمي علماء الآثار بعض التجمعات (إذا جاز لنا أن نستعمل هذه الكلمة أو الرطانة التي يفضل علماء الآثار استعمالها عندما يعنون المرحلة الثقافية) باسم ذلك الموقع الذي ثبتت معرفته لأول مرة، ولكن هذا العمل الملائم ربما كان مضللاً للرجل العادي نظراً لأنه يشجع الانطباع بأن تلك المرحلة الثقافية كان لها ارتباط وثيق مع الموقع الأول الذي سُميت باسمه، ولكن غالباً ما أصبح حامل الاسم عبارة عن مستوطنة صغرى واقعة خلال منطقة صغيرة جداً، وهكذا حالما يستمر بحث الآن بالإشارة إلى مراحل ثقافة (تل حسونة وتل حلف) فلا يبيح أن نمكر بها وبمدها أول المنطوريين بالنسبة للمواقع التي تحمل تلك الأسماء.

تل حسونة

بعد تلك البدايات المثلثة بتل سوتو، فإن أول نموذج رئيسي للمستوطنات الزراعية المعروفة في السهول الآشورية هي ما تدعى (بالحسونة) وهذا الاسم مأخوذ من اسم تلة ترابية صغيرة واقعة على بعد اثنين وعشرين ميلاً جنوب الموصل، ولقد أظهرت الحفريات بعض المراحل الثقافية التي تعود في تاريخها في الوقت الحاضر إلى بضعة قرون واقعة بعد عام ٦٠٠ ق.م. وقد حدثت تلك الحمريات في الجزيرة إلى الشرق من أربيل.

وفي مجمع حسونة كانت الزراعة بالتأكيد من النشاطات الرئيسية حيث وجدت أشكال من الشمير وعدة أنواع من القمح، ولقد وجدت عدة أدوات مطبخية نموذجية في حسونة تشير أيضاً إلى استعمال الحبوب على مقياس واسع، فقد وجد نوع غريب من الصحن المسطحة ذات سطوح داخلية مثقبة وكانت تستعمل لمصل الحبوب عن الحسك، وقد كان وجود الحيوانات المدججة التي ظهرت عظامها والتي برهنت على وجود الأغنام والماعز والحنازير والأبقار، وإن وجود فلصكات المفزل تشير إلى وجود إنتاج الأقمشة، ويشار إلى التجارة في مسافات طويلة بوجود حجارة الأولسيديان وبعض الأحجار الكريمة الثمينة، ولما كان أقرب مصدر

لبعض هذه المواد يبعد نحو مئتي ميل بعداً عن الجبال، وسواء كانت هذه المواد قد حملها التجار المسافرون أو أنها انتقلت من مستوطنة إلى مستوطنة، إلا أن ليس لدينا أي واسطة لمعرفة ذلك، هذا وإن الاتصالات مع أي من هذه الأنواع ربما أسهمت في انتشار معرفة التكنولوجيا، مثلاً الإنتاج الزراعي أو وسائل البناء، وأعمال الري ومنع النحاس، ولقد وصل صبح النحاس إلى حصونة ومستوطناتها من أقصى الشمال.

وبحسب معرفتنا في الوقت الحاضر فإن أول استعمال للنحاس الذي كان يُطرق وهو بارد ويؤخذ من النحاس الوطني لمعمل الأدوات الصغيرة، وحدث ذلك هيماً بين عام ٧٥٠٠ و ٦٥٠٠ قم في سايبو قرب ديار بكر، في جنوب شرقي تركيا وهذه كانت قريبة من السهول الآشورية ومن المصادر الآشورية للنحاس، ولقد حدثت عملية صهر النحاس من خاماته في كماتال هويوك الواقعة في أقصى غرب تركيا وربما كان ذلك بعد نحو ألف عام، فقد عرف استعمال النحاس بما فيه صهره مع أن ذلك كان على مقياس ضيق، وكان ذلك في أحد مواقع حصونة.

ولما لم يكن هناك أي مصدر من مصادر خامات النحاس في أي مكان قرب الموقع المشار إليه، فإنه من الواجب أن تكون آشور قد حالت نصب السبق بالنسبة للتقدم إلى العصر المعدني، وذلك بالاتصال مع الشعوب الواقعة في أقصى الشمال في سفوح تلال طوروس.

لا نعلم إلا القليل عن مجتمع حصونة ولكن هناك أمراً نقوله بكل ثقة وهو: إن بيوتهم الاجتماعية كانت مرسية على العائلة، وقد استنتجنا ذلك من كون بيوتهم عبارة عن مساكن صغيرة معقدة ولم تكن بنايات جماعية، ونحن نعلم أيضاً أنهم كانوا ملتزمين بالملكية الخاصة، نظراً لأنهم كانوا يستعملون احتاماً كان المقصد الأساسي منها تحويل الملكية

وكانت مستوطنات حصونة محددة في المناطق ذات الطول الكافي للأمطار اللازمة لنمو الحبوب، ومع ذلك فكان هناك في الجنوب، حيث لم يكن هطول المطر كافياً، أقوام آخرون قد طوروا أساليب بدائية للري وتدعى هذه المجموعات

باسم سامراء، ويختلف علماء طبقات الأرض فيما إذا كان هذا الاسم متميزاً عن حصونة أم لم يكن، وإلى أحد هذه المواقع الذي حُدد تاريخه عن طريق فحص الكربون بالإشعة السينية (أوالتحديد الزمني) حكما يحلو لعلماء الآثار أن يسموه عندما يسمعون للمرء أن يمتصرس بأنهم أصبحوا يقدمون تاريخاً مطلقاً) حُدد تاريخه بحوالي ٥٥٠٠ ق م بالنسبة لأقدم مرحلة، وبعد ذلك حدثت تطورات معتبرة هنا أصبحت إحدى المستوطنات السامرية ذات اتساع كبير بحيث جاز لنا أن ندعوها بلدة صغيرة.

ثل حَلَف

لقد طُفئ على مجموعات حصونة المحصورة في شمال العراق نوع من الثقافة الأخرى والتي انتشرت وعرفت باسم حلف، وكان انتشار حلف واسعاً ليس جغرافياً بحسب بل رمزياً أيضاً، إذ إنه عطى نحو ألف عام تقريباً ابتداء من منتصف الألف السادس فصاعداً.

ويقسم علماء الآثار هذه الثقافة إلى ثقافة مبكرة وثقافة متوسطة وثقافة متأخرة حلمية، ويشيرون إلى تطورات مرموقة حدثت بين ثقافة وأخرى، وكان لهذا الوضع علاقة بأغراضها الحالية، فهو يدل أن ثقافة حلف لم تكن مجلوبة بشكل حاصر من أي مكان آخر بل إن المستوطنين تنووا بالتدريج وببوا طريقة حياتهم بأنفسهم بشكل ميداني، ولقد ثبت هذا الاعتقاد وهو أن مستوطنات حلف لم تكن وليدة حصونة أو سامراء، وذلك لوجود الفروق الظاهرة في أساليب صنع المعمار، وهناك شواهد إضافية تدل على أصول ثقافة حلف المستقلة، وهي وجود الظواهر المعمارية التي تبين أن أسس حلف كانت ذات أشكال تشبه حلقة النحل مرتكزة على أسس حجرية، ولم يكن هذا الشكل مرموقاً في أي ثقافة أخرى قبل التاريخ، ولكن فائدة هذه الأبنية غير معروفة وغير أكيدة، مع أن بعض العلماء يفسرونها بأنها نوع من الأصراحة، ولكن ومهما كان عملها أو غايتها،

هذه براعتها تظهر أن شعب حلف الأولئك كانوا من القادمين الجدد إلى آشور،
وتنبؤاً لهذا القول وجود بعض مستوطنات حلقية على أرض بكر.

إن أول موقع حلفي معروف في آشور هو الأرياشية على مشارف نينوى القديمة،
وهي الآن جزء من الموصل الشرقية، ولكن هذه المجموعات ككل بدأ انتشارها
تقريباً من مرمين في كلبيكية عبر موزية وآشور حتى حوالي السلطمانية في
كردستان شمالاً إلى ديار بكر وبحيرة فان، وهناك تفسير ممكن لهذا التوسع
هو أنه كان يعكس نجاحاً زراعياً وزيادة في عدد السكان، نظراً لأن كل
ظاهرة وجود أرض زراعية حصية واقعة حول مستوطنة بعينها قد فسرت بكونها
ناجئة عن ارتفاع عدد السكان، وهكذا كان أولئك الذين لا يملكون أرضاً
يرحلون ليؤسسوا مستوطنات جديدة في أمكة أخرى، وأصبح المستوطنون في
السهول الآشورية جزءاً من المجموعات المترابطة من الشعب، ولكن هذه المفكرة
لا تزال مجرد تخمين ولم تثبت بعد كحقيقة، أي من الممكن أن تكون الثقافة
المشتركة الواسعة الانتشار بدلاً من ذلك قصة روابط تجارية واقعة فوق هذه
المساحة المرموقة من الأرض.

هناك بعض المظاهر في المستوطنات المتأخرة في حلف تعكس تحسناً متميزاً
في نوعية الحياة، مثلاً أصبحت الأواني المصنوعة من الحجر ذات جمال لا بأس به،
ووجد هناك حُجُب سعيرية ولوحات مزخرفة وخرق مفضرة من الحجارة، وكانت
الأعمال النحاسية متطورة، وكان في الأرياشية شبكة من الشوارع المرسومة
بالحجارة، وذلك خدمة للسكان في الطقس الماطر حيث يكسر البزل بالماء،
وكان فيها ورشة لعمل الأدوات المصنوعة مما يدل على تطور الصناعة والتخصص،
ويطس بعض العلماء أنه كان في الأرياشية صانعو فخار متخصصون يصنعون
البصائع المبروزة للقرى القريبة من نينوى، وتبقى هذه المفكرة مجرد تخمين في
الوقت الحاضر دون وجود أي شاهد لتأييدها، ولكن هناك بالتأكيد إمكان
وجود مدن كبيرة قرب نينوى وفي أمكة أخرى (ربما أزييل) خلال عصر حلف.

نقد لاحظنا وجود التجارة إلى جانب الزراعة الناجحة وكونها عاملاً معيئاً في ازدياد ازدهار حلف، وربما كانت العلاقات التجارية لشعب حلف راجمة إلى الزمن الواقع قبل وصول هذا الشعب إلى آشور، وهناك اقتراح مفاده أن المنطقة التي أتى منها مستوطنو حلف كانت واقعة بين السهول الآشورية وبحيرة هان، وأنه كان هذا الشعب يمارس التجارة في أوبسديان حيث كان هناك مصدر للتجارة إلى العرب من بحيرة هان.

وإذا اعتبرنا هذه المرجعية فإن شعب حلف الذي استقر في سهول آشور كان من الممكن أن يحتفظ بعلاقاته التجارية مع المناطق الشمالية وبهذا يحصلون على الثروة كوسطاء في تجارة أوبسديان، وهناك عامل آخر تسبب في ثراء حلف وهو التجارة بالمسوجات ويظهر هذا الرأي من وجود بعض نواح باردة في الأواني الصغرية من الممكن أنها قد نُقلت عن المسوجات. فإذا كانت المسوجات حقاً جزءاً مرموقاً من تجارة حلف فإن هذا ربما أثر على أساليب الحياة بشكل دائم في تلك المنطقة، وأسهم في زيادة أهمية تجارة المسوجات في آشور فيما بعد.

ولكن ما هي أهمية هذه المراحل الثقافية في ما أصبح فيما بعد يعرف باسم آشور، إذ إنه من الصعب أن ندعو وبعد شعوب أم الدجبية وحسونة وحلف أنهم هم الآشوريون الأوائل، ولكن ومن جهة أخرى فإنه من الصعب أيضاً أن نطرح بأن هذه الشعوب قد انحلت أو دابت من على وجه الأرض ولم تترك أي أثر من الحلف أو التراث الثقافي. وهكذا يبقى الاحتمال الذي مفاده أن هؤلاء المستوطنين الأوائل كانوا بالإضافة إلى كثير من الطوائف التي أسهمت في خلق الآشوريين فيما بعد (مهما كان الزمن بعيداً) وأن بعض مظاهر الحياة التي قدموها قد استمرت.

عييد

لقد بدأ نوع جديد من الفخر في الظهور في آشور بعد حلف وقد انتشر هذا النوع في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط.

إنني متين بالاعتذار السريع لأنني بدأت بموضوع جديد بالحديث حول المعمار بدلاً من الحديث عن الشعب والناس. ولكن مهما ظهرت القطع الفخارية بشكل ممل، إلا أننا يجب أن نستعمل الشواهد الفخارية لأنها تمثل علامة تفسر وجود مجموعات ثقافية خاصة. وإن الثقافة الجديدة (أو المجموعات) التي تتميز بوجود نوع جديد من الفخار تدعى ثقافة عبيد ولا شك أن كلا المعمار والثقافة المرافقة تطورت في أول الأمر في جنوب العراق في اقتصاد مراهق للري. وأن عدد وحجم مجموعات التلال التي تدل على وجود مستوطنات قديمة تظهر وجود ريادة لا بأس بها في عدد سكان جنوب العراق، وذلك بسبب الهجرة من جهة، ومن جهة أخرى الزيادة الطبيعية في عدد السكان الأصليين نتيجة لازدهار الزراعة التي أصبحت ممكنة عن طريق أدوات الري العمالة

ولقد انتشرت ثقافة عبيد التي كان المعمار عاملاً في وجودها انتشاراً واسعاً ابتداء من الخليج الفارسي إلى سورية ولا يمكننا القول بالتأكيد إن ذلك قد حدث بسبب الانتشار الثقافي أو أنه قد ترافق مع الهجرات الحقيقية، مع أن ريادة المعمار في حلف وعبيد في بعض المواقع يصوب الرأي الأخير

من كان شعب عبيد ياترى؟ إن هذا سؤال خلاف جدلي. ففي جنوب العراق وجدوا حلقة واحدة في سلسلة المراحل الثقافية تدعى أحياناً أريثور أو حاجي محمد أو عبيد، أو أوروك أو جمعت نصر مع أن الميول المتداولة بين علماء الآثار اعتبار الاسمين الأولين من هذه الأسماء هما الأسماء أو الوجوه الأولى لعبيد، وأن جمعت نصر هي آخر وجه من وجوه أوروك، وقد استعملنا هذا الاصطلاح البسيط هما إذ إن فترة أوروك متصلة بالسومريين في الأرملة التاريخية، وفي هذه الفترة نجد بعض البدع المؤثرة مثل نشوء المدن أو فن المعمار التديفكاري. ومع ذلك يواجهنا الآن الحيرة الأعوس من المعضلة، فهل كانت ثقافة أوروك نتيجة لقدم (أو إصرار) في اظهار النفس) السومريين الذين يمثلون مجموعة عرقية جديدة ذات ميول جديدة، أو هل هي تمثل همزة موعية إلى الأمام تمثل تطوراً مستمراً. ففي الحالة الأخيرة فإن شعوب

المراحل المتتالية في جنوب العراق وعبيد في جميع مراحلها من الممكن أن نعدّها من الشعوب السومرية الأصلية أو الأولى

وإن زيادة السكان المرتبطة بعبيد تقدم لنا إمكان دخول نفوذ جماعة عرقية جديدة حتى في الحالة الأخيرة. ويبدو أنه من المؤكد أن هناك لغة غير لغة السومريين التي كانت سائدة في بداية الألف الثالثة وكانت معروفة هناك قبل عام ٢٥٠٠ ق.م، وذلك من أسماء الأمكنة التي ظلت باقية في جنوب العراق. وهذا يشير إلى أن السومريين كانوا فعلاً قادمين حديثاً خلال الألف الرابع أو أنه على الأقل كانوا مجموعة متميزة بدأت تستقل بموعداها الثقافي، وجعلت هذا السود معروفاً. بهذا، ولأن هناك شواهد ملموسة تزيد وجهة النظر التي مفادها أن مجموعة عرقية حاضرة قد لعبت دوراً مرموقاً في خلق ما يدعى بالثقافة السومرية، مع أن هذا الرأي لا يوافق عليه علماء الآثار الشباب الذين عدوا هذا الرأي شوكة في حلوقهم، وعدوا أنه من الظلم اعتبار تفوق أي مجموعة عرقية على أخرى.

فهل كان العبيديون سومريين أصليين أم لم يكونوا؟ فقد كان وصولهم الطارئ إلى السهول الآشورية (أو بدلاً من ذلك انتشار نموذجهم الثقافي) قد جلب تطورات مهمة وخصوصاً في التجارة. هذا وإن اجتماع ثقافة حلف قد رافقه الانهيار في شبكة تجارتهم التي كانت واسعة الانتشار وربما كانت هذه التجارة سبباً لهذا الانهيار. ولكن الاتصالات التجارية الواسعة التي مهزت نموذج الحياة الذي خلق على أشور فيما بعد، ولخصه تطور مرة ثانية في فترة عبيد الأخيرة. وهذا كان يشمل الروابط مع شمال سورية بالنسبة للعشب وفي المناطق الجبلية بالنسبة للنحاس الذي بدأ يلعب دوراً هاماً بعد أن تطورت تقنيات صب النحاس وسكبه في قوالبه وإن اعتماد أهاليها ما بين النهرين على هذه المواد الخام المطلوبة من تلك المناطق. أصبحت فيما بعد العامل المهم في استراتيجية أشور الاقتصادية والعسكرية في المستقبل.

فجر التاريخ

لم تكن التطورات خلال بلاد آشور خلال فترات عبيد وما تلاها أي بين عام ٤٥٠٠ وعام ٢٥٠٠ ق م واضحة بالقدر الذي نتمناه. إذ إن ريادة حجم وكثرة المواد الماصرة الآتية من أقصى الجنوب قد أبرزت هذه الحقيقة وهي جنوب العراق تُظهر الممرات التالية للعبدية المعروفة أثرياً باسم أوروك والسلالات الملكية الأولى، تظهر تطورات جديدة من نوع رائع ملقت للنظر وهما تقابل بداية تلك المجتمعات المتقدمة التي ندعوها المدن ذات السلايات الصعبة للهياكل والاحتصانات الفائقة التطور والعتكالية، أي جميع النواحي البارزة والمعالم المرافقة للسمومريين. وسرعان ما بدأت هذه التطورات بالتأثير على أمصكة واقعة في خارج جنوب العراق. مثلاً في موقع يدعى حبويه الكبير الواقعة على الفرات في سورية وهناك حرائب مدينة رئيسة عاشت قبل عام ٢٠٠٠ ق م وهي تظهر روابط لا يتطرق إليها الشك مع فترة أوروك في جنوب العراق. ولقد انتشرت تطورات أوروك والسلالات القديمة في أعالي نهر دجلة مع أن تأثيراتها لم تظهر في آشور مدة عدة قرون، وبسبب هذا التعلف أو التأخر الزمني عليها أن ينتبه عند إعادة تدبير لتنا، وليس لدينا ما يبرر ملء شواهدنا القليلة النادرة حول آشور خلال هذا الزمن بأخذها من المعلومات الواهية التي تشمل في حوالى نهاية هذه الفترة والوثائق المكتوبة التي لدينا والمختصة بسمور

ومع ذلك يمكننا رؤية بعض تلك الاتجاهات التي كانت تطور بها الأشياء في آشور خلال هذين الألفين من السنين. فقد أصبحت المستوطنات أكبر حجماً، لتصبح مدناً حقيقية وبمصنعا ككل معاطاً بالأسوار لحمايتها والاستنتاج الواضح كان خطر تمرص هذه المدن للهجوم المركز من الخارج الذي أظهر أن الحرب أصبحت من معالم الحياة، وكان لهذه الملاحظات تأثير على البنى الاجتماعية فقد كانت عمليات تحصين المدن تشمل التخطيط الاستراتيجي والتكتيكي، وهذا يلزم ظهور رعماء الحروب القادرين على القيام بمهام القيادة الناجحة، وكل شيء ضروري في مصطلحات التنظيم الاجتماعي وترتيب الطبقات الاجتماعية. ولقد وجد

أحد الأحتام من تلك الفترة وهو يصور أحد مظاهر الحرب، أي: مثلاً صف من الأسرى، وإن الاستيلاء على الأسرى في الحرب يمثل بداية مؤسسة المييد والعبودية، مع وجود مجموعة اجتماعية معرومة من الحقوق، وإن تفسيرات هذا الختم لا يتطرق إليها الشك، ومع ذلك فهناك دلالات أخرى عن تطور الاختلافات الطبقية. وهكذا بدأت الأبيات المخصصة للعبادة تظهر وكان بعضها يؤلف مساحكن تحصى أقلية من الناس ذات ثروات أو قوى سياسية أو كليهما، وكانت القبور تقدم صورة مشابهة نظراً لأن هالة من هذه القبور كانت تحتوي مدافن فخمة لم تكن متوفرة للكثيرين.

ولكن التطور في ساء الأبيية الدينية غالباً ما يدل على تطور في المجتمع ككل. وهكذا فإننا نرى في معظم المواقع الآشورية خلال تلك الفترة المعابد التي تظهر زيادة متواصلة في الثروات والحجم. وهذا ملاحظ للوضع الذي كان سائداً في سومر المعاصرة. فهناك ظهرت أبنية المعابد المظفة للنظر بحيث أصبحت هذه في أواخر الألف الرابع النفاط الرئيسية التي تدل على الحياة الاقتصادية فضلاً عن الحياة الدينية. ولكن رغم هذه التفاضات العامة، كان هناك بعض الأمكنة داخل منطقة آشور حيث كان للتمود السومري تأثيره في بناء المعابد، وهناك اثنان من هؤلاء وجدت في تل باري في أعالي الحابور وتيب جاورا إلى الشمال الشرقي من بينوى، فضلاً عن سلسلة من المعابد الرائعة التي تشبه مثيلاتها في الجنوب شهباً تماماً وفي الواقع أنها قد تأثرت بهؤلاء ولكن يبقى ذلك ضعفاً شاداً، وعلى العموم كانت المعابد خلال هذه الفترة أقل بهاءً من القلاع، وهناك تفسيران لهذه الظاهرة أحدهما أن الرعاء العلمانيين كانت لهم المفرة الأرفع في المجتمع تصوق منرفة الكهنة، والتفسير الثاني هو أن رعاء الشؤون العلمانية هم نفس رعاء الكهنة، وأن رجال الطبقة الحاكمة قد استعملوا الأبيية العلمانية مراكز للإدارات الاجتماعية والاقتصادية، ولذلك لم يكن هناك من حاضر لنمو فكرة أبنية المعابد البارزة اللافتة للناس.

ولقد استمر تطوير التجارة، ويظهر هذا بوجود الأشياء المستوردة في القبور مثل الودع الآتي من المحيط الهندي، أو الأشياء المصنوعة من المواد المستوردة مثل العقيق الأحمر وحجر الجعشمت أو اللازورد ومصدر الأخير هو أفغانستان. وهناك شاهد آخر على تقدم التجارة، إذ تظهر الأختام من فترة أوروك ومن تيب جلورا صلات الود والمحبة مع أولئك السحكان من مستوطنتي معاصرتين في إيران، وقد قيل إن هذا يعني ويدل على تعود متبادل. ولما كان العرص الرئيسي من الأختام هو وضع علامات على البضائع، فيصبح هذا دلالة قوية على سمر التجار من آشور إلى إيران. ويزيد هذا الرأي أن تيب جلورا قد انحطت وتناحرت أهميتها في أواخر عصر أوروك مع حدوث توقف في العمل في إحدى المواقع الإيرانية المذكورة، وهي جيان ويمكن أن نمزو كلا هاتين الحقيقتين إلى توقف الطريق التجارية التي كانت قد تسببت بازدياد أهمية هذين السحكين.

وتشير الشواهد من تل براك أنه قد أضيف إلى المعبد بعض النحاتين وصانفي الذهب، وهذا يدل على أنه قد بدأت في آشور مبادئ منتشرة للتخصصات المهنية، ومع ذلك ينبغي علينا الحيلة في استنتاجاتنا من هذه الشواهد نظراً لأن تل براك كانت خاصة لتفود الجيوب السومري فلم يكن من الضروري أن يكون هذا منطبقاً على بقية آشور، ولكي نرى كيف حدثت المرحلة التالية من التطور في آشور هائسا نحتاج لدراسة حلامسة مقتضية للحوادث في جنوب العراق خلال النصف الأول من الألف الثالث ق. م

التطورات في سومر

بعد ظهور المدن ظهر في سومر وبمحاذاة الفرات وإلى حد ما بمحاذاة دبالا عند من أول المدن، كانت مستقلة ولكنها متصلة ببعضها اتصالاً وثيقاً، وظهرت سلالات وراثية ولكي الدول العنية والقوية مثل كيش وأوروك بدأت تمارس بعض أشكال الحكم على الآخرين، واتخذ أولئك الحكام لقب الملوك (ومعناها

الحربي الرجل العظيم) وإن الرمز الذي علا فيه شأن هذه التنظيمات السياسية يدعى فترة السلالات الأولى (مع تقسيمات ثانوية متعددة)

وفي أثناء فترة السلالات الأولى ظهر بعض الأقبوام الذين أثبتوا وجودهم بالتدريج إلى جانب السومريين، ولكنهم كانوا من عناصر ثقافية أجنبية أخرى، وكانت هذه هي المجموعة الناطقة باللغات السامية هم الذين نعرفهم باسم الأكاديين، وكان أصلهم وموطنهم في الصحراء السورية إلى الغرب من منطقة ما بين النهرين، وقد وصلوا بعد عمليات طويلة من الهجرة (وربما بدأوا من فترة سابقة لعهد السومريين) فلم يبدؤوا بفرو حربي معان

أسرة أكاد

في أوائل القرن الرابع والعشرين ق. م استطاع أحد أولئك الأكاديين المعروف باسم سرجون الذي كان يعمل أولاً في خدمة أحد ملوك السلالة الرابعة في كيش، استطاع أن يحصل على الاستقلال، وبسبب لسمه عاصمة تدعى أكاد وسرعان ما استطاع سرجون أن يوقع الهزيمة في جميع الحكام المحليين، فأصبح ملكاً لجميع أرجاء ما بين النهرين الجنوبية، ويمكننا أن نحدد تاريخ حكمه ما بين (٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق.م) مع أن بعض العلماء الآخرين بحالهم التقدير بعدة عقود على أساس اختلاف التقديرات والحسابات.

وإن أهمية كل ذلك بالنسبة لآشور هي أن سرجون أظهر نفسه كأول رجل امبريالي، فقد قام بآخر ملوك السلالات السومرية بهجوم على مناطق أعالي المرات وربما وصل إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، إلا أن سرجون تابع ذلك التوسع بقيامه بحملات واسعة عبر سورية حتى البحر الأبيض المتوسط وجبال أمانوس وربما فيما وراء تلك الجبال، حتى اجتاز أعماق آسيا الصغرى، ولكنه لم يكتف بذلك بل هاجم واستولى على منطقة أخرى تدعى سوبارو وكان هذا يعني الأراضي الشمالية إلى الشرق من سورية حيث كان الجبر الأوسط منها هو ما يدعى آشور

وهكذا أصبحت آشور جزءاً من إمبراطورية أكداد ، ولقد استنتجنا هذه
المقولة من نقش وجد على رأس رمح من النحاس اكتشف في المدينة يمس على ما
يلبي

((مانشتوسو ، ملك كيكش. أزورو خلدته صنع هذا الإهداء إلى الإله))

وكان ما بشتوسو هو حميد مرجون والحاكم الثالث في تلك السلالة وكان
لقبه ملك كيكش يدل على كلمة إمبراطور ، وكان (أزورو) واحداً من عدة أنواع
تحكم باسم مانشتوسو وتابعة له.

ولقد سيطرت أسرة أكداد على نينوى أيضاً وهي إحدى المدن الرئيسية في
آشور ، ونعلم هذا من قناع برودي يحص أحد ملوك أكداد ، وهو قد كان
لنينوى صلات خاصة مع مانشتوسو عرفت من نقش يعود إلى ملك متأخر ، وهو
يسجل أن المعبد الذي كان يعبد بناءه هذا الملك قد كان مانشتوسو قد بناه ،
وهكذا وعلى الأقل في حكم مانشتوسو وربما أثناء فترات طويلة من حكم
الإمبراطورية الأكادية ، كانت آشور ونينوى جزءاً من كيان سياسي متكامل
يدل على وضع ربما حدد الخطوة الأولى تجاه إنشاء مملكة موحدة ، وهي مملكة
آشور ، مع وجود هاتين المدينتين كمركزين جنوبي وشمالي من مراكز تلك
القوة

نشوء البلدات والمدن

عدا عن شواهد الارتباط مع الإمبراطورية الأكادية ، لا نعلم إلا القليل
بالضبط عن آشور قبل نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ، مع أن علم الآثار قد ملأ
تلك الصورة مثلاً ، نعلم الآن أن عدداً من البلدات كانت تنشأ في آشور في منتصف
الألف الثالث ق.م ، وقد وجدت إحدى هذه البلدات في تل تاي ، اكتشفت حيراتها
عام ١٩٦٧ م ، وفيما يمد من قبل الدكتور (حوليان ريد) من المتحف البريطاني ،
وكان هذا المركز المزدهر الواقع إلى الجنوب من سلسلة جبال منجار يتألف من
١٢٠ هكتاراً بامتداد كثيف مع وجود منازل من الحجر والطوب ومسور خارجي

وشوارع ثم قلعة في الوسط، ويقدر عدد السكان بعشرة أو خمسة عشر ألف نسمة على الأقل.

ولكن يبقى أمامنا عدد من المشكلات بالنسبة لآشور في الألف الثالث ق.م. ههناك مثلاً السؤال الأساسي حول وجود ذلك الحكيان الذي نستطيع أن ندعوه آشور، وكما رأينا فقد مضت فترة كانت آشور وبنوى تحت حكم أكاد، ولكن هذه العلاقة قد أنت من الحارج ولم تكن وحدة عضوية، إذن متى كان هناك لأول مرة وحدة مستقلة وطنية سياسية مؤسسة من ثلاث مدن رئيسية وهي بيمو وأشور وأرييل؟

إلى أي حد كانت ثقافة تلك البلاد ذات عنصر وطني مميز؟ وإلى أي حد قد استعيرت تلك الثقافة من الجيوب أو (بالطرح) بدانا في تعلمه حول الحضارة المبكرة في سورية) من العرب؟ وماذا كان التركيب العرقي لتلك البلاد؟ وهل كان ذلك التركيب موحداً على صورة واحدة أم كان هناك مناطق متميزة متصلة بهجرات سابقة لجماعات خاصة؟ وما هي اللغة التي كانت مستعملة؟

يمكن الإجابة على بعض هذه الأسئلة بشكل تجريبي وبعضها لا يمكن ذلك أبداً، هذا وإن كثرة الشواهد التصويرية القادمة من الجيوب تجعل جهلنا أسوأ وتريد الطين بلة، ولكن هناك بعض الإشارات التي تقدم إجابات لبعض هذه الأسئلة على الأقل، إذ إن إلقاء نظرة على موقع آشور ربما أعطت بعض الدلالات لمعرفة أي نوع من الناس قد عاشوا هناك، ولماذا كان ذلك، فقد بُنيت على صخرة من الحجر الرملي مشرفة على البصرة الغربية لنهر دجلة، وإن هطول الأمطار لا يخدم إلا بصمة هامشية بالنسبة للزراعة في تلك المنطقة دون اللجوء إلى الري، ونظالما حدث نقصان وقحط في المحاصيل الزراعية، إذ إن الاستنتاج المعقول الوحيد هو أن الشعب الذي استقر في تلك الفترة لأول مرة كان يعمي قاعدة من المعسكر الدهاق عنها، ذات إمدادات دائمة من المياه، وقريبة من المراعي، ولكن هذا الشعب لم يكن مهتماً بالزراعة، وهذا يشير إلى أنهم كانوا رعاة من الجريرة كانوا في حالة منظمة بشكل كاف في مجتمع بحاجة إلى قاعدة رئيسية دائمة،

وأن أول المستوطنين قد أتوا من الجزيرة يظهر من كيون وقوع آشور إلى العرب من
نهر دجلة ، فالمسوطيون يتوقفون عند النقطة حيث يصلون إلى النهر الرئيسي.

وبالمقارنة نجد أن نينوى واقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، إلى أقصى
الشمال على مرأى سموح التلال في طوروس ، وهذا يوحي بأنها قد سكنت في
الأصل من قبل أناس خرجوا من التلال في الجهة الشمالية الشرقية ، ولكن مركز
أربيل يوحي بأصل مشابه ، وأن التقاليد الدينية تبدو بأنها تصل بينى بأربيل
ولكنها تفصلها عن آشور.

وكانت الآلهة التي تترافق مع المعبدين هي الآلهة عشتار ، وقد سكنت عشتار
بينى وعشتار أربيل في مناسبات عدة واعتبرت إلهتين وطنيتين رئيسيتين ، ولكن
الإله المرافق لمدينة آشور كان إلهاً ذكراً يحمل نفس الاسم آشور ، ولا نعلم بعد
كثيراً حول التاريخ المبكر لأي من المنس الثلاثة الرئيسية ، آشور ، ونيوى ،
وأربيل ، مع أن هذه المدن قد تأسست منذ عهد طويل منذ عام (٢٥٠٠ ق.م) وتحتوي
التلال التي تصممهم شواهد مستطع أن تنقص تلك التطورات في آشور لو كان
لدينا النقود والوقت ، ولسوء الحظ فإن أربيل ظلت غير مكتشفة ، ومع أنه قد
حصلت نشاطات أثرية لا بأس بها في آشور ونيوى إلا أن هناك صعوبات تقنية
حددت المعلومات حول العتبات المبكرة ، وقد بدأ استكشاف نهوى بشكل
متقطع منذ عام (١٨٤٢) ولكن الجزء الأعظم من نشاطات من هذا النوع قد
تركزت بالقصور التي بُنيت في عصر الإمبراطورية في الألف الأول ، وكان
الاستثناء الوحيد هو السر العميق الذي حُفر من قبل M. E. L. (سمي فيما بعد
السيد ماكس مالمون عام ١٩٢٢) الذي وصل إلى الأرض المبكر بعد حفر تسعين
قدماً أسفل قمة التل ، ولكن وبينما أعطى هذا العمل تنابع الأواني المغاربية
رجوعاً إلى أرمية ما قبل التاريخ ، وأظهر أن هذا التركام قد كان مسكوناً نحو
عام (٥٠٠٠ ق.م) إلا أنه لم تقدم سوى معلومات قليلة نوعية حول نمو تلك المدينة
وتقدمها اعتباراً من كونها مستوطنة حتى أصبحت مدينة رئيسية.

آشور الأولى

تأتي معلوماتنا حول آشور الأولى من معبد مكرس للإله عشتار، وقد ثبتت صحة هذه المعلومات بعد عام (٢٨٠٠) ومن الواضح أن آشور في ذلك الوقت كانت عبارة عن مركز ديني تحتوي على عدة أبنية أثرية، على الرغم من أنها كانت مصنوعة من الحجر، وكان الدين يحتل مكاناً مرموقاً في البنية الاجتماعية والاقتصادية، وليس من الضروري أن نستنتج والحالة هذه أن القوة الدينية كانت منفصلة عن القوة المدنية على صوء الألقاب الدينية ووظائف الملوك الآشوريين الذين سوف نقابلهم فيما بعد، بل إن كلتا القوتين كانتا متشابكتين.

هذا وإن اللقى التي وجدت في المعبد القديم لا تحسب إلا القليل حول الحياة في الألف الثالث ق.م، وبين هذه توجد نماذج من الصغار للمساكن، ومع أنه كان لتلك النماذج بعض الوظائف الدينية إلا أنه من المعقول أن يفترض أنها كانت نماذج لأنواع حقيقية من المساكن، وإن ما يظهر منها هو منزل ذو سقف مبسط مؤلف من طابقتين من الأمام وطابق واحد من الخلف.

وهذا يوحي أن المسكن المودحي كان مؤلفاً من طابق واحد فيه حجرة واحدة عليها حسب ما تذكره التوراة، وهذه الحجرة مبنية فوق المنزل من الأمام، وهناك نموذج لنقص الشكل يظهر ثلاثة طوابق أي حجرة علوية واحدة مبنية فوق باية مؤلفة من طابقتين، وهناك في المعبد القديم تماثيل يظهر بأنها سومرية تعود إلى فترة السلالات الأولى، وهذا لا يتطلب منا أن نفترض أن المجموعة الحاكمة في آشور كانت من السومريين ولكنها تظهر أنه قد كان هناك نمود سومري ثقافي قوي.

وقد وجد نقش نافر من الجص يظهر الآلهة وهي مرتدية حواصرها حتى أذنيها وجيدها ولسكنها عارية عند شعبيها وسررتها وهي مصططجة على الفراش في سريرها، وهذا يظهر في الوقت نفسه وجود مراسم وطقوس تعبدية جنسية على شرف الآلهة ويظهر أيضاً استعمال السرير ويظهر هذا السرير بشكل لوح مبسط دون أرجل.

وهناك معلومات أخرى حول آشور الأولى يستخدمها اسم آشور ، وبالإضافة إلى الاسم المعتاد إلا أنه يشتر إلىه باسم بالثيل مع أن هذا الاسم الأخير قد حظي بتصغير سومري فيما بعد من قبل علم اشتقاق اللغة السامي إلا أنه لا ينتمي إلى السومرية ولا إلى السامية ، والحقيقة أنه ينتمي إلى لغة تابعة إلى طبقة قديمة من السكان كانت تستعمل حرف (el) في نهاية بعض أسماء الأماكن مثل كلمة نابل أو أربيل أو كوربيل ولقد فسرت هذه اللفظة (el) بشكل مغلوط بأنها تشير إلى اسم الإله باللغة السامية ولكن هذا الاسم عبر السومري وعبر السامي يوحي أنه قد نشأت مستوطنة هناك قبل أن يستوطن السومريون أو الساميون ويصبحون مسيطرين عرقياً في تلك المنطقة

الفصل الثاني

ملوك آشور الأوتل

تنتهي فترة ما قبل التاريخ وتبدأ الفترة التاريخية عند كتابة المصادر، وأما بالنسبة لآشور فقد وصلت تلك المرحلة في النصف الثاني للألف الثالث ق. م أي بعد نصف ألف بالمسبة لوجود سومر في الجنوب، إذ إن علم الآثار الملوكي في إقليم ما قبل التاريخ لم يعد كذلك مع أنه يستمر في لعب دور جهوي، وذلك لأنه ترك لنا نقوشاً تعتمد عليها إعادة بناء التاريخ بصورة منتظمة، وبالنسبة لهذه الفترة وبالنسبة للألوف التالية من السنين، فإن هذه النصوص على اختلافها في محتوياتها أو لغتها تمتلك شيئاً واحداً مشتركاً، فهي كلها مكتوبة بالخط المسماري، وفي هذا الخط تضغط الحروف في أقراص صغيرة من العمار أو تقش على أنصاب من الحجر أو المعدن، وأما في محتوياتها فإنها اقتصادية ودينية وتاريخية أو قاموسية معجمية أو واحدة من العصائل الأخرى، وبالنسبة للغة فمع أن اللغة السامية الأكادية كانت أكثر استعمالاً إلا أن هناك عدة لغات استعملت في النصوص، ولكن كان لجميع هذه النصوص جذورها القديمة حيث اخترعت الكتابة قبل عام ٣٠٠٠ بوقت قصير

قائمة ملوك آشور

نعود بعض هذه النصوص المسمارية مثل النقوش الموجودة على بعض الأشياء المكسرة للمعابد مباشرة إلى الرمن الذي كتبت فيه، وهناك نصوص أخرى أكثر أناقة تحفظ فيها المعلومات حول الحوادث قبل تاريخ تأليفها وهناك وثيقة واحدة من النوع الأخير تبدو أنها تمهل عملنا في تأليف أطر التاريخ الآشوري القديم، هالوثيقة المذكورة تدعى عادة قائمة ملوك آشور (وهي موجودة بعدة نسخ) وفيها يذكر أسماء الحكام اعتباراً من الألف الثالث حتى القرن الثالث ق. م وعندما تذكر هذه الوثيقة الملوك بتواريخ وجودهم وتضع

افتراضات معقولة للملوك ترجع إلى نحو ٢٥٠٠ قم وتلك هناك أسباباً لعدم استعمالنا لها بهذا الأسلوب البسيط.

إن أول ملك آشوري معروف من النقوش التي صنعها اسمه هو شمسي أداد الأول (١٨١٢ - ١٧٨١) إن هذا الملك هو الذي تقدم لما أول نقطة ثالثة معينة بالنسبة للتواريخ الآشورية، نظراً لأنه تواكب مع تاريخ حمورابي في بابل الذي كانت تواريخه معروفة، وقبل الملك شمسي أداد، تذكر القائمة ثمانية وثلاثين ملكاً أو ملوكاً فرعونيين، وهذه الأسماء موضوعة بشكل محاميع، فالسبعة عشر الأولى لخصت حياتهم بأنهم ملوك يعيشون في الحيام، وبعدها عشرة ملوك وصفوا بأنهم من الأحداد، وبعدها ذكرت مجموعات كل منها تحتوي على أسماء ستة ملوك، وبعدها شمسي أداد.

ويلاحظ القارئ النبيه أن أعداد الملوك في قائمة الملوك (قبل شمسي أداد) تصل إلى ٢٨ ملكاً، مع أنه قد ذكر أن الملوك قبل شمسي أداد كان عددهم ٢٨، وهذا التناقض وقع لأن نهم الاسم ذكر في نهاية كل مجموعتين وهذه مصادفة تدل على أن بنية وأصل هذه القوائم تستحق فحصاً واستقصاءً أكثر.

إن المجموعة الأولى وهي أسماء الملوك الذين كانوا يعيشون في الحيام هي قائمة صحيحة ذات ترتيب تاريخي، نجد فيها أن الملكين الأخيرين يدعيان أشبها وأببشال، ولكن المجموعة الثانية وهي مجموعة الملوك الذين كانوا أجداداً قد رُتبت بشكل مختلف فالأخير في الخط ذكر أولاً، وكان يتبع كل ملك اسم والده وبعده ذلك جدّه بهذه الطريقة.

امنو ابن ايلو كيكبي

ايلو كيكبي ابن يارخور ايلو

يازخور ايلو ابن ياكاميني

وبالنسبة لمجموعة ياكاميني وستة أجيال أخرى قبله كان أقدمهم زمناً هو أببشال بن أشبها.

وهكذا وفي هذه المجموعة الثانية ذكرت أسماء الملوك اعتباراً من الأخير إلى الأول، ولكن أياشال كما هو الحال في القائمة الأولى يذكر في المؤخرة مع أن هذا الترتيب يجعله أقدم المجموعة، وبهذه الطريقة أصبح أياشال يخدم كهمزة وصل بين القائمتين مع أن المروق بالشكل بين القائمتين توفي بأن لا علاقة بينهما

إن هذه الترتيبات الاصطناعية غير الطبيعية تثير الشك حول طبيعة قائمة الملوك الآشوريين بالنسبة للمرة الأولى، وهكذا سوف نمود إلى الأرض الصلبة لنترى ما تقوله الوثيقة حول شمسي آداد.

وبالنسبة لمعظم الملوك هناك تفاصيل وافية، أما بالنسبة لشمسي آداد فإن القائمة تطلي تفاصيل خاصة بشكل استثنائي عندما تصف الظروف التي ارتفع بها إلى السلطة، وهنا نقرأ في الجرة المختص بهذه القضية مايلي

شمسي آداد ابن إيلوكيكبي في زمن نارام سن (أحد ملوك آشور القدماء) ذهب إلى كاردونهاش (أي بابل) ثم رجع من كاردونهاش، واستولى على بلدة إيكالاتو وبقي في إيكالاتو مدة ثلاث سموات، ثم خرج من إيكالاتو وأزال إيديشوم ابن نارام سن عن العرش واستولى على العرش.

ولا يخفى أن شمسي آداد استولى على العرش في آشور بعد إزالة ممثل أسرة حاكمة موحدة كانت هي الأسرة الآشورية الوطنية، مما يوضح أن شمسي آداد كان مقتصباً للسلطة، وهنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال الذي يطرحه المعاصرون فضلاً عننا نحن وهو: ماذا كانت خلفية شمسي آداد؟ والجواب الذي تقدمه قائمة الملوك: إنه كان ابن إيلوكيكبي.

ولكنا صادفنا إيلوكيكبي قبلاً في تلك القائمة فقد كان هو والد أمهو الذي كان هو الأول المذكور ولكنه كان الأخير بالمسبة للملوك الذين كانوا أجداداً، وهكذا يصبح السؤال: أجداد من؟

ومن الممكن الإجابة على هذا السؤال بشكل موثوق فقد كانوا أجداد شمسي آداد الذي أدخل بشكل ذكي إلى قائمه آشورية من الحكام بقصد تدعيم

سلطته وجعلها شرعية أي حمل سلطة المفتصب شمسي أداد شرعية، وهكذا بإضافة اسمه عن طريق أبياشال إلى قائمة الملوك القدماء في آشور الذين حكموا قبل الأمرة التي خلفها.

فقد استطاع شمسي أداد أن يتقدم وكأنه وريث الحق لتولي عرش آشور من أجداده الذين حكموا قبل الأسرة التي خلفها

وهنا نود أن نمود بشكل مقتضب إلى المجموعة القديمة للحكام المزعومين في قائمة الملوك الآشوريين وهم السبعة عشر ملكاً الذين كانوا يعيشون في الخيام، إذ إن لدينا قائمة بأسماء أجداد الملك حمورابي البابلي الذي كان معاصراً لشمسي أداد، وفي هذه القائمة نجد اثني عشر اسماً في قائمة حمورابي متطابقة مع الاثني عشر اسماً من أسماء الملوك السبعة عشر الذين كانوا يعيشون في الخيام وهم من قائمة الملوك الآشوريين، والآن ملاحظ أن عائلات كل من حمورابي وشمسي أداد كانت من أصل عموري وكل العموريون شعباً سامياً أتى إلى منطقة ما بين النهرين من الصحراء العربية في وقت قصير قبل أو بعد عام ٢٠٠٠ ق.م. وهكذا فإن الأسماء الاثني عشر المشتركة بين الآشوريين والبابليين ينبغي أن تمثل بعض الرؤساء والشيوخ من عهد البدو الرحل، قبل أن يقسم العموريون إلى مجموعات منفصلة، وقبل أن يستقروا في منطقة ما بين النهرين، وإن يلو كيكيمي والد شمسي أداد ينصل مع هذا الخط من خلال أبياشال بن اشبيا، وبهذا يصبح شمسي أداد هو السليل المباشر المنحدر من خط أقدم للرعاة البدو الرحل من الأرمئة القديمة

وهنا لابد أن نذكر كلمة عن الأسماء الخمسة في مجموعة السبعة عشر ملكاً الذين كانوا يعيشون في الخيام، إذ إن بعضهم ربما كانوا هم الحكام الحقيقيين القدماء الذين حكموا آشور، واحدهم الذي كان حاكماً حقيقياً هو اشبيا والد أبياشال نظراً لأن هناك إحدى الروايات المستقلة عن قائمة الملوك الآشوريين تذكر أنه كان قد بنى واحداً من أقدم المعابد في آشور، وإن هذا الاتصال مع إحدى المجموعات للرعاة العموريين من البدو الرحل المفترض أنهم من

أحداد شمسي أداد، ولكونهم الحكام الحقيقيين لآشور منذ الأزمنة القديمة بكل هذا يخدم في إعطاء شمسي أداد صلة (ولو أنها زائفة) مع ملوك آشور تعود إلى المهود التي امتد بها حكم ملوك آشور الحقيقيين.

وهكذا فنحن لا نستطيع أن نشق بقائمة الملوك الآشوريين وبقيمنتها كقائمة صادقة موثوقة لتعداد جميع الملوك في آشور قبل شمسي أداد، وهذا يوصلنا إلى سؤال عمّ كان الحكام الحقيقيون القدماء في آشور؟ وفي معالجة هذه المشكلة علينا أن نلاحظ أن كثيراً من الشواهد القديمة لدينا إنما تعود إلى مدينة آشور بالذات أكثر من عودتها إلى آشور بشكل واسع، ومع أن بعض الاسم يستعمل لمدينة آشور ولبلاذ آشور في اللغة الأكادية، إلا أنه جغرافياً لم يكن الاسمان متماثلين، فالأرض التي حكمتها مدينة آشور كانت أصغر مما نفهمه من بلاد آشور.

وعدا عن اشتمال قائمة ملوك آشور لبعض الأسماء القديمة الذين لم يذكروا في أي وقت من الأوقات ملوكاً لآشور، إلا أن هذه القائمة تفضل ذكر أسماء آخرين كانوا كذلك، وإن أول هؤلاء المعروفين لدينا كان شخصاً اسمه (إيتي) وهو مذكور في نقوش مقتضبة على قطعة من الألواح تعود إلى الفترة الأكادية القديمة ٢٤٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م. ومفادها مايلي: إيتي: الحاكم ابن إيتي لابا قد كرس هذا النقش إلى الآلهة إيتي من غنائم (جاسور).

وكانت جاسور هي الاسم القديم لإحدى المدن عرفت فيما بعد باسم نوزي قرب كركوك، وهكذا يحبرنا هذا النقش أن منطقة كركوك لم تكن في ذلك الوقت جزءاً من مملكة آشور، بل كانت عبارة عن دولة مدينية منفصلة ومعاوية، وهذا الاتصال لم يكن قضيه عرقية نظراً لأن المصوص التي وجدت في جاسور تظهر أنه عند الحكم عن طريق الأسماء الخاصة الموجودة خلال الفترة الأكادية القديمة (وليس في وقت متأخر) فإن أكثرية السكان في تلك المدينة كانوا من الساميين كما هو الحال لدى سكان آشور، ونظراً لأن آشور كانت لا تزال مستقلة، عدها ربما يستتج المرء أن المدينتين الرئيسيتين نيموي وأرييل

وكلاهما بعددتان عن جامور لم تكونا في ذلك الوقت جزءاً من مملكة أملكها

آشور

وقد لاحظنا في الفصل الأول سيطرة وقوة آشور ونيوى اللتين كانت تحكمهما الأسرة الأكادية (في القرن الرابع والعشرين إلى القرن الثاني والعشرين) وعند سقوط الإمبراطورية الأكادية بسبب غارات قامت بها شعوب آتت من جبال زاغروس تدعى (غوشي) ولعنى آشور أيضاً قد تأثرت وعانت من هذا السقوط كما نعلم من حراب أبيتها التي كشفت عنها أبحاث علم الآثار.

سُلالة أور الثالثة

قبل عام ٢١٠٠ ق.م بقليل ظهرت إمبراطورية أخرى في الجيوب وحكمت جميع منطقة ما بين النهرين لمدة قرن وتعرف هذه باسم سُلالة أور الثالثة، وقد كانت هذه الإمبراطورية أقل مفاوداً من إمبراطورية أكاد ولعنىها كانت أكثر تنظيمياً إذ كان لها مراكز رئيسية يحكمها حكام منتقلون بدلاً من الأتباع المحليين، وهناك نقش يصف واحداً من هؤلاء الحكام يعود إلى عام ٢٠٠٠ ق.م يذكر أنه - وفي ذلك التاريخ - كانت آشور تحت حكم أور، وأما أربيل فكانت تحكمها من حين لآخر سُلالة أور الثالثة وذلك طبقاً لما نعرفه من الوثائق الاقتصادية في الرمن الذي نُهبَت به أربيل ومن نقش سوري يعود إلى الزمن الذي يحدد فيه اسم الحاكم العسكري لأربيل.

لقد انهارت الإمبراطورية البيروقراطية التي تحكمها أور، وهي الرمن الأخير للسلطة السومرية السياسية، وذلك في عام ٢٠٠٦ ق.م تحت ضغط العموريين الذين انقضوا عبر نهر الفرات من الصحراء السورية، ولعنى بدأت تلك الإمبراطورية بالتسُخ خلال عصمة عقود قبل انهيارها نهائياً وبذلك سمحت لآشور أن تستعيد بعض استقلالها

فتحن يستنتج هذه المعكرة من إحدى القصص التي تذكر أن شخصاً يدعى كيكيا بني أسوار آشور، ويمكننا أن نعرف تاريخ كيكيا نظراً لأن اسمه

مذكور في قائمة الملوك الآشوريين قبل اسمي ملوك نملك نقوشاً تخصهما، ونظراً لأن هذين النقشين يمكننا من معرفة تاريخ هذين الملوك إلى زمن بعد ٢٠٠٠ ق م بقليل، لذلك فإن حكم كيكيكا ينبغي أن يكون قبل عام ٢٠٠٠، ولكن تظهر الحفريات أن ساء أسوار آشور قد حدث قبل ذلك بقرون، ومع ذلك فإن القصة التي تقول إن كيكيكا هو الذي بنى تلك الأمور لا تحلو من الصعقة وأن لها بعض الأساس، ومن المحتمل أنها تمكمن خبر إعادة بناء الأسوار من قبل كيكيكا في الوقت الذي استطاع به أن يثبت نفسه كحاكم مستقل، وهذا من الممكن أن يكون في الزمن الذي بدأت به الأسرة الثالثة بالتقلم والتمتد.

آشور والتجارة

وحتى رمز كيكيكا فإن آشور مع أنها كانت ذات أهمية استراتيجية بصفتها مركزاً قوياً في منتصف منطقة دجلة الوسطى، إلا أنها لم تكن ذات أهمية رئيسية عالمياً، ولقد بدأ هذا الوضع بالتعبير فقد أصبحت النقوش التي تمثل ملوك آشور أكثر انتشاراً وإظهاراً لامتناد نفوذ آشور في الخارج ويشير أحد ملوك آشور في ذلك العهد، وهو إيلوشوما الذي حكم بعد عام ٢٠٠٠ ق م مرتين بأنه قد أتم تحرير شموپ اككاد (يعني بابل جنوب منطقة ما بين النهرين) ويذكر بعض مدن بابل حتى مدينة أور جنوباً وهي على بُعد أربعمائة ميل من آشور، ومن الواضح أن هذا الملك قد قام بسوق من التدخل هناك، إذ إن معنى تحرير الدقيق يبقى غامضاً، ولكن هناك شيئاً آخر وهو أنه من الخطأ التاريخي محاولة ربط هذا التحرير بمعنى التحرير السياسي، وهناك كلمة أكادية تترجم بالتحرير بمعنى الإغناء من الصرائب ومن المحتمل أن يكون هذا المعنى عندما ذكر أنه قرر تحرير العصاة والذهب والنحاس، والقصدير والشعير والصوف والنعالة والخبز، وهذا يظهر أن لهذه الكلمة معنى اقتصادياً أي إنه أعفى التعامل بمثل هذه البضائع من الصرائب، وهناك معنى غامض آخر في إحدى نقوش إيلوشوما من الممكن أن يكون مناسباً هنا، فعندما ذكر شعب بابل يقول لقد غسلت نحاسهم ومن الممكن أن يكون معنى هذا القول أنه باع للبابليين نحاساً بشياً

وهذا يدل أن هؤلاء الملوك الآشوريين القدماء كانوا مهتمين بالتجارة نظراً لأن التجارة لم تحلب لهم النفوذ السياسي فحسب ولكن الازدهار الاقتصادي المتزايد، وقد انعكس هذا الازدهار الاقتصادي في مشاريع الأبنية الطموحة داخل آشور، ولدينا نقوش تعود إلى إيريشوم الأول حيث يصف كيف أنه قد راد حجم وعظمة منطقة المعبد ومدّ سوراً كان قد بدأ والده بينائنه.

مستعمرات كابادوكيا التجارية

إن فئة المعلومات السياسية حول آشور القديمة تجعل تلك المعلومات التجارية المقتضبة ذات أهمية، والحقيقة أننا نعرف الكثير عن التجارة في آشور ما بين عامي ٢٠٠٠ ق م، ورمس شمسي أداد الأول أكثر مما نعرف عن السياسة، ولا تأتي معظم هذه المعلومات من آشور نفسها ولكن من مصدر واقع على مسافة مئات من الأميال إلى الشمال، وتتألف معظم أجراء هذه الشواهد من بعض الألواح المعجارية التي وجدت في موقع يدعى كولتهيب (اسم قديم لكيسستهم إلى الشمال من هيسرية في تركيا الآسيوية في المنطقة التي غالباً ما تسمى كابادوكيا، وهذه الألواح هي من محفوظات تعود إلى أجيال عديدة لإحدى المستعمرات التجارية الآشورية كانوا يعيشون هناك في بداية الألف الثاني، وكان هناك عشرون مستوطنة من هذا النوع في هيسرية الأناضول، وذلك كما نذكر بعض أسماء الأمكنة في تلك النصوص ولكن هناك مستوطنة أو مستوطنات عرفت عن طريق الألواح التي وجدت في مواقعها، ولا نعلم كم من الرمن كان التجار الآشوريون يعملون في الأناضول، إذ إن أقدم التواريخ في السجلات الآشورية الموجودة في كابادوكيا لا تثبت أقدم الأزمنة التي عملت فيها المستعمرات التجارية

ومن الممكن أن يكون هناك مستعمرات في كابادوكيا لم يكشف عنها بعد، قبل الواحدة في كانيش أو حتى في كانيش نفسها، ومن الممكن أن يكون هناك نشاطات تجارية أقدم تعود إلى إجراءات تجاريه لا تحتاج إلى التوثيق على أنواع من الفخار، وطبقاً لرواية متأخرة يقال إن سرجون أول حاكم للإمبراطورية

الأكلادية قد استُدعي إلى كابادوكيا لحملة التجار هنالك وذلك في أوائل القرن الرابع والعشرين قـم

فإذا كانت هذه حقيقة ملموسة فإن تاريخ المستعمرات التجارية موقوف يتأخر عدة قرون إلى الوراء، ولكن هناك إمكان أن تكون هذه القصة مختلفة لعكس الحالة في كابادوكيا في أوائل الألف الثاني.

يتألف موقع كولتوب وهو المكان الذي بُنيت فيه مدينة كانايش القديمة، من رابية كبيرة حيث كانت القصور واقعة مع وجود مساحة للمساكن في أسفل تلك الرابية، ومن منطقة المساكن هذه كانت المحفوظات الخاصة بالأعمال التجارية، وتبلغ كمية هذه المحفوظات ١٤٠٠٠ لوحة، مع أنه لم يشر إلا القليل منها، وتغطي الصورة الأساسية لهذه الألواح الانطباع أن لأماكن الأعمال التجارية ممثلين في كابادوكيا (وربما كان هؤلاء هم أصحاب الأعمال أنفسهم) وكانوا ينظمون التجارة في كانايش وغيرها من المدن، وكان هناك في قلب هذه التجارة قوافز الحمير التي كانت تحمل ما نحمله السمن من القصدير والمسوجات وتقلها من آشور إلى كابادوكيا

من المستبعد من هذه المستعمرات التجارية الآشورية؟ إن المجموعة الأولى ينبغي أن يكون الحكام المحليون الذين ما كانوا ليسمحوا للمستوطنات أن تستمر في أعمالها، ولكن الحوافر الرئيسية التي حملت المستوطنين يستمرون في العمل هي تلك الموائد التي كانوا يؤمنونها للآشوريين أنفسهم، فالرحلة من آشور إلى كاناين أو مائلكلوم الدارج، من قلعة شرجات في العراق إلى قرب قيسرية في أواسط تركيا الآسيوية، ليست رحلة سهلة حتى في هذه الأيام التي يتوفر فيها النقل بالسيارات، فالمسافة تبلغ نحو خمسمائة ميل على الأقل، ولكن أي طريق برية عملية تبلغ حوالي أكثر من سعمائة ميل على الأقل، وحتى في هذه الأيام فإن بعض الطرق ليست أكثر من طرق مملوءة بالحصص والتراب، ومن الواجب قطع جبال طوروس وهي سلسلة جبلية ضخمة حيث ليس هناك أمان بالمعنى الصحيح. وفي عام ٢٠٠٠ قـم كانت كل هذه العوامل المحيطة موجودة بدرجة أقوى. ويمتد

البعض أنه في الوقت الذي تبدأ هذه التفاضل رحلاتها عبر هذه المنطقة فإنها تستطيع الاستمرار في العمل بقوة الاستمرار الذاتي خصوصاً أنه كان هناك نظام يريد يساعدها بمراحله المتعددة التي نشأت حول تلك الأماكن، ومع ذلك فإن هناك علامات استنفاد حول سبب بدء مثل هذه الأنظمة في المقام الأول.

لم تكن المستعمرات في كبادوكيا هي المستعمرات الآشورية التجارية الوحيدة المعروفة، هناك شواهد على مقياس محدود على وجود تجار من آشور كانوا يعملون في مقاطعة كركوك قبل الفترة التي كتبها عن وجود شواهد فيها من كبادوكيا، وكانت هذه النشاطات أقرب إلى مركز آشور ولكنها تدل وتصور مدى اهتمام آشور بالتجارة، فإذا كانت آشور في مركز الحضارة التي تبدأ من سومر فإن التجارة كانت مُجدية بالنسبة إليها، وذلك لأن آشور (شأنها شأن سومر نفسها) كانت بحاجة إلى مادتين من المواد الخام وهي الحشب والمادن. لقد كان توسع آشور التجاري إلى الأناضول رغبة بالحصول على المادن، فقد كانت آشور بحاجة إلى النحاس وكانت الأناضول قادرة على تأميه، ولكن لم يكن هنا حل كامل للمشكلة نظراً لأنه كان هناك مصادر للنحاس في الأناضول أقرب من كبادوكيا بكثير، ومع ذلك فلم يكن الآشوريون يستخرجون النحاس من مناجمه بأنفسهم، ومن الممكن أن أهالي الأناضول أنفسهم الذين كانوا يقومون بهذا العمل قد ركزوا على عمليات التعدين في كبادوكيا.

وكانت هناك مشكلة أخرى وهي من أين يمكن للآشوريين أن يحصلوا على القصدير الذي كانوا يتاجرون به فلم يكن هناك مصدر للقصدير في آشور أو بابل، وبالاقتدار إلى شواهد مرموقة علينا أن نخمن أن القصدير قد استورد إلى آشور من راعروس أو غيرها ولكن ليس مصدر القصدير هو ما نجهله فحسب بل نحن نجهل أيضاً الأليات التي كان القصدير يصل بها إلى آشور، ومن الممكن وجود مستعمرات آشورية تجارية في إيران أو راعروس تساعد على الحصول على القصدير ولكن ليس لنا من دليل على ذلك، وحتى كلمة أناضكو التي نترجمها

بكلمة القصدير تقدم لنا مشكلة، فقد ثار الجدل فيما إذا كانت هذه الكلمة تعني القصدير أو الرصاص مع أن الرأي الآن يميل إلى الأولى أي القصدير، وحتى ولو كان الأمر كذلك فلم يتأكد أبداً أن هذا الاصطلاح يعني القصدير التقني، إذ من الممكن أن يكون أحد حامات القصدير، ولكن الرأي السائد أثناء كتابة هذا الكتاب هو أن اسكوكو مزيج يحتوي كميات مماثلة من القصدير والزرنيخ وكان يستعمل لإنتاج البرونز من النحاس أو حامات النحاس وكان الزرنيخ والقصدير يختلطان مع النحاس لإنتاج البرونز

وإلى جانب القصدير فقد كانت البضاعة الرئيسية التي تعامل بها الآشوريون هي المنسوجات، هذا وإن مصدر هذه المنسوجات النهائي يقدم لنا مشكلاته، إذ نحن نعلم أن أفضل نوع من المنسوجات كان يأتي من بابل، ولكن هل كانت هذه المنسوجات تصنع في ورشات عمل أم هل كانت من مصوعات أعمال بيتية؟ ولكن هناك مشكلات أخرى غير محلولة فمن كان مستهلك هذه المنتجات في الأناضول؟ وكيف كانت هذه البضائع تؤثر خلال الأناضول؟ وكيف كان نظام الحكم في الأناضول وكيف كانت علاقة التجار الآشوريين بحكام الأناضول المحليين؟ هذا وإن التهديد والتعدي ليس ببعيد حول أي من هذه المشكلات أو غيرها من نفس الطبيعة ولكن سترك هذا لتعالجه إحدى (المطروحات نيل الدكتوراء من الطلأ).

هناك بعض الأشياء التي نمررها حول التجارة الآشورية في الأناضول على الأقل بحملوها العامة فمن يعرف بشكل متقدم عن إجراءات النقل. فكانت البضائع تجمع في آشور -وربما- وفي حالة القصدير كانت تستورد من أقاصي الشرق، ومن بابل بالنسبة إلى المنسوجات، وبعد ذلك كانت ترسل إلى الأناضول على ظهور الحمير

وفي الوقت الحاضر لا نعرف كم كانت القافلة تحتوي من الحمير؟ وتذكر النصوص أرقاماً تقرب من عشرين، ولكن هذه تمثل فقط الحيوانات التي تعمل بضائع تاجر واحد، فإذا حكمنا عن طريق الإجراءات المتبعة في كل

وقت وكل مكان في الشرق الأدنى فلننا نتوقع أن يكون هناك عدد من التمارين مجتمعين معاً بشكل مواكب أو قوافل كبيرة تقدم المساعدة المتبادلة والحماية، وإن حدوث مثل هذا الأمر لا مجال فيه للشك لوجود بعض الوثائق التي تذكر وجود حمار واحد. وليس هناك من شخص يضع حمار واحد محمل بالبضائع النسيجية في طريق يبلغ طولها ٧٥٠ ميلاً تسير فوق جبال صعبة

إن ما يحمله حمار واحد بمجموعه بما فيه المرح يبلغ مئة كيلو غرام، وكان القصد من حمل في سلتين تتوارى إحداهما مع الأخرى في كل جانب مع وضع المنسوجات في الأعلى.

ولمع السلب والنهب في الطريق كانت روم القصد من تحتم بحتم من الحمار وكان فتحها بعد ذنباً يعاقب عليه، وكانت المنسوجات التي تروم بشكل لمئات تختم بطريقة أو أخرى ولكن لا نعرف هذه الطريقة وكانت عبارة عن بالات من القماش الصوفي مع أنه كان هناك ملابس مصنوعة تصلح لمقاسات مختلفة

وتذكر إحدى النصوص نوعاً من المنسوجات كمالاً مقاسه ١٢ ١/٢ قدماً ب ١٢ قدماً، وكان من البازر وجود أنوال لمسج منسوجات بهذا العرض في تلك الفترة وهكذا كانت المنسوجات الكاملة مؤلفة من اتصال شفتي طبقتين كما كان الحال على الأقل حتى الخمسينات ١٩٥٠ بالنسبة للقماش المصنوع يدوياً في كردستان.

كانت قوافل الحمير المحملة بالقصد من المنسوجات تتجه نحو الأناضول ومنها وثائق كانت محتوياتها تفحص بموجب هذه الوثائق عند الوصول، وبالنسبة للطرق المختلفة المتواحدة لا يمكننا أن نحدد أيها منها بالتأكيد ولكن من المحتمل أن تكون الطريق الرئيسية تسير نحو نهر الخابور ويعدّها إلى بلخ ومن ثم تجاه الأناضول عبر سهل البستان، وهذه من الممكن أن تكون رحلة خطيرة تقطع ٧٥٠ ميلاً وتستغرق نحو شهرين وتذكر النصوص موت عدة حمير على الطريق وكانت البلدات على طول الطريق تسهل المعيرة وكان هناك طريق واحد في حوالي منتصف الطريق حيث كان من الممكن استئجار سائقي حمير جدد،

وهناك هناك إشاعات تشير أن الأمن في الطريق كان محيياً للأمال، فقد وجدت هناك بعض الحالات حول بعض التجار الذين حُطفوا وطلب الخاطمون هدية، وأما الرحلة خلال الشتاء فقد كانت تسبب أخطاراً إضافية للقافلة من الطقوس السيئة ومن الذئاب فإذا نجا التاجر من الذئاب فكل أمامه دوماً جباة الصرائب، وذلك أن الصرائب التي تلحق عشرة بالمئة من قيمة الحمولات، كان يبيعي دفعها على الطريق، بالإضافة إلى سرية إضافية تدفع عند الوصول إلى كاديش، ومن المحتمل أن يلجأ التجار إلى عمليات التهريب وذلك للتخلص من تكاليف الحمارك، هناك بعض المقاطع في بعض النصوص تشير إلى هذه الأمور ويدكر فيها ككله طريق المهربين، ولكن هذا التفسير ربما جعلنا نتوقف قليلاً، فلا يتوقع الإنسان أن يقوم بعمل نمرود لإنجاز عمل غير قانوني كالتهريب الذي تعاقب عليه السلطات أكثر من أن تتفقه، ولهذا فإننا نعد أن طريق التهريب ما هي إلا اصطلاح بمعنى طريق قروي غير مطروق.

إن الهيئة التي نظم شؤون التجارة وشؤون المراكز التجارية الأخرى كانت تعرف بالكروم **Karum** وهذه الكلمة تعني ميا، أو مرمى السم.

وهناك مشكلة أساسية وهي فيما لو أن "تجار الدين يتألف منهم الكروم دعاءوا من الراسمالين أو من وكلاء الدولة، فالنصوص تقترح الصيغة الأولى، إذ عندما تصل البضائع إلى كاديش كانت هذه البضائع تُسجل وتدفع عليها الضرائب في الكروم وبعد ذلك يسمح ببيعها، وكانت البضائع تباع بأثمان من الفضة أو (بشكل أقل) من الذهب، ولكن من الممكن أن تكون الذخائر بالبحاس أو الصوف الذي كان يباع بالمعادن الثمينة.

وهناك الأرباح الصافية على القافلة واهرة، وكانت الأرباح تقارب مئة في المئة بالنسبة للقاصدين، وربما أكثر من ذلك بالنسبة للمنسوجات، ولكن كان من الواجب دفع الصرائب من هذه الأرباح فصلاً عن مصروفات الرحلة، وكان التجار في الأناضول يبيعون الفضة إلى وكلائهم في آشور (وفي بعض الأحيان يكون من هؤلاء الوكلاء روجة) وهناك عدة حالات كان التجار يأمرهم وكلائهم أن

بصرفها نصيب الأموال لشراء القصدير اللازم للرحلة القادمة ونصمها على المسوجات وكان هذا عملاً مألوفاً

وكان كبار التجار يبقون في الأناضول عدة سنوات حيث يتزوجون زوجات من المنطقة حتى ولو كان لهم زوجات في آشور.

لدينا معلومات محددة قليلة حول نهاية المستعمرات في الأناضول أكثر من المعلومات حول بداية تلك المستعمرات، ولقد أظهرت الحفريات أربعة مستويات من الاحتلال في كانيش، ولكن وحتى الآن لم تظهر المستويات الأعمق عهداً (أو الأقدم) أي نصوص، إذ إن معظم الألواح كانت تأتي من الفترة الثالثة من الاحتلال، وقد انتهت هذه الفترة بحدوث كارثة وهي حدوث حرائق عامة

ومن الممكن أن يكون المكان قد هوجم ونهب ويمرور الزمن بعد نحو ثلاثين إلى خمسين عاماً بقي المكان فيها في حالة خراب، ثم عاد الآشوريون التجار واستأنفوا احتلالهم للمكان وبدأت الوثائق تظهر مرة أخرى وكانت أقدم وثيقة قد كتبت أثناء حكم شمشي آداد (١٨١٢ - ١٧٨١) ق.م، ونضع الفترة التي لم يحدث فيها أي احتلال نهاية المجموعة الرئيسية الأقدم من الوثائق وعندها فيما بين ١٨٦٠ و ١٨٤٠ ق.م، وهكذا فهي تعطي حوالي ستين إلى ثمانين عاماً تشمل حكم إيريشوم الأول (الذي امتد أزمين عاماً بدءاً من عام ١٩٠٠) وهذه النتيجة التاريخية تتطابق مع الحقيقة التي مصادها أن إيريشوم كان أقدم حاكم آشوري مذكور في النصوص الكانيشية، ولقد لاحظنا سابقاً نشاطات هذا الملك التجارية في بابل ولذلك فإنه من المعقول أن نمتص أنه بالإضافة إلى ذلك قد قدم تأييداً نشيطاً للتجارة مع كبادوكيا.

ويقترح البعض أن يكون إيريشوم قد أممن بعض المستعمرات الآشورية في كانيش وأماكن أخرى كعمل رزين من أعمال السياسة، ولكن لا يبدو هذا الرأي مقبولاً غالبية التحية المشمولة في هذه التجارة من الصعب أن تتشأ فجأة بمجرد إصدار قرار سياسي إذ إنها لا يُدَّ أن تمت ونشأت عن طريق توسع تدريجي في الاتصالات خلال مدة طويلة من الزمن.

الفصل الثالث

الفترة الفاصلة الحورية

من ظلال النعبة حتى الاستقلال

تعد العلاقات مع صكبادوكيا في التاريخ الآشوري مظهراً حضارياً نمتك معظم القعاصيل الوافية عه بالسببة لبداية الألف الثاني قـم، ولعكن حدثت أشياء أخرى قدر لها أن تكون ذات تأثيرات بالغة على آشور، إذ ولدة قرنين بدأ الشعب السامي المعروف باسم العموريين بالتحرك خارجين من الصحراء العربية السورية والإقامة في الأراضي الخصبة حولها، وكان ضمهم هذا سبباً وعاملاً من عوامل انهيار أسرة أور الثالثة، حيث بدأت مجموعات من العموريين بالاستقرار على طول نهر العرات في بابل وشكلت أسراً محلية، وربما كان هجوم إيريشوم وغزوه لبابل سبباً عن أرباك وتشويش الحركة التجارية هناك من قبل العموريين، وأن إعلان والده ايلوشوما عن عزمه على إقامة وتأمين الحرية لشعب أكاد ربما يعكس تبريراً لتلك التدخلات.

ملككة شمسي أداد الأول

ومع أن آشور التي كانت تحجبها مدن مثل ماري الواقعة في أواسط الفرات لم تتأثر بمس الدرجة التي تأثرت بها بابل من الموجات الأولى للصعوط العمورية، إلا أن آشور لم تستطع أن تبقى ممرولة بشكل عبر محدود، ففي أواسط منطقة العرات الأوسط قام رعيم إحدى القبائل العمورية المدعو ايلوككبكي (وقد ذكر اسمه في قائمة ملوك آشور) بإشياء مملكة صميرة لنفسه، وكان له ابن وهو شمسي أداد الذي قضى بعض الوقت في بابل، إذ من المحتمل أنه قد أرسل إلى هناك ليحكمون تابعاً لملك آشور في ذلك الوقت ولمعالجة التهديدات ضد الأمس الآشوري، ولعكن شمسي أداد عاد من بابل معلوماً بالطموح

وقد استولى في أول الأمر على إحدى القلاع المبعوة (ايكالامو) المشرفة على المنطقة إلى الغرب من دجلة، وبعد ذلك وبعد ثلاث سنوات نصبتة آشور ملكاً عليها، فبادر إلى توسيع سيطرته حتى منتصف منطقة الفرات الوسطى التي نشأ فيها، وهناك كانت المدينة والمملكة الرئيسية ماري التي نَحَجَّ في ضمها إليه.

وهنا نجد لدينا بعض الصعوبات في الحصول على المعلومات اعتباراً من هذه النقطة ولادة جيل من الأجيال، ويأتي قسم قليل من هذه الصعاب من النقوش الرسمية التي تركها (شمسي أداد) وهي الكميات الكبيرة من المحفوظات التي وجدت في ماري.

وكان موقع ماري موقعاً استراتيجياً في منتصف الفرات وكان لها شبكات من العلاقات مع بابل وسورية وتعكس المحفوظات المحتوية عشرات الألوف من الوثائق هذا الشيء، وقد أقام شمسي أداد مع أنه كان يمد آشور عاصمته الرسمية وسكان يجبي الأنوات والخراج منها، أقام في (شويات نيل) الواقعة إلى الشمال الغربي حيث كان قريباً من التيارات السياسية في سورية، ولأجل السيطرة على منطقة الدجلة الأوسط والفرات الأوسط، فقد نصب ابنه الأكبر كملك تابع في (ايكالاتو) والابن الأصغر (ياسماخ أداد) في ماري، وتقدم الرسائل التي وجدت في ماري والتي جرت بين ياسماخ أداد ووالده وأخيه وبعض الأشخاص الآخرين، تفاصيل حول الحوادث في ذلك الزمن، وهناك مجموعة صغيرة من النصوص تعود إلى نفس الفترة وجدت في موقع (شمشارا) قرب رانبا في كردستان العراقية، تظهر أن مملكة شمسي أداد قد امتدت حتى زاغروس شرقاً.

وحتى هذا الزمن ليس لدينا أي شواهد تشير إلى أن المدن الثلاث الرئيسية في آشور ونيوى وأربيل كانت متحدة في مملكة واحدة، ولكن هذا الوضع قد تغير بمجيء شمسي أداد وأصبحت هذه المدن جزءاً من مملكة واحدة، إذ نجد أن الملك كان يجند بناء أحد المعابد في نيوى ويسجل انتصاراته على جميع المدن المحصنة في أرض أربيل، وقد سيطر أيضاً على منطقة (أرانجا) (كركوك الحديثة) بحيث أصبحت جميع مناطق آشور قاطبة تحت حكمه مملكة واحدة، وقد امتدت

المنطقة التي كان يسيطر عليها شمسي أداد وأولاده من الفرات ومن نهر (أضايح) إلى مشارف هضبة الأناضول عبارة عن ثلاثمائة ميل من كل جهة، وقد امتدت سيطرته دبلوماسياً إلى أبعد من ذلك فقد لمس التجار الآشوريون في مستعمرة نكابادوكيا نشاطاً متجدداً، وقد ادعى شمسي أداد أنه وصع أنصابه الحجرية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ومن الواضح أن الحكام المموريين المعاصرين عدوا شمسي أداد القوة العظمى.

كيف نجح شمسي أداد في جعل آشور أبرر وأعظم مملكة في عصره؟

هناك عاملان ينبغي أن ننظر إليهما بالحسبان وهما كفاءته الإدارية ومهارته السياسية، وإن مراسلاته الواسعة تظهر أن شمسي أداد كان يعطي عيلاً ساهرة بالنسبة لهذه الأشياء ولجميع الأشياء حوله صغيرها وكبيرها التي لها علاقة بتسيير شؤون مملكته بحكمة (ويمكن أن يطبق هذا القول عن معاصر شمسي أداد الناجح وهو (حمورابي) في بابل فقد أنشأ شبكة من الموظفين الأكفاء.

فهو يقول: ((إني عيَّنتُ حكامي في كل مكان)) وتحت الحكام كانت هناك سلسلة من الإداريين وباقي الأحرار وموظفي الإحصاء الخ..

وقد نجح شمسي أداد بالتحالف إما عن طريق المعاهدات أو بواسطة المصاهرة مع أمراء حاكمين آخرين ولاسيما في سورية، ولكن كان جره من نجاح شمسي أداد دون شك استخدامه القوة العسكرية

ويموازاة إدعائه أنه قد عين الحكام في كل مكان، فإنه قد وضع الحاميات العسكرية في كل مكان أيضاً، ولدعم الحاميات الدائمة أرسلت العرق العسكرية في حملات خاصة، وقد اشتملت هذه الحملات في إحدى الحالات على ستين ألفاً، وأما فنون الحصار التي بلغ الآشوريون الشاؤ الأعظم فيها منذ الألف الأول ق.م، فقد وصلت درجة عالية من الكفاءة بما فيها من استعمال آلات الحصار.

ولكن امتدادات مملكة شمسي أداد قد نقصت وتقهقرت بعد موته بالسرعة التي وصلتها في حياته، وتذكر قائمة الملوك الآشوريين أن ابنه (شمسي راکان)

قد حكم مدة أربعين عاماً، ولكن حكمه كان معسوراً بأشور وفي المنطقة المحيطة بأشور وبنوى وأربيل وأرانجا (كركوك).

وهناك شك حول حكمه المنجى الأخيرة، أما ممتلكات آشور الأوسع بمعايير العرات الأوسط وشمال شرقي سورية وحتى مسكن والده المفضل في (شوبات اينليل) ككل هذه المواقع قد سُلبت من سيطرته.

ويعد ذلك النور الذي سطع في فترة شمسي أداد وأولاده نجد أنصنا سنقل إلى أقاليم مظلمة من التاريخ، لأنه وفي القرون الثلاثة التالية فإن النقوش ومحموظات الملوك الآشوريين أصبحت قليلة وبادرة وأحياناً انقطعت، مع أن قائمة الملوك الآشوريين تدل على تتابع غير منقطع للملوك الآشوريين، فقد أصبحت سلطة ملك آشور لا تتجاوز مدينته ولم تتجاوز منطقة شمال بنوى وأربيل.

المهاجرون الحوريون

عندما ركزنا على أعمال شمسي أداد الباهرة لم نعط اهتماماً كبيراً بالنسبة للحالة العرقية في المنطقة الواقعة تحت حكمه ما عدا ذكر المموريين، والحقيقة كانت هناك حركات عرقية جارية وقد قُدر لها أن تكون ذات نتائج بالغة بالنسبة لآشور، وإن أهم مجموعة في هذا الصدد هم الشعب المدعو الحوريون، ولقد تكلم هؤلاء لغة معتملة عن كلا السومريين والأككاديين بحيث إن أسماء الحوريين الشخصية مميزة وتؤلف علامات واضحة تدل على الأشخاص من أصل حوري، وهذه الشواهد تشير إلى وجود الحوريين في جنوب ما بين النهرين منذ فترة (أكاد) وفي حوالي نهاية تلك الفترة حيث نشأت دول صغيرة قصيرة العمر في منطقة الخابور يحكمها حكام يحملون أسماء حورية، وسرعان ما وجدت عدة أسماء حورية في فترة الأسرة الثالثة في أور في المنطقة شمال نهر دجلة

وهناك دلالات تشير بأن هؤلاء الحوريين قد أتوا من الشمال إلى منطقة ما بين النهرين، وربما من مرتفعات أرمينيا، ويناقش بعض مناضضي هذا الرأي بقولهم إن الحوريين كانوا هم سكان آشور الأصليين قد نُفِوا وأخرجوا على أيدي

المساميين المهاجرين إلى سفوح التلال في الألف الثالث قم، ولكن هذه النظرية كانت مؤسسة على تحاليل علمية لأسماء الأمكنة القديمة التي تعد حورية أصبح الحوريون واسمي الانتشار في شمال منطقة ما بين النهرين في زمن شمسي أداد ومع مناطق إلى الغرب من (طور عابدين) التي حاكمها أمراء الحوريين، وكان هناك عصر قوي من عاصر الحوريين في راغروس أيضاً، وقد تروج أحد أحفاد شمسي أداد سيدة أو أميرة من إحدى القبائل القوية هناك التي كان اسمها يدل أنها حورية، وفي سورية أصبح الحوريون عنصراً قوياً في الألاح وهي مدينة واقعة على نهر العاصي معروفة من كمية من الألواح المصغرة التي وجدت هناك.

ويظهر أن حركتين عرقيتين كانتا تتحركان في الوقت نفسه، الحوريون الذين أتوا إلى منطقة ما بين النهرين وسورية من الشمال الشرقي في نفس الوقت الذي كان العموريون يتحركون آتئين من الصحراء السورية مع يمس التجاوزات التي تظهر أن المرات قد شكل حداً فاصلاً بينهم، وفي منطقة أواسط المرات كان العموريون ذوي السيادة ولكن إذا اتجهنا شمالاً نجد الحوريين قد أصبحوا العنصر المهم، وهناك تطورت في منطقة الحابور العليا السلطة الحورية، بينما إذا اتجهنا جنوباً كان العموريون ذوي نمود مرموق على بابل، أما في آشور ففي أثناء منتصف الألف الثاني فقد كان الحوريون هم المتفوقون ثقافياً وسياسياً إلى حد ما. لم يكن الحوريون هم الشعب الوحيد الذين انطلقوا كقوة سياسية وثقافية جديدة خلال الألف الثاني، ففي الأناضول المجاورة لأراضي الحوريين كان هناك الحيثيون وهم مجموعة من الشعوب الذين يتكلمون اللغات الهندو أوروبية، ولقد دخلوا الأناضول من الشمال هيماء، البحر الأسود في وقت لا يعتمد عن بداية الألف الثاني، وقد أسس هؤلاء مملكة في منطقة نهر (هاليس) (سكورول إيرماك) وانتشروا بالتدريج في نمودهم جنوباً حتى المرات وشمال سورية وكمليسيا، وهذا سبب احتكاكهم بالمناطق التي يسيطر عليها الحوريون ثقافياً وسياسياً، وبذلك نشأت مناهسات وحزارات ثقافية متبادلة ما بين الحيثيين والحوريين.

مملكة ميتاني

في منتصف القرن السابع عشر أصبح الحوريون منظمين تنظيمياً كاهياً بحيث استطاعوا مهاجمة مملكة الحثيين إلى الشمال الغربي من مملكتهم، وهناك نقش يمود إلى أحد ملوك الحثيين يسجل وجود هجوم خطير على مملكته من قبل شعب يدعى الحوريون (الهائي جالبات) وسوف نقابل هذه الأسماء فيما بعد

وهناك نص آخر حول الأنشطة الحربية في تلك الفترة يذكر أسماء أربعة ملوك من ملوك شعب الحوريين، وهذا يظهر أنهم كانوا لا يزالون اتحاداً وليس مملكة موحدة، وبعد عام (1550) بقليل ظهرت مملكة مؤسمة على قواعد حورية تدعى: ميتاني إلى الشرق من نهر الفرات، وقد وجدت دويلات أخرى مشابهة في سورية وهكليكييا وشمال ميتاني، وكانت ميتاني أقوى الممالك الحورية وقد داوشت وأحياناً حاربت كلاً من الحثيين والمصريين وهما القوتان الرئيسيتان في منتصف الألف الثاني ق.م.

وفي حوالي عام (1472) اصطدم أحد ملوك ميتاني مع تحتشم الثالث ملك مصر الذي ادعى أنه قد سيطر على سورية واخترق بجيشه الحدود حتى نهر الفرات، وقد كان هذا الردع الميتاني ما رُحِبَ به الدويلات الأخرى في الشرق الأدنى، وأرسلت آشور بالإضافة إلى بابل والحثيين هدايا وتهنئة لتحتشم عدها المصريون لزيادة نفوذهم وهيبتهم عبارة عن جزية

لدينا تفاصيل قليلة حول ظهور ميتاني ولا يمكن معرفة ذلك بالصبر إلا بعد اكتشاف المحفوظات الميتانية الرئيسية، ولا نعلم إذا كان هناك محفوظات لدى الميتانيين إذ أشك في وجودها، فقد وجدت بصمة رسائل من ميتاني بشكل الواح من الفخار منقوشة بالحط المسماري في تل العمارنة في مصر، وهناك دلالات على وجود مراسلات بين ميتاني والبول المجاورة، ولقد مكثت العجوة في الشواهد بشكل جهد لجرد التحمين...

وهناك إحدى القرصيات، التي رُفضت، مع أنها ظلت موثوقة لعدة سنوات، وهي تصف ميتاني بأنها عبارة عن تحكافل من الأحناس.

وطبقاً لهذه المرضية فإن دولة ميتاني ظهرت عندما تركت الأرستقراطية الآرية (الهندو إيرانية) التي كانت تمتلك الخيول والعربات، وذهبت وهي من الهجرات الآرية الرئيسية من جنوب شرقي آسيا إلى الهند في أوائل الألف الثاني ق.م، وقد فرضت نفسها على المجموعات الحورية

ولكن أحد العلماء الروس ذي البصيرة الثيرة نقص هذه النظرية مهائياً، وقد أشار هذا العالم أن الأساس الرئيسي لهذه النظرية هو وجود بعض الرقم الهندو أوروبية خمس مرات في بعض النصوص التي تعد بعشرات الألوف، ووجود اصطلاحين أو ثلاثة تتعلق بتمرينات الخيول، ووجود أربعة أسماء آلهة هندو أوروبية بشكل حوري، وبحو عشرين من الأسماء الشخصية من أصول غير معروفة التي تظهر بشكل سطحي كما لو أنها كانت هندو إيرانية.

إن الأهمية الرئيسية بالنسبة للتاريخ الآشوري الذي يصف مملكة ميتاني الحورية هي أنها حالما توسعت بدأت بالتحرك شرقاً إلى أراضي ما نفهم عادة بأنها أراضي آشور التي حولوها إلى أراضي تابعة لهم، ولكن قسماً من آشور كان ما يزال مستقلاً في النصف الثاني من القرن السادس عشر، نظراً لأنه وبعد عام (١٥٥٠) - إذا كنا نستطيع الوثوق بأي تاريخ- فإن أحد ملوك آشور الصغار الأهمية استطاع عقد معاهدة حدودية مع بابل، وهناك دلالة أخرى تدل على استمرار استقلال آشور، وهي الهدية التي أرسلتها آشور إلى مصر بعد الصدام الذي حدث بين مصر وميتاني عام (١٤٧٢) وظهر أنه بعد هذا التاريخ بزمان قصير استطاع الملك الميتاني زواستر ضم آشور إلى حكمه.

ضم آشور

لقد سُجِّل أن زواستر نهب من آشور باباً مرصعاً بالفضة والذهب زين به حصره في (وشوكاسي) وكان هذا قد حدث أثناء غارة خاطفة، ولكن هناك شواهد تدل على وجود ميتاني في آشور فترة طويلة، إذ أصبح ملوك آشور الآن تابعين لميتاني ولم يكن حكمهم إلا بالاسم محسوب، وتذكر النصوص التشريعية التي وجدت في

آشور ابتداءً من القرن الخامس عشر وجود موظفين بأسماء حورية، وترك موظفان انصافاً تدل أن أسلافهم قد خدموا ملك (هاني جالبات) وهو اسم آخر لميتاني، ويذكر الملك الآشوري (آشورا بالبيت) في عام (١٢٦٠) أن ملك (هاني جالبات) كان أحد أسلافه قبل عدة أجيال، ولقد امتدت سيطرة ميتاني عبر بلاد آشور حتى (زاغروس) وإلى الجنوب الشرقي لتشمل منطقة كركوك.

وتحت سيادة ميتاني أصبحت آشور ذات وضع ثانوي حيث إنه ولادة حكم سنة ملوك حتى عام (١٤٢٠) لم يلاحظ وجود أي نقوش ملكية أبداً، وقد وجدت هذه الشواهد عن أحوال آشور في تلك الفترة من محفوظات وجدت في بعض البلدات في منطقة كركوك، ومعظمها من موقع يدعى (نوري) وهذه الوثائق تعطي إدراكاً ممتازاً بالسبب للحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة (نوري) ويظهر أن تعود الثقافة الحورية كان قوياً جداً، وليس هناك من شيء يوحي أن منطقة نوري التي كانت هامشية سياسياً وثقافياً بالنسبة لآشور قد أصبحت ذات أهمية عظيمة أكثر من ذي قبل، وأن التأكيد الظاهر على هذه المنطقة في ذلك الوقت ما هو إلا مجرد حادث سببه الاكتشافات الأثرية.

وهناك شيء واحد تظهره لنا وثائق (نوري) حول آشور بصورة عامة أنه وأثناء الحكم والسيطرة الميتانية، لم تكن آشور مملكة واحدة حتى وعندما كانت تابعة لميتاني، إذ إن منطقة (نوري) المؤسسة على أراسا (كركوك) كانت تعامل بالتأكيد كمملكة ثانوية لها مملكتها الضعيف الخاص بها وهي منفصلة عن آشور إدارياً، وهناك ثلاثة ملوك من (أرانجا) معروفون بأسمائهم، وكان هناك حضور ميتاني قوي هناك، وقد وجد كثير من الأشخاص هناك يحملون أسماء (هيجالباتية) أي (ميتانية) وكان بعضهم مقيماً هناك ويمتلكون إعاشات عذائية، والآخرين مستقرون بصورة مؤقتة كموظمين أو مراسلين، وأن التشويه بالعربات الحربية الهيجالباتية يعرهن على وجود وحدات عسكرية ميتانية، وكانت مراكز آشور وأربيل وبيوى مناطق إدارية منفصلة، مع أن الشواهد على ذلك لم تظهر بعد.

استقلال آشور

عند نهاية القرن الخامس عشر ظهرت دلالات عن بداية انتماش آشور، فقد بدأ إعادة بناء أسوار آشور، نظراً لأن وجود أسوار في أي عاصمة قديمة في الشرق الأدنى كان دالة على استقلالها، لاسيما وأنه قد عقدت معاهدة حدودية بين آشور وبابل، وبحو عام ١٤٠٠ ق.م أظهر أحد ملوك آشور أنه رجل الموقف عندما ترامل مع ملك مصر واستعق هدية مقدارها عشرون مثقالاً من الذهب، تلك الحقيقة التي ذكرها حليفته الثاني آشور أباليت الأول (١٢٦٥ - ١٢٢٠)

ويحبرنا أحد ملوك ميتاني عن الظروف ولكن ليس في السنة ذاتها التي تحلست بها سورية من السيطرة الميتانية، وتأتي هذه المعلومات من معاهدة (مؤلفة من نسختين عقدت بين ميتاني والحثيين، ومع هذا الوضع وجدت مملكة حورية ثانية بجانب ميتاني تعرف باسم حوري مع وجود المناهضة بين حاكمي المملكتين الأقرباء وعندما ظهر الاحتكاك الأوسع بين ميتاني والحثيين سمح الموقف الموالي للحثيين في حوري أن يهاجم هؤلاء ميتاني، وتبع ذلك حدوث أزمة في ميتاني وفي آشور ومملكة أخرى، وقد انتهت هذه الفرصة (الشي) (ربما في طور عابدين) ليستولي على أراضي ميتاني، ولم يذكر اسم الملك الآشوري ذي العلاقة ولكن التواريخ تشير أنه والد (آشور أباليت) المدعو (ايريبا أداد) ١٢٩٢ - ١٢٦٦

وعندما كتب آشور أباليت رسالة إلى ملك مصر بعد عام ١٢٦٥ فقد كان قد تحرر من آخر مظهر من مظاهر تابعية للسيطرة الميتانية، وشمر بأنه قادر على التكلم معه كالأب للابن وخاطبه باسم أخي، ولم يقبل استقلال آشور الجديد من قبل الجميع، فقد شكوا ملك بابل إلى ملك مصر ضد الآشوريين عندما ادعى أن هؤلاء من أتباعه، فقد قال في الرسالة إلى ملك مصر

لماذا أتى هؤلاء الآشوريون الذين هم أتباعي إلى بلادك؟ فإذا كنت تحبني لا تدعهم يحصلون على ما يريدون بل أرجعهم فارغي اليده

ولكن إهداء ملك بابل بأن الآشوريين أتباعه لم يكن سوى انعكاس لبدائية طموح لا طاقة له به، وهو أن يعيد السيطرة على جيرانه الشماليين نظراً لأن حكم الميثانيين الآشوريين قد انتهى.

لقد بدأت آشور تزيد من أهميتها الدولية أثناء حكم (آشور أباليث) فنحن نعلم أنه كان لديه روابط أميرية مع بابل، وكان قادتها راغبين في التدخل في قضايا وراثته المرش هناك، وهناك نص يدل ويسجل المواجهة بين بابل وآشور يحررنا مايلي:

هر رمن آشور أباليث ملك آشور فجريت جنود كتابيت ضد كازاهار داشن ملك كاردونيش (بابل) وهو ابن السيدة (موبالينات شيروا) وهي ابنة آشور أباليث وقتلوه. وقد ذهب آشور أباليث إلى كاردونيش لينتقم لحفيده ولتصيب كوريجالزو الأسفر ملكاً.

الروابط مع مصر

وكما ذكرنا آنفاً كان آشور أباليث يتراسل مع ملك مصر ولدينا رسالتان من رسائله وإحداهما تستحق أن نقلها للقارئ كاملة وهي:

((إلى ملك مصر، هكذا يقول ملك آشور، أتمنى أن تكون بصحة جيدة، وكذلك أهلك وبلادك وعرباتك الحربية وجنودك لقد أرسلت مبعوثي إليك ليبرأك ويبري بلادك، لقد بدأت بالاتصال بك اليوم نظراً لأنه وحتى هذا الزمن لم يتصل أحد من أجدادي بكم، ولقد أرسلت لك عربة حربية جميلة وجوهرة من اللازورد الحقيقي، لا تزخر رسولني الذي أرسلته لرؤيتك فهو سوف يراك ويعود، دعه يطلع على أحوالك وبلادك ويعنها دعه يعود)).

نحن نرى أن الملك يؤكد أن المبعوث لا ينبغي أن يبقى في مصر بل يعود إلى آشور فوراً بعد أن يطلع على مصر والملك المصري، ومن الواضح أن آشور أباليث لم يصكر أن يصبح تابعاً لمصر بل كان ينوي أن يستفيد من هذه الروابط مع مصر ما هو من مصلحة آشور..

إن الهدايا التي أرسلها آشور أباليت تستحق التعليق وهي تدعى **Sulmanu** وهذا معناه هدايا للمبادرة بصنع علاقات ودية مع توقع شيء مقابل ذلك، وهذا هو **Sulmanu**، وهي مقدمة لعلاقات تجارية فضلاً عن علاقات سياسية، وهذا ينطبق على تقاليد آشور بالنسبة للتجارة العالمية المتمثلة بالعلاقات القديمة مع الأناضول الوسطى.

لقد افترضت الصلات المصرية المرتقبة، وهذا يظهر من الرسالة الثانية التي وجدت في المحفوظات المصرية من آشور أباليت، وهي تشير إلى أن الرسل من مصر إلى آشور قد قوبلوا بالحفاوة البالغة في البلاط الآشوري، وهكذا بدأت التجارة، أو كانت على وشك أن تبدأ نظراً لأن آشور أباليت قد أرسل هدايا أخرى وطلب كمية مناسبة من الذهب مقابل ذلك لأجل زخرفة القصر الذي كان يبنيه، ولقد أصر على طلب الذهب وأكد أن الكمية التي أرسلها لم تكن أقل من الكمية التي أرسلت إلى بعض الملوك القدامى فحسب بل إنها كانت غير كافية لتغطية المصاريف للحفاظ على العلاقات المصرية، وهذه الإشارة الواضحة الصريحة لمظاهر الريح والخسارة من الواضح أنها سوف تثير العناصر التجارية في هذه المفاوضات.

من الملكية إلى الإمبراطورية

إن آشور أباليت هو الذي تمود إليه بداية الإمبراطورية الآشورية، إلا أن آشور نفسها هي التي مارست القمع والإبطال، ولكن هذه لم تقدم أي كبح دائم لعملية قيامها بتوسيعها في الشرق الأدنى، وكان للدول الأخرى طريقتها بالتوسع ولكن لم يكن هناك أي دولة تستطيع أن تباري آشور في طلب السيادة لمدة قرون على أراضي فيما وراء حدودها الطبيعية.

لم يعطيا آشور أباليت نفسه أي تفاصيل عن حملاته العسكرية، ولكننا نعلم عن مثل هذه الحملات من بعض التلميحات من قبيل دريته، وهذه التلميحات تدل على أنه قد يادر بالهجوم شمالاً، وهذا كان طبيعياً زمن ملك نشيط في آشور

التي قد تحررت حديثاً من الحكم الأجنبي، وكانت إحدى مشكلات آشور المناطق الجبلية فيما وراء نينوى وأربيل إلى الشمال والشرق، حيث كان الرجال الجيليون يقومون بمارات على سهول آشور، وكانت هذه المناطق مهمة لكوبها مصادر للحصول على الحامات المعدنية والخشب والحجارة بصف الصكرمة، وكانت تحتوي على مناطق مهمة لتربية الخيول. وحالما بدأ الملوك الآشوريون في كتابة النقوش التي تعطي أوصافاً مفصلة لحملاتهم أصبحت النشاطات العسكرية في الجبال الشمالية والشرقية موضوعاً كثير الحديث، ولمسوء الحظ فإن المناطق ذات العلاقة، مثل المناطق الجبلية في العراق وسورية وتركيا وإيران، كانت لا تزال حساسة، وهذا يمرض إعادة إمكانية عمل مسح لهذه المناطق مما ترك شكوكاً لا يأمن بها حول تحديد الأمكنة المذكورة في النقوش الآشورية.

ولقد قال الحميد الأكبر لآشور أباليث عنه إنه كان حريصاً على تأمين الأمن والسلامة لنفسه في أي مناطق بعيدة حتى حدود الجبال، وقد عرّ لسياسة السباح ضد القوى القاطنة في الأراض الس الواسعة التي يسكنها (السباريان) «بلا تدعى (موسري)» وإن كلمة السباريان هي كلمة جالبة للمصطلاب لها حد «بلا» مختلفة في فترات متعددة، إن عنصرها الدائم أنها تدل دائماً على شموه تصكبن في شمال المثلث (وهذه من الممكن أن تعني كلمة تعود إلى عصر ما قبل السومريين تعني «الجنبيين»).

وهذا الاستعمال يعني أن كلمة أرض سد السابريان في ذلك الوقت تشير إلى مكان يقع إلى الشمال من الموصل، وهناك اختلاف حول المكان الدقيق (المصري) ولكن هاتين الكلمتين ربما تدلان على أن آشور أباليث اندفع إلى الشمال الغربي للسيطرة على (طور عابدين) وهصبتها، ونحن نسمع بعد ذلك الشيء الكثير عن هذه المنطقة التي تعرف طبقاً للمصادر الآشورية باسم كاشياري.

وعندما قدمنا النصف الثاني للقرن الرابع عشر وقتها، إنه يؤلم بداية عصر جديد بالنسبة لآشور، كانت هذه التقدمه وسيلة حديثة لمرز التاريخ وتقسيمه إلى شرائح من الممكن التعامل معها، ولقد تعامل الآشوريون وعلوكهم مع هذه

الحقيقة بنفس الطريقة وهي حقيقة نعكسها الألقاب الملكية، ومع أننا كنا نتكلم عن الملوك الآشوريين ابتداء من زمن الحكام الوطنيين في الألف الثالث، وجدنا أن حاكماً واحداً آشور قد اتخذ لقب ملك خلال هذه النقوش الرسمية قبل القرن الرابع عشر، ويكمن تحت هذا سبب من الممكن أن يدعوه لاهوتي أو ديني. إذ إنه من وجهة الشعب الآشوري المتدين فقد كان الإله آشور هو الملك، أما الحاكم فهو ممثله من البشر.

أما الأبيية الملكية والنقوش الكريمة فقد كانت أصلاً وثائق دينية يتعهد بها أن تحل أعمال الحاكم التي تلعت انتباه الإله، وهكذا كان من المناسب أن نقول إنه وفي مثل هذه الوثائق كان الملك يشير لنفسه بأسماء مثل الحاكم، أو النائب، أو رئيس العمال أو الخدم، أو القاضي الأعلى، ولقد ظهرت بدعة في النقوش الرسمية المتأخرة (لأريك دن إيلي) (١٢١٩ - ١٢٠٨) الذي تجاسر وقدم لنفسه لقب الملك القوي، ملك آشور، وهذا تمييز يوحي بقرار حارم لتقديم اصطلاحات طنانة، فمن جهة حقاً لقد لُقِبَ (أريك دن إيلي) من قبل جده آشور أباليت الذي دعا نفسه ملك آشور، الملك العظيم وذلك في مراسلاته مع ملك مصر وسمى نفسه ملك آشور وذلك في حتمه، ولم يكن من هذه الألقاب لتستعمل في النقوش الرسمية المقصود بها اطلاع الآلهة.

ولقد تجاوز (حدد نيراري) وهو ابن (أريك دن إيلي) والده بدعوة نفسه ملك الكون.

لم تكن المناطق الشمالية فقط هي التي تأثرت بتوسع الآشوريين في بدايته، فلقد رأينا أن قتل أحد ملوك بابل وهو حفيد (آشور أباليت) قد أدى بالملك الآشوري للتدخل في شؤون وراثة العرش البابلي، ولقد استمر التوتر الناتج عن ذلك بعد موت آشور أباليت ويوصف حليفته أناتيل ناراري الأول (١٢٢٩ - ١٢٢٠) من قبل حفيده بأنه الرجل الذي دبح ملوك الكاسيت، وهذا يدل على بابل التي كانت منذ عام ١٦٠٠ تحت حكم الأسرة الكاسيتية من زاغروس، وتذكر إحدى التواريخ معركة آشورية بابلية في مكان على بعد عشرين ميلاً جنوب غرب أربيل،

وقد بدا كَمَا أَنَّ ملك بابل قد غزا آشور في محاولة لتأكيد سيادته على آشور التي ادَّعى بها قبل نصف قرن خلال مراسلاته مع ملك مصر ، ولكن أضيف وصف آخر منح لأنليل ناريري الأول وهو:

«الشخص الذي وسَّع الحدود والتخوم» وذلك يشير إلى محاولة قام بها لتوسيع أو على الأقل لدعم هذا التوسع تحت حكم آشور أبايته

ولقد وسَّع الملك الآشوري التالي وهو (أريك دن إيلي) (١٢١٩ – ١٢٠٨)، وطبقاً لما ذكر ابنه ، وسَّع الحدود الآشورية وتتفق إحدى التواريخ الآشورية ولكن بتفاصيل تُظهر أن أنشطة (أريك دن إيلي) العسكرية لم تكن مجرد توسع ، بل حرباً للحصول على بقاء الوطن ، ويذكر هذا التاريخ حادثة طرد الأعداء من منطقة تبعد بضعة أميال إلى الشمال من نينوي ، وهذا يدل على أنه حتى وسط البلاد الآشورية كانت مهددة من قبل غزاة من سهوح جبال طوروس ، وقد تقلب (أريك دن إيلي) على هذه التهديدات وانسحب شمالاً إلى طوروس الشرقية حيث سكن الشعب المنتشر بكثافة المدعو شعب (القرطيين) وبعد ذلك اندفع باتجاه شمال غربي للاستيلاء على سهل ككادموخ وهو السهل الواقع غربي نهر دجلة والذي تحيط به هضبة (طور عابدين)

الفصل الرابع

توسُّع آشور

ندخل فترة أغنى بكثير بالنسبة للنقوش التاريخية، والملك المقصود هو (حدد نيراري) الأول (١٢٠٧ - ١٢٧٥) وقد جسا نَحْبُنَا الفضل لأشور أناليت باتخاذ الخطوات الأولى التي كانت سوف تؤدي إلى نشوء وارتقاء شأن الإمبراطورية الآشورية، ولقد كانت مجزأت (حدد نيراري) كافية لجعل بعض المؤرخين يصممونه في دور مؤسس الإمبراطورية، وهذه النقطة ندعو للعدل ولصن من المؤكد أن حدد نيراري كان شخصية رئيسية بالنسبة للتوسع الآشوري.

حدد نيراري الأول

لقد وصف حدد نيراري نفسه بقاتل الجماعات المتوحشة من قبائل الككاشيات والكوتنياس واللولومونيهان والمويريان، وكانت كلمة الككاشيات تعني عادة البابليين في هذا الوقت (من المتعمل هنا بالإشارة إلى الحدود الجنوبية الشرقية لأشور) وكان الآخرون هم الشعوب الجبلية في زاغروس وطوروس الشرقية ابتداءً من جنوب كركدستان إلى شمال غرب آشور، وأما في المناطق الأخرى فقد حدد حدد نيراري فتوحاته بمصطلحات أرضية مثلاً من بلدة (لوبيدي) وأرض رابيككو إلى ايلوهات، وكانت لوبيدي قرب كرككوك وهي قلعة تشير إلى الحدود في الغرب.

وأما ايلوهات فلم يتحدد موقعها، وقد ذكر بعضهم أنها واقعة إلى الشمال من ديار بكر، ولكن يظهر أنها كانت إلى الجنوب من ذلك الموقع، وتقع ديار بكر إلى الشمال من هضبة طور عابدين، بينما هناك ثلاث بلدات سماها حدد نيراري كانت بالناسكيد إلى الجنوب من طور عابدين، وهذا يوحي أن حدد نيراري كان يعامل طور عابدين كحدود يسيطر عليها، ونجد الآن أن الجانب الجنوبي من هضبة طور عابدين يرتفع فوق السهل، وهناك قلة بارزة واقعة فوق تلة (وتدعى الآن ماردين) وهي تحرس أحد الممرات، وابتقاء للأمان فإن أي شعب يحتل السهل

إلى الجنوب من طور عابدين سوف يحاول الاستيلاء على ماردين. وهكذا من الممكن أن تكون نقطة الحدود (أيلومات) التي ذكرها حدد نيراري، هي ماردين بالذات.

ولقد اشتملت فتوحات حدد نيراري جنوب طور عابدين عدة مدن ميثانية بينها المدينة الميثانية العاصمة وهي واشوكاني (أوشوكاني) وهنا بدأت العلاقات بالتوتر ما بين ميثاني وآشور مع بقية مملكة ميثاني التي يشار إليها الآن باسم هانيجالبات أو (هانيجالبات) التي ادعى الآشوريون أنها خاضعة لهم، وعندما أظهر ملك هانيجالبات المداوة لآشور، عمد (حدد نيراري) إلى اعتقاله ثم جلبه إلى مدينة آشور حيث أقسم بأن يكون تابعاً، وأجبر على إرسال جزية سنوية، ولحق هذه التبعة ضعف واستغرق توقف هانيجالبات عن المقاومة وقتاً طويلاً، ولكن الملك الذي تلاه أعلن عصيانه وطلب المساعدة العسكرية من الجيش وهي القوة الرئيسية في المنطقة، إلا أن الجيشيين بقوا معابدين في هذا الطرف وبذلك سمحوا لحدد نيراري بالتعطب على قوى هانيجالبات وضم بلاده إلى آشور، ولقد تشجع حدد نيراري بما لحقه من حياد الحثيين فبدأ بإقامة علاقات سياسية مع ملك الحثيين القوي وتكلم عن الأخوة بينهما

ولكن الملك الحثي لم يحسن متائراً بالمظمة الآشورية فعامل حدد نيراري باردراء فتكتب له يقول

((لماذا تود أن أكتب لك حول الأخوة؟ فهل أنت وأنا خلقنا من نفس الأم؟))

وبعد أن أصبحت هانيجالبات تحت قبضته أصبح حدد نيراري الآن مسيطراً على المنطقة بأجمعها حتى المعطف الكبير للفرات، وهو من الحدود الطبيعية الرئيسية، وإلى الغرب والشمال من هذه المنطقة كانت تقع الإمبراطورية الحثية، وهكذا فقد أصبحت المنطقة الغربية والشمالية الواقعة بين دجلة والفرات تحت السيطرة الآشورية حتى المنطقة، حيث يقرب هذان النهران العظيمان من بعضهما في الشمال، وقد ساعد النهران على جعل هذه المنطقة منيرة ولكلها أعطيا هذه المنطقة أهمية أخرى، إذ نظراً لأن هذين النهرين يحددان الطرق التجارية الرئيسية

في الشرق الأدنى القديم، لهذا أصبحت آشور الآن تمتلك السيطرة على هذه الطرق، مع أننا ينبغي أن نعتصر أن أجزاء هذه الطرق التي تسير من غرب القرات إلى البحر الأبيض المتوسط كانت تحت سيطرة أيام صديقة، وخوفاً من أن يحدث العكس بالنسبة لهذه المناطق فقد كان هذا سبباً رئيسياً للتوسع خلال منطقة البحر الأبيض المتوسط.

وأما في الجنوب وإلى الشرق من نهر دجلة فقد كان هناك ثلاثة حدود محتملة ما بين آشور وبابل ابتداء من الشمال إلى الجنوب، وكانت هذه الحدود الثلاثة محصورة ما بين الرواهد الثلاثة وهي الراب الأدنى والدهم وديالا، ولقد شهدت هذه الحدود تصادمات عديدة خلال التاريخ الآشوري البابلي.

وقد عكس الخد الذي اتخذته هذه الحدود الحالات النسبية الراهنة للمملكتين، إذ إنه وبعد المصادمات الحدودية امتطاع حدد نيراري أن يُملي اتفاقاً مع إحدى مناطق الحدود في خط يتبع نهر ديبالا من الرارغروس وتلالها حتى نهر دجلة، وقد ظهرت قصائد بطولية وهي إحدى الأعمال الأدبية الآشورية الأولى الفت للاحتفاء بالنصر الآشوري.

ولكن بابل أيضاً قد أحرزت نصراً ظلاً وقتاً طويلاً، إذ إنه ومنذ هذا الزمن أصبح هناك تزايد مرموق لنموذ الثقافة البابلية في آشور فقد أصبح أنليل الذي كان يتمتع بالسيادة في بابل تلك السيادة التي كانت تنتمي إلى الإله آشور في دولة آشور، هذه السيادة للاله أنليل أصبحت واضحة وبارزة في آشور، ولكن كلاً من حدد نيراري وابنه شلمناصر الأول أطلقا على أنفسهما لقباً رئيسياً وهو حاكم الإله أنليل.

وهذا وإن كانت أول قصيدة آشورية بطولية ذكرت أعلاه ما هي إلا علامة أخرى لوجود النفوذ البابلي في آشور، وأيضاً استعمال اللهجة البابلية (وليس الآشورية) عند كتابة النقوش الملكية الآشورية وهذه اللهجة البابلية قد ازداد عددها ابتداءً من زمن شلمناصر الأول.

شلمناصر الأول

يعود شلمناصر الأول (١٢٧٤ - ١٢٤٥) قم وهو ابن حلد نيراري إلى فترة قدر لها أن تلعب دوراً مرموقاً في الشؤون الآشورية خلال القرون الخمسة التالية، فنحن نقابل في نقوشه كلمة يورواتري الذي تغير إلى يورواتري، فهي أوائل الألف وكانت يورواتري تدل على مملكة قوية متمركزة على بحيرة (هاس) شرقي تركيا، وكانت هذه قادرة أن تتحدى الإمبراطورية الآشورية نفسها، ولعكس وفي أثناء حكم شلمناصر كانت هذه المملكة تتألف من اتحاد شعوب واقعة في جبال أرمينيا

ويذكر شلمناصر شاسي أراضٍ جبلية تؤلف اسم يورواتري، ومع أن هذه لم تصبح مملكة واحدة إلا أنها كانت امتداداً واسماً من السكان المستعبدين نظراً لأن شلمناصر يتكلم عن تخريبه إحدى وخمسين مدينة من مدنهم، حيث يشير المصطلح الآخر إلى أي مركز سكاني ابتداءً من القرية حتى المدينة الرئيسية.

وطبقاً لأفضل الترجمات الحديثة يقول شلمناصر إنه قد هاجم شعب يورواتري لأنهم تمردوا والترجمة تدل أن شلمناصر كان يظن أن هذا الشعب من أتباعه الخاصين له، ولعكس الفعل يستعمل غالباً للدلالة على معنى محايد عن أولئك الذين يمبرون الحدود، ويبدو أنه من المحتمل أن هذا هو المعنى الصحيح للكلمة، فإن بعض شعب يورواتري كانوا يحاولون الانتداع جنوباً إلى حيث كان شلمناصر يدعي بأنها أرض آشورية، وهكذا تقدم شلمناصر لهاجتهم وصدهم حفاظاً على الأمن القومي.

ويحبرنا شلمناصر أنه قد سجل بعض شيايب يورواتري جنوداً في خدمته، وهذا يعني وجهاً جديداً في السياسة الآشورية، إذ إنه ابتداءً من هذا الزمن أصبحت تتقل الشعوب المغلوبة على مقبلات أصبح واسماً حقاً، وهذا العمل يتطلب بعض التفسير، فهناك تفسير مألوف وهو أن الهدف الرئيسي للآشوريين هو إسكان الشعوب المغلوبة ذات الميول التمردية حيث لا يستطيعون القيام بأي إرعاغ لاسيما إذا سلكوا بين ظهر أي مجموعة عرقية غريبة.

ومن الممكن أن يكون هذا سبباً وجيهاً لهذه السياسة، ولكن من الصعب أن يكون سبباً وتفسيراً كاملاً، فلو كان الأمن العسكري هو الاعتبار الرئيسي فإن الآشوريين الذين لم يكونوا شعباً متأنقاً، فإن باستطاعتهم إحراز هذه الغاية عن طريق القتل الجماعي، ولذلك فإنه من الممكن أن يكون الحافز لهذه العملية من الإبعاد والتجهيز الجماعي هو حافز إقتصادي.

وبعد التوسع في داخل هابيجالبات (وهي أساس ميثاني القديمة) فقد اكتسبت آشور أراضي جديدة واسعة لا تمتلك صناعات زراعية مدمرة فعسب، بل بلدات ومدن ناحية وهذه الأخيرة قد وجد فيها صناعات مدمرة متعددة من أعمال معدنية، ونشر الحشب، وحرارة بالمحرطة، والبناء، وصناعة الجواهر وهلم جرا، وقد ألف أصحاب الحرف هؤلاء مجموعة من المحتصين يمكن استخدامها لمصلحة آشور.

هذا وإن القوة البشرية الإضائية التي أصبحت متوفرة حالما استولت آشور على مناطق أخرى إلى الشمال، سمحت بالاستثمار الواسع للأراضي الآشورية الزراعية المنتجة، وإن تعميد مثل هذه الإجراءات اقتضى حدوث حركات وتقلبات على مقياس واسع للسكان، ويدكر شلمناصر نفسه عن تجميع (١٤٤٠٠) من الشعب من هابيجالبات، ومن الممكن أن يضيف أنه ذكر قصة إحداث العمى بالمسبة لهؤلاء المهجرين، ولكننا نرى أن العمى كان لمين واحدة فقط، وإلا فإن هؤلاء العميان سوف يصبحون عبئاً اقتصادياً أكثر منهم مصادر قوة ناهمة.

ولم يدكر شلمناصر ما فعله بأولئك الأسرى، ولكن هناك بعض الوثائق الإدارية التي صدرت في زمن شلمناصر أو حلفائه أعطت فكرة عما حدث لهؤلاء من أسرى الحرب من المناطق الأخرى، وهذه النصوص تدكر وجود حصص من الإعاشة من الحبوب والصوف، وهذا الأخير كان لتزويد العمال بمادة خام لصنع ملابسهم.

وهناك نص يدكر حصص الإعاشة من القصر (وهذا يعني رئاسة الإدارة) وهو يمين شخصية الممثلين، وكان هناك (٧٢٠) أسيراً من أراضي شويرو

مقسمين في أربع مجموعات، كل مجموعة تحت إشراف مشرف آشوري مع وجود رئيس مسؤول عن الجميع، وكان هناك (٩٩) أسيراً من أراضي نينوى و (١٧٤) أسيراً من كادموخ تحت إشراف موظفين آشوريين، وكانت هذه الأراضي في المناطق الشمالية.

وكانت كادموخ في المنطقة ما بين الدجلة وطور عابدين، وكانت شويرو داخل أو شمال طور عابدين، كانت نينوى تقع إلى الشمال من نهر دجلة وإلى الغرب من بحيرة (هان).

ومع أننا لا نعلم الأعمال التي كان هؤلاء يكلفون بعملها، إلا أننا من الممكن أن نستنتج ذلك، فهي النص يذكر وجود (عاشة) (على مقياس أكثر كرمًا) لبعض الآشوريين الذين يعملون كبنائين، وإن شمول البنائين الآشوريين يعني إنهم كانوا مهندسين معماريين يشرفون على أعمال البناء بينما كان يعمل الأجانب كعمال بناء، وينبغي أن نلاحظ أن مجموع العمال الأجانب بالإضافة إلى سبعة موظفين آشوريين مسؤولين عنهم فإن المجموع النهائي يبلغ الألف.

وإذا أننا للتاريخ السياسي نجد أنه وخلال حكم شلمنصر كان هناك استئناف لأعمال الشعب في هاتجالات، فقد ثارت تلك المنطقة بقيادة ملكها التابع لآشور، وهكذا انقضى شلمنصر على تلك المنطقة طبقاً للأسلوب الذي اتبعه والده، ولكن ظهر عامل جديد الآن في هذه القضية والوضع وهو أننا نسمع الآن عن شعب يدعى (أخلامو) قد دعموا وساعدوا الهاتجالاتيين، وهؤلاء الأخلامو كانوا حلفاء للأراميين وهم موجة جديدة من الساميين أتوا من الصحراء خلال الألف الثاني، وقد قرر لهم أن يقوموا بصدمات وتأثيرات كبيرة في الشرق الأدنى.

وفي هذه المناسبة استلم الهاتجالات مساعدات من الحثيين وكانت هذه المساعدات لا تشمل المساعدات العسكرية ولكنها اشتملت على عقوبات اقتصادية ضد الآشوريين، ففي إحدى المعاهدات مع إحدى الدول الحاصمة وهي دولة أمورو في سورية، يقول الملك الحثي:

«لا ينبغي لأي تاجر من تجاركم أن يذهب إلى بلاد آشور، ولا ينبغي أن تسمعوا لأي تاجر منهم أن يدخل بلادكم».

وكان الحثيون لا يزالون هم القوة المهيمنة الرئيسية، ولكن الأهمية المتنامية لآشور قد اعترف بها الآن، وعدا عن الاحتكاك فإن كلاً من شلمنصر وخليفته (توكولتي نينورتا) قد قاما بمعاهدات دبلوماسية مع الملك الحثي وذلك كما تدل بعض القطع من رسائلهم، ولم يعد الملك الحثي يهزأ بنظيره الآشوري كما حدث في زمن آشور ابلات، ولكنه كان يطلق عليه اسم الأخ المساوي له.

إن التطورات التي حدثت في زمن شلمنصر تقدم لنا الفرصة السانحة للمس طبيعة الملكية الآشورية، ومنذ البداية كنا نتكلم عن الحكام الآشوريين كمملوك، ولكن الأشخاص المشار إليهم كانوا غالباً ما يستعملون ألقاباً أخرى، وكانوا يظنون أنهم تقريباً ملوكاً، فقد كان الملك الحقيقي للبلاد هو الإله آشور.

ومن وجهة دينية كان الحاكم البشري هو نائب الملك الإلهي، ومع ذلك وبسبب ذلك كانت قوته تعد أكثر من قوة بشرية نظراً لأنه كان يعمل نائباً عن الإله، ونحن نلاحظ هذا الوعي والشعور بأن الملك هو ممثل الإله وبصورة خاصة لدى شلمنصر، فإن توسعه ودخوله المناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية قد أدت به أن يفكر أنه هو الراعي الإلهي الذي رفعت الآلهة فوق البشر المتعاضرين، ولقد كان يجبر الآخرين أن يدعوه راعي المجتمع البشري والمستوطنات البشرية، والراعي الصادق، وكان هذا اللقب من ألقابه الفريدة التي استعملها الكثير من خلفائه.

وعلى المستوى الإنمائي فإن أنشطة شلمنصر في الحدود الشمالية يبدو أنها كانت تصارع اهتماماً جديداً بالمدينة الشمالية العظيمة نينوى، فالنصوص من شلمنصر تذكر عن إعادة بناء أحد المعابد هناك بالإضافة إلى معبد يخص آلهة تدعى: آلهة نينوى (أي: عشتار التي يحترمها أهالي نينوى) وقد وجدت هذه النصوص في داخل (العاصمة آشور نفسها).

هذا وقد وجدت أنواع من الألواح المختصة بشؤون العمل في تل (الرماح) على بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الغرب من نينوى، ويعود تاريخها إلى عهد متأخر من حكم شلمنصر أوائل عهد خلفته، وهذا يشهد على وجود تجارة مزدهرة في القطاع الشمالي من آشور بما فيها تجارة التصدير مع بلاد نابيري، والأناضول وقد سمعنا فيما بعد انه لا شك ولحماية هذه التجارة فإن شلمنصر قد وضع حاميتين في مدينتين على حدود (نابيري) ولكن هاتين الحاميتين قد احتلتها جيوش الآراميين فيما بعد، ومع أن نينوى لم تصبح العاصمة الرسمية لآشور حتى الألف الأول قـم إلا أن أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية بدأت تتفوق على آشور حالما بدأت فترة توسع الدولة الآشورية شمالاً وغرباً، وإن اهتمام شلمنصر بنينوى ينعكس هذا الوضع.

توكولتي نينورتا الأول

لقد استمرت عملية توسع آشور المتحركة تحت حكم توكولتي نينورتا الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨) وهو ابن شلمنصر، وكان هذا من الماتحين الذين يشبههم البعض بمرود، وأنه كان مسحة عن مرود، وهو الذي تصفه التوراة في سفر التكوين (٨/١٠) بكونه الصياد القوي، أمام الإله، وهناك حالات مشتركة بين أعمال توكولتي نينورتا الباهرة وأعمال والده وجده. ولا عجب في ذلك ما دام أن المشكلات التي كانت آشور مصطرة لمعالجتها لم تتغير ولكن (توكولتي نينورتا) هاق أجداده ليس في النسبة للمصافة فحسب، بل بالنسبة لاستثمار المناطق التي كانت تدور في فلك آشور

هذا ولقد أصبح احتراق آشور واضحاً للعيان. ولقد أصبح توكولتي نينورتا صريحاً بالنسبة للأراضي التي عرفها جيوشه خلال المنطقة الواسعة في الجبال الشمالية التي دعاها أرض القوطيين، وتظهر المعلومات التي أوردها أن لديه معرفة أوسع من معرفة أسلافه بالنسبة لتنظيم الشعب في تلك المنطقة، فلقد سعى

المملكة الرئيسية وحددها باسم (أكوميني أو أكوماني) وفيما بعد أصبح اسمها كوماني) واستطاع أن يعرف اسم ملكها.

ولقد عرف أن البيئة الاجتماعية في تلك المملكة كانت اتحاداً مفسكاً تحت حكم الأمراء، ولكنها كانت متقدمة اجتماعياً نظراً لأنه كان فيها مدن مسورة، وكانت جيوشها حسة التنظيم، وهذه الحقيقة أدت إلى إقتراف سكان الجبال خطأ تكتيكياً، إذ بدلاً من الاعتماد على حرب العصابات في أرضهم الجبلية الصعبة، الأمر الذي كان سوف يقدم لهم فوائد للتفوق على الجيوش الفارية، فقد أشركوا قواهم في معركة محددة، وفي مثل هذه الأمور لم يكونوا أكفاء للقوى الآشورية المدربة، وهكذا أصبح نوكلوثي يسيطر على أراضي القوط الواسعة، وقد أسر أمراء أكوميني وتقلهم إلى آشور وأخذ منهم عهداً بالولاء، وبعدها سمح لهم بالعودة إلى بلادهم كأتباع.

وهما نرى المظهر الاقتصادي للفتوحات الآشورية، وذلك لأن أولئك الأمراء الأتباع المطلوبين كانوا حاصمين لنظام التجنيد وجباية الضرائب الذي في هذه الحالة يعني أن عليهم أن يؤمروا العمال لقطع الأخشاب وإرسالها إلى آشور، وهكذا بدأ نوكلوثي يسيطر على استثمار عائدات طوروس الشرقية خدمة لمشاريعه العمرانية في آشور، وكان على الأمراء تقديم جزية ثقيلة سنوياً لآشور، وكانت الرياضات المنتظمة من هذا النوع تؤمن القضاء التي من خلالها يؤثر النفوذ الثقافي الآشوري على شعب أكوميني، وبعد أيضاً بعض الموظفين من أكوميني يعملون عمالاً في آشور في ذلك الوقت، مقابل استلام الإعاشة من آشور.

ولقد عمل نوكلوثي نيوترا على جمع أخبار فتوحاته بالوصف الجغرافي لحدوده، التي كانت عبارة عن نصف دائرة من الجبال والأراضي الجبلية ابتداءً من الزاب الأدنى حتى الفرات، وتعتمد التفسير الدقيقة لهذا الوصف على إثبات شخصية الأماكن المذكورة التي لم تكن حالية من الالتياسات، ولكن إحدى التفسير المعسكة لحدوده موجودة في الخارطة في الصفحة المقابلة

وبعد أن أصبح الشمال هادئاً اتجه توكونلي نينوترا الآن إلى جلوته الجنوبية وهي بابل، وكانت المصادمات الحدودية الظاهرة المائدة في العلاقات الآشورية البابلية، ولكن ما حدث الآن كان مسألة أشد خطورة تطورت إلى غزوة ناجحة لبابل، ولقد أنشئت قصيدة بطولية للاحتفال بهذا النصر وطبقاً لهذه القصيدة التي تعبر عن وجهة النظر الآشورية، فإن الملك البابلي (كاشتيلاش) هو الذي انتهك حرية السلام وذلك بالإغارة على آشور.

ولكن محب السلام (توكونلي نينوترا) عمل على حل الخصام بصبر عن طريق الوسائل الدبلوماسية حتى أجبرته غطرسة الملك البابلي ولم تترك له خياراً سوى إعلان الحرب، ولقد تبع ذلك غزو ونهب وسلب لبابل ومعبداتها العظمى، قد عُزل ملك بابل وأصبحت بابل معكومة لمدة سبع سنوات من خلال حكام آشوريين.

وكان لهذه الأحداث أبعاد دينية، فلم تكن لبابل بلاداً بربرية يعكس عزوها مثل المناطق الواقعة فيها وراء آشور الشمالية، بل كانت مصدراً ومركزاً حضارياً وكانت العاصمة بابل مزاراً دينياً ذا مرتبة عالية للقداسة، وإذا سلبت بابل في العالم القديم كان مثل سلب الفاتيكان أو القدس في هذه الأيام.

وكان للقصيدة البطولية وظيفة تقديم تبرئة لآشور من التهم ضد الدين والتقوى، فصلاً عن تغذية الشعوب بالمرء لدى الآشوريين بالمصر، فقد عمل توكونلي نينوترا ما قصدت القوى الإلهية منه أن يعمل، وتروي القصيدة كيف أن آلهة بابل بالإضافة إلى الحارس الإلهي مردوك في مقدمتهم قد أشاروا في أول الأمر عن عدم رضاهم عن أعمال ملك بابل كاشتيلاش، وذلك برفض أي إشارات مشجعة لمقاومته توكونلي نينوترا، ولهذا فقد هجرته هذه الآلهة كلياً، وانسحبت من تلك المدن التي كانت تخصهم، وقد تمثل هجر مردوخ لمدينته بابل بأن أخذ ملك آشور تمثال الإله مردوخ ونقله إلى آشور حيث ظل هناك نحو قرن من الزمان على الرغم من استعادة بابل لاستقلالها.

وبشكل تهكمي فإن استيلاء ملك آشور على بابل كان له تأثير طويل الأمد على آشور أكثر من تأثيره على بابل نفسها ، إذ إنه عن طريق هذا الانتصار والاحتكاك الثقلي الواسع فإن آشور أصبحت مفتوحة لتأثير النفوذ البابلي الديني والسياسي ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأسرى الذين أخذوا إلى آشور ومن بينهم ملك بابل كان لهم وقع وتأثير مرموق على آشور ، إذ إنه وخلال سبع سنوات حدث عصيان في بابل مما سبب حدوث صدمة بالنسبة لملك آشور

يدكر ملك آشور في نقشين كتباً في نهاية حكمه أنه وفي بداية حكمه جلب إلى آشور (٢٨٨٠٠) أسير حتى من منطقة فيما وراء نهر الفرات (أي: من شمال سورية) وهذا القول محير وذلك لأنه لم يذكر أي خبر من هذا القبيل في أي نقوش من السنوات الأولى ، فمن علم من كثير من الرسائل أن ملك آشور وفي بداية حكمه كان يحاول أن يبدأ علاقات سياسية حمئة مع الحثيين ، فهل من المقبول أن يكون ملك آشور قد ألفى نقوشه المأصية للحفاظ على حساسية الحثيين ، لكن هذا يبدو غير محتمل الوقوع

إن أي هجوم عام يقوم به ملك آشور على الأراضي الحثية سوف يُسبب إلى العلاقات وبفس النظر عن كون ملك آشور قد احتار أن يسجل هذه الحقيقة أو لا ، وعلى كل حال فإن والده شلمنصر في نقوشه يشير إلى ذبح الجيوش الحثية ، كانت هذه النقوش موصوعة في آشور بحيث إلى المراسلات التي قام بها ملك آشور قلما تسبب المتور بين الدولتين ، ويبدو أن ادعاء ملك آشور بالانتصار على الحثيين لم يكن سوى نوع من المبالغة المؤسسة على عادة بسيطة ، وقد قدم هذا الانتصار على الحثيين في نقوشه لتلميح اسمه وصورته عندما سادت الأمور معه بعد التمرد التاجع الذي حدث في بابل ، وهكذا أصبحت كرامته في الميران فأصبح من الواجب اختراع انتصار ضد قوة عظمى ليقابل تأثيرات حظه الماثر

وحلال القرون بدل الملوك الآشوريون عواصمهم ومن بينهم توكلتي نينورتا ، ولم يوضح الملوك الذين قاموا بالتبديل أسبابهم ، ولكن هناك عاملين بارزين يبدو أنهما عملا في ذلك المسبيل في درجات متفاوتة

والأول: كان استراتيجياً، فالعاصمة القديمة ربما كانت لا تصلح بأن تكون مركزاً للدولة في الحالة الراهنة، ولكن هناك علماً ثانياً: وهو التوتر الحاصل بين المواطنين والحكومة، ففي المدن القديمة كان المواطنون يتمتعون بحقوق تقليدية بما فيه الإجماع من بعض أشكال الضرائب فضلاً عن الحقوق المتوارثة على الأرض، فقد كان من الممكن أن تطغى المشاريع العمرانية في العاصمة على حقوق المواطنين تلك، أو ربما كانت احتياجات الدولة الحالية تقع الملك أن يخفف من الامتيازات المصراثية للمواطنين، وأن أياً من هذه العوامل سوف يولد الاحتكاك.

وهكذا ولتخفيف مثل هذه الاحتكاكات كان الملك يحد أنه من المرحوب فيه نقل عاصمته، وهذا ما فعله ملك آشور توكونوتي نينورتا، فقد بسى في أواخر مدة حكمه عاصمة جديدة هي كار توكونوتي نينورتا على الضفة المقابلة لنهر دجلة لأشور، وذلك لكي تستخدم هذه المدينة كمركز لحكومته ابتداء من زمن جعلته على بابل حتى نهاية حكمه.

فلقد كانت التوترات خلال دولة آشور هي العامل الرئيسي لباء العاصمة الجديدة، وقد سبب هذا التوتر إنهاء حكم توكونوتي نينورتا وإنهاء حياته أيضاً، وخلال سبع سنوات من قلب الآشوريين على بابل حدث عصيان هناك سبب إرجاع ملك بابل الشرعي إلى عرشه الموروث من أجداده، وإرجاع استقلال بابل عن آشور، فقد عملت التقاليد الدينية القديمة في الشرق الأدنى على زعزعة حكم توكونوتي نينورتا، فقد كان أي عصيان ناحج تهديداً لحكم الملك مستديماً موافقة الإله على حكم الملك، وكان هذا العصيان خطراً عندما يحدث في بابل نظراً لما تمتعت به بابل وأنها من هبة وكرامة.

وهكذا حدث بالانتمية لملك آشور، إذ إنه وطبقاً لبعض التواريخ لقد تبع استيقاظ بابل لنيل الاستقلال حدوث مزاورة في القصر في كار توكونوتي نينورتا، ونقول هذه السبعة التاريخية.

((لقد عمد ابن توكونلي نينوترا وهو آشور ناصر بعل ونبلأ آشور إلى القيام بعصيان ضد الوالد الذي مدّ يد الشر على بابل، وأنزلوه عن عرشه وسجنوه في بناء في كار توكونلي نينوترا، وقتلوه بواسطة أحد الأسلحة)).

لقد سبب قتل الملك مع تورط أمير من الأمراء في الحرمة بعض التشويش والبلبلة في قضية وراثته العرش، وقد انصكمت هذه البلبلة على مصادرنا التاريخية، فالتقاتل قد ربح العرش مؤقتاً ولكن ومع أنه فعل هذا فإن ذلك لم يدم طويلاً، لأن الوريث الشرعي المعترف به كان اساً آخر من أبناء توكونلي نينوترا وهو (آشور بادين ابلي) وإن المدة القصيرة التي حكم بها هذا الابن وثلاثة من خلفائه، فقد حكم الأربعة مدة ثمانية وعشرين عاماً فقط، تشير إلى وجود عثرة من عدم الاستقرار نتيجة لذلك التوتر الداخلي الذي انعكس من خلال تلك الممارسة ضد الملك توكونلي نينوترا

صمت مرحلة الانحطاط

لقد أحب الملوك الآشوريون تسجيل أعمالهم ومآثرهم ليس لاطلاع البشر عليها بل للتأكد أنهم قد حصلوا على التأييد من الآلهة

وهكذا فإن حدوث فترة تحلو من النقوش الملكية من المحتمل أن تكون فترة افتقر فيها ملك آشور إلى وجود مجرات كبيرة أشاء حكمه، وبحسب الآن ندخل في مثل هذه الفترة، فقد أصبحت النقوش قليلة تعكس العجز الذي ضرب آشور، فبعض لا نعرف شيئاً مهماً عن حكم آشور بادين ابلي سوى أن نهر دجلة قد تغير مجراه، فقد عاد إلى مجراه القديم بفصل الأدعية الملكية للآلهة مع مساعدة المهندسين الآشوريين، ولم يحس هذا أمراً سهلاً، فإن انتقال نهر يمي الحكم بالموت على أي مدينة تعتمد على النهر في مواسماتها وأماليب الري فيها، وحتى حدوث تغيير طفيف في مجرى النهر ربما أدى إلى نتائج خطيرة لاسيما بالمسبة لوسائل الدفاع عن المدينة، إما عن طريق تقويم أسس الأسوار والتسبب في

سقوطها، أو عن طريق ترك أجزاء صغيرة من السور كانت تحميها مياه النهر معرضة للانهيار.

والحقيقة أن طوفان المياه كان من الأسباب الأساسية لسقوط آشور نهائياً عندما كانت آخر عاصمة فيها وهي نينوى تحت الحصار عام ٦١٢ ق.م.

وكانت هناك عدة مشكلات تواجه آشور في هذه الفترة المظلمة عدا عن انتقال النهر، فقد حدثت حركات لبعض الشعوب على مقياس واسع بحراً وبراً في الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط مما سبب انهيار الإمبراطورية الحثية، وحدثت محاولات استعمارية على طول الشواطئ الشرقية، ولقد كان لهذه الحوادث صدى وأثار تالية على التجارة وطرقها، قد أثرت على آشور بشكل متعكس، بينما أثرت الشعوب المهاجرة تأثيراً مباشراً على ممتلكات آشور الغربية والشمالية، وأصبحت بابل حسب بعض المراسلات بين حكام المملكتين، في حالة ووضيع سياسي مكثف من التدخل في شؤن آشور، وانعكس هذا في قضية وراثة العرش الآشوري، فقد كان الملك الرابع من الملوك الصفار الذين تلو توكولتي نينورتا واسمه (نينورتا - أبيل - إيكور) بعيداً جداً عن الأسرة الحاكمة بحيث إنه عرا حقه في الوراثة إلى ملك عاش قبل قرن.

وهكذا أصبح هناك بعض التخلخل في قضية وراثة العرش، وقد أصبحت خلفية هذا الوضع ظاهرة عندما نعلم أن (نينورتا - أبيل - إيكور) حصل على السلطة من إحدى قواعد بابل بعد اصطدام آشوري بابلي، وقد حصل هذا الأمير على السلطة بعد دعم وموافقة بابل.

ولكن وبمرور الزمن فقد خدم هذا التدخل مصالح آشور، إذ أعطى هذا التقارب قاعدة لتجديد الاستقرار الداخلي بحيث إن ابن الملك الجديد وهو آشور - دان الأول (١١٧٩ - ١١٢٤ ق.م) كان حكمه أطول حكم في تاريخ آشور، إذ إن ندرة وجود النقوش توجي أن آشور كانت على طريق التوحد بهدوء، دون حدوث أي مغامرات سياسية وعسكرية.

وقد ذكر عن تصادم حدودي بين آشور وبابل ولكن هذا لم يكن أكثر من حادث عارض موضعي ولم يكن يعني أي اعتداء من قبل إحدى المملكتين.

والحقيقة أنه وبحو منتصف القرن العشرين لم تكن آشور ولا بابل هي التي سيطرت على الحوادث في منطقة ما بين النهرين، بل وجدت قوة ثالثة وهي عيلام في جنوب غرب إيران (خوزستان) فكانت هذه المنطقة ابتداء من الألف الثالث حتى يومنا هذا ذات تورطات قليلة من حين لآخر مع الثقافة والتاريخ في منطقة ما بين النهرين، وقد انعكست هذه الروابط الثقافية في التوراة التي تقول: إن عيلام سكان أcha آشور (سفر الخروج ١٠ - ٢٢) مع أنه بالمسبة للغة كانت لغة عيلام مختلفة عن لغة بابل وآشور.

وفي أوائل حكم آشور - دان عندما حدثت بعض الاضطرابات في بابل حاولت عيلام التوسع إلى جنوب ما بين النهرين، فقد غزا أحد حكام عيلام بابل في القرن الثالث عشر، وتصادم هناك مع توكلتي - نينورتا ولكن التوسع العيلامي في القرن الثاني عشر كان قضية طويلة الأمد، فقد هاجم العيلاميون المنطقة المحاذية لنهر دجلة - حيث كان هناك طرق تجارية مهمة ووصلوا إلى بابل نفسها عام ١١٦٠ ق.م، وهكذا انتهت سلالة الملوك الكاشيين القديمة وظل قسم كبير من منطقة شمال شرق بابل تحت الحكم العيلامي نحو ثلاثين عاماً حتى أصبح حكم بابل عبئاً على موارد العيلاميين، ولقد أثر هذا على آشور هامشياً عندما امتدت سيطرة العيلاميين شمالاً تجاه الراب الأدنى في منطقة حدودية فكانت معرضة للخصومات ما بين بابل وآشور، ونتج عن ذلك تأكيد أهمية آشور استراتيجياً واقتصادياً في المنطقة إلى الجنوب الشرقي من الزاب الأدنى.

في منطقة الشرق الأدنى القديمة كانت المروسة الرئيسية لظهور تأثير الرأي العام الشعبي عند موت أحد الملوك، إذ إنه فكانت تحدث اضطرابات عند موت أحد الملوك لاسيما إذا كان حكمه طويلاً، تصل إلى حد التمرد

وكان الأمراء المتنافسون يضمون أنصم على رأس الفئات المتنافسة، وقد حدث هذا عند موت آشور - داس، عندما اختصم ولداه الذي كانت بابل تؤيد أحدهما، فقد حكم أحدهما وطرد وأما الثاني فمن المحتمل أنه قتل.

هذا وقد عادت الحالة السوية الاعيادية إلى آشور عند حكم آشور - ريمس - اشني الأول (١١٢٢ - ١١١٦) قم ولكن الحالة الطبيعية الاقتصادية لم تُفقد أبداً، ويمكن أن نستنتج ذلك من نصوص ترجع إلى هذه الفترة تذكر ونسجل وصول بعض الأعمام والمواشي إلى البلاط الملكي من بعض الموظفين المختصين، وإعطاء الترتيبات المفضلة بالنسبة لتوزيع هذه المواشي في العاصمة، وأما الإنتاج الزراعي والأعمال الرتيبة لمصلحة الإدارة الآشورية فقد استمرت ولم تقاطعها سوى بعض المصادمات في الخارج أو النزاعات للحصول على المنطقة في الداخل.

الفصل الخامس

الإمبراطورية الآشورية الوسطى

لقد وصلنا الآن إلى واحد من أبرر الشخصيات في التاريخ الآشوري وهو تملات - بلاسر الأول (١١١٥ - ١٠٧٧) ق م وهذا يصعباً وجهاً لوجه أمام مشكلة متواترة، فقد بدا أن العترات التي كانت آشور فيها دولة هتية نشيطة وكان ملوكها شخصيات مرموقة، هذه العترات كانت تتعاقب في أوجه كانت الشخصيات الرئيسية تدوى وتذوب في حماية التسميان، وهكذا يجاينها المزال: هل رفع الملوك الأقوياء شأن آشور وقوتها إلى درجة الازدهار عن طريق قدرتها الموروثة الداخلية؟ أم أن تلك الظروف المواتية المألوفة التي مرت بها الدولة الآشورية قد أثرت في ملوكها، وأثرت على تجميد الدولة المنظور بحيث أكسبتها هالة من التصميم والقوة؟ وأظن أن الحقيقة تقع فيما بين هذين الرأيين المتطرفين.

إد لا يستطيع أي ملك مهما كانت قوته أن يرفع آشور إلى ما كانت عليه من قوة وازدهار ضمن ظروف معاكسة دولياً وأحوال قاسية، ولكن عندما ظهرت ظروف دولية مواتية لأشور فإن أي ملك حارم قادر يستطيع تحقيق الموائد الكاملة من هذه الظروف.

ففي الجزء الأعظم من القرن الثاني عشر كانت الظروف غير مواتية لتقدم آشور، فلقد ظهر العامل الميلاي ولكن الحركة المصرية التي حدثت حول الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط والتي كشفت عن حرافة مبقوط طروادة بعد أن جرفت وطردت الإمبراطورية الحثية من الأناضول، وجلبت بعض الشعوب الجديدة التي تتمثل في أفصلها المعروفة وهم الفلسطينيين الذين في سورية وفلسطين وهددوا حتى مصر.

ولا شك أن الموجات الطاعية الناتجة عن هذه الحركات (إذا جار لنا أن يستعمل هذا العنوان لمعني ممرقتنا بالتعاضد) ينبغي أن تكون قد وصلت إلى

منطقة المرات وعطلت التجارة على طول تلك النهر وبذلك قد عطلت النماذج التجارية في آشور نفسها

تجدد آشور

بدأت المسائل بالتحسن في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر عندما ظهر بعض الملوك المرموقين مرة ثانية في آشور وبابل، وتبدل النقوش المائدة إلى آشور - ريخش - إيشي أنه كان في وضع يستطيع فيه أن يقوم بزحف على الجبال الواقعة إلى شرق وشمال آشور خارج أراضي آشور الأصلية، ولكنها واقعة ضمن السيطرة الآشورية، وقد ساعد الازدهار المتزايد على تنفيذ بعض مشاريع إعادة البناء مثلاً إصلاح الأبنية المتضررة بسبب حدوث زلزال في أوائل القرن.

ويظهر ثملات بلاسر الأول ابن ووريث آشور - ريخش - إيشي، ظهرت لنا علائم واضحة على انبعاث آشور الذي أصبح ممكناً بعد حدوث التجديدات في الظروف العامة، ولكن وبسبب شخصية الملك نفسه، فقد ظهرت استراتيجيات واضحة عن طريقها استطاع ثملات بلاسر أن يعالج بهجاء المشكلات المواجهة لأشور، وقد سؤلت كل خطوة من خطواته إقدامه على معالجة الخطوة التالية.

ولكن لدينا الآن الصدي الأخير، وهو حوادث ثملات بلاسر والحركات التي قامت بها الشعوب في شواطئ البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى حوالي عام ١٢٠٠ ق.م. ويخبرنا ثملات بلاسر أنه وفي بداية حكمه إلى شعب يبلغ تعدادهم عشرين ألفاً يدعى شعب الموشكي الذين احتلوا الأراضي الواقعة إلى شمال غرب طور عابدين لمدة خمسين عاماً اتوا واحتلوا أرض (ككادموغ) المجاورة لأور من الجهة الشمالية الغربية والتي كانت تعد مقاطعة آشورية، وقد ترك أسلاف الموشكي بعض الشك أنهم أحد الشعوب التي قامت بالهجرات العامة في آسيا الغربية في أواخر الألف الثاني ق.م.

الحرب الوثائقية

ليس لدينا أي دلالة عن أي عمل آشوري ضد شعب الموشكي ما داموا ساكنين فيما وراء (طور عابدين) إذ كانت أعمال تغلات بلاسر تقتصر بالدهاع عن أمن آشور ولم تحس أعمالاً عدائية مظهراً لأن التمهلات الآشورية إنما بدأت عند عروهم كادموخ، والحقيقة أن هذه المزوة اعتبرت تهديداً مباشراً لأشور وذلك لأن تغلات بلاسر قام بهجوم سريع ممالكهم، وقد سجل أنه لم ينتظر حتى يؤمن مزحرة الجيوش أي: إنه رأى الوضع مشكل ينبغي فيه العمل السريع الذي لا يسمح بالتأخير بالنسبة للإجراءات العادية التكتيكية

ولقد نجحت هذه الهجمة الثقائية الأولى، فقد وقع ستة آلاف من الموشكي في الأسر وبعد ذلك استقروا في الأراضي التي غروها واعتبروا كأتباع لأشور، وفصلاً عن مساعدة هؤلاء في الإنتاج الزراعي، فقد كانت لهم فوائد عسكرية لتغلات بلاسر وذلك لأنهم قدموا له (١٢٠) عربة حربية وقطيعاً من الخيول وبعض الملحقيين من الموظفين الأكفاء.

إن نجاح العملية ضد شعب الموشكي شجعت تغلات بلاسر على اتخاذ خطوات أخرى في بيان الحرب، فقد عمر بعض أهالي كادموخ الموالين للمرأة إلى الصفة الشمالية من نهر العرات لكي يتحدوا الآشوريين من قلعة هناك، فقد طارد تغلات بلاسر هؤلاء المتمردين ثم بدأ في حصارهم مع شعب يدعى بابجو (من الواضح أنهم كانوا يتكلمون اللغة الحورية، مما يظهر من أسماء ملوكهم) وكان هؤلاء مستشرين إلى الشمال من نهر دجلة، ويظهر أن اسم بابجو لم يكن اسماً اصطلاحياً عرقياً بل كلمة (حورية) تعني: شعب جبلي.

وبعد مفاوضات طميقة حدثت في حوار نهر دجلة قاد تغلات بلاسر جيشاً واتجه إلى حيث كان شعب البابجو في الداخل، ومع أنه كان يشير إلى حرق المدن والاستيلاء على الغنائم، إلا أن قلة التفاصيل حول أسماء المدن يجعل من الواضح أن هذه المزوة لم تحس سوى غزوة استطلاعية.

وقد كان لقروة وعمل تفلّات بلاسر القوي الحازم ضد شعب الموشكي في كادموح آثاره على المناطق المجاورة الواقعة إلى الغرب حيث كان هناك مجموعات أخرى من الشعوب، وقد وصف أحدهم الشعوب بكونه المماكر غير الراسين من الحثيين، وربما كان ذلك يعني المجموعات المنظمة التي انتقلت باتجاه جنوب شرقي بعد تدمير الامبراطورية الحثية

وهناك أيضاً ذكر لشعب (كاسكا) الذين كانوا يعيشون بمحاذاة البحر الأسود في فترة سابقة، وربما رجب مثل هؤلاء بالمرصة التي تجعلهم يُقبلون أعصاء ضمن قوة وطنية راسخة ولهذا فقد خضع هؤلاء عند قدوم تفلّات بلاسر الذي قبلهم أتباعاً له وهكذا بدأ تكوين ذلك التمازج المرقى المريد الواسع في آشور

تفلّات - بلاسر في الأناضول

لقد تابع تفلّات بلاسر عرواته الاستطلاعية فيما وراء كادموح بقيادة جيشه الرئيسي المدعوم بالمربات الحربية عبر نهر دجلة ثم شمالاً إلى داخل أرض (بابجو) وحيث كانت الحبال غير صالحة لسيير المربات يخبرنا تفلّات بلاسر أن جنوده كانوا يحركون المربات بالقوة البدنية فقط وذلك لأن ذلك كان ضرورة في بعض الأحيان، ولكن كان هناك طرقاً يمكن أن تمر بها المربات بسهولة فوق جزء كبير من تلك المنطقة، ولقد حاول شعب (بابجو) إيقاف جيش تفلّات بلاسر عن طريق بعض المناوشات في الحبال ولكنهم فشلوا واستمر الجيش الآشوري في تحريب ونهب عدد من الأراضي في (بابجو)

وقد عدد أسماء تلك الأماكن مما يدل أنه كان على معرفة بالمنطقة، ويبرهن تعداده لأراضي محتملة أنه لم يكن هناك أي مملكة قد نشأت هناك

من الواضح أن حملات تفلّات بلاسر قد قادته إلى شمال نهر دجلة وإلى الأناضول الشرقية ولكن لا يعلم بالضبط إلى أين وصل، ومع ذلك فإن لدينا وسيلتين من المعلومات حول هذه القضية، إحداهما وصوله إلى مدينة (ماليد) (تعرف اليوم باسم ملاطية) وقد سجل فتحه لهذه المدينة.

وهناك إثبات آخر يقدمه نقش تركه تفلات بلاسر على إحدى الصخور في منطقة (ملاركرد) إلى الشمال الغربي من بحيرة (هان) وقد كان نص النقش كما يلي

«تفلات بلاسر، الملك القوي، ملك العالم، ملك آشور، ملك أرمكان العالم قاهر بلاد (نايري) ابتداءً من أرض (تومي) إلى أرض (داينسو) وقاهر أرض حيجا حتى البحر العظيم».

من الواجب أن يقدم لنا هذا النص حدود حملات هذا الملك، فهو يمتد ضمن مناطق جغرافية ولمنوع الحظ لا يمكن تعريف أي واحدة بشكل حارم لا بتلحق إليه الشك، وحتى وبالنسبة لتفلات نعمه كانت (نايري) اسماً عامضاً فقد كانت الأرض المرافقة للملوك الستين (لنايري) الدين واحهم وطاردهم خلال إحدى حملاته، وكانت (تومي) وداينسو تعني شيئاً معروفاً لديه، فقد كان يثبت مناطق تدخل داخل ذلك الاسم العام وهو (نايري) ولكن وعلى الرغم مما كتب عن تلك انبئاد إلا أنه لهم هناك من شيء أكيد

وكل ما يستطيع أن يقوله المرء هو أن (نايري) كانت واقعة إلى الغرب من بحيرة (هان) وجنوب (طور عادين) مع وجود قليل من التأكد حول الحدود الغربية والشمالية وأن (تومي) و(داينسو) كانتا الهاتين الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية بالتوالي بالنسبة (لنايري) والبحر العظيم، ولكن يعتمد المهم الخاص لهذه الأمور على ماذا يعني البحر العظيم؟ ومن المعتاد أن يعني البحر الأبيض المتوسط، ولكن هناك اسم آخر لهذا البحر وهو البحر الأعلى مع أو دون إضافة كلمة (إلى الغرب)

وتظهر بعض الملاحظات بالنسبة للحقيقة التي مفادها أن البحر الأعلى (دون إضافة كلمة إلى الغرب) من الممكن أحياناً أن يدل على بحيرة (هان) ولهم من المستحيل أن للبحر العظيم صفتين مزدوجتين وهما البحر الأعلى وفي نقوش تفلات بلاسر تعني بحيرة هان.

هذا وإن التفسيرات الوحيدة غير هذه، هي إما أن نفهم البحر العظيم هنا بمعنى العام وهو البحر الأبيض المتوسط الذي لا يمكن أن يطلق الوصف جغرافياً أبداً أو أن نعتبره البحر الأسود، وهذا التفسير يناسب احتراقات تملات بلاسر، مع أن بعض العلماء يقبلون ذلك بالمعنى المذكور هنا

ومهما كانت جغرافية توسعات تملات بلاسر إلى الشمال، فمن الواضح أن الناعث الرئيسي لهذه التوسعات كان اقتصادياً، فهو يسجل العنائم بشكل أو بآخر محاسبية وبرورية وكذلك مجموعات الخيول والمواشي التي تُعد بالأنثوف وقطعان الثيران والحمير، ولقد دكرت الاهتمامات الاقتصادية لتملات بلاسر في نقوشه فهو يقول:-

((لقد جعلت جميع أراضي آشور مجهرة بالمحاريث بحيث تريد مغزوبات القمح فوق التي كانت في زمن أسلاكي، ولقد ربيت قطعان الحبول والمواشي والأغنام)) وكان واضحاً أيضاً بالنسبة لسياسته الرامية لزيادة مساحة أراضي آشور وطبقة العمال فيها وذلك بواسطة تهجير الشعوب المهرومة، وكذلك فقد طور الذراع الحربي و زاد في عدد المرات الحربية بشكل لم يمهده أحد من قبل.

تخليد الآراميين

لم تكن أعمال تملات بلاسر البطولية متعددة بحملاته إلى الشمال، فقد امتدت نشاطاته إلى جميع الجهات حوله ولاسيما على ضفاف المرات وهي التي يقول عنها

لقد عبرت نهر الفرات ثمان وعشرين مرة في اقتضاء آثار الآراميين، ولقد عرف نهر الفرات وهو الشريان الرئيسي للمواصلات وشهد حركات القبائل الرحل التي كانت تتدخل بالممكن المستقرين أو بالإدارة المركزية، وفي زمن تملات بلاسر الأول ازداد هذا التهديد بسبب هائلة وذلك عند ظهور أولئك الآراميين الرحل من الصحراء.

فقد كانت أموالهم من الداخل من منطقة جبل بشري، وهي المنطقة الواقعة ما بين الفرات والموقع الذي أصبح فيما بعد مدينة القوافل تدمر، ولم يكن سبب تهديد الآراميين وهجومهم إلى منطقة المرات الذي بدأ في هذا الزمن مروراً أو واصحاً، ولكن مع غياب أي شواهد ملموسة يمكننا أن نخمن فقد كان جبل بشري مشجراً، إلا أنه كان عازياً من الأشجار بشكل أكيد قبل العصر المسيحي، وإنه لتخمين معقول أن إزالته الأحراج كانت مسببة عن السكان الأصليين في تلك الفترة وهم الآراميون في الألف الثاني ق.م، إذ إن إزالة الأحراج ستكون سبباً في إفراغ وثوق ما يدعي بالأمطار العاصمة المسببة لخصب التربة، والتي راحت بالتناوب مع فترات من القحط تسبب تآكل التربة وحدث فترة من الحماق، وعند حدوث هذا فإن هذه العملية سوف تجعل المنطقة عاجزة عن إعالة سكانها السابقين مما يستغرق مضي نحو ستين أو ثلاث سنوات عجاف لبدء عمليات الهجرة العامة من المنطقة

وطبقاً لتفلات بلاسر فقد عمد الآراميون إلى عبور نهر الفرات ودخول ما يدعى الأراضي الآشورية الدائمة، والاستقرار بمعداة الطول الكامل للنهر ابتداءً من منطقة الحدود البابلية حتى (كار شمش) (كر كمش).

ولكن تفلات بلاسر طردهم بعد أن نقل جيود عبر المرات على طوافات مصنوعة من جلود الماعز، ربما كانت من نوع الطوافات المروعة في هذه الأيام وتدعى: كيليك **Kelek**.

لقد سجل تفلات بلاسر أن أدى الآراميين كان مستقلاً بحيث إنه كان مجبراً على ملاحظتهم ثمانية وعشرين مرة مرتين في كل سنة وليس من المؤكد كيف ينبغي أن نفهم الحملة الأخيرة، فهل كان ((مرتان في كل سنة)) بحيث كان زمن الحملات أربعة عشر عاماً؟ أم أن إظهار القوة مرة واحدة تكفي بشكل طبيعي ما عدا سنة واحدة حين كانت الحالة في غاية السوء بحيث إن تفلات بلاسر كان مجبراً أن يقوم بحملة ثانية؟

والنتيجة هي تأييد وجهة النظر التي مفادها أن تغلات بلاسر مكان يعني مرتين
كل سنة وأنه وبعد أربعة عشر عاماً ، قام الأموريون بمغادرة الأراضي الآشورية
وفي الواقع وقبل نهاية حكمه الذي دام ثمانية وثلاثين عاماً استطاع تغلات
بلاسر الاختراق حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ليس بطريق سورية الشمالية
خلال أراضي الحثيين فحسب ، بل أيضاً من خلال تدمر وهذا يعني أنه كان
يزحف خلال قلب الأراضي الآرامية.

فهل ظل الآراميون وحتى نهاية عهد تغلات بلاسر يولفون تهديداً مكافئاً على
مجازاة المرات مما يلزم القيام بحملة سنوية تأديبية؟ وكان هذا العمل يستلزم
الغناء تحكيتكها علماً بأن تغلات بلاسر كان رجلاً عسكرياً ولم يكن أحمق.
وعندما وصل تغلات بلاسر إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط أظهر هجاء أن
لديه شعوراً إنسانياً ، فقد أراد أن يقوم برحلة قصيرة في أحد القوارب ، وعندما
كان في القارب فإنه ربما حاول تجريب الحريون وهو ربح يستعمل لصيد الحيتان ،
وقد قال في هذه المناسبة:

«لقد ركبت السمعن في مدينة أرواد الواقعة في أراضي أسورو وقمت برحلة
ناجعة دامت ثلاث ساعات من أرواد حتى سامورو ، وقد قتلت في البحر نهيرو وهو
حصان البحر»

ولقد ذكر الملك هذه المفامرة بفخر واعتزاز فقد سجل هذه المفامرة في زينة
مدخل قصره ، وقد قال:

«لقد صنعت من البازولث صورة لما يسمونه نهيرو وهو حصان البحر الذي قتلته
بواسطة الرمح في بحر (أمورو) وذلك بأمر الآلهة المظالم أسيادي»

هذا وإن تحديد حصان البحر هذا قد سبب صروف تكهنات من الخبر حين
سجلت الآراء المختلفة حول كون هذا المخلوق دولميناً أم حوتاً

من الواضح أنه كان لتغلات بلاسر اهتمام بالحيوانات العربية وكانت هذه
ظاهرة انتصف بها كثير من الملوك الآشوريين الذين كانوا يرحبون بامتلاكهم

الحيوانات القريبة مثل المملحين والتماسيح التي وردت إليهم كحجزة ، أو من الحيوانات هذه أنشأ تفلات بلاسر حقيقة حيوان من الحيوانات التي حصلوا عليها من الصحراء السورية ، وكان هناك عدد من الحيوانات البرية حول آشور القديمة ، وكانت هذه الحيوانات أكثر عدداً مما هي عليه الآن ، وكان فيها أنواع كثيرة من الحيوانات اللبونة

وتشير النصوص إلى صيد النجبة والصبياع ، والأسود والنمور والفهود ، والفزلان والماعر البري ، وكل هذه الأنواع لا تزال موجودة في منطقة ما بين النهرين قبل قرن من الزمن ، مع أن القطط الكبيرة الحجم قد اختفت ، وهناك حيوانات لبونة مثل البهزوز (الثور الأمريكي) والجاموس الماشي (وقد كان هذا في الأصل برياً ثم أعيد تقديمه كحيوان اهلي بعد أن انقرض من البراري) أما الخنازير البرية (التي لا تزال موجودة بأعداد واطرة) وعدة أنواع من العرلان (التي اعتبر بعضها منقرضاً وأما الباقي فهو معرض للخطر من الصيادين المرب الذين يصطادونها في الصحراء بواسطة استخدام مركبات ذات أربعة دواليب ومعهم أسلحة أوتوماتيكية

وكان هناك الأغنام البرية والوشق والفهد الصياد وحمير الوحش أو (الأحدرى) التي لا تزال موجودة في سورية بشكل واضح في الجزيرة في القرن التاسع عشر ق.م ، ولكنها انقرضت منذ عام ١٩٢٧

وهناك نوع من الحيوانات أرسله التجار إلى تفلات بلاسر من الخارج ، والتي حاول تربيته بشكل قطمان وهو الجمل ذو السنامين وقد ذكر هذا الجمل ابن الملك صمن نصوص المسلة المكمورة ، وربما جلب هذا الحيوان من المنطقة فيما وراء راغروس نظراً لأن الاسم الذي عُرف به وهو (أوردو) مشتق من الكلمة الهندية الأوروبية التي تعني: الجمل ذو السنامين.

ويذكر تفلات بلاسر حيواناً آخر يدعى يورهيشي كان قد أرسل إليه كنوع من الحرية ، ويعتقد بعض العلماء أن هذا الحيوان هو الهياك (ثور التبت) ولكن الحقيقة أن الهياك موجود في أراضيه وبيته (وهي جبال التبت المغالية فلا يمكن أن يكون موجوداً في آشور سواء عن طريق الحرية أو عن طريق التجارة ، والحقيقة أن

كلمة بورهيشي موجودة إلى جانب كلمة أورمو المكتوبة على المسلة المكسورة، ومن الممكن أن يكون هذا الاسم قد اخترعه الآشوريون عندما قايلاوا الجمل لأول مرة، نظراً لأن الكلمة ربما تعني (دو المعزة) وهذا يشير إلى السنام.

وهناك حيوانات من ذات الأربع قوائم وجدت قرب منطقة ما بين النهرين في الأرمنة القديمة وهي تشمل حيوانين مسهبين جداً وهما الثور البري وهو حيوان بري كان ارتفاع العجل من هذا النوع ستة أقدام حتى منطقة الكتف، وكان هناك نوع من الغيلة، وقد كان الملوك الآشوريون مولعين بصيد الأسود والغيلة هما سبب انقراض هذين النوعين مع أنهما كانا ما يزالان موجودين بمد قربين من عهد تغلات بلاسرة

وهناك نوع آخر من الحيوانات المرموقة القديمة وهو النعام الذي وجده الملوك الآشوريون وصادوه وأتلفوه في الصحراء السورية مع أن هذا النوع نجا وكان ما يزال يشاهد هناك في القرن العشرين الميلادي.

أما الأسود فقد كانت شائعة الوجود وحطرة بالنسبة للحيوانات الأليفة وللشجر في الأرياف المكشوفة، ويذكر الملوك الآشوريون المآثر التي حدث فيها قتل نحو ثمانمائة أسد مرة واحدة، ويبدو أن هذه الصعاب كانت تصطاد وبمهدا يطلق سراخا وتوضع في حدائق محصنة، إلا أن الرسوم تعطينا بمس الدلالات التي تشير إلى الانتشار الواسع للأسود

وفي قصة الطوفان يقترح على الإله إنليل استخدام الأسود لفتك بالبشر بدلا من الطوفان وهذه طريقة أفضل، وهذا يدل أن الأسود كانت تعد تهديداً حقيقياً لحياة الإنسان، ويأتي تقرير من ماري يعود إلى الألف الثاني ق.م، أن أسداً قد أمسك به على سطح أحد المنازل، وكان من الواضح أن الأسود كانت تستطيع الدخول مباشرة إلى داخل القرية

كان تغلات بلاسر الأول رجلاً ذا همة عالية وبشاط مستمر واهتمامات واسعة، وفي أثناء حكمه حملنا على مجموعة من القوائم الآشورية التي تم تنظيمها في مجمل القوائم الآشورية، وربما كان ذلك بناءً على أوامر هذا الملك،

وكسات إحدى تلك القوانين تعالج مشكلات ملكية الأراضي وغيرها كان يعالج مشكلات تختص بالنساء.

مراكز الحدود البابلية

نستقل من تملات بلاسر المهتم بالحيوانات والمشرع القانوني إلى تملات بلاسر مؤسس الاستراتيجية العسكرية، وذلك لكي نطلع على مواقفه بالنسبة لقضية الحدود، وهي القضية الحساسة سياسياً في الحبهة الجنوبية مع بلاد بابل، وقد حدثت هنا المصادمات الحدودية المعتادة التي استجاب لها تملات بلاسر أحياناً ودفع بقواته إلى ما وراء الحدود للاستيلاء على المدن الشمالية بما فيها العاصمة بابل، ولكنه لم يقم بأي محاولة لتصيب نفسه ملكاً على بابل، وبدلاً من هذه الحملة لم نجس سوى غارة تأديبية للضغط على بابل لقبول حدود تمر أبعد جنوباً

ومن جهة أخرى كان للتماس مع بابل نتائج تزايد يعود الثقافة البابلية والنموذج البابلي في آشور، وكسات إحدى مظاهر هذا النموذج ابتداءً بإبدال أسماء الأشهر البابلية لتعمل محل الأسماء الآشورية.

ولقد شهد حكم تملات بلاسر أيضاً نمواً متزايداً لأهمية نهوى السياسية، وهذا كان ضرورياً لأجل السيطرة على الشمال، وقد اعترف بهذه المدينة أنها المدينة الثانية والعاصمة الثانية لدولة آشور، وقد كسات مشهداً للأعمال العمرانية المرموقة وذلك بما فيه إعادة بناء سورها.

لا تكفي الظروف الدولية لوحدها لتفسير الحماس والنشاط الآشوري في زمن تملات بلاسر إذ إن حكمه يعطي مثلاً جيداً لأهمية المقدرة الشخصية والنشاط عند هذا الحاكم، وقد مرّ على عرش آشور ههنا بعد ملوك اتحدوا لهم اسم تملات بلاسر، وهذا ما يدل على شخصية تملات بلاسر العظيمة الدائمة التي تبشر بال نجاح، ولكن لم يعمد أي حاكم فيما بعد إلى اتخاذ أسماء أبناء هذا الملك الذين خلفوه رغماً عن الاسم الشهير للابن الثاني وهو آشور - بيل - كالا وهذا

الاسم يعني: الإله آشور هو سيد الجميع وهذا الاسم يعكس أمانتي الأب أكثر من إنجازات الابن.

الهجرات الأرامية

بعد انتهاء حكم تملات بلاسر حدث انعطاف سريع يصاحبه التزايد الدائم لأهمية الأراميين، الذين ناضل هذا الملك ضدهم بشكل مثابر وناجح، ويعتمد البحث حول كيمية تركيب التماسيل حول الطريقة التي استطاع بها الأراميون قلب الموازين عند آشور على كيمية مهمنا لأحد الأنصاب المعروف باسم المسلة المكسورة، ونظراً لأن المسلة مكسورة فمنح لا نستطيع معرفة اسم الملك الذي كتب تلك النقوش، ولكن غالباً ما يسمب الآن إلى ابن تملات بلاسر وهو الخليفة الثاني لوالده واسمه آشور - بيل - كالا

وتمتلك هذه النصوص بعض المظاهر القديمة، فهي تتكلم بضمير العائب وأحياناً بضمير المتكلم وتبدو أن المقاطع المكتوبة بضمير العائب وكأنها لا تتحدث عن آشور بيل كالا بل عن أحد أسلافه، وباعتبارات التقوى فقط أن هذا السلف من المحتمل أن يكون والد آشور - بيل كالا وهو تملات بلاسر وعندما نجد أن هذا النص يذكر شؤون الصيد، وجمع الحيوانات، وهذا يتفق مع ما يذكره تملات بلاسر عن نفسه، عند ذلك تبدو المسألة وكأنه ليس فيها مجال للشك، ولكن وبينما تذكر نقوش تملات بلاسر عن أحوال مقلادة الأراميين عبر العرات (وهذه المسألة مذكورة من المسلة المكسورة) فإن المسلة المكسورة تصيف بعض المراجع التي تعود إلى الشهر التالي حول مهاجمة إحدى القواهل الأرامية في أماكن مختلفة، وتقع بعض هذه الأماكن بعيداً عن نهر العرات في مواقع داخلية في أراضي آشور مثلاً في طور عابدين بمحاذاة نهر دجلة قرب حران وبمحاذاة نهر الخابور، وليس هالك ما يدل فيما إذا كانت القواهل الأرامية تحتوي على التجار والوحدات المقاتلة، أو أنها عبارة عن مجموعات تحاول أن تجد لنفسها مكاناً ثانوي إليه.

ولكن من الواضح أن هذه القوافل كانت واسعة الانتشار، وبينفس الوقت لم تكن هذه القوافل قوية، ولم تكن تعمل بشكل متناسق نظراً لأن الملك الآشوري كان قادراً على مطاردة كل مجموعة بسرعة، وفي الوقت نفسه مطاردة قافلتين أو ثلاث وحتى أربع في الوقت نفسه، وفي نفس الشهر، ويمتدح من كل ما ذكر أنه رغم محاولات تغلات بلالسر الفاجعة لضيق محاولات الآراميين وحكمها عند عبور العرات من جبل البشري، فإن مجموعات صغيرة كانت تنجو من هذه الشبكات وتتجح في النفاذ إلى بلاد آشور، وهذا ما سبب عدم قدرة حلفاء تغلات بلالسر على عدم التأثير بالصعوط الآرامية.

تولى آشور - بيل - كالا - العرش (من ١٠٧٤ - ١٠٥٧) بعد أحد أخوته الذي حكم مدة سنتين، وتتحدث تواريقه بطلاقة عن الأعمال السريعة ضد المناطق الشمالية الجبلية، وقد ادعى عن حصوله على نجاحات عسكرية.

ولكن الأمر الواضح هو أنه مع ذكر الفنائم التي غنمها الآشوريون إلا أنه لم يذكر كلمة واحدة عن الحرية، وإنما جلبت إلى آشور من قبل الأتباع المملوكين، وكان يوسع الجيوش الآشورية أن تعيث حراباً ولكن دون هدف ثابت، وذلك لأنه، وفي أثناء حكم آشور - بيل - كالا، لم تعد آشور قادرة على تجسيد انتصاراتها العسكرية في ترثيات إدارية مهمة أكثر من القبول الرسمي بالسيادة الآشورية، وهكذا يدكر آشور - بيل - كالا حملات له ضد الآراميين، ولكن كانت مصامين تماييره تدل أن الآراميين لم يعودوا ذلك الشعب الذي يمكن طرده من العرات ببعض الإرادة، إذ إن قول هذا الملك إنه كان ينهب الآراميين باستمرار يدل أن المشكلة الآرامية قد استعظمت.

الاتفاق الآشوري البابلي

في الحقيقة إن الآراميين قد تحولوا إلى تهديد خطير بالمسبة إلى كل منطقة ما بين النهرين، بلاد بابل وبلاد آشور على السواء، وكانت النتيجة الحتمية أن

تتعد آشور مع بابل لدرء الخطر المشترك وللدفاع المشترك، ويوصف هذا الموقف في إحدى الحوليات:

((في زمن آشور بيل - كالا ملك آشور ومردوك - شايك ريزي ملك كاردونيش (بابل) عقد في هذا المكان اتفاق ودي بينهما))، وهذا مما قوى مركز الآشوريين، ولكنه لم يكن منعزلاً من الضغط الآرامي، وعند موت ملك بابل أصبح آشور - بيل - كالا ملك آشور في وضع اضطرره للتدخل في شؤون قومية الوراثة البابلية، وطبقاً للحولية التي ذكرت آنفاً فقد عين آداد - ابلا - أدينا ابن اسحيل - شادوني ابن شخص مجهول ملكاً عليهم، هذا وإن كلمة شخص مجهول تدل أن أسرة الملك الجديد لم تكن من أصل ملكي بابلي قديم، ويستطيع أن نحصل على صورة واضحة لما كان يحدث عندما نجد أن هناك حولية أخرى تدعو آداد - ابلا - أدينا رجلاً آرامياً معتصياً (مع وضع اسم مختلف لوالده لإضافة علائم الشك حول أصوله)

ويبدو أن آشور بيل كالا كان الآن يملك الطريق الدبلوماسية في معالجة التهديدات الآرامية وذلك بقبول أمير آرامي بارر تايماً وحليماً له، وقد استغلص أقصى قدر من المنفعة من الموقف وذلك بالرواج من ابنة آداد - ابلا - أدينا.

وتقول الحولية 'لقد تزوج آشور - بيل - كالا ملك آشور ابنة آداد - ابلا - أدينا ملك كاردونيش وحملها معه مع مهرها الثمين'، ولقد كانت نتيجة هذه الحوادث أن وصفت آشور في مركز قوى بالمسبة إلى بابل في الوقت نفسه، وبكسب ولاء الرعيهم الآرامي الرئيسي فقد أزال خطر التهديدات الآرامية مؤقتاً

وفي الوجه الآخر للعملة وجد أن آشور قد أظهرت نصها أنها غير قادرة في تلك الظروف أن تتابع سياسة مستقلة، وفي الوقت نفسه أن الحلف الذي استطاعت آشور عن طريق التدخل في شؤون وراثة العرش في بابل ترك آشور معرضة لتدخل بابل في شؤون آشور الداخلية الخاصة، ولقد حدث هذا بالضبط وبمرور الزمن فقد أزيح ابن آشور - بيل - كالا عن العرش بعد مرور أقل من عام على يد عمه شمسي - آداد الرابع وهو ابن آخر من أبناء تغلات - بلأسر الذي وكما عرفنا من

قائمة الملوك الآشوريين استولى على العرش من قاعدة بابلية وذلك بدعم وموافقة البابليين.

وفي القرن التالي الذي تم فيه حكم ستة من سمل شمسي أداد الرابع هان مرفقتا بالتاريخ الآشوري كانت سطحية نظراً لعدم وجود نقوش ملكية وهذه دلالة واضحة على ضعف الدولة الآشورية، وهناك نص يعود إلى حوالي عام ٩٧٠ يحمل هذه الحقائق، وهذا النص يمجّد أحد الحكام المحليين لكونه شيد الأبنية وحمر الأبنية ونهر السابور، وذلك أنه وعند زمن آشور القوية كانت مثل هذه الأعمال من صلاحيات الملك، وإن قيام حاكم محلي بمثل هذه الأعمال يدل أن السلطة المركزية في تلك الفترة كانت ضعيفة جداً، إن لم تكن معدومة.

تظهر الشواهد من بابل السبللة الجديدة التي سببتها الهجرات الآرامية المستمرة في ذلك الزمن، وفي تلك المدينة (أي بابل) كان يقام مهرجان سنوي ديني يدعى (الأكيتو) الذي كان يلعب عندما تكون الظروف السياسية غير مواتية بحيث يستحيل القيام بالمسيرات، وتذكر الحوليات التي تسجل هذا الخرق للعادة المذكورة في عامي ٧٧١ و ٧٧٠ حين أقيم المهرجان نظراً لأن الآراميين المعادين قد هددوا صواحي مدينة بابل مباشرة.

الممالك الآرامية

بعد أن استقر الآراميون شكلوا لأنفسهم ممالك بشكل تدريجي وكان أقدم هذه الممالك في سورية. وإن إحدى هذه الممالك الآرامية وهي مملكة (صوبا) (سوبايت حسب النقوش المسمارية) قد تعرضت إلى الهجوم من قبل الملك شاول الحضرياني قبل عام (١٠٠٠) ق.م بقليل. (وبعد ١) قليل توسعت المملكة الإسرائيلية الجديدة تحت حكم داود وسليمان لتشمل المنطقة حتى الفرات. وإن عدم وجود

^(١١) قد اضطر المؤلف هذه المعلومات من العودة وليس هناك أي نقش آشوري يؤكد هذا الكلام الذي نعرفه مختلفاً - الفرجان.

مواجهة آشورية والقدرة على تنفيذ هذا التوسع على الحدود هو سبب آخر يظهر عجز وعدم قدرة آشور من ذلك الزمن).

لماذا أدى الوضع الآرامي إلى ضعف دول منطقة ما بين النهرين بحيث سمحت لإسرائيل بالتوسع شمالاً حتى الفرات

إن الإجابة على هذا السؤال تتوقف على المدى البدي وصلت إليه تلك المجموعات من البدو الرحل من الآراميين في استيطانهم وإنشائهم ممالك مستقرة، إذ إنه عند حدوث اتحاد بين العشائر القبلية فليس هناك أي سلطة مركزية، وهذا ما أشارت إليه النصوص التوراتية، ومن مثل هذه الحالات فإن لكل فريق يفعل ما يريد وهو يعني ما يفعله حقاً في نظره، وعلى العموم فليس هناك أي حاكم متمرّد يستطيع قبول أي معاهدة وينفذها في جميع أرجاء المنطقة.

وليس هناك من أحد يستطيع تأمين حركات التجار وللتأكد من أن قوافلهم سوف لا تتعرض للنهب أو تهديدات أي عشيرة يمكن للقوافل أن تدخل أراضيها وتمر بها.

وكذلك ليس هناك من أحد يستطيع أن يتكلم عن العلاقات السياسية بالنسبة للمنطقة بأكملها، ففي سورية أصبح الآراميون على طريق الاستقرار في ممالك مستقرة حوالي عام (١٠٠٠) ق.م، بينما وفي منطقة ما بين النهرين كانوا ما يزالون في طريق الهجرات والاستقرار خلال حيلين.

وفي النصف الثاني من القرن العاشر أصبحت الجماعات الآرامية المستقرة تؤلف ممالك منظمة في منطقة ما بين النهرين كما كان الحال في سورية، ولقد استقادت آشور من هذا الوضع، وابتداء من حكم آشور دان الثاني (٩٣٤ - ٩١٢) بدأت القووش الآشورية بالفتوحات معلنة استئناف الازدهار الآشوري من جديد

الفصل السادس

نشوء الامبراطورية الآشورية الجديدة

في حولياته يكتب (أشور دان) وكأنه يخاطب القارئ الحديث عندما يسجل انشطته وأعماله العسكرية الخاصة ، فهو ينظر إلى الماضي إلى الاصطرايات التي مرت بأشور خلال القرن السابق الذي لا يملك عنه سوى قليل من المعلومات ، ويخبرنا أنه كانت إحدى الشعوب الملوية على أمرها تقترف أعمالاً تحريية وجرائم قتل منذ زمن شلمنصر الثاني (١٠٢٠ - ١٠١٩ ق.م).

وقد قام الآراميون الذين بدأ بتدمير وإحراق مدنها بالاستيلاء على الأراضي الآشورية في زمن آشور رابي الثاني (١٠١٢ - ٩٧٢) وهو يتكلم عن أهالي آشور الكادحين الذين عادروا مدنها وبيوتهم بسبب الفقر والحاجة والجوع والمجاعات وغادروها إلى بلاد أخرى ، وهو يؤكد لنا أنه قد أرجع هؤلاء إلى مدنها وبيوتهم وأعاد استقرارهم فأصبحوا يعيشون بسلام.

الأمن العسكري والتطور الاقتصادي

تشير التعليقات التي أعدها آشور دان أنه وخلال القرن السابق لعام ٩٢٤ كانت الإدارة المركزية في دولة آشور قد أصابها الانهيار التام مع حدوث انهيار اقتصادي ، ونتيجة لذلك فإن أنشطة آشور دان الاقتصادية قد اتجهت إلى تطوير الاقتصاد بشكل لا يقل عن تطوير الأنشطة العسكرية والأمن العسكري ، ولم يتم بأي محاولة لتناقض المآثر العسكرية التي قام بها تغلات بلاسر ، ولكنه اكتفى بتأسيس سيطرة سليمة لآشور داخل حدودها الطبيعية ابتداء من الجانب الأقرب من (طور عابدين) حتى الحساب الواقعة فيما وراء أربيل ، وأما سياسته بالنسبة إلى إعادة إسكان الشعوب في آشور فقد تطرقنا إليها في العقدة السابقة ، ولكي يبالغ الانهيار الذي ذكر سابقاً في الإدارة المركزية أنشأ بعض الوظائف الحكومية في المقاطعات ، ولدعم الاقتصاد بشكل مباشر تبارى مع منجزات

تفلات بالسر الأول في تأمين المحارث في جميع أنحاء البلاد، وذلك لريادة إنتاج القمح في كل مكان بكميات أكبر من السابقة، ولقد ساعدت كل هذه الأمور على تأمين قاعدة متينة لتطوير وتوسع أفضل بشرط أن يستطيع الحكام الدين تلوه الاستفادة من هذه الإصلاحات.

ولقد ثبت أنهم استفادوا فقد خلف آشور دان أربعة ملوك أكفاء من أسرته المباشرة، وخلال قرن من اعتلائه العرش أصبحت آشور قوة عالمية يحسب حسابها، وهؤلاء الحكام الأربعة وبصورة خاصة الثالث منهم رووا معجزاتهم بالتفصيل، ولا يتسع هذا المقام لسرد أكثر من خلاصة موجهة لأعمالهم الرئيسية أثناء حكمهم.

ولقد قام ابن آشور دان وهو حدد ميراري الثاني (٩١١ - ٨٩١) بحملة لإعادة وتوكيد السيطرة الآشورية في المنطقة الشمالية الغربية، فقد رحب نحو الجبال الشمالية فيما وراء (طور عابدين) ومع أنه قد اتحدت إجراءات عسكرية عنيفة ضد المعارضين، إلا أن إجراءاته لم تكن تأديبية وضارية على شكل طائش، فإن غرضه كان إنشاء أحوال مستقرة بحيث يحصل على الاستفادة التامة المنتجة من الموارد التي تسبب أكثر القوائد بالنسبة لآشور.

وهو يقول عند تسجيل نتيجة حملته ضد شعوب الشمال في (كوماني) لقد أسكتت بنية عماسكرهم الدين هربوا أمام أسلحتي الحربية ولصحبهم رحموا، لقد أسكنتهم في مساكن آمنة.

ظل الآراميون المشكلة المرمية، ففي أسفل طور عابدين استقر بعضهم بشكل واسع فيما بين الخابور والقوس الغربي لنهر العرات، وبصورة خاصة منطقة منابع الخابور حيث حلوت مجموعة متحدة من الآراميين الذين وصلوا بعد مصي حكم تفلات بالسر الأول، وحاول هؤلاء تأكيد استقلالهم ولقد احتاج حدد ميراري حوالي ست حملات سنوية لإخضاعهم، وأخيراً نجح في ذلك بعد تجويع الحاكم الأعلى في عاصمته المحصنة نصيبين.

وبعد أن رحب بمحاذاة الخابور استطاع الحصول على الخضوع النهائي الرسمي للسلطة الكاملة للمدن التي كان يسيطر عليها الآراميون، وفي أثناء ذلك استلم حدد نيراري الهدايا التي تعبر عن كامل حصومه كضرائب من قبل حاكم آرامي من منطقة بعيدة آرامية، وهي منطقة بيت عابدين وهي واقعة على منطقة تقوس الصرات.

وفي المنطقة الجنوبية العربية عملت بابل وفي أثناء فترة ضعف آشور إلى الاستيلاء على أراضي واقعة إلى الجنوب من الراب الأدنى، ولهذا بدأ حدد نيراري بالعمل، ولكن ومع أنه أعطى لنفسه لقب هاتح بلاد كاردوبياش بأجمعها، إلا أن نشاطاته هناك لم تكن أكثر من مناوشة حدودية لدفع الحدود الآشورية جنوباً حتى نهر (سهليم) أو دبالا ولقد حتمت اتفاقية الحدود بتحالف مصاهرة وزواج

واستمر توكلوتي - نيموترا في العمل لاستعادة سيطرته على المناطق الجبلية الشمالية والشرقية وفي الجنوب دفع الحدود مع بابل حتى موقع مكان بغداد الآن، وهكذا اكتشفت المستوطنات الآرامية بتقديم الجزية علامة على قبولهم التهديد الآشورية، إلى جانب تمردات عرسية كانت تتطلب بعض الأعمال العسكرية، وكانت إحدى القبائل الآرامية المزعجة في ذلك الزمن وهي قبيلة (أيتوي) وكانت تمتلك بعض الصفات القتالية قد حصلت على احترام الآشوريين، وهما بعد (عندما أصبحت قصبة ولأنهم مؤمنة) شككوا ما يدعى بالمصائل الصدامية التي تعمل على تطويع الشعوب المزعجة المتصاعدة

وإن نوع الجزية التي كان بعض الآراميين يدفعونها تشير إلى ثرواتهم وطبيعة نشاطاتهم التجارية، وهماً عن الذهب والمضمة كانت مثل هذه الجزية تحتوي على البرونز والقصدير والمزج^{١٦} وهذا ما يظهر وجود علاقات تجارية مع بلاد العرب (التي كانت تتميز المصدر الأقرب للمزج) وكذلك يذكر الجمل ذو السنام الواحد (مما يشير أيضاً إلى العلاقات مع الصحراء العربية) وكذلك العاج والفروشات

^(١٦) المزج: مائع يسيل من شجرة فيحاء وهو طيب الرائحة مَرُّ الطعم للترجمان

المرصعة بالمعاج (من كليكيا) والمواشي والأغنام والحمير والبط والحيوب، ولكن لم يكن هناك أي ذكر للخضول التي شكلت صمن الحزبة الأرمسية، إذاً من المحتمل أنهم كانوا يستعملون الحمير والجمال وسائل للنقل في ذلك العهد، هذا وقد استلم (توكولتي نيبوترا) الخيول بالألوف بشكل جرية من المناطق الشمالية وبذلك بدأ استعمال العرسان على مقياس واسع في الجيش الآشوري.

آشور ناصر بعل الثاني

الاستراتيجية الإمبراطورية في آشور

يبدأ حكم آشور ناصر بعل الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩) وبه نصل إلى إحدى نقاط الذروة في الإمبراطورية الآشورية، وقد كانت مجالات متعددة، الأمر الذي يعكس مجراته كمنسج فملي للإمبراطورية الآشورية الجديدة

لقد بدأ آشور ناصر بعل في إظهار قواه إزاء ذلك القوس من الجبال الممتد من شرق أربيل حتى شمال غرب نيموي أي شمال كردستان، وقد وصل إلى كادموخ وهو السهل الواقع إلى الغرب من نهر دجلة، وإلى شمال غرب نيموي وذلك عندما واجهته الاصطرابات في مكان آخر، فقد كانت الدولة الخاضعة اسمياً لآشور وهي (بيت عابدين) الواقعة على منمطف نهر العرات نحو كركميش، تحاول تأكيد استقلالها وكسب الدعم الأوسع، فقد أحررت بجاحاً دبلوماسياً، والحقيقة أن المدينة الرئيسية في تلك المنطقة حيث يلتقي الخابور بالمرات، قد قامت بقتل حاكمها الموالي لآشور وكان هذا رجلاً يظهر من اسمه أنه لم يكن من أصل آشوري (لم يكن الآشوريون عنصريين).

ولقد ولّت هذه المدينة أحد أبناء بيت عابدين ملكاً عليها، هذا وقد كان رد آشور ناصر بعل على هذا الوضع هزواً، فزحف بجيشه جنوباً حتى أسفل نهر الخابور، وقد استلم في طريقه خضوع المدن الموالية الواقعة على صماف النهر، ثم

استولى على معقل المتمردين وسحق كل معارضة بقوة ونشاط وأعاد المدينة مرة أخرى تحت الحكم الآشوري.

ولقد ثبت أن ثروة المدينة المتعددة كانت ثروة لا بأس بها مما جعل آشور ناصر بمل يلاحظ أن القنائم الصمعة والواهرة كانت كالبجوم في السماء لا يمكن عدّها، فقد كانت تشمل بالإضافة إلى أصناف الجزية المذكورة أنفًا العريات الحربية والحيول، وكانت هذه أول مرة يشار بها إلى الخيول في المناطق الخاضعة للآراميين، إذ من الواضح أن الجماعات الآرامية في منطقة ما بين النهرين لم يعودوا بنوًا رجالاً شبه مستقرين ويشغلون بالتجارة، بل قد وصلوا إلى طريق إنشاء ممالك متطورة مستقرة ذات دراع عسكري منظم يتطلبه ذلك الوضع.

تعتبر كادموح التي وصلها آشور ناصر بمل عندما اتجه إلى منطقة الخابور المتاح الموصول إلى هضبة طور عابدين كاشياري والمناطق الواقعة إلى الشمال من نهر دجلة، وهما بدأ الملك يوجه اهتمامه لتلك المنطقة، فقد ادعى عدد من الملوك الآشوريين الأقدمين أنهم قد استولوا على (كاشياري) ولكن التنازيس الأرضية في تلك المنطقة جعل منها منطقة صعبة المال، ولم تكن سيطرة الآشوريين هناك إلا سيطرة مؤقتة.

وعندما نمرّد أحد الحكام المواليين وهاجم الموقع العسكري الآشوري، بدأ آشور ناصر بمل عملياته مباشرة وتحرك ضد المذهب ولم يتورع عن القتل والنهب والحرق وسمل العيون والتمثيل بالصحايا، وكان أن أعلنت الممالك الصغيرة في المنطقة ولائها وخضوعها فوراً.

وبعد إظهار جبروته ضد المناطق الواقعة إلى الشمال من نهر دجلة المعروفة باسم (نياري) قام آشور ناصر بمل بترميم مدينة قديمة واقعة على نهر دجلة (توشتمان) لتكون حامية عسكرية ضد كاشياري ونياري في وقت واحد، ولكن لم تكن هذه المدينة مجرد حامية عسكرية بل كانت قاعدة رئيسية ومستودعاً للتخزين. وكان سكانها من الآشوريين الذين يحصلون على الحبوب والملح

الأحرى من المناطق المجاورة وبحيث تستطيع في حالة تعرضها للهجوم الصمود مدة غير محدودة.

وهكذا فقد أنشأ آشور ناصر بعل خطاً دفاعياً قوياً على طول حدوده الشمالية والعربية، وبمبناها عمل على تحميم هذا الخط بحمله حلقة أمنية آمنة، أما في الشرق فقد زحف إلى جنوب كركمستان وهي المنطقة الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من كركوك، وقد استطاع بمصر الملوك الآشوريين في القربين الثاني عشر والثالث عشر الاحتماط مؤقتاً بهذه المنطقة التي لم تكن تحت حكم آشوري حازم وكامل مدة نحو ألف عام، ولكن تمثل عمليات آشور ناصر بعل بداية العمل ضد أحد المتبردين، ولكن ذكره بعد ذلك لا يمكن لم يرها أي إنسان في حياته والتي لم يصل إليها أي ملك من أسلافه

كل هذه التصريحات توحي أن هذه العمليات لم تكن سوى توسع عسكري سافر، فقد كانت بعض الشعوب التي واحها غربية عن الآشوريين، فقد قبل إن بعضهم كانوا يصنفون شعورهم كالكسائي (أو يزيهون أنفسهم) ولقد زادت عمليات إخضاع هذه المنطقة وسلسلة الدفاع الآشورية على طول زاعروس ابتداءً من منابع نهر دبالا (وهي منطقة الحدود مع بابل) حتى منابع نهر الراب الأدنى.

ولقد استخدم آشور ناصر بعل في غزواته أربيل وبنوى قواعد لعملياته الحربية، مع أن عاصمة آشور كانت واقعة في أقصى الجنوب، وأصبحت الإمبراطورية بحاجة إلى إنشاء عاصمة شمالية، فقد أدرك آشور ناصر بعل قيمة المدن من نوع (توشتمان) (وهي واحدة من عدة مدن مثاليها) في كوكها حاميات عسكرية وقواعد تحرير ومراكز إدارية، حيث من الممكن للملك اتعاها بقاط انطلاق دون وجود تلك الوثائق التي تساعد على التورط بالمشكلات التي تسببها وجود المراكز الدينية أو المدن التجارية، ولذلك فقد بسى الملك مدينة تجارية وهي (كالك) (التي يملكها الآن تلة نمرود) في موقع المدينة القديمة التي كان قد أسسها شلمنصر الأول بالتي، وقد تحولت إلى خرائب، وقد كان لهذا الموقع أهمية استراتيجية ليس لكونه واقعاً إلى الشمال بل لكونه واقعاً في الراوية التي يتصل

بها نهر الزاب الأعلى نهر دجلة ، ولقد زود الملك عاصمته الجديدة بالمياه عن طريق قناة مدّت من الزاب الأعلى ، وبنى فيها أبنية رائعة مع أنظمة للصرف الصحي ويزرع فيها الحدائق ، وأسكن فيها شعباً من مختلف أرجاء الإمبراطورية وحملها مدينة عالية حقاً ، وأحيراً دشنها بإقامة وليمة دامت أسبوعاً كاملاً وقد سجّل هذا العمل في نقش كامل ذكر فيه حتى قائمة المنكولات

وهنا يعود إلى استراتيجيّة آشور ناصر بعل العسكرية فقد كان عليه القيام بإجراءات لاحقة في العرب ، وبعد أن رحب آشور ناصر بعل إلى الغرب عبر نهر دجلة ابتداء من (كالح) حتى وصل إلى الخابور ، ثم اتجه جنوباً أخيراً مستلماً الجزيرة حتى وصل الفرات ، وهناك رحب بمعادة النهر حتى حدود بابل ، وقد استولى على إحدى البلدات الحدودية البابلية ، وهذا يمثل ما ندعوه اليوم ممراً للوصول إلى شفير الهاوية فلم ينتج عن ذلك نشوب حرب ضد بابل بل تطور إلى نتائج دعائية فكان آشور ناصر بعل يمررها تماماً ، وهنا نخبرنا .

القد وصلت حالات الخوف من سلطتي حتى أرض (كاردوبياش) (بابل) ولقد عمّ النزع من جيشي وأسلمتني بلاد الكلدانيين (جنوب بابل)»

وبعد أن قضى على محاولة عصيان مسلح في المنطقة الحدودية بسرعة ، ولم يعد أمام آشور ناصر بعل أي شيء يخشاه في تلك المنطقة فقد تم له تهييد كل معارضة بابلية محتملة .

البحر الأبيض المتوسط

بعد اكتمال الحلقة الأسيّة المؤلفة من بلاد بابل وراعيوس وطوريوس الشرقية (وطور عابدين) والخابور هذا السور الذي كان يحيط بأشور ، فقد تقدم آشور ناصر بعل الآن لتعميد المرحلة الثانية من استراتيجيته .

والحقيقة أنه لم يحدث أن استطاع أي حاكم آشوري أن يسيطر على الطريق المؤدية إلى البحر الأبيض المتوسط منذ أيام تغلات بلاسر الأول قبل نحو قرنين ولهذا فقد عمد (آشور ناصر بعل) إلى الاندفاع ابتداء من أعالي الفرات من رابية

الخابور ككاسماً كل معلومة في طريقه، مع قيامه بصيد الفخار والثيران البرية في طريقه، وهذه كانت ما ترال منتشرة في الصحراء السورية في ذلك الزمن، وقد انتهت هذه العمليات بالقيام ببعض الحملات ضد الدولة الآرامية في (بيت عابدين) على قوس الفرات، وتطلبت عملية تهدئة تلك المنطقة بشكل فعال القيام ببعض حملات وتأسيس مدينتي جديدتين وهما (مرقا آشور ناصر بعل) و(معيد آشور) وذلك للتحكم بمعايد الفرات فأصبحت بيت عابدين رسمياً ولاية آشورية أثناء أوائل حكم خليمتة.

بعد أن أمن مؤخرته، أصبح آشور ناصر بعل مستعداً للانطلاق نحو البحر الأبيض المتوسط بعد أن عبر المرات عن طريق الأطواف في منطقة ككريمين، ولقد أميت له عملية سحق المعارضة خضوع جميع ملوك شمال سورية الذين تقاطروا لتقديم الولاء، وكعلامة من علامات الضمان فقد أخذ بعض الرهائن (ربما من أبناء الملوك) وحفظ هؤلاء الأبناء معه خوفاً من حالات العذر في طريقه عبر نهر العاصي إلى جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، حيث استلم الجزية من المناطق الواقعة جنوباً حتى مدينة صور.

لقد أصبح آشور ناصر بعل الآن مُسيطرًا سيطرة تامة على جميع المنطقة ابتداءً من جنوب لبنان حتى جنوب ككردستان، مع سلطة غير ثابتة على اتساع لا بأس به من منطقة طوروس، ولقد توجهت حملات تالية تهدف إلى توطيد سلطة أكثر من ككسب أراضٍ جديدة وذلك باستثناء استيلائه على مدينة (أمد) (ديار بكر) التي كانت وما تزال المفتاح المؤدي إلى منطقة واسعة ابتداءً من مموح الجبال في طوروس الشرقية.

لقد تابع ابن آشور ناصر بعل وخليمتة وهو شلمانصر الثالث (558 - 524) سياسة والده ومنذها مع أنه قد عمد إلى بعض التطويرات والتحسينات الجديدة، ولكن تواريخه ليست موثوقة ولذلك فسوف نناقش المعطيات بشكل جمل في.

مدخل على حقن الأنعام في نصوص العهد القديم

أولاً في الغرب: لقد تابع شلمناصر الثالث خطة والده في تأمين سيطرته على المنطقة الفينيقيّة الساحليّة، ونرى على الأبواب الروميّة التي أقامها صورة جلب جريّة صور عن طريق القوارب، ولكنه عندما حاول التقدّم إلى مناطق في أقصى الجنوب من داخل سورية صادف مقاومة في حرقر (عام ٨٥٢) من قبل تحالف مؤلف من الملوك السوريّين والعلمانيين بما فيهم (حداد ايزير) الدمشقيّ وأهاب الاسرائيلي، وكلاهما مذكوران في التوراة، ولقد جلب أهاب قوة من الفرسان، وهنا وفحة يدخل عالم التاريخ في النصوص التوراتيّة ولدا

ووداعاً أيها العقل المسالم الهادئ!

ووداعاً أيها الفكر المطمئن!

إذ إن نعمة الموالاة والمحاباة التوراتيّة الدبيّة ترعح رأسها المتوحش، وفي الحالة الحاصرة وبالنسبة للملك الإسرائيليّ صاحب العلاقة هناك ميل أن تطرق السياسة الاستراتيجيّة الآشوريّة بسبل من الأسئلة المحرجة التي تتعامل هل ملك آشور أم إسرائيل هو الذي كسب المعركة؟ وأن الشاهد الوحيد المباشر الذي نمتلكه حول المواجهة هو حسب تسجيلات شلمناصر نفسه فهو يدعي أنه قد هزم الائتلاف، ولكن وحتى لو كان شلمناصر مافياً في أقواله وإدعاءاته النجاح وأن معركة حرقر قد سببت بكسة (وذلك كما يعتقد بعض الباحثين) للاستراتيجيّة الآشوريّة بما يخص سورية وفلسطين، فإن ذلك لم يكن سوى أمر مؤقت، إذ إنه وبعد اثني عشر عاماً قامت الإمبراطوريّة الآشوريّة بالسيطرة على فلسطين وأصبح خليمة أهاب الإسرائيليّ المعتصب وهو جيّعو تابعاً موالياً لأشور، ونراه وهو يحتني بإجلال واحترام أمام شلمناصر وذلك على نصب تذكاريّ آشوري.

فيما وراء جبال أمانوس وطوروس

ومن وجهة استراتيجيّة فإن أهم معجزات شلمناصر كانت توسيع السيطرة الآشوريّة باتجاه الشمال الغربيّ فيما وراء أمانوس حتى كليكيّا وتجاه أواسط

الأباضول، وكانت أهمية هذا الحدث هي أن كليشيا كانت المصدر الرئيسي للحديد بالنسبة للشرق الأدنى، وكانت مهمة أيضاً بالتجارة البحرية مع قبرص وبلاد اليونان بحيث يرى أن الروابط الآشورية الاقتصادية المهمة قد توسعت وتصلحت، وفي الجيوب كان على شلمناصر القيام بمروءة صغيرة لبابل وذلك بقصد تأمين استمرار الوضع على الحدود، ولكن المشكلة التي واجهها كانت جيوب بابل حيث كانت القبائل الكلدانية قد استقرت، وهذه دلالة على ما يحدث في المستقبل.

أما في الشمال الشرقي فقد كان هناك تطورات أخرى ذات قيمة استراتيجية على المدى الطويل، فقد تألفت شعوب طوروس الشرقية وشكلت ما سوف يصبح مملكة قوية وهي مملكة (أورارتو) على بحيرة (فان) ولقد برهنت هذه المملكة ولادة تريد عن قرن أنها منافس قوي لآشور، فقد توسعت عربياً عبر الأباضول حتى سورية الشمالية، وتنافست مع آشور بالنسبة للسيطرة على الطرق التجارية والمناطق الرئيسية لإنتاج المعادن وتربية الخيول، وهكذا أصبحت حملات الآشوريين التي كانت موجهة ضد بعض الإمارات الصغيرة في منطقة (بياري) (ومسبحا) أصبحت هذه الحملات تلاقى وتواجه من قبل معارضة قوية من دولة أورارتو وجهشها الذي كان مستعداً إلى سلاسل من القلاع.

فيما وراء راغروس.. الميديون والفرس

ظهرت عناصر جديدة في أقصى الشرق، فقد عبر شلمناصر راغروس من حيث كان آشور ناصر بعل قد حُيِمَ في منطقة جنوب كردستان، وقد حدث أول مواجهة له مع الميديين والفرس على الجانب الشرقي، ولقد كانت هذه الشعوب المتحدة من القبائل الإيرانية قد هاجرت إلى إيران من الشمال في حوالي نهاية الألف الثاني، وكان الفرّس الذين استقروا فيما بعد في جنوب غرب إيران لا يزالون في الشمال الغربي.

أما الميديون الذين سوف يقيمون عاصمتهم في إكباتانا (هوارث الحالية) وسوف يثبتون أنفسهم كتلاميذ ناجحين في فن الحرب الآشوري بحيث إنهم سوف يقومون بعملية حصار ناجحة للمدن الآشورية العظيمة ، هؤلاء الميديون كانوا في زمن شلمنصر عبارة عن مجرد شعب عميل من البدو الرحل الذين يُشار إليهم باسم الميديين الواسعي الانتشار ، ودوي العائدة لآشور ، والذين يتوسلون الطريق التي كانت تجلب اللازورد إلى منطقة ما بين النهرين من أفغانستان.

الحرب الأهلية

لقد دام حكم شلمنصر الثالث ووالده معاً مدة ستين عاماً ، وكانت تتسم بسياسة رشيدة واحدة يمارسها حاكمان يملكان عقليين راجعين.

ولكن وعندما منحت فرصة صغيرة للتعبير عن الرأي العام كان هذا الوضع سبباً لظهور السخط وعدم الرضا ، ولا غرابة أنه على الرغم من استمرار التوسعات الإمبراطورية فقد كتب على نهاية حكم شلمنصر أن يوصم بحدوث الاضطرابات والتمردات ، إذ إنه وفي الإمبراطورية نهاية عهد شلمنصر وقبل موته بعدة سنوات حدث هناك نراع قوي يرأسه ولدان من أولاد شلمنصر ، ويدكر الحلف الناجع لشلمنصر وهو شمسي آداد الخامس أن سبماً وعشرين مدينة قد تمردت ، وكان هذا التمرد يشمل المدن الآشورية الرئيسية وهي نيموى وأربيل وأشور وأرابا

وكانت مدينة (كالحا) هي الاستثناء الوحيد إذ إن من الواضح أن (كالحا) ظلت تحت سيطرة شلمنصر وشمسي آداد الخامس ، فقد كان بُعد النظر الذي أبداه آشور ناصر بل وشلمنصر عند تحطيط وتنظيم عاصمتها الجديدة (كالحا) قد أثبت الآن أن الحاكم الذي يحتفظ بهذه المدينة سوف يسيطر على الإمبراطورية بأكملها

وبعد استعادة السلام في آشور كانت نشاطات شمسي آداد الخامس متكررة بالحدود الشمالية الشرقيه وبيابل التي غزاها شمسي آداد وأزاح فيها عن العرش ملكين متعاقبين (٨١٢ - ٨١٢ ق.م) وليس لدينا أدلة قاطعة عن هذا التطور

الأخير، وهناك تطور آخر وهو أن شعبي أداد قد استلم مساعدة بابلية لتأمين مملكته (وقد استتج هذا من الرخم الفخارية التي تشير إلى المعاهدة المعقودة بينه وبين الملك البابلي).

وإن المحاولات التالية من قبل بابل للاستمرار وإذلال آشور بالتدخل في شرونها قد أدت لقيام شعبي أداد بإجراء أعمال مضادة عنيفة، وإن الخراب الذي أحدثه شعبي أداد في مدن شمال بابل قد سبب تمزقاً ساعد على تصاعد ونمو النفوذ الكلداني.

الأم الملكية التي أصبحت أسطورة

يُقدم لنا شعبي أداد حلقة تُؤدي إلى أسطورة كلاسيكية، إذ إن زوجته وتدعى (شمورامات) وهي التي ذكرت في الأساطير اليونانية ابتداءً من هيرودوتس فصاعداً، ووجدت في الأساطير وحكايات العصور الوسطى باسم سميراميس، ولقد ذكر ديونوروس المؤرخ الصقلي الذي كتب عن تاريخ اليونان في القرن الأول ق.م بأنه خصص عدة صفحات من القصص الخيالية حول هذه السيدة، التي كانت تجسداً للمرأة الخارقة الفاتكة الجمال، المحبة للتصنع وذات المقدرة العسكرية والقوة الجنسية والمهارة الإدارية والطموح، وقد أدت هذه الصفة الأخيرة بها عندما أصبحت أرملة الملك أن تُبني بابل وعدة مدن أخرى في منطقة ما بين النهرين وما وراءها.

يُبينما تقول الأساطير الأرمينية إنها قد بنت مدينة عظيمة تُطل على بحيرة (هان) شرقي تركيا، والحقيقة أن هذه العاصمة قد بناها ملك أوزارتو المعاصر لهذه الملكة.

إن درة من الحقيقة وراء كل هذه المعلومات تشير أن سميراميس - عانت امرأة متسلطة، وأنها كانت امرأة بارزة مرموقة في عهد ابنها حدد نيراري الثاني (٨٠٩ - ٧٨٢) ويتصورها بعض الباحثين كوصية على العرش، مع أنه ليس لدينا أي دليل مقنع على هذا سواء كانت وصية على العرش أم لم تكن، ولعكس عظمتها

الاستثنائية قد شهد عليها وجود نصب تذكاري حجري، فقد وجد بين القمبات في العاصمة الآشورية القديمة صفحان من الأعمدة الحجرية منقوش عليها تذكروا أشخاص مختلفين، وفي الصف الأول ذكرت أسماء موظفين كبار، بينما في النصف الثاني كُتب أسماء ملوك ما عدا ثلاثة أسماء، ومن الاستثناءات الثلاثة كان واحد باسم الملكة (سيدة القصر آشور باتييال) وواحد باسم سيدة (من المحتمل أن تكون سيدة من سيدات القصر مع أن الاسم واللقب مفقودان) سحاريب، والثالث باسم سميراميس، ويقول النص

مسلة سمورامات

ملككة (حرفها سيدة قصر) شمسي أداد

ملك الجميع - ملك آشور

كفنة شلمناصر

ملك الأقطار الأربعة

وإن وجود مسلة سمورامات (سميراميس) في النصف المحصن للملوك وأنها هي لوحدها من السيدات الثلاث الموجودة هناك كانت توصف بأنها أم ملك، هذا يوحي أنها كانت تتمتع بوضع خاص في أثناء حكم (حدد نيراري) ويمكننا أيضاً أن نلاحظ أن حاكم (كالح) عندما كرس تمثالين إلهين أضاف نقشاً تكريماً يربط بين عبارة

تكريماً لحياة حدد نيراري ملك أراضي آشور سيدة أصناف عبارة تكريماً لحياة شيمورامات سيدة القصر - سيدته وهذا يشير مرة ثانية إلى الوضع الاستثنائي لشيمورامات

أورارتو - الملكة المنافسة

كان لدى حدد نيراري الثالث مشكلات أخرى أكثر من وجود أم متسلطة، ولكي نفهم ما كان يجري في الإمبراطورية الآشورية في النصف الأول من القرن الثامن ق.م علينا أن ننظر لما كان يحدث في الشمال، فهنا يدعى الآن تركيا

الشرقية (سانقاً أرمنيًا) وكان هناك مملكة أورارتو التي كان يحدها ثلاث بحيرات وهي بحيرة (فان) وبحيرة (أورميا) وهي (ريزية) في أذربيجان (شمال غرب إيران) وبحيرة سيفان في أرمنيا السوفيتية (سابقاً) (حسب روسيا) ولقد تطورت هذه المملكة في القرن التاسع من اتحاد شعوب موحدة في داخل هيماء وراء طوروس، وغزاها الآشوريون خلال عدة قرون، ومع أن هناك نقشاً من اسم أورارتو موحداً ضمن النقوش الآشورية يرجع إلى القرن الثالث عشر، إلا أنه يشك أنه كان لا يسمي أكثر من جزء هامشي صغير لما أصبح يدعى فيما بعد مملكة أورارتو

وعلى كل حال كانت أورارتو المنافس الرئيسي لآشور، هي من صنع الدولة الآشورية نفسها، فإن العروات الآشورية الدائمة لجبال طوروس وما وراءها والقبض على أمرائها وأحدهم ككاسرى وكهرهائن، وتضليل أهاليها بالسحرة، والشباب لخدمة الجيش الآشوري، ووجود مسؤولي الإدارة الآشورية وكتبهم لمراقبة وتسجيل حملات الخشب والمعادن والتحويل القادمة إلى آشور، كل هذه عرفت شعب أورارتو على قسم كبير من ثقافة وبنية آشور التحتية، وإن هذا الرابط قد انعكس في أن أول النقوش الأورارتية الباقية كانت مكتوبة باللغة الآشورية،

ومعظمها مكتوبة بالخط المسماري المبني على اللغة الآشورية

يمكننا أن نرجع البداية الحقيقية لأورارتو كمملكة مرموقة إلى زمن شلماضر الثالث، فلم يصف شلماضر غرواته لأورارتو فحسب بل لقد صورها في لوحات مجسمة من البرونز ككسى بها دوابات إحدى المدن التي بناها قريبة من ككالاخ. فمن نرى خلال تلك الصور قدوم جنود المشاة من الأورارتيين فوق الجبال المتعددة، ونرى المسؤولين الآشوريين من الخيالة والرماة الآشوريين أثناء العمل، ونرى حادثة إحراق (ارزاشكن) أول عاصمة لأورارتو، ولم تكن أرزاشكن في منطقة بحيرة (فان) ولكن على بعد منها إلى الغرب أو الشمال الغربي، ولقد بنى ملك أورارتو (ساربورزي) عاصمة جديدة له تدعى (تورشيا) وذلك طلباً للأمان من

خطر الحملات الآشورية، وكانت هذه العاصمة الجديدة في موقع عالٍ يسهل الدفاع عن كل الشاطئ الجنوبي الشرقي لبحيرة فان.

لقد قدمت الاضطرابات الداخلية التي حدثت في أثناء حكم شلمناسر الثالث فرصة لأورارتو للتوسع، فقد عبر الآشوريون تحت قيادة شلمناسر جبال راغروس واتجهوا إلى إيران، وربما كان ذلك بحثاً عن الحبوب، وقد قابلوا إلى الجنوب من بحيرة أوروميا شعباً يدعى (المانى) فصلاً عن الإيرانيين (الذين لم يتخذوا مكان إقامتهم النهائي بعد في الجنوب) وقابل شعب ميدياً أيضاً

وهنا نتوسع (أورارتو) جنوباً الآن إلى داخل الأراضي الجبلية الواقعة بين (توروشيا) وأشور، وشرقاً وجنوب شرقاً إلى داخل بلاد أذربيجان الخصبة حتى بحيرة أوروميا، وعندما حاولت أورارتو مواصلة التوسع جنوباً من بحيرة أوروميا بدأت المناهضات للاستيلاء على أرض مانيا، الأمر الذي لم يتقرر إلا بعد أن استولت آشور على جميع بلاد أذربيجان عام ٧١٤ ق.م، غير أن الاضطرابات الآشورية الداخلية زمن شلمناسر الثالث قد أضعفت سيطرة آشور على المنطقة الشمالية الغربية وبذلك مكنت أورارتو من التوسع حتى الفرات الأعلى، وكانت هذه منطقة ذات أهمية قصوى بالنسبة لآشور نظراً لأن النهر كان هو الطريق الطبيعية الموصلة إلى بلاد الأناضول من سورية ومنطقة ما بين النهرين.

وعندما هجمت أورارتو على إحدى المحميات الآشورية المهمة هناك وهي دولة (ميليد) دبّ القلق بين أتباع آشور الآخرين من الداخلين في قلب آشور في شمال وجنوب سورية، وقد انعكس هذا في الامتناع عن تقديم الجزية في زمن حكم الملك شمشي أداد الخامس.

كانت أهمية سورية الاقتصادية بالنسبة لآشور متعددة الجوانب، فقد كانت سورية مصدراً للقوة العاملة الماهرة، كما أنها قدمت الخشب من جبال أمانوس ولبنان، وكانت تشرّف على الطرق الآشورية إلى البحر الأبيض المتوسط، وكانت سورية هي خط التزويد الأساسي بالمدار والخيول من الأناضول وآسيا الصغرى، هذا وقد وصل (حمد نيرازي) الثالث إلى حل بالنسبة لهذا المشكلة

الاستراتيجي وذلك بالقيام بحملات في جنوب سورية التي كانت أسهل مالأ من سورية الشمالية بسبب التعارض الطبعية، ولكن الحقيقة أن ذلك كان بسبب أن هذه الحملات لا تشمل أورتو مباشرة.

وقد بدأ الحملة بالهجوم على (أرياد) إلى الشمال الغربي من حلب، ولكنه ركرر فيما بعد على استعادة سيطرته على سورية الجنوبية، واستلام الجرية من المناطق حتى جوبي صور وصيدا وإسرائيل (وقد ذكر اسم ملكها بالتحديد وهو يوشع) وكان هدفه الرئيسي من عرو جنوب سورية الاستيلاء على مدينة دمشق الفنية التي ادعى حدد ييراري أنه استلم نحو ثلاثين طناً من النحاس أو البرونز، وصعب تلك الحكمة من الحديد، وأما من لبنان فقد حمل نحو مئة شجرة أرز من التي احتاجها لأحل بناء قصوره ومعابده.

لقد ألقنا إلى الدور الذي لعبته سورية كمصدر من مصادر الحصول على القوى البشرية، ولقد أدرك حدد نيراري الحاجة لتطوير أراضيه، وفي إحدى المصوص يضيف إلى قصة غروته لجوب سورية بعض التفاصيل حول مشروع إعادة الاستيطان في منطقة الخابور العليا الخصبة، ومن المقول أن نستج أن الشعب الذي وصل إلى هذه المستوطنات الجديدة قد أتى من جنوب سورية

وجواباً على تهديدات آشور لسورية حاول ملك دمشق تنظيم اتحاد يضم جميع الدول ابتداءً من (ميليد) وكلبيكيا حتى دمشق مع أنه وجدت بعض الجبر التي كانت تدن بالولاء لأشور مثل حماة التي بقيت كذلك.

وقد كان الوضع النهائي أن وجدت دولة قوية وهي دولة (أورتو) التي كانت مسيطرة على المنطقة بأجمعها عرياً ابتداءً من جنوب بحيرة (أروميا) حتى (ميليد) مع بعض الدول ابتداءً من ميليد جنوباً حتى كركميش التي كانت تحصص للنفوذ الأورارتي كلياً، وإلى أقاصي الجنوب حيث كان هناك اتحاد متصان منسبياً تحت قيادة دمشق التي كانت غير موالية لأشور، بكل هذه الأمور أثرت تأثيراً سلبياً على تزويد آشور بالأشياء الضرورية مثل الخيول والمعادن والأحشاب فضلاً عن الكماليات مثل اللازورد من أفغانستان، والذي كان يحصل

إلى آشور عن طريق يمينر حلال شمال إيران، ومثل التوابل من جنوب بلاد العرب والتي كانت تصل إلى آشور من حلال فلسطين وسورية

ولو كانت آشور تحت حكم رجل استراتيجي قادر لاستطاعت حل هذه المشكلات، ويوجد سهولها الغنية بسات الذرة الممتدة على طول نهر دجلة العظيم، ويوجد طرق المواصلات السهلة عبر المنطقة بأكملها، فقد كانت آشور ذات موقع جغرافي يؤهلها لتكوين دولة محاربة أكثر من حالة أورارتو الحبلية التي كان من الصعب صوغها بشكل دولة موحدة، بينما كانت التضاريس الطبيعية لأورارتو تجعل من المستحيل هزيمة هذه الدولة بشكل، ولكن عملت بعض الظروف على التأكيد أن باستطاعة آشور السيطرة على تلك المناطق الخاصة لنموذج (أورارتو) والتي كانت ذات أهمية استراتيجية لأشور، ولكن وفي ذلك الوقت بالذات لم تكن الظروف مناسبة في آشور، وكذلك فقد كان المشكل في سورية ليس مستعصياً على الحل.

أما محاولات دمشق لإنشاء تحالف سوري شامل فقد كانت ناجحة إلى حد ما وبشكل مؤقت، هذا وقد ذكرت قصة مقاومة حماة، وتوسع الثورة أن بريكام الثاني ملك إسرائيل لم يكن يرحب بالاتحاد الذي اقترحه دمشق، ولكنه استفاد من انهماك دمشق في تلك الشؤون فأصبح حليفاً لأشور عندما قامت بحملة ضد دمشق عام ٧٧٢، وكانت آشور تمصل وجود إسرائيل قوية ولكن لا تولف تهديداً لأشور في منطقة الفرات السورية، على تحالف الدول الآرامية بقيادة دمشق والذي كان يهدد مصالح آشور حقاً

الملوك الضعفاء والولاة المهابلون في القوة

ومع ذلك ولمدة حكم ثلاثة ملوك ومضي نحو أربعين عاماً بعد حدد ميراري الثالث لم تظهر آشور أي مبادرة ظاهرة، ولا يعني هذا أن آشور قد لانت فجأة، إذ إن قوائم التواريخ السنوية تذكر حدوث حملات سنوية ضد مملكة أورارتو في مدة ثماني سنوات، وأربع حملات ضد سورية فيما بين عام ٧٧٢ وعام ٧٥٤، ولكن

تدل المؤشرات أن هذه الحملات كانت إما حملات دفاعية قام بها الحكام المحليون أو غارات محدودة أو مصادمات حدودية، إلا أنه لم تكن هناك محاولات كبيرة للتوسع الآشوري، وقد كان أحد عوامل هذه الظاهرة هو الوضع الداخلي، حيث حدث تغير في السلطة وانتقال تلك السلطة من الحكومة المركزية إلى الولاة المحليين، وهذا كان تطوراً تدريجياً بدأ بالحدوث منذ زمن شلمنصر الثالث

هذا، وإن تأكيد ذلك الملك ووالده على وجود سيطرة آشورية حازمة على مناطق مثل منطقة الفرات الوسطى والعليا، ومناطق شمال طور عابدين بكل ذلك كان يقتضي وجود إدارة محلية ذات سلطات بالغة القوة لحماية أمن تلك المناطق الحدودية النائية

ولقد لاقت تلك الاستراتيجية لحماية آشور داخل حدود الفرات وشمال دجلة نجاحاً باهراً، فقد سمحت بالعمل السريع ضد أي فلافل محلية، واستطاع الحكام في جواد قوي (أورارتو) التحرك بسرعة ضد أي حركات مهددة، ولكن يظهر أنه كان هناك وجه آخر لهذا التطور، فالحكام في هذا الوضع كانوا قادرين في غياب ملك قوي قادر على اكتساب مقياس واسع من الاستقلال، وأن تصبح هناك أسر محلية حاكمة، ولقد أظهرت هذا الأمر بعض النقوش التي كانت تحصى ثلاثة حكام مختلفين من هذه الفترة كانت تسجل مفاجرتهم التي تشمل بعض أوجه النجاح العسكري وناسيم بعض المدن، وكانت هذه الشؤون منحصرة بالنقوش الملكية

وفي إحدى الحالات نجد أحد الحكام الذي كان يحكم منطقة بمهارة الفرات الأوسط، كان هذا الحاكم يورخ أعماله بعدد سنوات حكمه ووجوده في السلطة دون ذكر وجود أي ملك، وهذا يدل أنه كان حاكماً مستقلاً فعلاً، ومن الممكن أن نضيف أن هذا الحاكم فعل الكثير لخير الإنسانية أكثر من عديد من الملوك، فقد قدم تربية النحل لشمبه، والتي كانت أجاراً يفتخر به وهو يكتب هنا مايلي

أنا شاماش - ديش يويسور حاكم سوهو وملزي (على الفرات الأوسط)
أقول: إن النحل الذي يجمع العسل الذي لم يره أحد من أجدادي ولم يطلبه إلى هذه
البلاد، لقد حنّته من جبال حبعا (تركيا الشرقية) وبدأت استثماره في بلدة
جباري ابني (وهي إحدى المدن التي اسمها) وإن أهالي تلك البلدة يجمعون العسل
والشمع، وإني أفهم كيف يذّبون العسل والشمع ويصنعان أصحاب البساتين أيضاً
ويمكّصكم سزال أي شخص في المستقبل من الشيوخ القدياء في البلاد فهما إذا
كان صحيحاً أن شاماش - ريش - يوشور حاكم سوهو هو الذي قدم النحل إلى
هذه البلاد

إنه لأمر مهم أن يقول شاماش - ريش - يوشور - إنه حصل على النحل من
الشمال، لأنه من المعلوم أن الحثيين كانوا يربون النحل في حلايا في الألف الثاني
ق. م.

وبوجود حكومة مركزية ضعيفة مع وجود مشاكل اقتصادية ناتجة عن
التدخلات في تأمين البضائع التي كانت آشور معتادة على الحصول عليها من
سورية ومن الشمال، بوجود هذه المشكلات بدأت التوترات تشتد، وفي أثناء
حكم آخر ملك في هذه الفترة وهو آشور نيراري (٧٥٣ - ٧٤٥) حصلت أورارتو على
مكاسب سياسية وربما عسكرية في شمال سورية، وقد ادعى معاصره الأورارقي
(صاردوري) الأول أنه قد استولى على أرض (آشور نيراري) ملك آشور، ولم يذكر
أي تفاصيل سوى أنه ذكر اسم مكان يوهي بأنه من أراضي آشورية هرب
كوكميش، ولم يكن آشور نيراري في مركز يسمح له أن يقوم بحواب
عسكري.

وتسجل قائمة حوادث السنين الخمسة من المسمي الثماني التي حكمها بأنه
لم تحدث أي حملة عسكرية، ويظهر أنه قد صمم على حماية مركز آشور في
سورية الشمالية بشكل دبلوماسي، ولدينا نص من نصوص معاهدة مئانها إشرالك
دولة سورية شمالية لدعم آشور ضد أورارتو، وكانت لهذه المبادرة تأثيرات قليلة،
وهكذا استمرت أورارتو بالتقدم في سورية الشمالية.

وفي النهاية - انضمرت التوترات خلال آشور عبر تمرد داخل العاصمة (كالك) ونُصب حاكم كالك ملكاً وكان مُتمصباً، ولكنه كان يحمل دماء ملكية، وكان اسمه (بول) كما هو مسجل في كل من التوراة وبعض النقوش المسمارية، ولكنه اتخذ اسم (تتلان يلاسير) لقباً ملكياً كما أنه كان دلالة على نوع الميامنة التوسعية التي كان ينوي اتحادها والسير بموجبها وذلك اقتضاء لحظي صاحب الأول لهذا اللقب.

الفصل السابع

عنوان الإمبراطورية

الإصلاح الإداري

لقد قدّم حكم عمالات بلاسر الثالث (٧٢٥ - ٧٢٧) قرناً من التوسعات العظمى في آشور الإمبراطورية ، ولقد نزع ذلك التعبير الدرامي في الأوصاف الدولية التنظيم الإداري الذي أعطى الملك السيطرة المباشرة والسريعة على جميع موارد الإمبراطورية.

وبالنسبة للتنظيمات الإدارية القديمة للمناطق ، انتقلت بعض أنظمة الولاية التي كان يُعدها بعض العائلات النبيلة إلى ما يشبه نظام الملكية الوراثي ، وأصبح الوالي حاكماً شبه مستقل ، ولكن هذه الأنظمة قد تحطمت وظهر بدلاً منها بُنية من الموظفين الذين كان يُعيّهم الملك وأصبحوا مسؤولين أمامه في العاصمة ، ولقد نظمت في الإمبراطورية أنظمة للمواصلات السريعة وشبكة من مراحل البريد التي اقتسبها العرب فيما بعد وادّعوا أنهم هم الذين اخترعوا هذا النظام الذي انتشر عبر الإمبراطورية

وقد طُلب من موظفي الولايات إرسال تقارير بالنظام إلى العاصمة وبالسريعة المطلوبة ، وكان للملك بعض الممتنشين المتقلين وذلك لفحص أعمال موظفي الولاية حتى أعلى المراتب وبالنسبة للدول الخاضعة لأشور والتي تقع فيما وراء الولايات المحكومة بشكل مباشر فقد عين عمالات بلاسر ممثلين عنه لصنع المصالح الآشورية في البلاد ولإسهما في الشؤون التجارية والسياسة الأجنبية

أما العائلات الحاكمة المحلية ، هما داموا يدعمون الجزية المبرومة عليهم ، وما داموا يقبلون تعليمات الممثل الإمبراطوري بالنسبة للشؤون العامة ، فقد تركوا أحراراً ومستقلين ولديهم الثقة بدعم القوى الإمبراطورية لهم ضد أي ثورة داخلية أو هجوم خارجي ، وليس من الصعب أن نحد أمتعة على أوصاف من هذا النوع ، إذ إن

لدينا نقشاً آرامياً يمثل أحد الأتباع المخلصين وهو ملك (ساعات) التي تقع على بعد حوالي سبعين ميلاً إلى الشمال من حلب، ويذكر هذا الملك كيف أعاد تملات بلاسر والد هذا الملك إلى الحكم بعد أن حصل تمرد ضده، وكيف أن الملك الآشوري قد قسم على المعارضة، وفي التوراة يرى كيف أن (أحاز) ملك يهودا وعندما هدده انتلاف معاصر، التحا (أحاز) هذا إلى ملك آشور تملات بلاسر

ولقد أنشئ نظام للتجسس في آشور، ومن هذا الرمز نسمع عن حواسيس من (أوراريتا) كان الآشوريون يدفعون لهم رواتبهم، ولقد سمعنا عن تقاريرهم في بعض الحالات، ومن المقول أن نضرب أن هذا الاحراء لم يكن معصوماً بأورارتو، وفي أثناء هجوم سنهاريب على أورشليم عام ٧٠١ ق م كان الموظفون الآشوريون يعمرون بالطبع (إذا جاز لنا أن نصلق القصص التوراتية) ككميات وأهرة من المعلومات عن التطورات الداخلية في مملكة يهودا

لقد بدا من الواضح معرفة أعمال تملات بلاسر بصيغة عامة، إذ من الصعب الوصول إلى ما فعله بصورة خاصة، وذلك لأن حولياته قد حطمت بشكل سيئ، وإن إعادة ترتيب معصلة لتاريخ وجرمانية حملاته ما تزال تقدم عدة ساعات سعيدة من الأبحاث بالنسبة لدارسي الخط المسماري، أما نقوش تملات بلاسر فقد تعرضت إلى الأذى من عدة مواج، فقد كتب حولياته بالحط الباهر على جدران قصره، وقد عمد أحد خلفائه إلى دمر تلك الألواح المجسمة واستعملها لترتين قصره الجديد الذي كان يبنيه، وقد أساء ترتيبها وأتلفها عند القيام بهذا العمل..

وبعد ذلك وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حاول أحد الحفارين الوصول إلى الألواح فتسبب في رهادة الإساءة، وذلك لأنه قص بعض الأجزاء المنقوشة للتحفيم من ورنها وتسهيل نقلها

«آء أيها الصن، كم من الجرائم تعرف باسمك..» وقد حاول عمحو بعثة الحفريات هذا أن يتجنب ضياع المعلومات وذلك بمنسخ النص على أوراق، ولكن الأوراق تعرضت للمرق واختفى قسم منها بين دهاليز المتحف البريطاني، وفوق ذلك فإن الذين توصلوا إلى القصص الأصلية وقطع الورق بشروها بشكل سيئ، وإن

أحد العوامل الكامنة وراء هذا الخلل النهائي هو أن تغلات بلاسر كان واقعاً ضد غالبية التواريخ التوراتية كما يظهر في كتاب الملوك، وهكذا فقد أصبح الاهتمام الرئيسي لبعض الباحثين لا ينتمي إلى تاريخ الشرق الأدنى في مظاهره العريضة بل كان مهمهم تثبيت وتأكيد الأقوال التوراتية حول التاريخ الإسرائيلي.

السياسة تجاه الدول التابعة

لقد وسع تغلات بلاسر الإمبراطورية الآشورية، وقد اعتبر آشور ناصر بعل وشلمنصر الثالث منطقة نهر العرات حداً من حدود آشور العظمى تعبيراً عن حكم المناطق بشكل مباشر، وإلى الغرب كان هناك دويلات خاضعة وموالية مرتبطة بآشور بالمعاهدات أو بالتهديدات العسكرية.

ولكنها كانت بالحقيقة مستقلة رسمياً، ولكن تغلات بلاسر بدل كل هذه الماهيم، ففي أثناء حكمه أصبحت بعض الولايات التابعة سابقاً فيما وراء الفرات ولايات محكومة بشكل مباشر، وقد تابع حلفاء هذا الملك توسيع هذا الوضع.

هل كان هذا العمل نتيجة لاتباع سياسة واستراتيجية جديدة أم لم يكن سوى نتيجة اتباع سياسة سابقة؟

ولكن الشواهد تشير إلى تصويب الرأي الأخير، فقد قدمت التوراة تفاصيل حول ضم مملكة إسرائيل إلى الحكم الآشوري، ومن الواضح أن تغلات بلاسر حاول جهده لتكميب تعاون إسرائيل كدولة تابعة، ولكن وبعد أن فشلت هذه المحاولات عمل أحد حلفاء هذا الملك إلى عرو إسرائيل واحتلالها. وكذلك في مملكة يهودا برى أن أحار ملكها قد استنجد بتغلات بلاسر طالباً العون، ولم يمكن ليعمل هذا لو كان يدري أن هذا سوف يؤدي إلى ضم مملكته لآشور (وهذا لم يتم بالنتيجة) وهنا برى أحد حكام الولايات في شمال سورية التابعين لآشور يعدد بوصوح العلاقات الوثيقة ما بين أبيه وبينه من جهة وبين تغلات بلاسر الثالث من جهة أخرى.

(لقد أمسك أبي بحاشية سيده ملك آشور العظيم وعنفد عاش هو وعاشت عدي) (اسم المملكة) لقد سار أبي إلى جانب دواليب عرية سيده تغلات ملك آشور ورافقه في حملات امتدت من المشرق إلى الغرب، ولقد مات والدي تحت قدمي سيده تغلات بلاسر ملك آشور، وقد بكيت عليه جميع معسكرات سيده، وقد أقام له سيده تمثالاً على حافة الطريق، وحمل أبي قداماً من دمشق، وبنظراً ثولائي وولاء والدي فقد عينني سيدي تغلات بلاسر ملكاً)

ومن الواضح أنه لم يكن لهذا الملك أي سبب يدعوهُ أن يفكر أنه ما دام تابياً وموالياً لأشور فإن مملكته سوف تصم إلى آشور

لقد كانت مشكلة آشور العظمى عند تولي تغلات بلاسر الحكم هي (أورارتو) وقد كانت السيطرة على الطرق التجارية السورية ضرورية لتأمين ورود الأخشاب والمعادن والخبول، ولقد كانت مملكة أورارتو مصممة على السيطرة على سورية الشمالية، وبوجود هاتين القوتين في الميدان (مع وجود قوة ثالثة وهي مصر التي كانت أقل قوة ولكنها استعادت بعض قواها في هذا الوقت بحيث لا يجوز إغفالها) ولهذا فقد ثبت أن معظم الدول النابعة غير جديرة بالثقة في الأوقات الحرجة، وذلك من وجهة النظر الآشورية، ولهذا فقد اضطرت آشور وحفظاً لأمن الطرق التي كانت تعتمد عليها أن تقدم وتمتد حكاماً مباشراً للولايات، وأن تصعب المحال المحلي للثمرات عليها وذلك عن طريق تهجير الفئات المتعددة

وهنا وبمعنى النظر عن ميادئ تغلات بلاسر التوسعية، وبسبب حالة سجلاته السيئة، فإننا نلاحظ أن التفاصيل قد بقيت موضوعاً للبحث بالنسبة لعدة نقاط، وفي الاستعراض التالي سوف نذكر التفاصيل التي اقترحها الباحث الإسرائيلي حاييم تدمور

التوسع خلال حكم تغلات بلاسر الثالث

ذكرنا سابقاً موضوع الخصومات الحدودية المستوطنة التي وقعت بين آشور وبابل، والتي طال ذكرها، ولم يقصد كسر التقاليد أثناء حكم تغلات بلاسر

عندما نبدأ بتأكيد الحقوق الآشورية بالحدود المتنازع عليها مع بابل في الجهة الجنوبية الشرقية، ويهدد التسمية استطاع تملات بلاسر نظراً لضعف بابل المسبب عن الاضطرابات الداخلية أن يُثبت الحدود في أقصى الخطوط الجنوبية على طول نهر ديالاً من زاعروس إلى نهر دجلة، ولقد حدث أيضاً عدة اختراقات آشورية إلى الجنوب، حيث كان هناك بعض القبائل وهم الكلدانيون الذين دكروا أنفاً والذين سوف تقابلهم كحصون مقاومة لأشور فيما بعد، كان هؤلاء الكلدانيون يعرفون ويوقعون القومى في بابل، وبعد ذلك التفت تملات بلاسر إلى الاهتمام بمشكلاته الرئيسية وهي شمال سورية.

وهنا نجد أن مملكة أورارتو قد قامت بتقدم ذي أهمية حديثاً، فقد اخصعت عدة دول على الحبل إلى العرب من نهر العرات وهي ميليد وكوموخ وكركميش وأصبحت هذه الدول تابعة لأورارتو، هذا وقد انضمت (أرياد) إلى الجنوب الغربي من كركميش وهي التي كانت تسيطر على مشارف المناطق في أقصى الجنوب، تلك المشارف التي كانت ذات أهمية بالنسبة للطرق الآشورية إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط، والتي كانت ترتبط بمعاهدة اسمية مع آشور، وقد انضمت هذه المملكة إلى الائتلاف ضد آشور.

وفي عام ٧٤٢ ق.م قام تملات بلاسر بمهاجمة (أرياد) التي كانت تحتلها الجيوش الأورارتية، وتشمل قائمة (ليمو) (وهي وثيقة تقدم قائمة تقريبية للحوادث ذات الأهمية بالنسبة للأعراس التاريخية) مايلي وذلك بالنسبة لحوادث عام ٧٢٢ ق.م

((في (أرياد) حصل انكسار لقوات أورارتو)) ولكن استغرق حصارها مدة سنتين حتى استولى الآشوريون على تلك المدينة، وقد تسبب هذا في حصول عدة مدن لحكم آشور عن طريق دفع الحرية، بينما كان تملات بلاسر يقوي مواقفه في شمال سورية، وكان هذا في عام ٧٤٠ الذي أصبح يسجل عام فتح أرياد وجعلها قاعدة للعمليات الرامية إلى هزيمة الدول الخارجة عن الطاعة

وهنا التقت ثملات بلاسر لمعالجة دولة خاضعة لأورارتو وهي بلاد (أولويو) في منطقة (دوهوك زاخو) الواقعة إلى الشمال من نيسوى. والتي كانت متاخمة لأراضي آشور والتي لا يجوز تركها مُرتاحة تحت أيادٍ أجنبية، وهي تمثل تهديدات أورارتو لأشور. وهكذا استولى ثملات بلاسر على هذه المنطقة التي كانت مردهرة، كما ذكر أن تسعاً وعشرين مدينة قد أصبحت تحت الحكم الآشوري المباشر، وقد هاجر إليها بعض المصكان المنقولين من المناطق المملوية، وبطل أنهم كانوا من شمال سورية، ولقد جلبت لثملات بلاسر تلك النشاطات التي بدأها من قاعدة (أرياد) عام ٧٤٠ جلبيت له الجرية التي تدل على القبول النهائي للحكم الآشوري، وذلك من عدد من الدول التي ثم قهرها حتى حدود فلسطين.

وفي هذه النقطة يرى أن تسجيلات واسمة كانت متأثرة بحيث كانت إعادة بناء عدة أماكن ممكنة، ولا تزال الاختلافات الأكاديمية لدرجة قطع الأعناق مستمرة حول تفاصيل تاهة، مثل الاختلاف على التاريخ المضبوط حول دفع الجرية من قبل (مباحيم) في إسرائيل، والتي سجلتها التوراة، ومع ذلك يبدو أن بعض الدول البعيدة في جنوب سورية وفلسطين قد استحكمت عن دفع الجرية، وبهذا أظهرت أنها لم تكن موالية لأشور، ولهذا فقد قام ثملات بلاسر عام ٧٢٨ بمصر لفضاء العسكرية في جنوب سورية وكان هذا سبباً في دهم مباحيم الإسرائيلي الجرية لأشور، وفي سمر الملوك يذكر أن بول (وهو ثملات بلاسر ملك آشور تقدم صد الأراضي ولهذا فقد قدم مباحيم إلى بول الف مثقال من الفضة، وتعهد أن يبقى معه لكي يثبت بقاء المنطقة تحت حكمه).

وإن ما ورد في التوراة عن الحوادث التي سبقت الحوادث التي ذكرناها، يذكر أن مباحيم قد استولى على المرش في إسرائيل في أواخر حكم عزريا ملك يهوذا، ومن الممتع أن نعلم أن ثملات بلاسر قد قابل شخصاً اسمه (عمر ياهو) وهو شخصية بارزة في التحالف السوري وكان يحظى بدعم سوري حتى حماة، ولقد اعتبر البعض أن (عمر ياهو) هو ملك يهوذا نظراً لأن عمر ياهو قد التحق به أو حتى ألف تحالفاً سورياً يشمل الدول المناهضة للدول الخاضعة لأشور، ولكن ومع أن

هذا كلن معتمداً بالنسبة للتواريخ التوراتية، إلا أن هذا الخبر ليس له أي صلة بإعادة إنشاء تفلّات بلاسر لاستراتيجيته الجديدة.

وابتداءً من عام ٧٢٧ حتى عام ٧٢٥ ق.م كلن تفلّات بلاسر مشغولاً بتنفيذ إجراءات صد أورارتو في أقاليم المناطق الشرقية حتى أراضي الميديين الواقعة إلى الشرق من زاغروس في شمال غرب إيران.

هذا ولقد أعطى انسحاب الجيش الآشوري الرئيسي من سورية انطباعاً مصللاً عن مقدرة الآشوريين على الاحتفاظ بقوتهم ومركزهم، فلقد شككت اتحادات صد آشور لاسيما ما بين دمشق والدويلات في فلسطين، مع أن (أحاز) كان خارج هذه التحالفات (ربما كان ذلك بناءً على نصيحة النبي أشعيا) وهكذا دعا هذا الملك راعيه وملوكه تفلّات بلاسر لتأييده، ولقد أخذ تفلّات بلاسر تلك الإضطرابات بسهولة وحول دمشق وبعض أجزاء إسرائيل إلى ولايات، مع أنه ترك الجزء الأوسط من إسرائيل تحت حكم ملك وطني وهو (هوشيا) الذي عينه بدلاً من المتمرّد (بيصكاح) وذلك بدلاً من أن يحمل جميع المناطق المهرومة تحت حكم آشوري مباشرة، فقد كان تفلّات بلاسر حريصاً على محاولة الاحتفاظ بولاء الممالك الخاضعة كلما كان ذلك ممكناً

الراع مع الكلدانيين

لقد ظهرت بعض المشكلات أمام تفلّات بلاسر في منطقة جديدة، فظنّد ذكرنا سابقاً عن الكلدانيين الذين كانوا يمرقون بابل وقد كلّ هؤلاء شعوباً قبليّة ولديهم بعض أوجه الشبه بالأراميين، فقد دخلوا إلى جوب بابل حوالي عام (١٠٠٠) ق.م، وأنشأوا أول مستوطناتهم في مناطق المستقعات في أقاصي جنوب بابل وهي المستقعات المراقية الشهيرة، وبعد ذلك بدؤوا بالتحرك إلى أعالي نهر الفرات ومحاولة السيطرة على بعض المدن القديمة

وفي عام (٧٢٤) قام أحد الزعماء الكلدانيين البارزين من قبيلة (أموكاسي) باحتلال بابل وكان اسمه (نوكين - زير) بالاستيلاء على العرش، ولهذا فقد انقسمت بابل في ولائها، وبالنسبة للشعب الكلداني فإن جارهم الشمالي كان يمثل النظام القديم المستقر القائم ضد الكلدانيين المخترين، وعندما استجاب تفلّات بلاسر للوصع بإرسال القوة العسكرية فإن كثيراً من السكان المديين في بابل وحتى بعض السكان غير المواليين للكلدانيين مثل شعب باكدود قد رحبوا بهذا العمل، وقد ذكر باكدود في مكتب (أرميا ورسكريا)، ولديها بعض المراسلات الحقيقية التي تعود إلى تلك الحملة التي تمت بها بعض القواد إلى الملك، وتذكر إحدى هذه الرسائل قضية الحادّثات التي جرت على أبواب بابل ما بين الموظفين الآشوريين والشعب في الداخل، فقد كان الآشوريون يودون التفاهم مع العامة مباشرة متجاوزين الحكام المتمردين، وذلك بنفس الطريقة التي تمت بها المقاتلة بين القائد الآشوري (ريشاتي) مع اليهود أثناء حصار أورشليم عام ٧٠١ ق.م وهذه الحادثة قد ذكرت في التوراة، ولكن الموقف الكلداني كان قوياً بحيث إن علبة الآشوريين لبابل قد تمت خلال ثلاث سنوات، ولقد كان النجاح الآشوري مدين للدبلوماسية أكثر منه للقوة العسكرية، وبين المراسلات الملكية التي تعود إلى هذه الفترة هناك عدة رسائل تظهر أن تفلّات بلاسر كان على ارتباط مع عدد من قواد وزعماء كلدانيين مختلفين، بما فيهم المدعو (باردوك - أيل - أيديا) من قبيلة (بيت باهي) وهو نفس (بيروراك - بالادان) المذكور كأحد المعاصرين

مع (حزقيها ملك يهوذا في فترة تالية) وإن رد الفعل الذي أظهره أشعيا إزاء تلك المملوؤسات يظهر أنه لم يكن يثق ببيرووداك - بالآدان، إذ إن أشعيا كان له أسبابه الخاصة، فقد كان بيرووداك جاسوساً مزدوج النفعات، إذ إن الرسائل الآشورية الموجودة الآن تظهر أنه وفي زمن المتمرّد (أوكين - زير) كان ميرووداك يقبض أموالاً بالمر من تمّلات بلاسر لطمس رفقائه من الكلدانيين في الظهر.

ولقد عرفت تكتيكات الآشوريين في احتلال بابل بالتصميل، فقد توجهت الهجمة من ولاية (أرايحا) (كركوك) فقد تحرك الجيش الآشوري جنوباً أسفل الضفة الشرقية لنهر دجلة ليدخل بابل بعد عبور المهر في مكان ما قرب بغداد، وقد مكّنت بعض القبائل الموالية تحرس الطرق بينما كان الجيش الآشوري يتحرك غرباً ليصل إلى المدن البابلية الشمالية التي كان الكلدانيون المتمردون يحتلونها، وهكذا سقطت بابل وهرب (أوكين - زير) جنوباً ليلتقي بمصمته القبلية في المستقعات الجنوبية، ولكن جيشاً آشورياً لحق به وتابمه إلى هناك بعد أن صبروا أراضيه وأراضي حلفائه من القبائل، مع أن الزعماء المواليين لآشور مثل بيرووداك - بالآدان نجت أراضيهم ولم تخرب وعندما استقرت الأمور بعد ثلاث سنوات أصبحت بابل تحت الحكم الإداري الآشوري، وبالتالي فقد أمسك تمّلات بلاسر بيد الإله (مردوخ) أي أنه (أخرج معه تمثال الإله) في احتفال جرى في بابل وبذلك فقد كان محولاً بشكل رسمي بامتلاك بابل وتصبّيه ملكاً عليها، تلك الوظيفة التي لم يحصل عليها أي ملك آشوري منذ أكثر من أربعة قرون.

وهذا اعترف الكهنة رسمياً باحتمال باهر لتمّلات بلاسر ممثلاً للآلهة والملك الشرعي لبابل وذلك بإشراكه في وجبة ووليمة سرية خاصة بالأسرار المقدسة والمقامة تكريماً للآلهة، وقد حدث هذا في عام ٧٢٩ ق.م. ولقد توجّه تمّلات بلاسر بعد عامين بعد أن ترك آشور تحكّم إمبراطورية ممتدة من الخليج الفارسي إلى حدود مصر وتتوسع شمالاً خلال شمال سورية إلى كليكية والآناضول.

ولقد اكتسبت الحملات الآشورية تحت قيادة تمّلات بلاسر السيطرة على الساحل الفلسطيني جنوباً حتى قطاع غزة، وكان هذا يظهر تهديداً لمصر وأيضاً

لقد تدخل الآشوريون بالتجارة المصرية ، فقد فرضوا حظراً على تصدير الأخشاب من لبنان إلى مصر ، وكانت هذه العوامل حافزة لمصر لتنظيم حركات ضد الآشوريين في فلسطين وجنوب سورية في السنوات التالية ، وقد كانت النتيجة الأكثر دراماتيكية معاصرة وسبي السامرة من قبل الآشوريين وكانت السامرة هي عاصمة ما تبقى من إسرائيل وهي التي دمكرتها النوراة

احتلاء سرجون العرش

لقد ادعى سرجون الثاني أنه ابن ثعلات بلامر وقد استولى على العرش بعد قيام اضطرابات في العاصمة القديمة آشور ضد سلطة شلمنصر الخامس الذي حكم وقتاً قصيراً من (٧٢٧ - ٧٢٢) وقد قام شلمنصر الخامس هذا بمحاولة لمصر أعمال المسخرة على المجتمع بعكس كل من سبقه فقد كان لسلطة ملوك آشور حدوداً ، واعتراها بالدعم الذي لقيه سرجون عند استلامه السلطة فقد أعلن سرجون الإغواء من بعض الصرانب وبعض الالتزامات ليس لشعب آشور فحسب بل أيضاً لجميع معابر بلاد آشور ، وهكذا فقد فرض أعباء ضخمة على الأموال الإمبراطورية.

لم يكن أمراً غير متوقع أن قيام الإضطرابات في بلاد آشور قد أيقظت حكمى لما حدث في بعض الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية ، وسرعان ما واجه سرجون بعض الإزعاجات في بابل.

ولقد قابلا في وقت مضى عيلام الواقعة في جنوب غربي إيران ، وفي أواخر القرن التاسع بدأنا نسمع عن قيام العيلاميين مع الكلدانيين وقيادتهم بمصادمات مع دولة آشور ، وقد كان قرب أراسي عيلام من مناطق الكلدانيين في بابل الجنوبية قد وحد اهتمام الشعبين ، وفي بداية حكم سرجون أمس ديوروك - بالادان حلفاً رسمياً مع عيلام ويمساندة هذا الشعب استطاع الاستيلاء على بابل عام ٧٢١ قم ، وقد ادعى حقه في ملك بابل بكونه منحدرًا من أحد الحدود الذي عين بمسه ملكاً في أول ذلك القرن ، وكما حدث في عصيل أوكنرر فقد تحرك

الجيش الآشوري إلى الجنوب إلى بابل إلى الشرق من نهر دجلة، ولكن في هذه المرة حال دون تقدمهم خلفاء (بيروزالدا) - بالادان وهم يؤلفون الجيش الميلاسي في (الدير) ومع أن سرجون ادعى سحق جيش (هميانيجاش) ملك عيلام ولكن الحقيقة أن أي عمل ضد (بيروزالدا - بالادان) قد صد لمدة عقد من الزمان.

ولقد مع سرجون من تكريس موارد أكثر وذلك بسبب المشكلات التي ظهرت في أمكنة أخرى، ومن هذه الأماكن كانت سورية حيث حاولت عدة مرات إنشاء تحالف آخر ضد آشور وذلك بالتحالف مع أرباد والسامرة، ولكن استطاع سرجون القضاء على هذا التحالف بسهولة وسقطت حماة لتصبح تحت حكم آشور المباشر، وتلمح التوراة لبعض العمليات التي قام بها سرجون في المنطقة الساحلية في جنوب فلسطين، مع أنه ينبغي أن يقال إنه مهما كانت هذه الحركات الدرامية القادمة من العاصمة أورشليم، إلا أن هذه الحركات كانت ذات تأثير بسيط على القوة الإمبراطورية الآشورية.

المشكلة الأورارتية الحل النهائي

وكما كان الحال مع تملات بلاسر، فقد كانت المشكلة الرئيسية التي واجهت سرجون في الشمال، فقد كانت أورارتو لا تزال المسافس لطرق التجارة خلال كليكيا والأناضول، والآن لقد مدت أورارتو نفوذها فوق المنطقة إلى الحبوب من بحيرة (أوروميا) الواقعة في شمال غرب إيران (أدريجان) وكانت هذه المنطقة ذات أهمية لأشور لتزويدها بالخيل والطرق القادمة من الشرق الأقصى، ولقد كانت الرسائل المرسلة من الحكام المحليين إلى الملك في هذا الزمن مملوءة بالإشارات إلى بعض التصامدات مع (أورارتو) وعن محاولات أورارتو للاندفاع جنوباً في زاعروس، وتشير بعض هذه الرسائل إلى استخدام جواسيس من أورارتو في نظام الاستخبارات الآشوري الرائع.

ولهذا قرر سرجون القيام بغارة على (أورارتو) بصمها وكانت عملية محمومة بالأخطار نظراً لصمودية التضاريس الطبيعية، ولقد ثوحت الاستعدادات الحدودية

مع أورارتو نشوء حملة منظمة في صيف عام ٧١٤ والتي أصبح لديها معلومات مفصلة عنها وذلك من تقرير مكتبه سرجون بشكل رسالة إلى إله البلاد آشور، وبعد أن ترك سرجون قاعدته (كالاخ) تقدم شرق الصور الرب العلوي والسفلي وهكذا إلى زاغروس، وبممكننا اعتبار سرجون إما شاعراً مجيداً أو أنه كان هناك أحد الكتاب في بطائنه ممن يملكون مقبرة شمرية، وذلك لأن التقرير كان يمسك في شمرة صدى حياً للرهبة التي تحاوب بها مع النظر الجليل الرهيب.

في الجبال العالية حيث تنمو الأشجار من كل صنف متصاهرة الأعصان

في أواسط الموسم الجبلية حيث تظهر ممراتها حوضاً مربعاً

حيث تمتد الظلال وكانت عاباً من أشجار الأرض

وحيث لا يرى من يدوس تلك الدروب أي شمع من أشعة الشمس.

ومن الممكن أن يعني الشاعر دهشة أمام الجبال، ولكن كان سرجون متأكداً من وجود مهندسين عسكريين في جيشه قادرين على جعل الممرات قابلة للاستعمال.

لقد رويت مهندس يماول من نحاس وراحوا يكسرون ويحطمون صخور الجبال الوعرة فكما لو أنها من حجر كاسمي وذلك ساعدي على العبور^٢

ومع أن النص يذكر النحاس إلا أنه يعني حليطه وهو البور

وبعد أن عبر المنطقة إلى الشرق من زاغروس توجه سرجون نحو بلاد الماني، وقد وصل الآن إلى جنوب بحيرة (أروميا) وقد كان شعب الماني الممطكين في وضع لا يصدق عليه لأنهم أصبحوا حاجزاً عازلاً بين جارين حبارين، وقد عادوا أكثر من مرة عندما تتغير الساطة في أي منطقة من هذه المناطق لاسيما عندما يقبلون نظام الحكم في المنطقة المصية، وهكذا فقد حصص حاكم الماني هوراً لسرجون مع أن جاره قد وضع مصيره مع (روما) ملك أورارتو

أما الوصول إلى أورارتو إلى القرب من بحيرة أوروميا فقد وقفت أملعه وبعثه عدة حصون تشكل خطاً واحداً ، ولذلك فقد أخذ سرجون جيشه إلى أعلى الجانب الشرقي من البحيرة وذلك لكي يلتف حول مراكز الدفاع الرئيسية المناهضة لأشور وفي الوقت الذي بدأ فيه الفلامس مع جيش أورارتو الرئيسي الذي كان يدافع عن معر جبلي إلى الجنوب من ابرير ، فقد أصبح سرجون منفصلاً عن قادته في الوطن مسافة نحو ثلاثمائة ميل وهذا يشمل جميع منطقة الزاغروس ، وكانت هذه المسافة عبارة عن تصاريص طبيعيه صعبة ، وهكذا أصبح جنود سرجون على وشك التمرد وقد قال معلقاً على ذلك

«إن جنود آشور المتعبين الذين قد قطعوا مسافة طويلة قد أصبحوا مرهقين جداً وبطيئين في حركاتهم ، هم قد عبروا وأعادوا عبور الجبال الشديدة الانحدار وقد لاقوا المشقة العظيمة عند الصعود والسرول ، ولقد أصبحت أرواحهم المنهوية منخفضة وتميل إلى التمرد ولا استطيع أن أخلصهم من هذا الصجر وليس لدي الماء لأطفئ عطشهم ولا استطيع نصب أي معسكر أو أن أقيم خلوفاً دفاعية».

لقد أدرك سرجون في تلك اللحظة عدم قدرته على الاعتماد على انهباط جيشه ، فقد عمد إلى قيادة هجوم بالمریات الحربية وحنود الخيالة وهو يذكر رئيس الحبال بالاسم وعندها اندحر العدو عندها قام بقية الجيش الآشوري الذين تشجعوا بانتصار الخيالة وانتصار حطة سرجون المثارة ، قام هؤلاء بالانقضاض على التحالف الأوراري وحطموا خطوطهم الحربية وأوقفوا هيهم الدعر ، ولبدأ فقد قاد القائد الأورارتي جيشه في انسحاب منظم من المعركة ولكن بقية التحالف الذي أصبح بدون قيادة منتظمة هربوا في هوضى عارمه فوق الجبال حيث هلك عدد منهم في البراري ، وكان انكسار الجيش الأورارتي صدمة للمعوية الأورارنية ، واستطاع سرجون أن يلتف حول النهاية الجنوبية لبحيرة أوروميا غرباً إلى زاعروس مرة ثانية وبعد ذلك توغل دون مقاومة في أراضي أورارنيا ، غلبها هرب الملك (روسا) من عاصمته ثوروشيا (وربما كان هذا الهروب غير ضروري وكان من السهل الدفاع عن منطقته ولم يكن سرجون مستعداً لحصار طويل

الأمد) وبعدها التجأ الملك (روسا) إلى الجبال وهناك وطبقاً لما قاله سرجون مات (روسا) من الحزن مع أن نصاً متأخراً (وربما كان أقل موثوقية) يذكر أن سرجون قال إن الملك روسا قد انتحر.

لم يرل الخمد الذي تبعه آشور في حملته يحتوي على كثير من النقاشات، ويظن البعض أنه سار رأساً حول بحيرة (فان) ويقول آخرون إنه توجه راجعاً إلى آشور بواسطة عدة طرق ممكنة إلى الجنوب من بحيرة (فان) هذا وإن ما هو أكيد نظراً لأن سرجون يخبرنا ذلك بصراحة (أو بالحري يخبر الإله آشور) أنه وقبل معادرتهم يادر الآشوريين إلى نهب أورارتو حيثما ذهبوا وكابوا يهبون ويحرقون المدن والمحاصيل الزراعية ويتلفون الحدائق ويفتحون ويهبون معادن الحبوب ويحطمون السدود بحيث أن سالت مياه الألفية هدرأ إلى المستنقعات بينما تركوا المراعي عارية، وقد قطعوا الأشجار سواء كانت أشجار الحدائق أو الأشجار المزروعة حول القصور أم أشجار غابات عادية وأحرقوها جميعها.

وفي أثناء عودته إلى آشور ترك سرجون جيشه الرئيسي وقاد فصلاً مؤلفاً من حوالي ألف جندي من الخيالة فوق طرق صعبة متجهاً إلى إحدى المدن وهي (موزاير) وهي جزء من أورارتو في عمق الجبال وتقع إلى الشمال الغربي من رواسيز التي قد أهملت لإعلان الخضوع التام لآشور وسرجون نظراً لبعدها عن آشور، وكانت موزاير المعقل الرئيسي لإله أورارتو وهو (هالديا) حيث كان يتوج ملك أورارتو عادة، ولقد كانت قدامى موزاير وارتباطاتها الملكية قد جعلتها مكاناً وطنياً، وقد عمد سرجون إلى تعداد المنائم التي حصل عليها من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والمروشات المرصعة بالذهب والفضة والأواني الذهبية والفضية من جميع الأنواع والأسلحة الاحتفالية، المولدة من المعادن الثمينة والأواني البرونزية ابتداءً من الأواني الصغيرة حتى القدور الصمعة والتماثيل والرحارف، وهناك بعض التسميات التي لا نعلمها وقد وجد الكتبة الآشوريون الذين سجلوا هذه الأسماء بعض هذه الأسماء غريبة ويقولون: إنه من الصعب كتابة هذه

الأسماء، ولقد تم ضم مورازير رسمياً إلى آشور ولكن موقعها كان بعيداً جداً
فكان من الصعب الاحتفاظ بها بعد رحيل سرجون.

ولم يمكن تجلوت سرجون مع مشكلة أورارتو منحصرأً بالناحية العسكرية
بحسب، بل استعمل الدبلوماسية لكسب لحلفاء، إذ إن لدينا رسالة تقدم بعض
التفاصيل عن بعض المفاوضات الودية مع مميتا ملك (موشكي) فقد كان (مميتا)
يسيطر على الطريق التجاري الفري الذي قدم لدولته ثروة عظيمة (وقد كان
مميتا هذا هو ميداس ذو الصمة الذهبية في الأساطير اليونانية) ولا شك أنه وحفظاً
لمصالحه التجارية عقد أقام علاقات ودية مع أورارتو وسورية الشمالية، أما في
شمال سورية فقد حاولت كركميش تأمين الدعم المحلي لمميتا في إيجار تحالف
ضد آشور، وهكذا فقد تقوض سرجون مع مميتا لكي يتجنب تلك التهديدات
للمصالح الآشورية وقد اقترنت مبادرته الدبلوماسية مع استمرصت للقوة
العسكرية التي يمتلكها في شمال سورية وما وراءها

سرجون في بلاد بابل

بعد أن حطم سرجون مقاومة أورارتو استطاع الآن أن يتجه إلى تلك المشكلة
المتأصلة وهي مشكلة (بابل)، وكانت عملياته العسكرية هناك والتي بدأت في
عام ٧١٠ ق.م ودامت حتى عام ٧٠٧، ولقد قلد سرجون تكتيكات تفلان بلاسر،
الأولى وذلك بالتحرك جنوباً على الصمة الشرقية لنهر دجلة وبذلك كسب
السيطرة على طول المنطقة الممتدة حتى كركميش، وبذلك عقد دق إسفيناً ما
بين ميروداخ بالادان وبين حلفائه المحتملين من الميلايين، وبعد ذلك توجه إلى
بابل الأصلية، وقد ادعى بيروداك بالادان في النقوش أنه قد حسم مصالح المدن
البابلية القديمة، ولكن هناك حرجاً لا بأس به من سكان تلك المدن كانوا
يشكون في مصداقية هذه الأقوال، وقد سمعنا فيما بعد عن إطلاق سراح بعض
الأسرى من عاصمة بيروداك - بالادان لقاء إعادة بعض الأراضي المصادرة وعن
إخماد حركات النهب والسلب ضد التجار والقوافل التجارية، ولهذا فقد كان

هناك فئة قوية ضمن المدن البابلية الشمالية مستعدة لقبول التحولات الآشورية، وقد فتحت بعض هذه المدن ومن بينها العاصمة أربلاها ورحبت بمسرحون الذي اعترف به رسمياً حاكماً شرعياً لبابل وذلك بالاشتراك في الطقوس المقدسة

وفي أثناء ذلك فقد هرب ميروداك بالآذان من بابل وبعد أن حاول الوقوف في الجنوب هرب إلى منطقة قبائله في المستنقعات الجنوبية، وقد أصبح محاصراً في عاصمته القبلية في المستنقعات الجنوبية فقد اشترى دعم مسرحون بدفعه كمية كبيرة من المال عام ٧٠٧ ق م وبذلك تركوه دون أن يُمس ليسيطر على أراضيه القبلية ولكننا سوف نقابله فيما بعد

لقد اقتربت نهاية مسرحون الآن، وربما قريباً تحطم أورارتو، ففي القرن الثامن ق م أنت موجة جديدة من الهنود الأوروبيين السريفي الحركة وهم (السيميريون) وسكانت هذه الموجة مندفعة نحو الأناضول من الشمال إلى أسفل الجانب الشرقي من البحر الأسود، وحتى وقبل هجوم مسرحون على أورارتو كان هؤلاء السيميريون قد أنزلوا التخزيبات الخطرة في ولايات أورارتو الشمالية ولقد كان إحلاء السكان الذي حصل نتيجة لتخريب مسرحون لأورارتو، ترك أورارتو عاجزة عن صد الغزاة وهكذا فقد انفجر السيميريون وانتشروا عبر هضبة الأناضول، ونشير بعض الشواهد لعلم الآثار لحدوث عبارة على آشور نعمها، فلقد هدد هؤلاء بالتأكد مصالح آشور في شمال سورية ولذلك فقد وجه مسرحون جيشه ضد السيميريين في تلك المنطقة وفي إحدى النقاسير لبعض الشواهد الفاضلة فقد مات مسرحون في إحدى المعارك، والحقيقة أنه قد رحل من مسرح الأحداث في عام ٧٠٥ ق م وفي نفس الوقت تحرك السيميريون باتجاه القسم الداخلي من أسمر الصفرى.

بناء قلعة مسرحون

كل مسرحون أحد الملوك الآشوريين الذي انتقل إلى عاصمة إدارية جديدة، مع أنه لم يخبرنا لماذا فعل ذلك، ولكننا نستطيع التخمين في العالم القديم كان سكان المدن الكبيرة ولاسيما العوامم يحصلون ويمرعة على امتيازات خاصة

لأنفسهم، وكان الملك مجبراً على الاعتماد على موظفيه في العاصمة وكان يكافئهم بإعصائهم من الضرائب وأعمال السخرة ويعصهم بمض الأراضي، وحسب النظام الإقطاعي كانت مثل هذه الامتيازات تستمر إلى الخلف وتصبح متوارثة، وبالإضافة إلى تعود كهنة المآبد التي كان لها نموذجها وأمكنتها في طقوس الدولة، لذلك فقد ظهرت مجموعة محصنة منهم، وكانت هذه المجموعة قادرة على مواجهة الملك نفسه.

ولقد ظلت (كالكاح) العاصمة الإدارية والمسكرية لمدة تقرب من قرن ونصف وهو وقت كافٍ لظهور مجموعة قادرة على مقاومة الملك نفسه، والحقيقة أن الحاكم سرجون الذي أعلن أن (تعلات بلاسر الثالث كوالده قد نوى السلطة من موقع والي (كالكاح) وقد كان سرجون بعينه يعلم من تجربته الشخصية الخطر المحدق بالسلطة الملكية من جراء المصالح التي اكتسبتها المدن القديمة، وذلك لأن اعتلاء العرش قد حدث بعد تمرد ضد الملك الذي سيقه من قبل شعب آشور الذين كان ينهمي دعمهم، مرد جميلهم بتثبيت امتيازاتهم التقليدية، وهذا هو أحد العوامل التي دعت لإنشاء عاصمة جديدة، وهي دور شاروكين (أي، قلعة سرجون) وهي واقعة على بعد حوالي ١٢ ميلاً إلى الشمال الشرقي من نينوى والتي تتمثل اليوم بموقع (حورسا باد).

وأما العامل الثاني فقد كان عاملاً استراتيجياً فقد كانت سفوح جبال طوروس تبدأ على بعد حوالي ثلاثين ميلاً إلى الشمال من نينوى، وهيم وراء تلك التلال تقع مملكة (أورارتو) وهي القوة الوحيدة التي كانت تهدد آشور الآن، وفي أي وقت كان بمقدور جيش أورارتو أن يرحل من أحد الممرات ويصل إلى سهول نينوى (وقد ظل هذا الخطر حتى أنهى سرجون هذا التهديد عام ٧١٤).

وكان الموقع الذي اختير لبناء العاصمة الجديدة (دور شاروكين) يقف كحصار ما بين نينوى وأقرب ممر يخترق الجبال. ولقد ثبتت أهمية هذا الموقع عندما استعمل كقاعدة رئيسية من قبل الجيش المرافق في زمن التمرد الكوردي في نمن الجبال الشمالية حوالي عام ١٩٧٠ م.

سنحاريب

لقد اعطى حليلة سرجون وهو ابنه سنحاريب ٧٠٤ - ٦٨١ المرش كإداري منمرس وجدي، فقد علم علم اليقين مشاكل الحدود الشمالية حيث إنه كان قائداً عسكرياً هناك، وإن معرفته بالوضع الجديد الذي لم تكن أورارتو فيه في وضع لا تستطيع به إيذاء المصالح الآشورية فحسب، بل كانت بحاجة إلى الحماية الآشورية في الشمال، وهذا ما أدنى بسنحاريب إلى إقامة علاقات ودية مع أورارتو

بنوى العاصمة العالمية

لقد كان أول عمل قام به سنحاريب، وكان العمل الذي ظل قائماً، هو انتقال حديد إلى عاصمة جديدة، فقد كانت مدينة سرجون الجديدة وهي دور شاروكن قد بُنيت لحراسة المركز الشمعي وهو نيموى، وقد استمرت هذه العاصمة مستخدمة كقاعدة لهذا الغرض، ولكن، كانت بنوى نفسها هي التي شُيّدت وظهرت بشكل رائع لا مثيل له، فقد احتوت كعاصمة، وقد بقيت كحقيقة حتى سقوط الإمبراطورية الآشورية، وقد بقيت في ذاكرة التاريخ إلى الأبد

ولقد بنى سنحاريب سوراً ضخماً حول المدينة طوله حوالي ثمانية أميال، وقد احتوى على ١٥ بوابة رئيسية، ولقد ذكر أحد المؤلفين الكلاسيكيين وهو ديونورس الصقلي رواية حول أسوار بنوى يقول فيها:

((إن هذه الأسوار كانت عريضة جداً بحيث تتمتع لثلاث عريات حربية لتسير جنباً إلى جنب فوق تلك الأسوار)).

ولكن وفي القرن التاسع عشر الميلادي أصبح الناس يسبحون من هذا الكلام، ولكن بقايا الأسوار في هذه الأيام تُظهر وجود مسافة واسعة كافية لتسير فيها سيارتان كبيرتان جنباً إلى جنب، وفي داخل تلك الأسوار شق سنحاريب شوارع جديدة، وساحات عريضة، ومدد مجاري المياه وبنى حواجز حجرية عريضة

لحماية قصره الجديد، وحول القصر أنشأ حديقة صحمة تشبه جبل أمانوس حيث وُزعت كل أنواع النباتات وأشجار الفاكهة كالتي تنمو في أرس الكلدان.

وفيما وراء هذه الحديقة أنشئت البساتين، وفي وقت لاحق عمل سنجاريب إضافات جديدة فقد جلب جميع النباتات الموجودة في سورية وكذلك نبات المر التي نمت وترعرعت بشكل أفضل مما هي عليه في موطنها الأصلي، وقد زرع جميع أنواع العكروم الجبلية، وقد كانت كل هذه المشاريع بحاجة إلى كميات كبيرة من المياه لاسيما في أشهر الصيف الحارة في نينوى، ومع أن نهر دجلة كان يجوب اسمل نينوى إلا أن مسافته كانت منخفضة جداً، فلم يكن من الممكن استخدامها للري خلال الصيف، ولكن كان هناك مصدر آخر للمياه وهو نهر خوسر، وهو يرقد نهر دجلة عند بيوى وهو أصحح للري ولكن كان لنهر خوسر بقبصة واحدة وهي عدم انتظام جريانه الذي ينقص إلى أقصى حد في الوقت الذي تكون الحاجة ماسة إليه.

وقد عالج سنجاريب هذه البقبصة عن طريق أعمال المهندسين، وذلك بتحويل عدة جداول جبلية كانت على بعد حوالي ثلاثين ميلاً، واستعمل مياهها لتزنية نهر خوسر، ومن الممكن اليوم ملاحظة بقايا بعض هذه الأعمال، فإن أحد مصادر المياه القادمة إلى نينوى في مكان يدعى (عن طريق الحطأ) (بافيان) وقد وجدت عنده بقوش ولوحات جدارية ناهرة موجودة على صخرة عالية تصلح لتكون مكاناً للرحلات الممتعة، وإن وجود اللوحات الجدارية يوحي أنها كانت بقعة كان سنجاريب نفسه يتمتع بزيارتها ليتجسب حرارة الصيف في بيوى. وتشمل بعض بقايا أعمال سنجاريب الهندسية وهي قناة طولها أكثر من ٢٠٠ ياردة وعشرين ياردة عرضاً، وتحتوي حوالي نصف مليون طن من الصخور، وقد بُيت لحمل المياه إلى بعض الوديان.

هذا وقد اعتمد سنجاريب مشاريع مماثلة لتحسين الموارد المائية في أربيل وهي المدينة المهمة الثانية، وشمال آشور كما حسم موارد المياه في كالح فقد تعهدا آشور ناصر بل عند بنائه لها لأول مرة

قلائل كلدانية جديدة

لقد احتل العمل في بنوى الجرة الأكبر من حكم سنجاريب، ولكن وفي أثناء ذلك كان هناك بعض الامطرايات السياسية في بابل، فقد كان هناك إحدى المشكلات حول بابل فهل ينبغي أن تمنح بابل قدراً وافراً من الاستقلال مع وجود ملكها الموالي لأشور؟ أم هل ينبغي ضمها كلياً وحكمها حكماً مباشراً من قبل ملك آشور؟ إلا أنه كان هناك مستشارون يعملون إلى بابل، ومستشارون غير متعاطفين مع بابل في البلاط الآشوري وفي أحوال مختلفة أظهر ملوك آشور تعاضفاً مع هذه الفئة أو تلك، فقد كان والد سنجاريب وهو سرجون وابنه اسرحدون كلاهما متعاطفين مع الميل للتعامل برفق مع بابل مع كثير من الاعتبار بميول بابل الوطنية

ومن الممكن أن يكون لدى سنجاريب ميلاً في البداية لاتباع سياسة والده، فقد مضت سنتان قبل أن يقوم بالاحتفالات الدينية لتتصيه ملكاً على بابل رسمياً، ولكن وفي هذا الوقت بدأت بعض العوامل تعمل على أن يقوم سنجاريب بأقصى أعمال الصف الممكنة ضد بابل، ففي عام ٧٠٢ قام العدو القديم بيروداك - بالادان بتخليم بعض القبائل الكلدانية مع بعض القبائل الآرامية مع اكتساب تأكيدات بالدعم من الميلايين، وهكذا فقد أوقع بابل في مصاف العصيان، لذلك فقد تبع ذلك شيء من الموهمة فقد اعتلى عرش بابل أحد الولاة الذي كان الموهبة يهد سنجاريب لمدة شهر واحد عندما أطاح به بيروداك - بالادان، ولكن رد سنجاريب كان سريعاً ونشطاً فقلد جيشه جنوباً وحاصر واحتل مدينة (كوناة) وهي قاعدة بيروداك - بالادان.

وقد كان بيروداك هذا رجلاً سياسياً أكثر من عسكرياً، فقد هرب جنوباً تاركاً سنجاريب على طريق احتلاله لبابل ودحولها، ولقد أرسلت فصيلة من الجيش الآشوري للتفتيش عن المتمردين جنوباً (ولكن بدون نتيجة) وقد طلب من تلك الفصيلة أن توصل تحصينات كل المناطق الآرامية والكلدانية، وتحريب هذه

المناطق التي تضم فعلاً جميع بابل الجنوبية من نيبور إلى الخليج الفارسي ، ويقول
سمحاريب مايلي:

في أثناء حملتي لقد حاصرت وهزمت وحملت الفنائم من... مجموع ٢٢ بلدة
دات أسوار منيعة ، وقابضة لقبيلة بيت داحوري ومعها ٢٥٠ قرية مجاورة وكذلك من
ثمانى مدن مسورة قوية من قبيلة بيت سالي ، ومعها ١٢٠ قرية محيطة بها و ٢٩ بلدة
مسورة قوية من قبيلة بيت (راموخاني) ، مع ٢٥٠ قرية مجاورة ، وكذلك ثمانى
بلدان قوية مسورة من قبيلة بيت - ياقين بالاصاهه إلى مئة قرية محيطة بها ، ويبلغ
مجموعها جميعها ٨٨ بلدة قوية مسورة ، في منطقة ككلدية بالإضاهة إلى ٨٧٠ قرية
مجاورة ، ولقد سمحت لمصاصكري أن يستهلكوا الحبوب والتمور في حدائق النخيل
ويأخذوا محاصيلها في السهل ، ولقد مزقت واتلعت مدنهم وأحرقتها وحولتها إلى
روابي مسبية؛

وبعد أن تلقت ككلديا هذا الدرس القاسي ثرست تحت حكم الموظفين
الآشوريين يساعدهم أحد النبلاء البابليين وهو بيل - ابني الذي رُبي حسب قول
سمحاريب في البلاط الآشوري وقد عُيّن حاكمك العموية على بلاد بابل.

حصار أورشليم

لقد واجه آشور الآن في عام (٧٠٤) قم تمرداً في مكان آخر ، فقد التحق
حزقيا ملك يهوذا الذي تكان يدعمه ميروداك - بالادان المذكور في التوراة بكونه
قد أرسل سفارة له ، فقد التحق حزقيا هذا بتمرد قامت به المدن الساحلية تدعمها
مصر ، وهكذا فقد دخل جيش سمحاريب إلى فلسطين وعالج المدن الساحلية
وطرد المصريين ونقلب على دولة يهوذا ، ووضع عاصمة (حزقيا) وهي أورشليم تحت
الحصار.

وتوافق نقوش سمحاريب على هذا ، وإن رواية سمحاريب حول هذه المسألة قد
نُقلت وتكررت في كذب المهد القديم وتواريخه ، ولكن نورد لمسامع أي شخص
لم يسمح بهذه الأخبار مايلي:

وبالنسبة لحزقيّا ملك يهوذا الذي لم يخضع لنير حكمي فقد حاصرت واستوليت على ٤٦ من بلداته القوية المسورة، ومعها عدد لا يُحصى من الفرى المحيطة بها، وذلك باحضار السلالم لرفع المنجنيقات القاصفة إلى الأسوار وكذلك عن طريق مجموعات المشاة وحفر الأنفاق، وشق الثغرات وأدوات الحصار، ولقد حاصرت الملك في اورشليم وكانه ملأثر في قصصه

وهكذا فقد دفع حرقها الجزية علامة على خضوعه، وفتحت أبواب اورشليم بأعجوبة كما يقول النص التوراتي، وذلك نظراً لأن عودة الجيش الآشوري إلى منطقة ما بين النهرين قد أصبحت أمراً ملحاً ضرورياً وذلك لتتقهر الوصع بالنسبة لبابل، حيث حدث عند انسحاب الجيش الآشوري أن استأنف (بيروداك - بالادان) حياكة دسائمه، وقد ثبت أن بيل - ابني عبر قادر على الاحتفاظ بحكومة فمائه، وقد عُزل هذا في عام ٧٠٠ واستبدل بأشور نادين - شم وهو أحد أبناء سنحاريب الصفار

وهكذا قام الجيش الآشوري بحملة تاديبية في الأراضي الكلدانية وهرب (بيروداك - بالادان) إلى عيلام ولم يذكر عنه شيء بعد ذلك.

ففي أول ظهور له على مسرح الأحداث قبل أكثر من ثلاثين عاماً كان هذا الرجل رعيماً محترماً لقبيلة كبيرة، وهكذا أصبح الآن في الخمسين من العمر وزهما أكبر وهكذا فمن المحتمل أن يكون قد مات متهمة طبعية

ولكن بقي هناك بعض التجمعات المعادية لآشور في بابل وعيلام، وقد تنظمت هذه التجمعات الآن وحاولت التوسع بدعم من عيلام.

الحرب مع عيلام

لقد أظهر الكلدانيون أنهم أحد العوامل المعقدة والمُعيقة لأشور ومصالحها ومصالح مدن بابل الشمالية خلال العقود الأربعة الماضية، وبدعم ومساعدة عيلام وتقدير الملاد من إجراءات التأديب الآشورية، لهذا فقد أصبح الكلدانيون في وضع يصعب السيطرة عليه، ولهذا فقد قرر سمحاريب معالجة المشكلة وذلك بضرب عيلام بشكل مباشر، ففي عام ٦٩٤ ق م قام بهجوم بحري عبر الخليج العربي، وكانت هذه العملية تعد عملية ضخمة في مصطلح اللوجستية وهي في نقل الحبوب وتزويدها بالذخيرة والسلاح، فقد كان لديه سمن بُييت في نيموى هاتمرت إلى أسفل دجلة بقيادة بحارة فينيقيين، ونقلت الحبوب إلى البر بواسطة عجلات أوصلتهم إلى قناة تصب في نهر الفرات.

وبعد ذلك أبحر الجيش إلى الخليج، وهناك تم إمرال الجسد ونقلهم إلى شواطئ عيلام، حيث رغم المقاومة من الآشوريين رأس حمر ومن هناك استولوا على عدد من المدن العيلامية وبهبوها مع أنهم لم يتقدموا نحو العاصمة (سوزا)

ولقد أجابت عيلام بتكتيك أتى مفاجئاً بالنسبة لسمحاريب إذ بدلاً من الدفاع عن الجيوب قامت عيلام بغزوة عبر نهر دجلة إلى شمال بابل، وبواسطة عامل المواجهة هذا قطع العيلاميون المواصلات الآشورية واعتقلوا الابن الذي نصبه سمحاريب ملكاً على بابل، ونصبوا ملكاً مطيعاً لهم على بابل، ويظهر حكماء لو أن نظام الاستعبادات الآشوري كان أقل فاعلية بالنسبة لعيلام وقواها مما كان عليه بالنسبة لأورارتو، ولكن لم تكن قوى العيلاميين العارية نداءً للقوة الآشورية وهكذا فقد انسحب العيلاميون بعد اشتباك بسيط مع جيش سمحاريب الراجع من القتال.

ولكني يمنع إعادة حدوث تدخل العيلاميين عمد سمحاريب في عام ٦٩٢ إلى مهاجمة عيلام خلال ولاية (الدير) التي قام العيلاميون منها بغزوة ضد بابل

الشمالية ، وهنا قام شخص آخر من المدعين بحقه في العرش البابلي بمصيان ومطلب مساعدة الميلايين والتعالف معهم.

وبالنتيجة فقد واجه سنحاريب حلفاً مؤلفاً من الميلايين والكلدانيين ومزيدهم في عام ٦٩١ ق م على نهر دجلة في مكان ما شمال بابل ، ولكن تذكر بعض التواريخ البابلية أن سنحاريب قد أجبر على التراجع مع أنه ادعى أنه انتصر ، ويذكر هذا التاريخ البابلي أن أحد الباحثين الذي ناقش هذه القضية قد وصف قصة سنحاريب عن المعركة أنها كدب صغيم وغير عادي ، وربما كان في هذا القول شيء من المبالغة ، فلم يكن المشهد الذي وقعت فيه المعركة جيوبي ديالا التي اعترف بها بأنها أحد حدود آشور الجنوبية الشرقية ، وأن الجيش الميلامي المنته شمالاً قد واجه الجيش الآشوري هناك ، وهذا يعني أن عيلام كانت تهدد بفروها لآشور

وقد كان نجاح جيش سنحاريب في تلك المعركة الدامية قد دق التحالف الميلامي في الصميم وبشدة لدرجة أنه مع أنهم كانوا يقصون على الحدود إلا أنهم لم يستطعوا المرور ، ومن وجهة نظر سنحاريب ، إنه مع وجود الجيش الآشوري تحت التهديد الواضح ، فإن هذه كانت معركة انتصر بها سنحاريب حقاً ، ولكن وحدات جيشه قد عانت ومُنِيت بحسائر فادحة بحيث ترك الجيش الآشوري في وضع لم يستطع أن يتحرك إلى بابل بشكل فعال ، وقد كانت ضرورة الرجوع إلى القاعدة من وجهة نظر البابليين مساها التقهقر أو الانسحاب.

قنب بابل

الحقيقة أن الجيش الآشوري لم يواجه أي نكسة فعلية نظراً لأنه وبحلول عام (٦٩٠) كان هذا الجيش قد رجع إلى بابل التي كانت في حالة يرثى لها ، وهناك وثيقة رسمية نشرت بشكل ترجمة فمصوب وهي تقول

(ساد في البلاد عدا الحصار المجاعة والجوع والحاجة وكان ثمن اثنين (كا) من الشمير بشيككل واحد من الفضة (حوالي جنيه استرليني واحد) وهو ثمن *Pint*

باينث^(١) حسب الأسعار الحديثة ، وقد كانت بوابات المدينة مغلقة ولم يستطع أي شخص الخروج وقد ملأت جثث الرجال التي لم تجد أحداً يلقنها ساحات بابل. ويمد خمسة عشر شهراً مقطعت بابل على يد جيش سنجاريب وقد هرب الملك البابلي الذي كان محتقلاً بالمرش من بابل ولصقن أقي عليه القبض بسرعة وقتل.

وقد أعطى سنجاريب للقاتل ما قيمته ورن المنتصب المقتول من الفضة. وبالنسبة لبابل نفسها فإن موقف سنجاريب بالنسبة لتلك المدينة المقدسة دينياً وثقافياً قد تغير في مدة عقد ونصف، وتحلّص من المعارضة.

وكذلك فإن فقدان سنجاريب لولده شكل هذا - هو المدينة بعنف فقد أعطى سنجاريب الإذن لجنوده بالنهب والسلب فقد نهبوا المعابد وحملوا معهم التماثيل الإلهية ودعّموا البيوت والمعابد وأسوار المدينة، وحجروا الأضيق حولها بقصد تهديمها حتى الأساسات.

وبالنسبة لبقية حياة سنجاريب وهي مدة ثماني سنوات أخرى لم يكن هناك من ملك رسمي لبابل مع أنه وبحكم الواقع كان سنجاريب هو الملك وهكذا سجل في قائمة ملوك بابل.

إن مهب سنجاريب لبابل كان مفهوماً ولكن لم يكن فكرة حسنة ، إذ إن لديها بعض الدلائل التي تشير إلى وجود هتات ماضرة لأشور وهتات مضادة لها في بابل ، في الوقت الذي كان لدى آشور جماعات يمتزجون بالثقافة البابلية باحترام، فضلاً عن وجود من يرغب في رؤيتها مهدمة ومدمرة.

ولهذا ، فإن خطوة سنجاريب قد أدت إلى استقطاب تلك المشاعر داخل آشور ، وكان هناك عصابات حتى ضمن العائلة المالكة الآشورية.

(١) باينث Piaz مقياس للوقت يعني ١ على ٨ غارون، والشارون = ٤٠.٥ لتر (الترجم).

وقد مات سفاريب في بابل عام (٦٨١) مقتولاً حسب أقوال التوراة على يد اثنين من أبنائه، وأحدهما يدعى أراسموليس الذي يتحول اسمه في النص التوراتي إلى أدراملك.

الفصل الثامن

بداية الثورة ثم السقوط والافتقار

ورثة العرش الملكي

لم يكن الابن الذي ورث سحراريب أحد قاتلي الوالد، بل كان هو أسرجنؤن (٦٨٠-٦٦٩) ق.م وإن الظروف التي أحاطت بارتقائه المرش تصور عدداً من مظاهر المجتمع الآشوري، فقد كان ابناً حنّداً له سحراريب وراثته وذلك كما يحبريا في نقوشه، وليس من الحكمة أن يكون هذا ادعاءً كاذباً.

مادام أن وارث العرش يعيش في قصر منفصل خاص بحيث كانت البوابا المعروفة حول الوراثة مبروقة للجميع

وليكن معلوماً لدى القارئ أن وراثة العرش كانت بالتسمية، فالولد البكر ليس من الضروري أن يصبح ملكاً.

ولكن وحتى الملك الحاكم لم يملك الصلاحيات المطلقة حول قضية الوراثة ما دام أن فضيه تسمية ولي العهد ينبغي أن تصادق عليها الألهة (وهذا يعني في الواقع قرار الكهنة وقبولها)

وبعد أداء القسم من قبل العائلة المالكية ومعلمي الشعب
وهنا يذكر لنا نقش أسرجنؤن شيئاً عن هذه الإجراءات المُتبعة؛
"سر ولا تتراجع.

فمن سائرون إلى جانبك
وسوف تنجح أعدائك"

وهذه رسالة لتعلمين جيش أسرجنؤن لشرعية قضيته

ولكن مع اسي كنت الاخ الأصفر لأخوتي الكبار ومع ذلك ويأمر الإله آشور- وس- وشمش- ويعمل- ونبو- وعشتار أرييل، عين والدي الذي أنجني قد رقاني ورع قيمتي بين إخوتي قائلاً:

((هذا هو ابي الذي سيرثني)) وعندما طالب الحصول على رأي الإله شمعس والإله أباد (وهما من آلهة الوحي) قالاً له: نعم ويحرم. قائلين، ((إنه هو ورثك)).

ولقد أظهر والدي الاحترام اللائق لكلمتيهما المهيبتين.

وبعدها جمع شعب آشور صغيرهم وكبيرهم، وكذلك إخوتي ذرية بيت والدي وقد جعل الجميع يتقسمون بكلام مهيب أن يحموا حقي في الوراثة، وذلك أمام الإله آشور وسبي وشمش وسابو وهم آلهة آشور، والآلهة الذين يسكنون في السماء والأرض.

وفي شهر سعيد وفي يوم سعيد وطبقاً لأوامرهم (أي أوامر الآلهة) دخلت القصر الذي يوحى بالرهبة حيث يوجد روح وعطر الملكية^١ ولكن لم تجز الأمور كما كان يشتبه منعايب فقد اضطر أسرحدون أن يناضل لأجل وراثة المرش.

وعندما حدث اعتيال منعايب كان قائد الحيش أسرحدون متمركزاً في مكان ما في القرب، ولربما ظن البعض أن عملية الاغتيال قد تم توقيتها في عياب ولي المهد.

ولكن أسرحدون قد أبقي جيشه في تمام الحيطة والاستعداد لحوص المعركة فقد استطاع أن يتحرك باتجاه آشور بالسرعة الفائقة دون التوقف لإجراء الترتيبات والتفتيشات والتروء بالمؤن، وكان تأخره الوحيد هو الطلب من الآلهة أن تمنحه وحياً.

وجاء هذا الوحي في وقته كما يلي:

”سر ولا تتراجع“

فتنح نسير إلى جانبك

وسوف نذبح أعدائك

وكانت هذه الرسالة لتجمل جيشه واثقاً بقضيته ولبذر الشكوك بين أفراد
عساكر مناهسيه.

ولقد وأحته عساكر قتلة الملك في منطقة الخابور الأعلى وقد حدثت
اشتباكات حادة

كانت الروح المعنوية لدى قتلة الملك وعساكرهم الذين تورطوا في حرب أهلية
صد شخص يعلمون علم اليقين أنه ولي العهد الذي وافقت الآلهة على تنصيبه.

كانت أرواحهم المعنوية منخفضة وفي منتصف المعركة انتشرت صيحات
تقول هذا هو ملكنا

وهكذا انتقل عساكر قتلة الملك إلى أسرخدون وأظهر ممثلو الشعب الطاعة
فأصبح العرش عرشه بالتناكيد:

عطف المشنة الإلهية على بابل

كان أسرخدون ينتمي إلى الجماعة المتماطقة مع بابل في داخل آشور، وقد
كُرس جهود الناس بها وموارد مالية لإزالة الأضرار التي لحقتها والده بابل، فقد
كانت هناك المشكلة الأساسية التي معادها - إن الآلهة وضعت مدينة بابل تحت
اللعة لمدة سبعين عاماً.

وكان من الواجب إزالة هذه اللعة، وهذا النوع من الأوصاف هو تفسير لتغيير
العطف الإلهية ووضع السكان في موقف ليتحدوا فيه دورهم الحقيقي.

فقد فسر السكان الموقف بقولهم:

ومع أنه في أوقات سابقة لقد حكموا باللعة على بابل مدة سبعين عاماً، إلا
أن الإله الرحيم مردوح وهو رئيس الآلهة في المدينة قد عدل من شدة هذا الحكم،
وذلك بنقل الحروف المسمارية لتصبح المدة ١٠٠ سنة.

ومعكذا، فقد انتهى الحرمان بالنسبة إلى بابل في أول سنة من حكم
أسرحدون.

ولقد حدث أن أتلعت بابل قنوات المياه بحيث أصبحت مغطاة بكثرت فيه
القصب والأجمات، ولهذا فقد عمد أسرحدون إلى تحويل المياه وقطع النباتات
البرية التي كانت تسيطر على المدينة، وبعدها تقدم لإعادة بناء المدينة وأسوارها
ومعبد مردوخ العظيم وهو معبد الساجيلا

ولقد وضع أسرحدون سلة فوق رأسه كأنه أحد العمال، ووضع قالبا من
المصار، وقد أعاد السككان المواطنين الدين هربوا، وأعاد لهم أراضيهم، وأعاد
للمواطنين حقوقهم وامتيازاتهم وأعماهم من الضرائب.

ولقد أعاد الملك عادة تقديم القرابين الدينية في معبد الساجيلا، وأعاد
الاحترام لطبقات عديدة من خدمة المعبد مع حدوث بعض الإجراءات في المناسبات
الأخرى في بابل، وأعيدت الامتيازات القديمة للمواطنين في تلك المدن، لقد
ساعدت هذه السياسة الرامية إلى إعادة العطف على بابل.

خدمت هذه السياسة مصالح آشور، ومع أن العكسانيين قد أظهروا بعض
الاضطرابات إلا أن أسرحدون وبعد أن قابل هذه الاضطرابات بحزم، استطاع
استبعاد الرعاء المعادين ووضع آخرين من قبائلهم من الذين كانوا قادرين على
قبول النسيمة لأشور.

سيطرة الميديين

لقد أولى أسرحدون اهتماماً متزايداً بالميديين، وقد ساعد على دوام
استقرارهم، وذلك بتقديم مساعدات عسكرية لرعاياهم ضد أي حركات
ثورية.

وكان الميديون لا يزالون قبليين في أنظمتهم، مع أنه كان لديهم بعض المدن،
وكانوا منتشرين في إيران الشمالية، وكانوا لذلك أهوية جداً، وقد كانوا
يمثلون حلفاء مفيدتين بالنسبة لأسرحدون ضد عيلان، وحينما إضاهياً على طول

الحدود ضد أورارتو، وحصد شعوب جديدة، تعرف شعبين منهم باسم السيميريين والاسكنديين (وكانوا متواجدين في شمال إيران فضلاً عن الأناضول) وكانوا مدفعين جنوباً خارج أروميا.

وقد انعكس اعتراف أسرجدون بالميديين وتعاطف أهميتهم السياسية في المعاهدات التي عقدت مع الأمراء الميديين المواليين لآشور، واحتوت هذه المعاهدات على تمهد هؤلاء الأمراء بدعم ترتيبات الملك بالنسبة لورثة العرش بعد موته

وباحتصار، كانت ترتيباته تقضي أنه نصب ولدين من أولاده خلفاء له على العرش وبميركة الآلهة أي عرش آشور، وعرش بابل وأعلن ذلك رسمياً خلال اجتماع حدث في نينوى عام (٦٧٢ ق. م)

وأعلن أن أحد ولديه وهو آشور بانيبال أصبح ولي العهد في آشور، والثاني شماش شم- أوكين أعلن ولياً للعهد في بابل، وقد أرم الولاء المحليين والأمراء التابعين تحت أداء القسم أن يدعموا هذا الاتفاق الذي كانت شروطه كما يلي.

(بعد موت أسرجدون ملك آشور فمسوف تصيبون ولي العهد آشور بانيبال ملكاً، ولسوف يمارس الملك المنيادة عليكم وسوف تقومون بحمايته في الريف وفي المدن، ولسوف تحاربون حتى الموت من أجل حمايته، وإذا حدث ومات أسرجدون في حالة يكون أبناؤه صغاراً فمسوف تساعدون آشور بانيبال على استلام ولاية العهد وعلى استلام مهام عمله كملك آشور، ولسوف تساعدون شاماش- شم- أوكين أخاه اللد له وهو ولي عهد بابل إن أصبح ملكاً لبابل)

ومن الواضح أن أسرجدون كان يأمل أن يتجنب تكرار حدوث الحرب الأهلية التي مهدت اعتلاءه على العرش، ولكننا سوف نرى أن خطته قد فشلت على المدى البعيد

السلام الآشوري في الغرب

في الشمال الغربي كانت آشور تدفع أماكن سيطرتها بالتدريج إلى ما وراء سورية وكيليكيا إلى داخل آسيا الصغرى، ولكن هذا التقدم واجه تحدياً أتى من قبل السيميريين والأمسكنديين (وهم الحומר والأشكيز في التوراة)

ولم تكن كيليكيا راضية عن هذه الأحوال، فقامت صيدا وهي إحدى المدن المينيقية المرتبطة مع كيليكيا بمصالح بحرية مشتركة، والتي أسابت فهم القوة الآشورية بالتمرد على آشور

ولقد بهت صيدا وأصبحت أراضيها عبارة عن ولاية آشورية

ولكن، كانت آشور لا تزال تحصل بالحكم غير المباشر، إذا كان ذلك ممكناً، لأن تلك منطقة صور المحاورة قد بقي موالياً وخاضعاً لآشور، ولذلك فقد أترك له الحكم وبعض المستوطنات البعيدة التي كانت تابعة لصيدا أو أضيفت هذه لمملكته.

وهضلاً عن صيدا فلم تظهر سورية أو فلسطين أي مقاومة أو اضطرابات لآشور

وقد استطاع أسرجدون أن يكلم مجموعة من الملوك الحاضرين له لتقديم مواد لازمة لإعادة بناء قصره.

وتشمل قوائم أسماء الملوك هذه ملوك حور ويهودا أو حيدوم ومواب وغزة وعسقلان وإيكرن وبيلوس وعمون وأشدود، هضلاً عن أراضي منطقة تدعى (يدنانا) في منتصف البحر والتي ربما كانت قبرص التي أصبحت الآن جزءاً من الإمبراطورية الآشورية.

وكان اسم ملك يهودا (عماسا) وقد ذكر في التوراة أن ماسا قد أحد إلى بابل على يد قواد جيش آشور، ولكن أطلق سراحه فيما بعد، ولم يؤلف كتاب أيام الأخبار المذكور في التوراة إلا بعد أن أصبحت بابل عاصمة إمبراطورية بدلاً عن نينوى، وذلك ربما حضر نسكر بابل بدلاً من نينوى.

ومن الممكن أن تكون هذه القصة أساساً لذكر زيارة مناسا لأشور إطاعة لأمر أسرحدون وطلباً منه لإتمام عمليات بناء قصوره.

وإلى الشرق والجنوب من الدول الواقعة في شرق الأردن (وهي عمون وموآب وصيدا ورفح) التي كانت حاصفة خصوعاً تاماً لمسيطرة الآشوريين تقع الصحراء بما فيها القبائل العربية، وكان لهذه القبائل أهميتها بالنسبة لأشور، وذلك لسببين وبصورة حاسمة فقد كان العرب مسيطرين على تجارة البخور والتوابل الآتية من جنوب بلاد العرب.

وكان العرب هم وحدهم القادرين على التفاوض مع قبائل صحراء سيناء فيما بين جنوب فلسطين ومصر، وكانت آشور على اتصال مع عرب الصحراء منذ حكم تملات - بلاسر الثالث، وكانت توسع نفوذها بالتدريج إلى داخل الصحراء. وقد تابع أسرحدون هذه السياسة، بل زاد من سيطرة آشور عن طريق التدخل فيما بين الأحصام المتنافسين للحصول على السيادة القبلية وذلك لدعم المرشح الراغب في قبول السيادة الآشورية.

غزو مصر

ويعد أن أصبحت فلسطين تحت السيطرة الآشورية، وبعد أن أصبح عرب الصحراء تحت قيادة رعما موالين لأشور، قام أسرحدون بتنفيذ توسيع كبير للإمبراطورية، فلقد كانت هناك علاقات تجارية بين آشور ومصر منذ عهد قديم، ومنذ حكم (تملات بلاسر الثالث) عندما وطدت سيطرتها على الساحل الفلسطيني حتى غزة، ولقد كان هناك خطوط حدودية مع مصر مع أنها تمر ضمن حاجر عريض وهو الصحراء.

وكان أحد العوامل في هذا الصدد ربما ظهور أسرة عدوانية جديدة في مصر من أصول مصرية جنوبية، كانت هذه الأسرة تحاول زيادة نفوذها بين المدن الساحلية في فلسطين وقد تجسدت هذه السياسة بحدوث تمرد في صور التي

كانت موالية وتابعة أمينة (أسرحدون) لقد بدأ الهجوم على مصر عام (٦٧٥ ق م) ولقد صادف هذا الهجوم عدة صعوبات ونكسات.

وهناك نقش يروي حادثة الهجوم النهائي التاجع عام (٦٧١ ق م) ولكمه يقدم فكترة عن المشكلات، ويقول الملك إنه قد وصل إلى رايهو وهي على جانب وادي مصر (العريش الآن) حيث لا يوجد أي نهر ولذلك فقد اضطر أن يحصل على الماء لمساكنه من ينر بواسطة الجبال والسلاسل.

وقد استخدم الجمال في مواصلاته والتي قدمها له حلفاءه من ملوك العرب، ووجد أن المسيرة صعبة لاسيما وأنها كانت واقعة خلال الكثبان الرملية مدة خمسة عشر يوماً، ومسطقة تحتوي على أفاعٍ ذات رؤوس مزدوجة وهي مميتة، وقد استغرق معهم السير شهراً كاملاً لقطع تلك المسافة فيما لو كانت الأرقام دقيقة وعلق الملك بقوله إن الإله مردوخ قد خفّ لمساعدته وحفظ حياة جنوده وهذه دلالة على مروره بآيام صعبة عندما بدأ يفكر أن جيشه لا يستطيع التقدم

وعندما وصل إلى أرض مصر هزم جيش فرعون (نارفا) وبعدها حاصر واستولى على (ممفيس) العاصمة التي تبعد حوالي عشرين ميلاً جنوب القاهرة (اليوم) وبعد هذا النجاح تقدم أمراء مصر السفلى للاعتراف بسيادة (أسرحدون) الذي عين موظفين آشوريين في الإمارات المحلية، وأعلى (أسرحدون) نفسه ملكاً على مصر السفلى والعليا والحبشة، ولكن هذا كان إدعاءً فارغاً، إذ ما كان الجيش الآشوري ينادي أرض مصر حتى تقدم الفرعون (نارفا) وأعاد احتلال (ممفيس)

هذا وقد عاد (أسرحدون) في عام (٦٦٩ ق م) بحملة جديدة على مصر ولكنه مات وهو في الطريق إليها

آشور بانيال

لقد نجعت خطة (أسرحدون) بالنسبة لورثة العرش بحيث بقي آشور بانيال في نيسوى (وششاش - شم - أوكين) في بابل، ولم يكن مكان لـكلا الملكتين مشكلاتهما، وقد تصافرت الثورات الناتجة فعملت على جر آشور إلى حرب أهلية

إن معرفتنا عن حكم آشور بانيال متقطعة، مع أنه قد ترك نقوشاً كثيرة، إلا أن الطريقة التي رُتب بها كتابه هذه النقوش بحيث كان يحدد الحملات في متقطعة ممتدة مع أنها كانت قد حدثت في أوقات مختلفة، كل هذا ترك العوصى في تسلسل الحوادث، وهناك بعض الباحثين الذين يعيدون ترتيب هذه الحوادث بطرق مختلفة وبالتفصيل.

كانت مشكلة أسرحدون العاجلة هي عدم إكماله لمتن مصر، ففي عام (٦٦٧ ق.م) استطاع إرسال جيش آشوري قوي إلى هناك واحتلت ميفيس مرة ثانية، ولقد عمد بعض الأمراء الشماليين بقيادة (نحو) أمير (سايس) على سحب اعترافهم وولائهم لآشور والالتصام إلى (نارها) ولصلى استطاع الجيش الآشوري أن يقتل قائد المئة

ولكن في بلاد كمصر كان الأمراء المصريون مبرورين للقيام بالإدارة الصعبة للبلاد، ولذلك فقد عمل (نحو) بشكل رحيب، فأحدوه إلى نينوى وأثقلوه بالهدايا والرعاية وبعدها - بعد أن أقسم يمين الولاء لآشور سمح له بالعودة إلى مصر، وقد أمر الإداريون الآشوريون في مصر أن يقدموا (لنحو) الدعم العسكري الضروري، وعين ولده الذي كان يحمل اسماً آشورياً في مركز إداري رفيع المقام.

استمرت السلافة المصرية الجنوبية في محاولاتها للحكم في مصر العليا، فقام حليلة (نارها) بحصار الحامية الآشورية في ميفيس عام (٦٦٤ ق.م) وقد جلب بعض سعاة البريد هذا الخبر إلى نينوى، حيث سارع أسرحدون إلى دخول مصر ثانية على رأس جيشه عام (٦٦٢ ق.م) فطرد الحامصين من ميفيس ثم طاردوهم حتى

الفاصلة القديمة الجنوبية طيبة التي استولى عليها الآشوريون ونهبوها ، وحملوا
مكسورها وأملها إلى آشور

وتذكر التوراة قصة مدينة طيبة مع استخدام اسمها العبري (تو-أمس) في
سفر ناحوم (١٠-٨٢).

وهذا يدل على مدى اتساع آشور التي وصلت إلى الدوة في الجنوب الغربي،
وقد شهدت نفس تلك الفترة القصيرة توسع آشور في الشمال الغربي في آسيا
الصغرى ، حيث حصلت غروة سيميرية وأجبرت بعض الحكام الوطنيين على
الالتجاء إلى حماية آشور ، وكان من بين هؤلاء الحكام (جايجمس) حاكم ليديا
في جنوب آسيا الصغرى والذي يحبرنا آشور بانيبال أن إله هذا الحاكم وجهه في
أحد أحلامه أن يطلب مساعدة عسكرية من آشور بانيبال ضد السيميريين.

وتدل الحوادث أن طلبه قد بُني نظراً لأن (جايجمس) تمكن من إلحاق هزيمة
في صفوف السيميريين ، وبعد ذلك أرسل بعض العناثم التي احتوت على حاكمين
من الولاة إلى نهبوى عام (٦٦٢) ق.م.

ولكنه كان شهر عمل قصير الأمد ، فقد واجهت آشور اضطرابات ضارية
في مصر ، إذ إنه وقبل نصف قرن من الزمان عمد أحد القواد الآشوريين إلى تحديده
حكومة أورشليم بقوله :

((لا تثق بأي شخص مصري)).

إذ إن تعبيره كان أكثر دراماتيكية كقولته

((الآن أنا أتكلم على عكسك من قصب مكسور -أي على مصر- والتي إذا
توكل رجل عليها فإنها سوف تدخل في كفة وتقيها ، وهكذا هرعون ملك مصر
بالنسبة إلى جميع من يتقون به)).

لكن الآشوريين أهملوا هذا الإنذار ، وبعد موت (نخو) الأمير الأعلى لمصر
الشمالية في عام (٦٦٢) ق.م فقد عينوا بدلاً عنه ابنه (بسامي نيكوس) الذي كان

المسؤول الآشوري الأعلى والذي كان شديد الولاء للآشوريين حتى كان يحمل اسماً آشورياً.

ولكن في بداية عام (٦٥٠ ق.م) بدأ (بسمامي تيكوس) في تأكيد استقلاله المحلي، وذلك بطرد الحامية الآشورية التي تركت في مدن مصر، وكان لهذا العمل أصداء كثيرة، إذ يحيرنا (هيرودوتس) وهو المؤرخ اليوناني في القرن الخامس ق.م والذي ولد في غرب آسيا الصغرى:

إنه وفي زمن (بسمامي تيكوس) كان القراصنة من آسيا الصغرى واليونان يثربون إلى مصر، ولكن (بسمامي تيكوس) هذا قد استطاع أن يستميلهم لخدمته، وإن هؤلاء القراصنة المزعومين ربما كانوا أتباع (جايجس) حاكم ليديا، ولقد كان لمصر وأسية الصغرى الجنوبية مصالح تجارية مشتركة

وأخيراً أصبح كل من (بسمامي تيكوس) و(جايجس) أتباعاً مخلصين لآشور، ولكن حالما سارع (بسمامي تيكوس) بتخليص مصر من النفوذ الآشوري، فقد كان (جايجس) معبراً أن يختار ما بين مصر وآشور، فقد اختار أن يساعد مصر ولذلك فقد ثمنه (آشور بانيبال) بصقته ناكراً للجميل، وأعلن أن دعم آشور له لن يستمر، وبذلك فقد أفسح المجال أمام السيميريين للقيام بهجوم جديد نحو عام (٦٥٢) ق.م عندما حصلت عروة ضد مملكة جايجس مما سبب هزيمة مملكة جايجس وقتل ملكها

وفي عام (٦٥١) ق.م استطاع (بسمامي تيكوس) إجلاء الآشوريين من مصر، وهكذا وشوه الاضطرابات في أمكنة أخرى لم تعد آشور قادرة على إبقاء الإمدادات الضرورية لحيشها للبقاء في مصر مع وجود حط طويل صعب من الاتصالات إلى هناك

إعادة عيلام

كانت المشكلات الرئيسية في الشرق حيث كان المركز الرئيسي للاضطرابات هو عيلام.

وهي المملكة التي عُمِّرت نحو ألف سنة في جنوب غرب إيران، في هذه المنطقة كان هناك في هذه الفترة عاملان هامين سببا الاضطرابات وعدم الاستقرار. أولهما، وجود عدد من أفراد العائلة الملكية الطامحين المتنافسين على السلطة

ولأنهما تعرض الملوك العيلاميين إلى الموت المفاجئ (وهذا يدل على وجود ممرس وراثي في الأسرة الحاكمة، وربما لأن ملوك عيلام حكموا يتزوجون من أخواتهم) والحقيقة إن عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي يؤدي العلاقات التجارية، ومن الممكن أن ينتشر عبر الحدود

ففي بداية حكم (أشور يانيبال) عمل الملك على شد الاستقرار في عيلام، فقد تكررت الإجراءات التي اتخذها لمساعدة ملك عيلام في أيام الشدة ويقول "عندما حدثت المجاعة في عيلام وازداد القحط وقلة الطعام أُمِّرت بإرسال الذرة إليه للإبقاء على حياة شعبه، وقد أُمِّسكت بيده (لدمه) وقد أعدت له جميع الأشخاص الذين هربوا من بلادهم أثناء المجاعة والتجؤوا إلى آشور مدة حتى هطلت الأمطار في بلادهم، وستج عن ذلك زيادة المحاصيل الزراعية، وهؤلاء الأشخاص الذين التجؤوا إلى آشور قد أعدتهم إليه"

ومع ذلك وعلى الرغم من مساعدات آشور لبايبيال الكريمة عمد ملك عيلام (أورتاكس) إلى التجلوب مع بعض مبادرات الرعماء انقلابيين في بلاد بابل واستفاد من انشغال آشور في الحرب مع مصر فشن هجوماً على بابل عام (٦٦٥ ق.م).

ولذلك فقد اضطر آشور يانيبال أن يرسل جيشاً إلى الجنوب ليصد (أورتاكس).

وهنا مما ساهم في إساءة العلاقات ما بين آشور بانيبال وأخيه، إذ اتضح للأخ (شلمنسر - شم - أوكين) أنه على الرغم من توليه مملكة بابل فقد كانت أمور الدفاع عن تلك البلاد منوطة (بآشور بانيبال)

وأما (أورتاكس) فقد كان شأنه شأن الملوك العيلاميين الآخرين، فقد مات ميتة فجائية غير منتظرة، ولها فقد استولى على العرش أحد أبناء عمه الملكيين وهو (تيومآن) الذي عمل على تأمين مركزه وذلك بمحاولة قتل ابني الملكين السابقين، وقد عمد هؤلاء الأمراء الخمسة والثلاثون الآخرون من أفراد العائلة المالكة بصحبة بعض النبلاء إلى الفرار طلباً لحماية آشور بانيبال، الذي وفر لهم الحماية والنجاة وذلك على الرغم من طلب (تيومآن) القضاء عليهم.

وهنا نرى دلالات لطيفة مترايدة لأهمية البروتوكولات، إذ إن آشور بانيبال شعر بضرورة صياغة سبب لرفض طلب (تيومآن) بالقضاء على أولئك الأمراء

والآن نستطعم بمشكلة إعادة الترتيب التاريخي لنقوش آشور بانيبال التي لم تكن مرتبة ترتيباً تاريخياً كما لاحظنا، والتي توحى أن الحملة التي قُتل فيها (تيومآن) حدثت بعد الفترة التي كان يبعث فيها القضاء على منافسيه على عرش عيلام.

ولكن المجالات العيلامية تدل على أن حكم (تيومآن) قد دام حوالي عقد من الزمن مع سعيه للتوسع الدائم في إيران.

والحقيقة، إن السجلات العيلامية هي أكثر مصداقية وذلك يظهر من الشعور بالمرارة التي تسيطر على (آشور بانيبال) عندما يتكلم عن (تيومآن) وهو الملك العيلامي الذي كان آشور بانيبال يكرهه كراهية مطلقة

إن رد الفعل الذي أظهره آشور بانيبال يبعث أن يكون قد حدث خلال فترة زمنية لا بأس بها، وليست عبارة عن أشهر قليلة من الاحتكاك مع (تيومآن)

وأخيراً وفي أواخر صيف عام (٦٥٢ ق.م) تلقى آشور بانيبال، وكان مقيماً في أربيل، أخبار نبذة جيش (تيومآن) ضد

ومكنا عمد آشور بانبيال إلى الاستغاثة بالآلهة عشتار في أربيل وهي آلهة الحرب، وقد تقلعت جيوشه إلى داخل عيلام عن طريق يمتد خلال الدير، بينما تقهر (تيومان) والتجأ إلى عاصمته (سوزا) ثم حاول الحرب ولكنه كان سيئ الحظ، وهنا يدكر آشور بانبيال ما حدث:

لقد هرب (تيومان) ملك عيلام حفاظاً على حياته واختياً في إحدى الغابات، ولقد انكمسر عمود العربية -عريته الملكية- وانقلبت العربية عليه، وقد قال (تيومان) لولده وهو في غابة الهامس:

((ارفع القوس)) -وُطِنَ أنه يعني أحد أجزاء العربية المكسورة التي كان الملك محصوراً تحتها-

وقد حاول ابن (تيومان) مساعدته ولكنه أمسك به وصربت عنقه. وقد أخذ رأس (تيومان) إلى آشور بانبيال الذي نثت كراهيته بصرب الوجه الميت والبصق عليه.

ثم إنه احتفل بنصره بإقامة وجبة احتفالية رائعة مع زوجته، وهذه التوجة تظهر في اللوحة الفائرة حيث يظهر وجه (تيومان) متدلياً من شجرة

لقد بقيت عدة زُمر وعصابات قبلية مناوئة في بابل، وخلال طيلة هذه المدة كانت هناك دسائس دائمة بين هؤلاء النامس والعيلاميين والتي شكلت تسبب عدم الاستقرار والرفض للإدارة الآشورية في بابل تحت إمرة (شاماس- شم- اوكيين).

وإن وجود الممساكر التي كانت تحت قيادة آشور بانبيال والمحصنة للعمل في بابل كانت سبباً في تمكيد الملاحقات الودية بين الأخوين.

ومع ذلك فقد بقيت العلاقات الودية بين الأخوين مستمرة حتى عام (٦٥٤ ق.م) وذلك لأنه طبقاً لأحد التواريخ عام (٦٥٥ ق.م) يقال إن هراش عمل قد عاد من آشور إلى بابل.

وأيضاً في السنة التالية أعيدت عربة بعل وجميع الأشياء اللارمة وقسم من الفئام الماحودة قبل خمسة وثلاثين عاماً عندما نهب سنجاريب بابل.

ولكن وتحت سلطة ملوكين ضعيفين كالدعي كان آشور بانيبال قد نصبهما بالتوالي ملك وباب الملك في عيلام، زانت المؤامرات والعساكن بين مختلف الفئات المتناحرة في عيلام وبابل.

وهكذا وفي عام (٦٥٢ ق.م) نشبت الحرب الأهلية، وعندما هاجم (شاماش، شم، أوكين) الذي كان يدعمه الجيش العيلامي الحامية الآشورية في (كوثاء) وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها (شاماش، شم، أوكين) لثبير اضطرابات صد آشور في بابل إلا أن بعض المواطنين في المدن الكبيرة قد استمروا في دعم آشور

هذا وقد هزم الآشوريون جيش عيلام وأخرجوا القوى الكلدانية التي كانت موجودة في حبوب بابل والتي كانت تدعم (شاماش-شم- أوكين)، وبعد ذلك استلموا رمام المبادرة وذلك بوضع (دورشييا) وبابل التي يحكمها (شاماش-شم- أوكين) تحت الحصار.

ولم يصل أي دعم (لشاماش-شم- أوكين) من عيلام حيث نشبت الحرب الأهلية بين مطالبين متنافسين على العرش

وقد كان (شاماش-شم- أوكين) محصوراً في بابل ولحمه دافع عن تلك المدينة حتى أجبرته المجاعة على الاستسلام عام (٦٤٨ ق.م).

ولقد ساءت أحوال المدينة أخيراً بحيث إن المواطنين أكلوا لحوم أولادهم وبناتهم الموتى نظراً لشدة جوعهم.

ولقد مات (شاماش-شم- أوكين) بعد حدوث حريق في قصره، وربما مات منتحراً مع أن ذلك لم يثبت رسمياً

وقد كان آشور بانيبال حريصاً أن تجري حفلة دفن مناسبة لأخيه وزوجته في قبر بعد أداء الطقوس المناسبة، ولكن وفي هذه الأثناء أمسك بعدد من المتمردين الآخرين حيث قتلوا وقطعت أجسادهم لتككون طعاماً للكلاب والخنازير والذئاب، والطيور الجارحة وطيور السماء وأسماك البحر العميق.

وفي أثناء حكم آشور بانيبال العلويل الأمد فقد حدثت اضطرابات قبلية من الجنوب في بابل التي كان يحكمها ملك ضعيف يدعى (كادالاتو) ولم يكن هذا أكثر من واجهة تمثل الحكم المباشر لآشور هناك.

وأما في عيلام فقد أصاب تيومان بعض النجاح في إحلال الاستقرار، ولكن بعد تحديه الأخرق لآشور وموته بعد ذلك حصل نزاع أهلي بين مدعين متنافسين على السلطة ووراثة العرش، الأمر الذي أنتج الفوضى في البلاد.

ولقد قام (آشور بانيبال) بعدة تدخلات بالنسبة لوراثة العرش بين المدعين العيلاميين الذين كانوا يطلبون حمايته لصالحهم، ولقد كانت الأمور معقدة بسبب الفروق الاجتماعية ما بين آشور وعيلام.

فبينما كان الحال في آشور أن ينتقل الحكم الملكي من الأب إلى الابن، إلا أنه بالنسبة لعيلام كانت الوراثة تتم من حيث الأم بحيث كان أحوال الملك باستطاعتهم المطالبة بوراثة العرش دون ابنائه.

وهكذا فإن أي وريث شرعي للعرش طبقاً للمبادئ العيلامية من الممكن عدّه مفقوداً للسلطة عند الآشوريين.

بينما كان الرجل هو الوريث الواضح والمنظور من وجهة نظر (آشور بانيبال) ربما كان له أحوال لهم الحق بالادعاء بالوراثة من وجهة النظر العيلامية.

هذا ولم تحدث أي حركات لإعالة الاستقرار الكامل حتى زمن آشور بانيبال، ولم يكن من المحتمل أن يحدث ذلك نظراً لأن مملكة عيلام الهرمة لم تكن تعاني من انقساماتها الداخلية فعصب، بل أيضاً من التوترات الناتجة عن اندفاع شعوب جديدة من الشمال كانت تحاول الاستيطان وهم العرس.

وكان الوضع في عيلام يمثل بتهديدات مستمرة لبابل، ولم تكن الفوضى في عيلام سبباً في تعطيل التجارة مع المناطق في الشرق فعصب، بل أيضاً عملت حالة الفوضى في عيلام لجعلها قاعدة مرموقة بعيدة عن السيطرة الآشورية للقبائل الكلدانية التي كانت ترمي الاستقلال في بابل.

لقد أجبرت هذه الحالة في عيلام آشور بانيبال على اتخاذ خطوة خطيرة تؤدي إلى تخريب البلاد بأكملها ، وهذا استغرق القيام بهملتين ، والمحتمل أن يكون تاريخ الأولى قبل منتصف عام (٦١٠ ق.م) ، فقد رحب الحيش الآشوري خلال عيلام محرباً مدنها الرئيسية واستولى على العاصمة ونهبها وهي (سوزا) ولم يظهر جنود آشور بانيبال أي احترام للمعابد التي دُست ولا للآلهة أو أدوات العبادة التي أخرجت من أمكنتها ونقلت إلى آشور ، وحتى القبور الملكية قد دُست وذلك لكي يهاني الملوك العيلاميون الموتى بعد موتهم من الانتقام الآشوري الذي نجوا منه وهم أحياء . وقد كان آشور بانيبال واصحاً وصريحاً بالنسبة لتواياه فقد قال "لقد هدمت واتلفت قبور ملوكهم القدامى والحديثين الذين لم يحترموا إله آشور أو عشتار أسيادي ..

ولقد عرضتهم للشمس ونقلت عظامهم إلى آشور ولقد أوقعت القلق في أشباحهم وحرمتهم من تقديم المأكولات وجريان المياه من أمامهم"

ولقد أخذ عدد كبير من الموظفين الكبار وعائلاتهم أسرى إلى آشور وضمت الوحدات العسكرية العيلامية إلى الحيش الآشوري

وتحبرنا التوراة أن بعض الأشخاص المبعدين من عيلام ومن (سوزا) نقلوا إلى شمال فلسطين.

ولهذا فإن دماء عيلامية تجري في عروق السامرة وهم أهالي السامرة في شمال فلسطين.

ولقد أصبح كثير من المناطق ، بعد أن أحد سكانها وحيواناتها كضائهم إلى آشور ، حراباً ياباً "لقد جعلت حقولهم خالية من أصوات البشر ومن خطوات الماشية والأعنام ، ومن الأصوات السعيدة في مساكن الحصانين ، وبدلاً منها جعلت حمر الوحش والفرلان وجميع أنواع الحيوانات البرية".

ولكن ظهر أن (آشور بانيبال) قد انحرف كثيراً عن السياسة التي اتبعها في بداية حكمه وهي محاولته لتهدئة عيلام عن طريق المساعدات الاقتصادية ، فقد

كان تحريبه لعيلام عملاً أسوأ من الأعمال الوحشية، فقد فكان من أسوأ التدابير في الحكم.

إذ لم تكن الحيوانات البرية التي ذكرها آشور بانيبال والتي أصبحت تترصد الدخول إلى تلك القصار التي تركها وراءه، إذ إن القبائل المارسية التي كانت تضغط للدخول إلى المناطق المحيطة بأراضي مملكة عيلام المهيبة، وكان من عوامل فخرها أن تكمل احتلال تلك المنطقة.

وفي ذلك الوقت كان الفرس لا يزالون أتناعاً للميديين ونساءً على الصنف الآشوري أصبحوا مملكة رئيسية في شمال إيران.

وبعد قرن من الزمان أصبحوا يحكمون ابتداءً من القاعدة التي نجحوا في اقتطاعها من حكام عيلام حتى كامل المنطقة وأكثر من ذلك المناطق التي كانت تابعة للإمبراطورية الآشورية.

نقد أصبحت نقوش آشور بانيبال التاريخية قليلة وذلك بعد قيامه بحل المشكلة العيلامية وإن سدة النقوش الملكية، عندما لا تكون بسبب حلل في الاكتشافات الأثرية (بل بالتحكم حدثت هناك حفريات واهرة في الأبنية المرافقة لعهد آشور بانيبال) إنما هو عادة يدل على اضطرابات في عهد الحاكم المذكور أيضاً

ولدينا نقوشه في اللوحة النقشية البارزة التي تظهر أي نوع من الحكام كان هذا الرجل وأي نوع من الرجال كان.

إلا أنه وبالحكم عليه من هذه الأعمال من الممكن عدُّه أنه قد أصبح طاغية لا يحركه إلا الظمأ إلى الانتقام الشخصي دون النظر إلى الاعتبارات السياسية الرصينة

هذا وإن إحدى الحوادث الأخيرة التي سجلها كانت معاملته لملك عربي، فقد كان العرب قد ساعدوا أخاه (شاماش-شم-أوكين) ضد تمرد في بابل، وقد

نصب آشور بانيبال أحد الأمراء الذين بقوا على قيد الحياة من الذين أظهروا
خضوعهم ملكاً على العرب.

وفي النهاية انضم هذا الملك إلى الأنباط وهم العرب الذين كانوا يسيطرون
على الطرق التجارية الواقعة غرب بلاد العرب، وكان انضمامه إليهم مضاداً
لرغبات آشور بانيبال.

ولهذا فقد انطلق آشور بانيبال معترقاً الصحراء جاعلاً دمشق قاعدة له،
وانقص على القبائل التي واجهها وهبها ودمر آبارهم حتى اضطر العرب إلى خلع
ملكهم، وأمسك به آشور بانيبال ونقله معه إلى نينوى حيث أذله بأن ربطه من
عنقه إلى حجر الكلاب وجعله كلب حراسة عند بوابة المدينة.

لقد كان الملوك الآشوريون الأوائل قساة -نعم- وبلا رحمة، إذ عندما وجد أي
عصيان كانوا يقيمونه. وحيث توجد معارضة كانوا يحبطونها، ولكن آشور
بانيبال فقط وحده قد وصح التبرير لأعماله في نقوشه الظاهرة.

فهو من جلد وحوش أعداء ميّتين، وهو الذي نبش قبور الذين لم يستطع
معاقتهم وهم أحياء.

وهو الذي أبش على حياة الملوك الأسرى لكي يدلّهم وهم أحياء، وليس من
حق المارح أن يقوم باللوم، نكسه ينبغي أن يسجل الأحداث.

ولكن وجود الأذى كقوة دافعة وراء آشور بانيبال ما هو إلا أحد الحقائق
التاريخية، وأن سلوكه كان نوعاً من السلوك الذي يعطي للحرب اسماً بشعاً.

لقد كان من عيوب آشور بانيبال أنه لم يكن رجلاً استراتيجياً عظيماً ولا
سياسياً ولا جندياً، فقد كان هجأً حالياً من الاستبصار السياسي بقدر ما كان
حقوداً في مجال النعمة.

ولسوء حظه أنه استدعي لاستلام مهام الملك في الوقت الذي كان لديه ميول
للرئاسة، ومع ذلك فتح مدينتي له بشيء فقد كان الملوك الآشوريون الأوائل
يجمعون بعض الصفات القديمة بقصد إساءة مكتبة، ولكن بالنسبة لآشور

بانيبال قد أصبحت هذه الرغبة قرأماً وهو يعطينا الانطباع بأنه كان نوعاً من الرجال الذين يلذ لهم معالجة لوح طيني جيد.

وربما كانت دوافعه ما هي إلا تقدير أسطوري للحكمة القديمة أكثر من حبه للأدب إكراماً للأدب.

إذا إنه حينما كان يسمع بوجود نص قديم كان يطلب إرسال النصوص، أو يحصل على نسخ منها وذلك لأجل مكتبته في نيبوى، وهذه النصوص التي بقيت محبأة في الأرض حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي والتي بقيت منذ اكتشافها محبأة في المتحف البريطاني، المصدر الرئيسي الوحيد لمعرفتنا الثقافية البابلية والآشورية القديمة.

لقد كان استعمال كلمة مدرسية (أكثر من كلمة (بحثية) متممداً، إلا لم يكن هناك أي دليل أن (آشور بانيبال) كان مهتماً بالبحوث.

إذ إن ما كان مهتماً به بالنسبة للنصوص القديمة كان علاقة هذه النصوص باللاهوت والدين والأدعية والصلوات والطقوس ومعاني المال الحسن، والتأويذ اللازمة لطراد الأرواح الشريرة وتجنبها.

هذه هي الأمور التي كانت تشغل بال (آشور بانيبال) وكانت المؤسسة الدينية بما لها من المصالح في هذه المنطقة كانت تشجعه لأنه كان يعتمد دوماً على نوع الوحي الذي يريده في أي من المواقف الحرجة، وذلك حسبما كان كثير من نقوشه تروي بالتفصيل.

إن جميع ما علينا الإشارة إليه بالنسبة لما كان يحدث في العقد الأخير من حكمه ما هي إلا بعض الوثائق الاقتصادية التي ليس فيها معلومات كثيرة، هناك بالحقيقة بعض المعلومات الدينية المتعلقة بآشور بانيبال، وما يذكره عن كونه معاملاً بالمتاعب والتي يمكن أن نعلمها فإنها تعكس تدهوراً في شؤون آشور بانيبال الشخصية.

ولكن ليس من الضروري أن تكون تلك التسميوس دليلاً على نهاية حكمه ،
لكنها تُعد مزلومات رسمية تدعو إلى نوع من الأدب يدعى (الاشيد التوبة) أكثر
منها تعابير عن تنبؤ آشور بانيبال شخصياً بمصيره التالي ، إذ لم يكن آشور
بانيبال رجل سياسه عظيم ، وليس من المحتمل أن يكون قد تنبأ بالجائحة والوئزال
الذي سوف يصيب إمبراطوريته بعد حين.

سقوط الامبراطورية الآشورية

خلال أربعين عاماً من المظالم التي قام بها جيش آشور بانيبال في عيلام انتهت
الامبراطورية الآشورية.

والحقيقة أنه ليس هناك حقائق ملموسة وتتبع مفصل للحوادث التي انتجت
هذا الحدث ، وكل ما لدينا ما هو إلا بصمة مؤشرات مبشرة ، مثلاً دكريرات
سيدة محور ، أو أسماء الملوك أو تاريخ بعض الوثائق الاقتصادية أو بعض نصوص
متناثرة لمع ملكية الأراضي ، وبعض التلمحات لبعض التواريخ ، أو بصع قطع من
العشار منقوشة ، أو قطع من النقوش وبعض الأبنية أو بعض الثقافات المعهولة
ضمن السجلات الميونانية بعد بضعة قرون.

وهو أن السيدة المحور المشار إليها هي والدة بابونيداس وهو أحد ملوك الأسرة
البابلية (الكلدانية الجديدة) التي حكمت منطقة ما بين النهرين والعرب بعد
سقوط آشور ، إذ هناك نصب تذكاري نصب عند موتها يجعلها تقول على لسانها:
إنها قد عاشت ابتداءً من السنة العشرين لحكم آشور بانيبال ملك آشور (كان
تاريخ مولدها عام ٦٤٩ ق.م) حتى السنة الثانية والأربعين من حكم آشور بانيبال ،
والسنة الثالثة والأربعين لحكم آشور-ايتلو-أيلي ابنه ، والسنة الحادية والعشرين
لحكم بابونيداس ، والسنة الثالثة والأربعين لحكم نبوشاويرير ، والسنة الثانية
لحكم أميل-مردوخ ، والسنة الرابعة لحكم هيري حليساو ملوال خمسة وتسعين
عاماً

وحتى استلم ابنها العرش عام (٥٥٥) ق.م إن هذا يثبت تواريخ وفاة آشور بابييال
في عام (٦٢٧) ق.م وهو واحدة من الحقائق الأكيدة للتاريخ النهائي للإمبراطورية
الآشورية ، والحقائق الأخرى المتعلقة بهذه الفترة من الممكن إيجارها بما يلي:

١- بعد وفاة شامش - شمس - أوكين أصبحت بابل تحت حكم رئيس صوري
يعرف باسم كاناد لانيو

٢- لقد حلف آشور بابييال ابنه آشور - اينليلي - ايلي الذي بدأ حكمه قبل
عدة سنوات من وفاة آشور بابييال

٣- لقد حدثت اضطرابات واسعة خلال الإمبراطورية ، ففي فلسطين كانت
هناك الأنشطة الإصلاحية التي قام بها الملك يوشع ملك يهوذا عام (٦٢٩) ق.م
وكانت تشمل بيد رموز العبادة المرافقة للآشوريين وربما اشتملت عناصر من
الشمور الماهض لآشور ، بينما كان هجومه على الأراضي المجاورة دون التدخل
الآشوري تعكس وجود الصعوبات التي واجهت آشور بالنسبة للمنظم وذلك الوقت
الذي يعود تاريخه ربما إلى عام (٦٣١ ق م) وما كان يعرف عن حركات الشعوب
القبلية الشمالية والتي كانت تهدد فلسطين ، وقد حدثت تمردات أخرى بما
فيها تمرد قائد عسكري يدعى سن - شمس - ليشير الذي كان يعمل على اعتلاء
العرش .

٤- تم قبول ولد آخر من أبناء آشور بابييال وهو شس - شا - ايشكون ملكاً
لآشور خلال معظم الفترة التي تلت وفاة والده حتى عام (٦١٢ ق م)

٥- أعلن أحد الأمراء الكلدانيين وهو نابويولاستر ملكاً على بابل عام (٦٢٦)
ق.م ولكنه لم ينجح بشكل كامل وبسرعة للسيطرة على كل بابل

٦- لقد سقطت نبوي عام (٦١٢ ق.م) ترودتا هذه المعلومات بمادة تاريخية تشبه
أحجية الصور المجزأة والتي -و بظراً لكثرة عدد القطع المفقودة- يمكن جمعها
مما بطرق مختلفة ، وإن إعادة ترتيب المحاولات لتتاسب المعطيات الأكيدة ، دون
القيام بافتراضات ، ليس لدينا براهين إيجابية لها

ولقد حدثت اضطرابات (كما حدث في يهودا) في أواخر نهاية حياة آشور بانيبال، ولقد باشر آشور -ايتلو- ايلي الحكم إما كفي يريخ والده الممن والمتهك القوى أو نظراً لطموحه الشخصي، وذلك حوالي عام (٦٢٠ ق م)

وعند وفاة آشور بانيبال عام (٦٢٧ ق م) اندلعت التمردات الحقيقية، فقد كان هناك براع للحصول على السلطة المركزيه أولاً في بابل أزيح بنتيجته (كاند لادو) ملك بابل عن العرش (إد سكان الأناضول الثانية لأشور بانيبال) وقد كان آشور -ايتلو- ايلي يحاول الاستيلاء على بابل من خلال مساعدة أحد القواد المواليين له.

وبعد ذلك عين سن شم ليشير ملكاً موالياً

وفي نفس العام (٦٢٧) ق م حصل ابن آخر من أبناء آشور بانيبال وهو سن -شار- ايشكين، ومن الممكن أن يكون توأم آشور -ايتلو- ايلي، قد حصل على دعم إحدى الحاميات الآشورية في بابل، وقام بانقلاب نجح مؤقتاً، إذ استولى بعده على بابل وادعى حقه بالملك.

ولذلك فقد تحرك أحد الأمراء الكلدانيين وهو بابو بولاسر خليفة بيروداك -بالادان في طموحه أو ربما بنسبته (مع أنه ليس لدينا إثبات على ذلك) وكان هذا قد أعلن نفسه ملكاً على أراضي المستعمرات الجنوبية التابعة للقبائل، وتحرك شمالاً لطرده سن -شار- ايشكين ولكي يؤكد ادعاه بحقه في ملك بابل، ولكن كان لا يزال هناك قوى آشورية منتشرة في بابل، واستمر سن -شار- ايشكين بالسيطرة على بعض المدن البابلية ولاسيما (نيبور) وإيديس حتى (٦٢٠ ق م) وحتى بعد ذلك.

ليس لدينا أي معرفة لما كان يجري لأشور -ايتلو- ايلي أو حتى عن موته، ولكن نعلم أنه لم تكن له أي سيطرة فعلية على بابل حتى عام (٦٢٧) ق م ومن الواضح أنه وفي عام (٦٢٢) ق م وبالتأكيد ومن الممكن أن يكون ذلك في أوائل (٦٢٦) ق م فقد أعلن سن -شار- ايشكين نفسه ملكاً على آشور بدلاً من أخيه، وفي أثناء ذلك عمد بابوبولاستر زعم الانتكاسات -إلى مد سلطته على جميع بابل، وكان أيضاً قد اتخذ الإجراءات لاكتساب بعض الحلفاء في الخلق، وبعد

اعتلائه عرش بابل، أعاد إلى (مشوشه) الآلهة العيلامية التي نهبها الآشوريون سابقاً، وكانت هذه وسيلة لشراء النية الحسنة.

وفي عام (٦١٦) قم أصبح نابو بولاسر في وضع ساعده على اتحاد موقف الهجوم ضد آشور، مع أن تحركاته ومبادراته لم تكن أكثر من بعض المحاولات لتعديل الحدود التي كانت مجال خلاف بين بابل وأشور وذلك لمصلحة بابل، وتذكر بعض المصادر أنه قد حدثت بعض الصدامات التي تدل أن آشور كانت تحصل على دعم كل من مصر والمليين في شمال غرب إيران

وفي السنة التالية تحرك نابو بولاسر شمالاً نحو نهر دجلة ووصل العاصمة القديمة آشور، ولكن تقدمه كان قبل الأوان وقد أجبر على الانسحاب إلى تكريب، حيث وضع هو نفسه تحت الحصار، وهكذا برهن الآشوريون أنهم لا يزالون قادرين على اتخاذ موقف الهجوم، ولكنهم أجبروا على التراجع الذي يظن أنه كان نتيجة لسماعهم خبر هجوم سريع من قبل الميديين، والذي حدث فيما بعد في نفس السنة في جنوب شرق آشور، ومن هناك وفي عام (٦١٢) قم تحرك الميديون ووصلوا إلى قلب آشور واحتلوا ككلا تاري (وهي شريف حان الحديثة) وهي قلعة على بعد نحو خمسة أميال إلى شمال شرقي بيموى التي سيطرت على مواصلات العاصمة مع الشمال والغرب.

وكذلك كان الحال مع العاصمة القديمة آشور وتذكر إحدى التواريخ أن جيش نابو بولاسر وصل بعد سقوط آشور، ولكنه لم يشترك في هذا السقوط.

ومن الممكن أن يكون ذلك صحيحاً، ولكن من المحتمل أن يكون هذا قد ذكر لتبرئة نابو بولاسر من اللوم والاستهجان الديني لنهب تلك المدينة التي كانت مركزاً دينياً محترماً

ولقد عقد نابو بولاسر والميديون الذين كانوا يعملون بشكل مستقل معاهدة تحالف رسمية عند اجتماعهم في آشور.

وكانت آشور لا تزال تملك بعض العلماء، وفي عام (٦١٢) قامت الشعوب القبلية الساكنة على طول الفرات الذين طالما قاموا باضطرابات في الماضي ضد

آشور ، نرى الآن تلك الشعوب تتمرد ضد نابوبولاسر ، ولقد كان هذا التمرد القبلي طبقاً للتحالف مع آشور ، وذلك لأنه وبينما كان نابوبولاسر يحاصر إحدى المدن المتمردة وصل جيش آشوري وأجبره على رفع الحصار والانسحاب إلى بابل.

وهنا تبرز أمامنا بعض المشكلات. إذ كيف استطاع الآشوريون جمع جيش على المرات دي قوة ككافية لإحبار نابوبولاسر على التهاقر عندما كان الآشوريون في السنة السابقة في ضيق عظيم بحيث استطاع الميديون الاستيلاء على مدن في طريق الدولة.

ربما كان هناك شيء يعمل على كبح جماح الميديين (وهذا افتراض تخميني دون وجود أي شهادة تثبتة) أو أن الميديين كانوا مجبرين على الانسحاب لمواجهة تهديد آخر ، ومن المحتمل أن يكون هذا التهديد أتياً من (الأسكنديين) الذين أتوا من الأناضول ومن شمال غربي إيران خلف الميميريين ، وكانت لهم علاقات ودية مع الآشوريين منذ عهد اسرجدون ، وهناك روايات تعيد أن الميديين قد تفرقوا تحت ضغط الأسكنديين بشكل كبير ، وربما كان هذا التهديد سبباً في الانسحاب المؤقت للميديين من آشور عام (٦١٢ ق م)

ولا تذكر السجلات البابلية في تلك الفترة شيئاً عن الأسكنديين ولكنها تذكر شعباً يدعى (الأومان ماندا)

ربما كان هذا الاسم يدل على بعض التجمعات القبلية التي كان الأسكنديون جزءاً منها وتسمى في الشمال.

وتذكر الروايات اليونانية أن الأسكنديين قد تحالفا مع الميديين ، ومن الممكن أن يكون نابوبولاسر عصواً في هذا التحالف نظراً لأنه وفي عام (٦١٢) التقى (بالأمان ماندا) والميديين وشاركهم في حصار بيسوى ولقد سقطت المدينة خلال ثلاثة أشهر وهذا أمر مستغرب ، إذ إن هذه الفترة قصيرة ، نظراً لأن مدينة بابل قاومت الجيش الآشوري الماهر في فنون الحصار لمدة مريد عن سنة ، وتتفق الروايات اليونانية مع التوراة في وصف حالة السرور والمبطة عندما سقطت نينوى مع ما كان فيها من وسائل الدفاع الصعبة.

ولكن هذا المفقود أصبح حتمياً بعد حدوث الطوفان، ولم يكن هذا الطوفان ناتجاً عن نهر دجلة بل عن رافد له يدعى (خوسر) فقد كان طوفان خوسر الذي كان يجري في وسط المدينة سبباً في إتلاف قسم كبير من وسائلها الدفاعية، مما ساعد دخول المحاصرين وقد نهبت المدينة وسلبت ومات سن-شار-أيسكين أثناء ذلك الدمار.

لم يمته أمر الآشوريين بعد، فقد هرب الناجون من الموت إلى حرّان حيث أعلن آشور-أباليت ملكاً، وكان هذا من العائلة المالكة

وبه أنشأ ذلك كان الميديون والأومان مانديون قد استمحبوا، ولقد سارع نابوويلاسر الذي أصبح يتنافس مع حلفائه السابقين لنيل وراثة الإمبراطورية الآشورية المتداعية، سارع إلى تقوية مركزه في آشور فاحتل المنطقة العربية حتى نقيتين، وفضى على جيوش المقاومة داخل آشور نفسها

وهذا وفر مدة سنتين لآشور أباليت لكي يعيد تنظيم قواته في حرّان التي طلب وهو فيها المساعدة من مصر

ففي عام (٦١٠) قم عاد شعب (الأومان ماندا) إلى منطقة ما بين النهرين، وذلك لضمان المصالح البابلية هناك، عندها انسحب أباليت ليلتقي بالحلفاء المصريين القادمين

وبعد محاولة لاستعادة حرّان أقامت قوى التحالف الآشوري المصري قاعدة لها في صركميش.

وفي هذه الأثناء حدث هناك بمصر التغيرات بالعبودية للملك مصر، فقد قرر الفرعون الجديد نخو الثاني (٦١٠-٥٩٥) قم تقديم الدعم المتزايد لآشور أباليت، وقاد الجيش المصري إلى سورية.

ويبدو أن الدبلوماسية السكندرية قد فعلت فعلها بنجاح في فلسطين فلم يكن نحو الثاني يجبر على إحلال انتفاضة في غزة فحصب (أرميا ١٠-٤٧) بل إن حوشيا ملك يهوذا قام بمحاولة معيثة بالنسبة له لضرب القوى المصرية بحدود عام (٦٠٨

قم)ملوك ٢٢ : ٢٩) على الرغم من هذه المواقف فقد أوصل نخو جيشه إلى القاعدة الآشورية المصرية الرئيسية في كركميش.

ولكن حدث الآن كارثة لمصر، إذا إنه وحتى هذا الوقت لم تكن أي الجيوش الكلدانية تبدي براعة عسكرية، وكانت نجاحاتها تتوقف على الحرب الأهلية الآشورية، وبعد ذلك كانت تتوقف على الدعم الذي كان يأتيها من الميديين ومن (الأومان ماندا) ولكن حدث الآن أن استعادوا من خدمات أحد القواد ذوي المقدرة المرموقة وهو (نبوشا درميزر) وهو ابن نابويلاستر

ففي عام (٦٠٥) قم سلم نابويلاستر صلاحياته في حكم بابل لابنه نبوشا درميزر الذي قاد جيشه إلى أعالي الفرات للقيام بهجوم مباشر على الجيش المصري القوي في كركميش.

وقد سجل (أرميا) الحادث كما يلي:

إن إله الجنود يود تقديم صحة

في البلاد الشمالية إلى جانب نهر الفرات.

أه أيها البنت المصرية العذراء.

نقد سمعت الأمم بما لحق بك من عار

ولقد امتلأت السماء بصراخك.

وذلك لأن المحارب قد أصطدم بمحارب.

وقد سقطا معاً.

ومع أن الأبيات الأخيرة تشير أن كلا الطرفين قد لاقيا مذبحة ثقيلة الوطأة،

إلا أن الجيش المصري هو الذي واجه اكساراً ممويًا.

وهنا يصور أرميا الرعب والهلع أثناء هروب الناجين من الموت ورجوعهم إلى مصر.

لقد هزم محاربوهم

وهربوا بسرعة

ولم ينظروا إلى الوراء

لأن الرعب كان يحيط بهم من كل جانب (٤٦: ٥٠)

ولم نسمع شيئاً بعد ذلك عن آشور أباليت أو عن أي واحد من الساجين من جيشه، وبعد اندحار الجيش المصري من آشور الأخير، انتهت الإمبراطورية الآشورية.

وبعد اندحار المصريين سقطت سورية وفلسطين بيد نبوخذ نصر
وبل نفس السمة ورث عن والده العرش فظهر ملك جديد في إمبراطورية
جديدة، وأصبحت العاصمة العالمية هي بابل بدلاً من آشور

الفصل التاسع

الجموع الآشورية والعادات الآشورية

الآشوريون أمة وليس عرقاً

إن أي مجموعة بشرية ولكي تتميز كمجتمع مترابط عليها أن تمتلك سمات محددة تربط بين أفرادها بعضهم إلى بعض، وتمييزهم عن جيرانهم.

ولن ما يبعيه هو أن نكتشف ما الذي كان يميز الآشوريين ويعرّضهم كـشعب مختلف عن غيره في العالم القديم.

نحتاج إلى العناية عند إطلاق المصطلحات نظراً لأن لدينا صوراً عقلية لمجموعة تدعى الآشوريين.

وليس معنى هذا أن أحد أفراد هذه المجموعة سوف ينظر إلى الأشياء بنفس الطريقة، وسوف يعين هويته الشخصية باتخاذ اسم الآشوريين، والحقيقة أننا نعلم أنه وفي أحد الأوقات لم يكن هذا هو الحال بالضبط، وذلك نظراً لأن لاسم آشورايو الذي يترجم بكلمة آشوري كان يعني شيئاً أكثر تحديداً مما نفهمه من كلمة آشوري.

ففي القوانين التي كانت سائدة في العصر الآشوري الأوسط كان لهذا الاسم معنى طبقي يطلق فقط على الشعب من الطبقة الدنيا

لقد أطلق بعض شعوب الشرق الأدنى القديمة تمييزاً واضحاً لما كانوا يُعدونه أساساً لوحدتهم مما يميزهم عن جيرانهم.

ويمكن أن نتبنى وجهات النظر حول مثل هذه الأمور دون أن تتوافق مع الحقائق التاريخية، إذ إن الإسرائيليين التوراتيين هم حير مثال عن وجود شعب ذي معتقدات ذات أسس تاريخية مشكوك في أمرها، وكانت تقاليدهم الراسخة تؤكد أن هناك عاملين قد وحدهم وميزاهم عن الآخرين.

فقد كانت قبائلهم حسب قولهم تصدر جميعها من أبي واحد (وهذا بالطبع غير صحيح) وقد دخلت هذه القبائل في ميثاق وعهد استثنائي مع إله محدد وهو (يَهْوَه) (وهذا أمر مشكوك فيه) فقد شعر الإسرائيليون بوعي قومي مؤسس على مفهوم الأصل المشترك من رجل واحد مع الانفصال عن السلالات والأصناف الأخرى غير الموجودة وتقاليدهم وعمن أمتهم، وحماية قوانينهم ولكن الآشوريين تحرروا من هذا النوع من العنصرية.

فلم يمل أي إله آشوري أبداً ككون سلالة أي شخص معين ما هي إلا دريئة الخاصة فحسب، ولم يعد أي مشروع آشوري أبداً إلى من تشريع ضد الشعوب الأجنبية الأخرى كما فعل الإسرائيليون، فتقول التوراة: (لا ينبغي أن يتبادلوا الزواج مع الأجانب، ولا تزوجوا أبناءكم لأبنائهم ولا تسمعوهم أن يتزوج بناتهم من أولادكم).

لقد كانت معتقدات الإسرائيليون مرتبطة بالطبقة القبلية لإسرائيل، وقد سمعت آشور كما نعرفهم في الأزمنة التاريخية، كي لا يكونوا قبليين أصلاً.

ولم تلعب قضية الانحدار من أب واحد أي دور في قضية توحيد الآشوريين.

ولم يكن هنالك حسب علماء أي تقليد لوجود أي عهد أو معاهدة بين الآشوريين وآلهتهم مع أن الإله آشور قد لعب دوراً بالنسبة للوعي الذاتي للآشوريين لدرجة تسمح أن نسميه إلهاً قومياً، ولم يفكر الآشوريون أبداً بأنهم شعب مكتنف بذاته أو استثنائي.

إذ إنهم ومنذ البداية عدوا التجارة مع الشعوب الأخرى عنصراً أساسياً في الحياة، ولم يروا أي عواقب وخيمة ناتجة عن الاختلاط مع الشعوب الأخرى، كما فعل الإسرائيليون، وقد كانت سياستهم الأخيرة والتي اتبعوها بالنسبة إلى التهجير مرتبطة بهذه النقطة، وغالباً ما كما نسميهم يقولون إلى الشعوب المهجرة كانت تستوطن وتعامل كالأشوريين بالضبط.

لقد خلقت سيامة التهجير التي ابتدعها الملوك الآشوريون شكلاً جديداً وفريداً من أشكال المجتمع، بل إن مزيج المجموعات الوطنية كانت الفروق العرقية فيه غير ذات بال.

فلقد نقلت مختلف الشعوب في الشرق الأدنى إلى آشور وبدؤوا بالعمل كحماريين أو حربيين أو تجار أو جنود، ويمرور الزمن أصبحوا متوحدين في تلك الخلطة الكبيرة التي هي آشور، ولم تكن هذه الخلطة مجرد مصادفة أو منعمة. فقد كانت هناك امس نظرية لها قد عبّر عنها باصطلاحات لاهوتية دينية. فقد كرم الآشوريون آلهتهم بأن حولهم سلاطين الحكيم فوق جميع أرجاء العالم المعروف.

فقد دعا الملك توكلولي بيونثرا الأول نفسه بأبه الشخص الذي نادى باسمه الإله آشور والآلهة العظمى بإخلاص وثقة، وأنه الشخص الذي سلمته الآلهة زمام أركان الأرض ليعلموها، وأنه الشخص الذي وثقت به الآلهة وأمنته على أملاكها

وهكذا فإن الآلهة قد حصصت جميع البلدان الأجنبية لملوك آشور والآن دعونا نعود إلى الأسباب التي وحدث الآشوريين أنفسهم، إذ نحن نلاحظ أن اللغة هي من العوامل الموحدة الرئيسية

وقد كان الآشوريون يعتقدون أن الشعوب القاطنة في الجبال حولهم كانوا يتكلمون بشكل مصحك، وهكذا كانت النقوش الملكية تطلق على اللغات التي كانت تتكلم بها الشعوب الأخرى، وكانت تذكر أن بعض الفنائم لها أسماء من الصعب كتابتها

ولكن لم تكن هذه القضية علامة كافية للاختلاف نظراً لأن الجيران الحيويين في بابل كانوا يتكلمون لهجة مختلفة ولكن بنفس اللغة

وكان الدين هو القوة الموحدة الأعظم فعالية، فقد كانت جميع شعوب الشرق الأدنى تدعى لعدد من كبار الآلهة، مع أنه كان هناك بعض المناطق أو السفارات الاجتماعية كان لإله معين أو مجموعة من الآلهة مركزاً فريداً فيها وكان منها الإله آشور الذي كان من المفترض أن يمتلك السياسة في بلاد معينة أصبحت تدعى فيما بعد بلاد آشور.

ومن هنا أتى الاسم آشور، وقد نشأ الاعتقاد أن سلطنة آشور امتدت فوق العالم المتحضر، وكان من وظائف وواجبات الملك تأكيد وصيانة سيادة الإله آشور. وللوهلة الأولى، ربما يبدو هذا وكأنه نوع من الفرعة القومية والإمبريالية ذو شكل معين، وفيه الفكرة التحريضية للقومية الممثلة بالإله ولكن ليس الأمر بهذا الوضوح والصراحة.

فقد كانت تلك الفكرة مرسسة على فكرة لاهوتية ودينية لأشور، وهي أن الإله كان لديه حطة بالنسبة للبلاد، وأنه قد انفصل عن أرضه وشعبه، فالقومية ليس لها أهمية دون وجود مجموعة بشرية، ولكن بالنسبة للتفكير في الشرق الأدنى يستطيع الإله أن يتواجد بشكل مستقل عن شعبه وحتى عن وطنه، وباستطاعته حتى هجر ومعاقبة شعبه، الأمر الذي ليس باستطاعة القومية المجردة عمله.

وقد كانت آشور تؤلف سلسلة من الوحدات الثانوية، فقد كان الفلاح المادي مرتبطاً بقطعة من الأرض إما بوصف اليد أو بالحق في حرثها وريعتها، وكانت هذه القطعة من الأرض تحصى قرية معينة وكانت القرية بدورها مرتبطة إما مباشرة أو عن طريق إحدى البلدات بإحدى المدن الرئيسية، مثلاً مدينة آشور أو نينوى أو أربيل أو أرابخا، وقد كان ارتباطها بالمدينة متمثلاً بالصرائب التي تدفعها، والأعياد الدورية الدينية التي لها الحق والواجب بالمساهمة فيها.

وبإمكان الاستئناف للسلطات في المدينة في حالة حدوث خصومات قضائية أو إدارية وفوق الجميع متمثلة بالحقيقة التي مفادها. إن المدينة هي الوجهة الأخيرة

بالأحداث التي تتجه إليها جميع المنتوجات في البلاد ، ومراكز الإنتاج والتوزيع الذي يجري للبصائع المستوردة والمصنعة التي لا يمكن إنتاجها في القرية وقد كانت المدن الكبرى نفسها مرتبطة بعضها مع بعض من جهة العمل تحت إدارات مدنية متشابهة ، ومن جهة أخرى بكونها جميعها خاضعة بشكل أو بآخر من أشكال التوجيه من قبل مركز مشترك للإدارة تحت إشراف الملك.

وهنا تنتهي الدورة في هذه النقطة ويحد عندها أن الملك هو المركز المشترك لجميع الآشوريين . وهو ذلك فإن الملك يقدم الارتباط مع العالم الأخر لكونه الممثل البشري للإله آشور

ومن جهة سياسية فقد كانت دولة آشور مستقرة مدة عدة قرون ، فقد كان هناك عدد من الدساتير والمكائد من حين لآخر في أعلى مستويات المجتمع لاستبدال الملك الموحد بشخص آخر من مروع العائلة المالكة ، ولكن لم تحدث أي حوادث من التمرد الشعبي أو المحاولات لتغيير المؤسسات الاجتماعية ، وكان الاستقرار السياسي انعكاساً ونتيجة للاستقرار والطبيعة التي يتميز بها المجتمع الآشوري غير المجزأ.

كان الآشوريون شعباً هجياً وهم يعرفون ذلك ، وكان النقاء العرقي ليس بهذا قيمة بالنسبة إليهم ، ومن أقدم الأرملة كان لديهم تاريخ عاصري خليط ، ومع أن أحداً لم يثأروا بهذه الأمور منذ أواخر الألف الثاني والألف الأول ، إلا أنهم كانوا جميعاً على تمام الوعي ، وهذا مذكور مراراً في النقوش الملكية ، أن شعباً من خارج آشور كانوا يتوحدون ويضافون إلى الأعداد الأصلية من البلاد ويمتدجون بها ، إلا أنهم كانوا ياملون كاهل البلاد الأصلية.

وفي الفترة المعروفة بالفترة الآشورية الوسطى (وهي النصف الثاني من الألف الثاني ق م) كان هناك بضعة من الآشوريين بينها بعض الموظفين الكبار يحملون أسماء حورية ، وكان الاختيار في الإمبراطورية الآشورية في القرن الأول لا يحد في حط النسب الذي أتى منه الشخص ، بل في سلوك هذا الإنسان تجاه المجتمع الأكبر وولائه للإمبراطورية العالمية التي يحكمها الإله آشور.

وكان هناك إمكان وصول أحد الملوك المهورين في بابل إلى أعلى درجات الإدارة في آشور ، ونظهر لنا أسماء بعض الحكام الآشوريين في المناطق أنهم كانوا من أصل آرامي أو هيتي أو يهودي.

ولم يكن الإتسان في آشور مجبراً أن يعبد الآله القومي آشور ، وذلك لأن مجموعة الآله المتواجدة حول آشور كانت مجموعة مرتبة تقبل الآله من أصول غير آشورية ، وهذا لا ينطبق على الإسرائيليين المترمّين الذين لا يقبلون سوى الإله (يهوه) فقد كانت ثقة الإله آشور بعنسه وسيطرته لا تجيز أن يكون إلهاً عبوراً

لقد رأينا الحطوط المختلفة في بنية آشور ما قبل التاريخ ، والأشهر فيها تلك المجموعات الثقافية التي وجدت في حسونة وخلف (ويشكل هامشي) في السامرة ، ولقد أتت فيما بعد بعض التأثيرات من الجنوب وهم شعب أيب في فترة ما قبل التاريخ ، والسومريون عند فجر التاريخ وكلاهما يتحدران من أصول عرقية تلك المساهمات البارزة في المظاهر الثقافية ، وهناك آثار لتلك المظاهر (تختلف عن السومرية) تبقى في أسماء الأمكنة ، وبعضها لا يمكن تسميتها بأنها إما سومرية أو سامية ، فهي أوائل الفترة السومرية (وربما قبلها) بدأت الهجرات الجماعية للشعوب التي تكلمت اللغات السامية الآتين من الجنوب الشرقي والتي ظلت تشاهد الإمدادات التي تأتي لنجدتها حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية

وفي الألف الثاني أتى إلى المنطقة تدفق قوي من الحوريين الذي ترك أثراً دائماً دائمة في الثقافة الآشورية ولكن لم تكن أهل تؤكد في البنية العرقية أو الإثنية ، وهذا هو ما شكل الإطار

ولقد تدفق إلى هذا الإطار أو البنية عدة عناصر عرقية دون انقطاع عن طريق ثلاث أبنية رئيسية من الهجرة ، وهي: السبي ، والزيجات المختلطة من قبل بعض الناس كالتجار الذين يقصون وقتاً طويلاً في الخارج ، وكانت هذه القصة هي التي لا نعرف عنها الكثير وكانت أقلها أهمية.

بإستطاعة الهجرة أحداث تغييرات كبيرة في بنية المجتمع ، فمن نعلم أنه في منتصف الألف الثاني انقضى المهاجرون الحوريون على السكان القدماء في بعض

أجراء دولة آشور ، بينما أحدث الآراميون الساميون الآتون من وراء نهر الفرات عدة تعبيرات رئيسية في نهاية الألف الأولى قبل الميلاد ، وإن المستوطنين من هذا النوع ربما ظلوا متقوقعين عدة أجيال ولصكن ويمرور الزمن دخلوا هم أيضاً في عالم آشور المحتل ، إذا إن المنطقة التي وجدت الإمبراطورية الآشورية فيها دعمها الأخير حيث وقعت للنهية كانت ما بين حران وكركميش ، تلك المنطقة التي كانت في زمن ما حورية وبعد ذلك أصبحت إرامية يشكل سائد ومهيمن .

وكانت هناك طبقات أخرى من المهاجرين تشتمل على شعوب تفرقت بسبب الاضطرابات في آسيا الصغرى نحو سنة (١٢٠٠ق م)

وكان هناك شعب من هؤلاء يدعى شعب الحوشكاوي القريب من الفرنجيين الذين أتوا هيمما بعد والدين سمح لهم بالقيام بعدة مصادمات مع دولة آشور بالاستقرار وقد عدوا وكانهم آشوريين .

وعلى مقياس أقل ولكن لا يمكن إهماله لفترة طويلة كانت الهجرات التي وصلت إلى دولة آشور وسهولها والمزلفة من عائلات مفردة أتت من الجبال .

ونظراً لضالة أهميتها المردية فليس من المحتمل أن نسمع عن حوادث فعلية بالنسبة لهذا الاستيطان المستعمل لدى شعوب كركميش وهم بين السكك في وثائق وجدت قرب كركميش في القرن الخامس عشر قبل الميلاد

ولكن وفي النهاية نجد أن أكبر المساهمين في تغيير حالات السكان وامتزاجهم كانت سياسة التهجير ، وبالنسبة للعالم الحديث نجد أن هذه الكلمة تعني شروياً عاطفية ، ومن السهل أن تصبح الحقائق الأساسية حقائق ضئيلة الأهمية في مواضع تحبط أحاسيس الرحمة والشفقة .

ولقد دوفشت هذه القضية برمتها على يد **boded** في كتابه الهجرات الجماعية والمهاجرون في الإمبراطورية الآشورية الجديدة (١٩٧٨) .

لقد مارس الملوك الآشوريون تهجير الشعوب المهرومة في القرن الثالث عشر ق م
ولكنها بقيت ظاهرة رئيسية لسياسة الدولة ابتداء من القرن التاسع ق م حيث
كان عدد المهجرين يصل إلى ربع أو نصف مليون نسمة بالنسبة إلى عدد من الملوك.
ولقد ساعد هذا على إنشاء مجتمع داخل الإمبراطورية الآشورية وداخل آسيا
بأكملها ، وكان هذا المجتمع خليطاً في عرقته ولغته ، فلم يكن للملوك الآشوريين
أي خلفية عرقية بالنسبة إلى معاصرتهم العسكرية وثوسعاتهم وتهجيراتهم ،
وأشركوا الدول المهرومة والخاصة في الجيش الآشوري ، وقد أسكن آشور ناصر
بعل الشعوب من الأراضي المهزومة في عاصمته الجديدة (كالاخ) وكان صريحاً في
هذه المسألة فقد كتب يقول :

((كالا... لقد بنيتها من جديد ، وأمسكت فيها شعباً قد هزمتها بيدي من
البلاد التي حكمتها ، من سوهو ولاقي وسوقا عند نقاط عبور المرات ، وزاموا
وبيت عيدي وحاتي وقد أسكنتهم هناك))

ولما لم تكن هذه الشعوب من أصول عرقية واحدة ولكنها كانت تمثل
انتشاراً عريضاً من الجسيمات ، ولقد أسهمت مثل هذه الهجرات في حدوث خلفية
جديدة كلياً للمدن الآشورية التي كانت هدفاً لهدوم أكثريّة المهاجرين المعروفين.
وأصبحت المدن الآشورية عالمية ومتعددة اللغات ، حيث أصبح الشعب الآشوري
الحقيقي عبارة عن أقلية

وبطراً لأن المهاجرين كانوا يتحركون بشكل مجموعات والوقت الذي يقبل
فيه الآشوريون الشعوب الأجنبية عمداً بشكل مجموعات احتفظت بمصيبتها
العرقية ، فإن هذه المجموعات لم تتمثل بمرعة السكان الذين وضعوا فيما بين
ظهوراتهم ، ولقد عرف الملوك الآشوريون أن هناك عدداً من اللغات كانت مستعملة
داخل بعض منهم.

وبينما بدلت جميع المحاولات لإشاع المستوطنين الجدد بقبولهم كأفراد في
الإمبراطورية ، إلا أنه ليس هناك من سبب يدعونا لافتراض أن هذا الضغط
لاستعمال لغة معينة أو خدمة إله معين قد نجح في مبتدأ

وهكذا نرى الملك سرجون الثاني يتكلم عن معاملته لمريج من الشعوب
المستوطنين بحايه في عاصمته الجديدة دور شاروكين بما يلي:

(هناك شعوب من جهات الدنيا الأربع، ذوو لغات غريبة وكلام مختلف
يسكنون في الحبال والسهول، لقد استوليت عليهم كعنائم طبق كلمات آشور
سيدي لقد جعلتهم ذوي عرض واحد، وبنية واحدة وجعلتهم يسكنون في داخل
المدينة (أي داخل دور شاروكين) وجعلت مواطني آشور الماهرين في عمل كل
الأعمال مراقبين ومشرفين لكي يعلموهم العادات وأن يخدموا الآلهة والملك)

لم تكن ثقافة الإمبراطورية الآشورية الجديدة ثقافة آشورية محضة، ولم
تكن حتى آشورية بابلية بل كانت ثقافة هجينة بعله

وقد كان أحد العوامل الرئيسية التي دخلت أثناء الألف الأول قبل الميلاد،
مسببة عن دخول الآراميين، وهم بنو رحل أتوا من الصحراء السورية، فقد كان
للعنهم الآرامية تأثير على اللغة الآشورية التي أحدثت كثيراً من الكلمات
والمصطلحات من اللغة الآرامية.

أما نظام الكتابة الآرامية الأبسط الذي كان يجري على قطع من الخزف أو
الجلد والسيروس، هذا النظام بدأ استعماله جنباً إلى جنب مع النظام المسماري
على الحزب، وقد كان مقدرًا لهذا النظام أن يتفوق (ولم يكن لم يحدث ذلك، إلا
بعد سقوط الإمبراطورية الآشورية) وأصبحت الآرامية بالحقيقة لغة رسمية في آشور
أثناء حكم تغلات بلاسر الثالث (745-727) لأننا نشاهد على أحد أنصابه كتاباً
يكتب بمواد مناسبة للخط الآرامي إلى جانب كاتب آخر يكتب بالخط المسماري
وكان كلاهما يسجلان نسخاً متشابهة عن عائدات الحرب

لم يكن الآراميون الشعب الوحيد الذي أثر على الثقافة الآشورية في الفترة
الآشورية الجديدة، أو اسنا نجد بين الكتيبة أشخاصاً مصريين مذكورين إلى
جانب الآشوريين والآراميين بشكل أبليست يستلمون الإعاشة، وبهذا أصبحوا على
صلة رسمية بالبلاد، وإن فوائم الإعانة هذه تذكر أشخاصاً غريباء آخرين لم
تذكر منهم ولا أعمالهم بل كان من المحتمل أن يكونوا ضباطاً عسكريين أو

تجاراً أو مبعوثين أجانب، أو ربما رهائن من الأمراء احتفظ بهم في البلاط الآشوري
كضيوفات أو كمعاملات للسلوك الحسن للدولة التي أتوا منها
وكان بين أولئك المجموعات من الموظفين الأجانب أشخاص إسرائيليون
وفينيقيون وميديون وعامانيون (من شمال غرب إيران) وأمنس من شمال ممورية وآسيا
الصغرى والأناصول.

لقد كان عدد كبير من اللغات يتمثل في البلاط الآشوري، فقد جلب الأمراء
الملكيون من الدول التابعة إلى البلاط الآشوري بقصد تثقيفهم وتعليمهم ولكي
يقولوا بقلوب الحكام الموالين في المستقبل، ولتخدموا صك رهائن لتأمين السلوك
الحسن للدول الخاضعة والموالية لآشور

وكان هناك أيضاً إداريون ذوو خبرة أحبية ومعرفة باللغات الأجنبية فضلاً
عن كونهم مترجمين وكتبة، ولدينا أمثلة من هذا النوع وجدت في نص يخبرنا
كيفية وصول أحد السمرات إلى آشور من بلد بعيد يمتدح أنه ليدبا (مع أن ذلك لم
يثبت نهائياً) في آسيا الصغرى.

ويتمثل الملك آشور بانيبال أنه هو المتكلم.

لقد وصل حدود بلادي

وعندما رآه شعب بلادي قالوا له،

من أنت أيها الغريب

ومن أي بلد لم تطأها

أي قدم على الطريق (إلى هنا)

ولقد جلبوه أمامي - إلى نينوى عاصمتي

وهي التي تحتوي لغات من الشرق والغرب

والتي يصنفي الإله آشور متسلطاً عليها

ولكن لم يكن عندنا من أحد يتقن لغته

فقد حكّات لعمه غريبة

ولم يستطيعوا فهم خطابه

ولقد جلب معه من حدود بلاده.

ولم يهمهم ما قد جلبه معه، ولكن من المظنون أنه حكّات رسالة مكتوبة
بالملة الأكادية وذلك لتعلّب على الحواجر اللغوية.

التطبيقات الاجتماعية

إن معرفتنا عن التركيب الاجتماعي الآشوري هي معرفة متقطعة وغير سوية،
إذ إنه وفي بعض المنترات، لدينا معلومات تتصل بشكل مباشر بمظاهر الحياة
الاجتماعية

بينما وبالنسبة للمظاهر الأخرى فإننا مجبرون أن نستنتج ما نستطيع فهمه من
الإيماءات الواردة من نصوص ربما كان فحواها مختلماً عن الاهتمامات التي نحن
بصددّها، بحيث إن التلميحات التي يعطونها غامضة ومحيرة

وهكذا هو الحال بالنسبة للثقافات الأخرى فلقد مرّت المجتمعات الآشورية
بتغيرات بمرور الزمن، وإن ما هو حقيقة بالنسبة لها في إحدى الفترات من الممكن
أن لا يكون هكذا في فترة أخرى، وإن أحد الأمثلة التي لدينا أحبار صادقة عنها
(على الرغم من وجود عدة فجوات في التفاصيل) هو العصر الآشوري الأوسط حتى
نهاية الألف الثانية ق.م، وهناك هذا الأمر نتيجة لمصادقة سميدة أي: عند اكتشاف
الألواح المسمارية في آشور، والتي تحمل نصوص القوانين الآشورية المتوسطة وهي
دات ارتباط خاص ببعض نواحي المجتمع.

وبصورة خاصة هناك لوح متطاوّل يضم (٥٩) عشرة حسب التقسيم الحديث،
وهو يهتم اهتماماً بالفاً بالمسائل التي لها علاقة بالنساء.

تذكر لنا القوانين أن المجتمع الآشوري كان مؤلفاً من فئتين متميزتين
اجتماعيتين وهما: فئة الأحرار، وفئة غير الأحرار

وكان الكلدانيون يطلقون على هاتين المصنعتين اسمي عايلو (اميلو) للمصنة الأولى، وأوردو (أردو) للمصنة الثانية، وترجم عادة مالبالي الرجل الحر، والعبد، ولقد ظهرت تعقيدات في هذا المقام عند تقديم نوع ثالث وهو (الآشورابو) والآشوري. ومن الواضح أن الآشورابو كان رجلاً حراً، ونظراً لأن نصوص القوانين تحدد فرقاً ما بين معاملة الآشوري والميلو فإنه من الواجب أن يكون هناك نوع خاص من الرجل الحر

وتدل القوانين أن الآشورية كانوا أقل شأنًا من الميلو أي إنه كان هناك تدرج في الأوصاف ما بين الرجال الأحرار

وعندما تحصل رعية للإشارة إلى رجال أحرار من درجة منخفضة عندها تستخدم كلمة آشوري، ولكن بعض الباحثين قد همسروا هذا بشكل محتلم أي بوجود تقسيم ثلاثي للطبقات الاجتماعية باعتبار أن (عايلو) تعني: الرجل الشريف السبيل.

ولكن نظراً لأن عايلو يبدو بأنها تستعمل للدلالة على مرتبة أعلى من الآشوري، فإن ذلك يبدو قضية من الصعب الدفاع عنها.

وقد أصبح الوضع محتماً بحلول زمن الإمبراطورية الآشورية الجديدة في الألف الأول ق.م، وكان الوصف الأهم بالنسبة للرجال الأحرار يخص الموطعين المملوكين الذين كانوا يديمون بمراكزهم وسلطانهم للعطف المملوكي وليس للوراثة، مع أنه كان يحدث أحياناً أن يمين شخص في وظيفة كان والده يشغلها سابقاً

وأما في أسفل السلم الاجتماعي فإن التمييز ما بين الرجل الحر والعبد تلاشى، وذلك بسبب احتزال جميع مجتمعات الفلاحين والحرفاء بالمبودية بمد أن حسر الملاحون حقوقهم القديمة بالمعبية للأراضي.

الأساس الزراعي للحياة الآشورية

شكّلت آشور أصلاً بلداً مؤلفاً من قرى زراعية، وبلدات ريفية، مع وجود عدد قليل من المدن الرئيسية وهي آشور، ونيوى، وأربيل، وريما أراتنجا، وهؤلاء فقط اعتبروا المدن الحقيقية

وأما المدينة الخامسة وهي كالكج فعلى الرغم من الذروة التي وصلتها والممكّمة في الأطلال الصخمة في نمرود، إلا أنها لم تكن ذات أهمية قومية سوى خلال قرنين من الزمن في الألف الثالث قبل الميلاد

وكان هناك بين المدن المهمة التي كانت كثيراً ما تذكر والتي كانت ذات أهمية محلية هي كالكيزي وكوريميل (لم نجد موقعها بعد) وشيبانييا.

وهناك عدد لا يمكن أن ندعوها بلدات ريفية نجدها في هذه الأيام بشكل رسكّات وروابي كبيرة، وبعضها تحدد موقعه، وبعضها لم يتحدد.

ولكن ليس هناك ما يشبه خليط المدن التي تواجبت اعتباراً من زمن السومريين فصاعداً في بابل جنوباً، وبمحاذاة نهر الفرات وديالا، وكانت الفروق مرتبطة بالمناخ.

أما في بابل فقد شكّلت الأعمال الزراعية مستحيلة دون وجود الري، وهذا مع وجود معاري المياه ومصادرها الصخمة يقتضي وجود تجمعات كبيرة من الناس داخل بنية اجتماعية موحدة، لكن هذا العامل كان أقل أهمية بالنسبة لآشور، حيث تتوفر الزراعة المدعومة بماء المطر في كل مكان تقريباً

وهذا لا يعني أن الري لم يكن موجوداً في آشور بل لقد كان فعالاً موجوداً ولا يزال، ولكن كان مساعداً بعيداً أكثر منه ضرورة لا يستغنى عنها للزراعة هناك.

سوف يبحث في موضوع الحياة والبلدات والمدن في مكان آخر من هذا الكتاب

أما في الوقت الحاضر فتصوف فعالج قضية الأرض، وإن مسألة امتلاك الأرض في آشور هي قضية معقدة ولا تزال عصية على الفهم، لاسيما وأنه في حالة وجود مفهوم لا بأس به حول الوضع، لكن ليس من الممكن عمل أي استنتاجات تصلح لكل المناطق وكل الأزمنة، إذ إن المصدر الرئيسي لاستنتاجاتنا هو كتاب القوانين الذي يعود إلى أواخر الألف الثاني، وهذا يعالج بالإضافة إلى قضايا أخرى مسألة امتلاك الأرض.

وقد عرف من عدة وثائق ذات علاقة بمسألة بيع الأراضي، ويبدو أنه أصلاً وفي بلاد آشور وقبل أن تتطور الدولة لتصبح كينونة قومية كانت الأرض ملكاً لعائلات كبيرة، إذ إنه لا يزال هناك آثار لهذا النظام في الفترة الآشورية الوسطى، مع أنه وفي ذلك الوقت كانت العائلات الكبيرة قد تجمعت بعضها مع بعض لتصبح مجتمعاً قروياً أوسع، ولكن هذا التطور قد حدد حرية العمل لأية عائلة كبيرة إلى حد ما، فلقد قسّمت أراضٍ كثيرة كانت يسيطر عليها المجتمع الفردي إلى أقسام تدعى (الحصص) وهناك ما يدل على أن تلك الحصص قد أعيد توزيعها دورياً فيما بين العائلات الكبيرة وأصبح لبعض الأفراد حقوق مكتسبة عن طريق الشراء.

ولكن كيف استطاع بعض الأفراد من الخارج اكتساب مثل هذه الحقوق؟ إنها قضية معقدة، إذ نحن نعلم أنه بالنسبة لمنطقة كركوك في آشور وحوالي عام (١٥٠٠ ق.م) (هذا هو تاريخ ما يعرف بوثائق (توزي)) لم تكن الأراضي مخصصة التحويل قانونياً من ملكية شخص إلى آخر خارج نطاق العائلة، ومع ذلك فقد كان هناك وسائل للالتفاف حول هذا الموضوع، وهذه المشكلة في القانون ذي العلاقة بالمعرف والعادات وليس بالقانون.

ومع أن نقل ملكية الأرض كلياً ممكناً ضمن إطار العائلة، إلا أن البيع لشخص آخر خارج نطاق العائلة من الممكن ترتيبه عن طريق تحويل تبني البائع للمشتري وإعطاء هذا الأخير قطعة من الأرض بشكل حصّة موروثه أي عن طريق الإرث، وعلى كل حال فإن لدينا هنا بعض الأعمال التي لم تكن آشورية في

الأصل، نظراً لأن العامل العرقي التفاضلي السائد حول مركزكوك نحو عام (١٤٥٠ ق.م) كان ذا أصل حوري يرجع إلى المهاجرين الذين تعود هجرتهم إلى قرنين أو ثلاثة قرون سابقة.

وأما في آشور وفي منتصف الفترة الآشورية الوسطى فكان من الممكن للأفراد شراء بعض الحقوق في الأرض دون القيام بعمل أي حيلة أو دريعة، وإن عملية بيع أراضي الأحرار هذه قد امتدت إلى الفترة الآشورية الجديدة في الألف الأول ق.م. ومن المحتمل ونظراً لأن معظم عمليات نقل الأرض حدثت في الأسرة القديمة، فإن مالك الأرض عن طريق الوراثة لم يكن لديه أي بنية لبيع هذه الأرض، ولكن حقوق الملكية هذه كان من الممكن رهنها كضمان للديون، والأغلب أن مثل هذه الإجراءات سوف تكون مقدّمة لمقدار المالك الأصلي لحقوقه

هذا ومن الممكن وجود الحاجة إلى إجراء قرص وذلك للتغلب على الصعوبات المادية للعائلة ابتداء من وقت البدار حتى وقت الحصاد، وإذا حدث حصاد سيئ في الموسم فإن ذلك سوف يحمل المدين غير قادر على الدفع، مما يؤدي إلى حبسه

وهكذا فقد كان يحدث في الفترة الآشورية الوسطى أن يكون مقرضو الأموال الدين كانوا قد حصلوا على الثروة عن طريق التجارة هم المشترون البازرون لحقوق الملكية، وكان يوسع الشعب الذي اشترى الأرض من حيث المبدأ أن يختار قطعة الأرض شريطة ألا يؤدي ذلك إلى المساس بحقوق المجتمع ككل، أو حقوق العائلات الكبيرة

وفي الأصل كان شراء قطعة من الأرض ينتج عنه أن يصبح المشتري عضواً في المجتمع القروي، وإن لا يلتزم بالامتيازات التابعة لحق الملكية بحسب، بل أيضاً أن يلتزم بواجبات المجتمع التي توجبها مثل هذه الحقوق، وفي مثل هذه الحالة فإن الأرض سوف لا تصبح بالمعبية للمجتمع بل بالعكس تبقى الأرض جزءاً من أرض المجتمع

وهكذا فإن المجتمع قد يربح عضواً جديداً، ولكن وبالتدريج يعمد بعض الأشخاص الأعياء مادياً وبعض العائلات التي نجحت في بناء صيغ متكاملة بعد

بيع قطع الأرض التي كانت أراضي للمجتمع وهذه الضيع لم تكن خاصة لإعادة التوزيع.

وفي النتيجة أصبح المرد أو العائلة الكبيرة لا يتمتع الآن بحقوق ملكية الأرض بل أصبح بالعمل المالك الحقيقي لها

ولكن ماذا حدث لتلك العائلات التي خسرت حقوق ملكيتها للأرض بسبب الديون أو حبس الرهن، وما دامت الحقوق في المجتمع مرتبطة بحق ملكية الأرض فإن هؤلاء الناس يقدون محاسنهم وأوصاعهم، فقد كسل المدنى لا يقوم برهن أرضه وبيته فحسب بل أيضاً أولاده وبناته وعاء للرهن، وإن عجز عن الدفع علا يخسر أملاكه فحسب بل إن أفراد عائلته الذين كملوه يصبحون عبيداً، من الممكن بينهم.

وكان هناك إمكانيات أخرى على عصوية الفرد في المجتمع لم تجلب له الحق بأراضي المجتمع فحسب، بل تجلب له بمصر الالتزامات لخدمة المجتمع، مثلاً رصف وفتح الطرق وأعمال الري أو الخدمة العسكرية، ولكن أصبحت الحقوق والواجبات الآن منفصلة بعضها عن بعض فالحقوق والامتيازات قد استولى عليها الأغنياء، في حين فرضت الواجبات على الفقراء، وحالما رادت المروءة بين معاملة مالكي الأراضي والفقراء الذين يملكون أرضاً أصبح مالكو الأراضي يعاملون الفقراء معاملة لا تشبه معاملة العبيد تماماً، بل كتابيين ملتزمين بتأدية بمصر الخدمات للمجتمع التي كانت أصلاً مسؤولية أصحاب الأرض، وقد استطاع هؤلاء النابيون أن يستمروا في الأرض التي كانوا هم بأنفسهم أو أحداهم يملكون الحق فيها

وفي منتصف الفترة الآشورية الوسطى كان مقرصو الأموال هم ذوي العلاقة بالنسبة لشراء الأراضي التي كان يملكها الفلاحون، وفي أثناء الفترة الآشورية المتوسطة كان من أشهر الناس في هذا المجال هم الموظفون في الإدارة الملكية، ومع أنه في هذا الوقت كانت معظم الأراضي قد مابت من مالكيها من الفلاحين الأصليين، إلا أن العملية لم تكتمل بعد، ففي أوائل القرن الثامن كان

لا يزال هناك بعض الأراضي التي لا يزال عليها أصحاب الأراضي الصغار نظراً لأن هذه الأراضي قد بيعت إلى موظفين كبار كانوا يبنون بعض الضيق

ونقد حصلت انتقادات على مثل هذه الأوضاع في يهوذا ، وقد قاد هذه الانتقادات النبي أشعيا (٨-٥) الذي قال

((ويل لأولئك الذين يصلون بيتاً ببيت ، أو يضيئون حقلاً إلى حقلاً)).

فقد قيل : إنه وفي بعض الحالات كان الموظفون العاملون في شراء الأراضي يعملون في الوقت نفسه بمصالحات رسمية في إنشاء ضيق ملكية ، ولكن من الصعب إثبات هذه الأقوال..

الفلاحون الفقراء - الأثني والعيد

وفي القرن الثامن لم يمد المواطنون الذين اشتعلوا عملاً في الأرض من المواطنين الأحرار بل كانوا يُعدّون جزءاً من الأرض التي يشتعلون فيها ، وسكان من الممكن أن يباعوا مع الأرض وينقلوا مع انتقال ملكية الأرض.

وهكذا يرى أنه وفي مرسوم ملكي نموذجي يُعطى أحد الموظفين المرمي عنهم إعماء من الضرائب بالنسبة للبهائم والحقول والأشخاص الذين قد حصل عليهم وجعلهم أملاكاً خاصة به شأنهم شأن الأرض.

ولكن هل يجوز لنا أن نعد هؤلاء الفلاحين عبيداً؟

علينا أن نفهم معنى العبودية ، وما هو الدور الذي لعبته في حياة الآشوريين ، فقد وجدت العبودية ولكن العبودية كمؤسسة لم تكن ذات أهمية اقتصادية مرموقة ، ومن الممكن مناقشة هذه الملاحظة ، ولهذا أصبح من الواجب أن نوضح ما نسيه بكلمة العبودية في السياق الحالي

وتعود هذه الملاحظات للعبيد كأفراد وليس لأسرى الحرب ولا لتلك المجموعات القومية التي هُجرت بشكل جماعي ، ولا لتلك المجموعات الزراعية التي كانت تطالب بالاستقلال عن مالك الأرض ، فالعبيد بمفردهم كان شخصاً ليس له أي حقوق يملكها شخص آخر ، ومن الممكن بيعه وشراؤه.

أما أسرى الحرب والمهجرون من جهة أخرى والذين من الممكن نقلهم من موطنهم الأصلي للقيام بعمل بعض الواجبات للدولة ، فإنهم ظلوا أحراراً ، وتظهر هذه المسألة بما لا يدعو مجالاً للشك ، وتسميقات المفاوضات فيما بين الموظفين الآشوريين والشعوب الواقعة تحت الحصار (كما هو الحال في بابل وآشور) وهناك كان المحاصرون يخبرون بصراحة أنه من الممكن تهجيرهم ، ولكن لم يذكر أي شيء عن استعبادهم ، وكان من الممكن أن يصبح أحماد الأشخاص المهجرين مستمجين بحيث لا يمكن تمييزهم سوى بالنسبة لأسمائهم عن المستكان الآشوريين الأصليين.

وقد كان الجزء الأكبر من الأعمال الزراعية يُنجز عن طريق الرجال الأحرار وليس عن طريق العبيد ، هؤلاء كانوا آشوريين أحراراً أو من المجتمعات المهجرة من الأحرار

أما الفلاحون الآشوريون المساكين فقد كانوا في بعض الوصع كالجماعات من الأحرار المهجرين الأجانب ، مع أنه كان من الممكن بيعهم مع الأرض ولا يمكن بيعهم كأفراد بعيداً عن الأرض ، وبهذا الاعتبار لم يكونوا عبيداً مع أنهم أحياناً كان اسم العبد يطلق عليهم.

إن اسم العبد أو كما يترجم بكلمة (أردو أو أورادو) لم يكن وصمة عار ، بل كان يعني ، حالة متدنية لشخص تابع لشخص آخر ذي سلطة ممتزجة بها ، وكان الموظفون الكبار عندما يكتبون إلى الملك يشيرون إلى أنفسهم بكلمة (أوردو) ولكن هذا لم يكن أكثر من مجاملات تعني خادمكم المطيع ، وبالتأكيد لم تكن تمنى حالة حقيقية من العبودية كما نفهمها ، وحتى الملك كان يدعو نفسه بالمبد بالنسبة لعلاقته مع الآلهة

ومع ذلك كانت هذه اصطلاحات خاصة ليس لها علاقة بالعبودية الحقيقية التي هيها تصبح جميع الحقوق لأحد الأشخاص ملحقاً لشخص آخر ، وقد وجد أن هذا الوصع قد شهدت عليه الوثائق القانونية حيث يوصف أحد الأشخاص بصفة عبد لشخص آخر ، ولكن هناك مفارقات ، إذ حتى في مثل هذه الأحوال هناك

كان الأشخاص الذين يوصفون كمبيد بملكون الأراضي التي يمكن لأحضانهم أن يروثوها.

تثير العبودية شعوراً عميقاً في الأرمنة الحديثة لدرجة أنه من الصعب أن لا نتظر إليها إلا بشكل مختلف عما هي في مفهوم العالم القديم، ولكن في منطقة الشرق الأوسط القديم كانت حقيقة حيادية من حقائق الحياة، وهي بذلك تشبه الوظائف في الأوضاع الاقتصادية الفرية في الوقت الحاضر، وهي التي تُعني علينا موجبات أسطنتنا وتحدد استعمال الناس لأوقاتها طيلة حياتهم، وهكذا وكما أن الضغط الاقتصادي يجبر الشخص المحترم في هذه الأيام على العمل في وظيفة يكرهها أو تجبره على البطالة، وهكذا في الأرمنة القديمة كان هناك عدة عوامل تتحدد لتوصل شخصاً ما إلى حالة العبودية بسبب الديون.

وإن العبد الآشوري لا شك أنه يكره بعض النتائج التي تجلبها له حالة العبودية تماماً، كما يكره رجل حر بعض النتائج (مثلاً الضرائب في بعض الأحوال والأشياء الممنوعة في أحوال أخرى) والتي قد جلبتها له حائته

وليس هناك من سبب أن نفترض أن أي شخص سواء كان عبداً أو غير ذلك سوف يتحدى العبودية كمفهوم اجتماعي، وذلك كما يتحدى معظم الناس في العالم العربي الوظائف باعتبارها أحد المفاهيم حتى ولو اعتبروا أن الوظيفة التي يمارسونها تحديداً (أو عدم وجودها) هو أمر مثير للإزعاج.

لم يكن أسرى الحرب عبيداً بمعنى الكلمة، وقد يتحدث أحد الملوك أحياناً فيهم بقوله

(لقد جعلتهم مثل شعب آشور)

فقد كانت أحوالهم عندما استقروا على الأرض تشبه أحوال الآشوريين الفقراء المساكين، بمعنى أنهم إذا بيعت الأرض فإنهم سوف يبيعون معها، ولأنهم لا يمكن بيعهم بمسعة مفعلة عن الأرض.

ونحن نرى حالات مشابهة بالنسبة للعبود وذي الأصول الأجنبية.

ويذكر الملوك الآشوريون أحياناً أنهم قد أخذوا هضبات من الشباب من الشعوب المقهورة، وضمهم إلى القوة العسكرية ولكن لم تستعمل كلمة عبيد للدلالة على مثل هؤلاء، بل على العكس من الواضح أن مثل هذه الوحدات العسكرية داخل القوى العسكرية الآشورية لم يكونوا أقل مرتبة من مرتبة الآشوريين أنفسهم.

كان العبيد بكل معنى الكلمة أناساً قد يبيعوا وهاء لدين أو كانوا من نسل هؤلاء، وبطبيعة أوصاعهم فإنهم لا يجوز لهم تملك الأرض مع أنه يبدو أنه كان من الممكن أن يمحروا هذه الأرض بعد زمن نظراً لأنه - وكما لاحظنا - لدينا مصوص تذكر أملاك أولئك الأشخاص الذين وصفتوا في الوثائق الرسمية أنهم عبيد، وهوق ذلك فليس لهؤلاء الأشخاص أي حق بالحماية ضد المعاملة السيئة أو ضد البيع كمبيد في الخارج، فقد كان كتاب القانون في المترة الآشورية الوسطى يوضح ذلك بإسهاب.

إذاً هناك هناك أي رجل آشوري أو امرأة آشورية ممن يعيشون في بيت شخص آخر رهن لدين فإن كان هؤلاء قد استعبدوا تمويصاً عن كمال هذا الدين، فإن باستطاعة الدائن أن يضربهم ويقتل شعورهم ويشد أذانهم ويثقبها^٢

ويقول أيضاً: (إن الرجل الآشوري ((والمرأة الآشورية)) الذي لم يستلم مئداد القيمة الكاملة للدين الذي بذمته يمكن أن يُباع ويدخل إلى بلد أجنبي)

وهكذا هي نهاية السلم الطبقي الأعلى هناك مواطنون حائرون على حقوق كاملة

وفي النهاية الأخرى لهذا السلم هناك طبقات محرومة وهم عبيد بشكل معيى الكاملة، من المحرومين من الحقوق، والمحرومين من امتلاك الأملاك والأراضي، ومن الممكن بيعهم عند رغبة سيدهم.

وبين هاتين الطبقتين المتطرفتين كان هناك أناس حافظون لسلطة الأسيد مع احتفاظهم ببعض الحقوق.

وهذه المجموعة المتوسطة تشمل الملاحين الفقراء من أبناء الوطن ايضاً
الملاحين الذين استوطنوا في بعض الأراضي في اشور وكانت احوالهم مشابهة
لوضع الميبد بكونهم لا يستطيعون ترك العقار الذي استوطنوا فيه
ومن جهة أخرى كان لهم بعض الحقوق الباقية نظراً لأنه لم يكن ممكناً
تجرئة المجتمعات والعائلات طبقاً لمزاج صاحب الأرض وهم يستطيعون الاحتفاظ
وتوريث أملاكهم بشكل متظم

لقد كان عدد الآشوريين الذين كانوا يباعون كأقارب يباعون مع بيع الارض
قليلاً جداً، وفي إحدى الحالات ما يبيع معده أقل من واحد لكل عشرة فدادين،
ويقدر أنه - وفي هذه الأيام وفي العراق - يستطيع شخص واحد أن يقوم براعة حوالي
سبعة أو ثمانية فدادين أو أكثر عن طريق الرراعة الشاملة الانتشار وأن تكون
تلك المساحة حاصنة به، وهي طريقة تعتمد استعمال مساحات واسعة من الأرض
بأقل جهد ممكن، أكثر منها عن طريق الرراعة التنكيفية التي تهدف إلى زيادة
إنتاجية الأرض عن طريق زيادة رأس المال والهد العاملة المخصصين لها، وتكون
الطريقة الأولى بدون مشكلة أي. استعمال الآليات (أنظر كتاب الأراضي فيما وراء
يفداد (عام ١٩٤٥).

وهكذا ليس هناك من حاجة أن نعرض وجود قوة رراعية عاملة غير
الأشخاص المذكورين ضمن مبيعات الأراضي بأنهم ملتصقون بالأراضي المبيعة.
ونحن على تمام العلم أن بعض اصحاب المقارات كانوا يتمكنون عدداً لا
بأس به من الميبد، ولكن معظم هؤلاء من المحتمل أن يكونوا قد خدموا في
الأعمال المنزلية

ومن الممكن أن تكون هناك قوة عمل رراعية متوفرة في بعض المقارات،
ويكون هؤلاء بشكل أسرى الحرب الذين استولي عليهم بأعداد كبيرة وورعوا
في الأراضي الملكية وأراضي المعابد والحرف الكبيرة وعند الموظفين الملكيين.
ولقد ذكرنا سابقاً شيئاً عن الموظفين الذين كانوا يبتون لأنفسهم حياً إذا
كان يحق للموظفين الملكيين امتلاك بعض الأراضي عن طريق الوراثة أو الشراء.

وهكان هؤلاء يستطيعون استلام منح من الأراضي من المالك، وهذه ساعدت في حيازتهم دجلاً اعتزافاً بما أدوه من خدمات.

وفي حالة أي موظف كبير المنزلة فإن الأراضي التي يهبها الملك له من الممكن أن تبلغ عدة آلاف من الفدادين، ومن الممكن أن يمتلكوا أراضي كبيرة بصفة شخصية.

إذا نحن نعرف أن بعض الموظفين الملكيين الكبار، ولهموا من أعلى مرتبة، كان الواحد منهم يمتلك ما قيمته ألف فدان.

العائلات الفلاحية

لقد خالفنا الحظ، إذ نملك بعض الشواهد المصممة حول تركيب العائلات الآشورية الفلاحية المصنوعة ببعض الوثائق العائدة إلى الألف الأول، وتدعى (ولكن ليس هذا بشكل دقيق ومضبوط) قائمة الإحصاء الآشوري، وتعطينا هذه الوثائق بعض التماسيل عن المزارعين المرتبطين ببعض الصيغ في مقاطعة حران، وهي تسمى الأشخاص ذوي العلاقة مع بيده عن عائلاتهم وهما يورد بمودجاً عن هذه الوثيقة

آدار-حوري، هلاح

نشوح ديليني ابنه في سس المراهقة

امراة واحدة- مجموع العائلة ثلاثة

ثلاثون وحدة من الأرض 10 منها محروثة

حد سقية واحدة

بقرة واحدة

وهذا مجمل العقار الزراعي ياريزوا

في المقاطعة الإدارية حران.

وإن الفرص الدقيق من هذه الوثائق يبقى مفتوحاً للمناقشة.

ولكن في حالة واحدة كانت هذه الوثائق عبارة عن نوع من التسجيلات التي
كان من المحتمل استعمالها في وسائل جمع الضرائب.

أما بالنسبة لأعراضا الخاصة فإن اهتمامنا كان بالتفاصيل التي تعطينا
فكرة عن بُنية السكان، وهذه تظهر أن القروي الآشوري كان يتزوج امرأة
واحدة (ولكن ليس بدون استثناءات) وتمطعها الإحصاءات ممداً وسطحياً لوجود
٢،١،٤ من الأطفال لكل عائلة

وكما هو الحال فإن هذا يعني أن العائلات كانت صغيرة جداً لا تكفي
للحفاظ على عدد السكان.

وعلى كل حال فإن المعدل الوسطي الحقيقي للأطفال ربما كان أكبر من
المتوقع

وهناك بعض الحالات تترك فيه البست المتزوجة بيتها لتميش مع زوجها
وهناك بعض الأبناء المتزوجين الذين تركوا بيتهم ليقيموا بيتاً جديدة
خاصة بهم، هناك بعض الأبناء البالغين الذين تركوا بيتهم للعاق بالخدمة
المسكينة أو خدمات في الدولة

وبعض الأبناء الذين يبقون في بيوتهم يدعون بالأبناء المراهقين والبنات باللواتي
وصلن إلى سن الزواج.

ومع أن هذا لا يتطلب من الأشخاص ذوي العلاقة أن لا يقيموا في سن الثالثة
عشرة أو الرابعة عشرة إنه من المعقول أن نترض أن السن الوسطي الذي كانت
البنات يتزوجن به أو السن الذي يترك به الشباب بيوتهم كان حوالي السادسة
عشرة.

ويمكننا الافتراض أيضاً أن المرأة الآشورية كانت قابلة لإنجاب الأطفال حتى
عمر يريد عن اثنتين وأربعين عاماً (أي. من سن ستة عشر حتى الأربعين) فإذا كان
إنجاب الأطفال يتم بشكل منتظم خلال تلك الفترة فإنه في الوقت الذي تبلغ به

الأربعين من العمر فإن ثلث أولادها سوف يصبحون في السادسة عشرة أو فوق ذلك مع إمكان أن يكونوا قد غادروا منازلهم، فإذا طال بها العمر حتى أصبحت في السادسة والخمسين من العمر فإن معظم أولادها سيكونون قد تركوا المنزل.

هذا وإن المعدل الوسطي (٤، ٣، ١) طفل لكل عائلة كما هو مذكور أعلاه ليس من الضروري أن يمثل أكثر من نصف المعدل الوسطي للأطفال الناقين على قيد الحياة، وهكذا فإن الأطفال الأحياء سوف يكون عددهم من طفلين إلى ثلاثة أطفال في كل عائلة، وهذا يكفي للحفاظ على عدد مناسب للسكان.

ولادة الأطفال وولياهم

علينا أن نتذكر أن الأطفال الذين ظلوا على قيد الحياة وحتى سن المراهقة ربما كانوا يؤلمون نسبة صغيرة من المواليد، فقد كانت وفيات الأطفال سوطاً مسلطاً على أهالي أرض ما بين النهرين القديمة، وذلك من مرهقتنا من المصوص السحرية التي يقصد منها الحماية ضد الشياطين الذين كانوا يهاجمون بني البشر بشراسة وهم على عتبة الحياة.

وتذكر المصوص عن طفل صغير مات قبل الأوان أو عن ابنة أنو (وهي شيطانية مؤبنة) التي كانت تمعد الأطفال، أو عن اعتقاد بسبب حدوث الغشعريرة لدى الصامع وهو أن ابنة أنو تظل سائرة خلف المعاء اللواتي هن على وشك الولادة وقد كانت العائلة المالكة فضلاً عن عامة الشعب تشمر بتلك الأيدي الباردة للموت التي ترحم على الأطفال وتسبب موتهم، وأن اسم أحد ملوك آشور المروهي وهو سحاريب (أوس-هي-أبدنيا) يعني - إن الإله من قد عوص عن الأخوة وهذا الكلام يشهد أن بعض الأمراء الصغار قد ماتوا وذهبوا إلى القبر وكانت العناية بالمرأة قبل الولادة قصية يتدخل فيها السحر، بما فيه الحجب والطقوس والتعاوين.

وبعد مثلاً ذكر بعض الحجارة التي تلبس حول الخصر لامرأة لا تلد بسهولة ولديها أيضاً نص يعالج المرأة التي تمر من أثناء الحمل

أولاً: كان يتم حلق عدد من العقاقير من مصدر نباتي فوق نار، وبعدها تخرج هذه بالزيت والبيرة، وكانت تتقع بعض الأنسجة الصوفية وتوضع في هرج المرأة لتسد عنق الرحم، وكان من الواجب عمل هذا مرتين يومياً، وقد ذكر عن عملية الدهن بالزيت والتصميد بشكل إجراءات مكتملة.

وفي حالة عدم فائدة هذا العلاج كانت خدمات المعبرة تستدعى، حيث ترور المرأة دار الموتى.

ويقدم النص تعاويذ لمساعدة المرأة سيئة الحظ، وبعض هذه التعاويذ كما يلي:

"المرأة التي ولادتها صعبة، واقعة في كرب عظيم، فالطفل قد علق وهي التي خلقت هذا الطفل يحيط بها غبار الموت، فقد خَبِتَ عيماها فهي لا تستطيع الرؤية، وشفتاها مطبقتان ولا تستطيع فتح شفتيها، وهي لا تضع أي حجاب، وهي لا تنجبل"

لوهنا تتكلم المرأة:

((قف يجانبي يا مردوخ الرحيم، والأل هل أنا محاطة بالكرب العظيم، تقدم إلي، وأنزل ذلك المخلوق المستعصي، خلعة الآلهة، يأتي كمخلوق بشري، دعه يبرل، دعه يرى النور)).

وبعد ذلك تأتي تلاوة أقوال حول ((خادمة الإله القمر، وهي زوجة الإله القمر تتمثل بشكل بقرة، ولادتها صعبة وعسيرة وظلت في كرب عظيم حتى نزلت من السماء ابنتا الإله (أبو) ليدهنوها بالزيت وماء آلام الولادة)).
وتنتهي التعميذة بالشكل التالي.

((وكما تيسرت ولادة خادمة الإله القمر، لذلك فلتيسر ولادة كل السيدات اللواتي هن على وشك الوضع)).

ولقد استعملت بعض العقاقير للمساعدة على الولادة، مثلاً لحاء بعض الأشجار التي كان على المرأة أن تملكه.

وكانت المرأة تدلّك المنطقة فوق المعدة بمرهم مؤلف من عدة مواد ، أو التدليك بواسطة وتد متحرك مصنوع من خشب سعري يمرّر فوق جسمها

وكانت القابلات يَحْصِرْنَ الولادة ، وكانت تلك القابلات تقدم بعض الميوّبات العملية والمشورات المتأبّدة عن حكمة وتجربة ، من خلال الحدود التي ترضها طبيعة الشبح السعري.

وكان الموت أثناء الولادة من الأخطار الحاصرة المتوقعة دوماً ، وهناك إشارات كثيرة لهذا الأمر ، وكان الخطر الذي تُشكّله (لاماتشو الرهيبة) تسمية أخرى لآفة (آمو) على الأم حائشاً بالنسبة للأم والطفل في عبارة يذكر ههما وهي ((إنها تلامس أحشاء المرأة التي سوف تلد))

وهناك اسم آخر يطلق على (لاماتشو) وهو ((الواحدة التي تشمل اليراس)) وتلك إشارة إلى رفع حرارة المرأة الذي يحدث في حالات مميتة حقيقية بسبب حمى النعاس.

وحتى عندما يصل الطفل سالماً إلى هذا العالم ربما يظل هذا الطفل معرضاً للخطر إذا فشلت الأم في إرضاعه.

وكان الأغنياء من الرجال يعمّسون عن ذلك بالالتجاء إلى مرصعة ، ولكن بالنسبة للطفل من عائلة فقيرة فليس هناك إلا الموت.

وهناك من يتكلم بدون رحمة عن جماع حليب الأم مما يسبب وفاة الطفل. وقبل وجود النفايات المويّة المسزولة عن الولادات المشوهة كان الأطفال يولدون وفيهم شذوذات مختلفة ، ونحن نعلم هذا بصورة خاصة نظراً لأن مثل هذه الولادات كانت تعتبر نذير شؤم ، وكانت تدوّن حالاً.

ونجد مثلاً ذكر طعل ولد بقدم واحدة أو توّاثم سيامية وحالات الحُثّ وفي حالات ولادية طبيعية ولكنها استثنائية نجد ولادة أربعة توّاثم.

ويوضع الطفل الحديث الولادة في سلة تستخدم ككمهد وحالما ينمو ترقى أمه أو الممرضة مقلّاعاً خاصاً بالطفل لتحمله حولها ، ويمكن أن نصيغ أنه وبالنسبة

لأشور كما هو الحال في الشرق الأدنى قديماً وحديثاً كانت ولادة الولد الذكر علامة خير وبركة ، وكانت عادة نبد المفل وتتركه ليموت هي المادة التي ذكرناها سابقاً كانت هذه النعمة من نصيب الإنث أكثر من الذكر.

الزواج

كان الرجل الآشوري يتزوج امرأة واحدة فقط ، مع أن هذا كان يحدث لفترات مختلفة وبالنسبة لمئات اجتماعية مختلفة وهو ذلك بقدر اهتماماتها بالموسوع ولاسيما الرجال لم يكن رواج الواحدة يمي رقابه العلاقة الجنسية إذ إن هذا له علاقة بالوصع القانوني أكثر منه التحديد الجنسي.

ولم يكن هناك ما يمنع الرجل من الاقتران بـروجة ثانية أو حليلة بالإضافة إلى السهدة التي اختارها كـروجة شرعية سوى حالته الصحية ومقدرته الجنسية ولكن كان هناك استثناءات حتى في هذه المسألة وذلك لأنها وابتداء من الفترة الآشورية القديمة (التي تبدأ من الألف الثاني) مقابل عقود الزواج يمنع فيها الرجل من الاقتران بـروجة ثانية مع أن له الحق باستخدام الماهرات. وفي بعض الأحيان كان عقد الزواج يقضي أنه في حالة عدم إيجاب الأم لأي طفل عندها يمكن للزوج أن يقتن بـأمة بقصد ذلك العرس ويعتبر الأطلال في هذه الحالة أبناء الروجة

كانت العائلة أبوية بالنسبة لكل المظاهر القانونية والاجتماعية ، وكانت حالات النسب والوراثة محتصة بالأب ، وكان الابن الذكر في العائلة هو صاحب السلطة ، وكان مدى السلطة الأبوية واسماً لدرجة أن الزوج يستطيع في بعض الظروف إعدام زوجته بينما يستطيع أبو الزوج (الحمو) الزواج من كنفته الأرملة ، وكان هذا طبقاً للمبدأ الذي يقول إن المرأة تظل تحت سلطة الذكر رئيس العائلة

وبالنسبة للزواج فهي تخضع لسلطة حماتها (أي: والد زوجها) بدلاً من سلطة والدها

كان للزواج بصفته عملاً شرعياً بعض المتطلبات، فالنسبة للزواج العادي الطبيعي ينبغي كتابة وثائق خاصة، إما عند رفع الخيلة إلى مرتبة الزوجة وإما أنه يتطلب منها أن تلبس الحجاب رسمياً، ولا يمكن الاعتراف بالزواج من أرملة إلا بعد انقضاء سنتين على موتهما معاً.

إن العلاقة ما بين الزوج وزوجته كانت مختلفة فكما هو الحال في العالم الحاضر.

فهي إحدى الحالات نسمع عن الحب والعشق في سن الشبوحه، ومن جهة أخرى نسمع عن الخصام بين الزوج وزوجته الذي يؤدي في حالة تماقمه إلى خروج الزوجة من المنزل.

وكما ذكرنا سابقاً، يمكن للرجل أن يرفع مقام خليلته إلى مقام الزوجة، وتذكر فواتين الفترة الأزوية الوسطى كيف كان يجري ذلك بالتفصيل. فإذا لبس الرجل الحجاب لخليلته فإنه يكلف خمسة أو ستة من جيرانه بالقدوم ولبسها الحجاب أمامهم، ويعلن أن هذه زوجتي وتصبح عند ذلك زوجته. إن الإشارة إلى الحجاب يظهر في سياق القانون الذي سبق هذا القانون الذي يحدد بالتفصيل أي النساء ينبغي أن يتحجبن والتي لا يجب أن يعلن ذلك.

كان الحجاب من أشرف الأوصاف، فمن جهة ينبغي أن تلبسه المرأة المتروجة علناً أمام الجمهور، بينما كانت الماهرات ممنوعات منعاً باتاً من الحجاب، فإذا اكتشفت أن إحدى الماهرات كانت تسير وهي محتجبة فإنها تمرض لمقويات شديدة بما فيه خمسين جلدة بالعصا وصب القطران على رأسها. كان الشكّل الرسمي للزواج هو أن تترك المرأة العائلة التي ولدت ضمنها وتدخل بيت الزوج.

ومع ذلك يظن بعض الباحثين أنه وفي أثناء الفترة الآشورية الوسطى كان هناك إمكانيات أخرى نظراً لأن القوانين الآشورية تقدم شروطاً لبقاء الزوجة في بيت أبيها.

فالقانون السائد ينص أنه إن كانت المرأة تعيش في بيت والدها مع تردد الزوج لزيارتها من حين لآخر.

وبعدها يتم ذكر التشريع بالنسبة للعقوق في الأملاك التي وهبها الرجل لزوجته.

ومن الواضح وطبقاً لقوانين أخرى أنه إذا بقيت الزوجة في بيت والدها فإن ذلك يكون بشكل مؤقت، وأن السلطة النهائية على المرأة نفسها وعلى الأموال والأموال التي أتت منها تكون بالتعديد في العائلة التي تزوجت منها وليس في عائلة أبيها.

لقد ظل بعض الناس أن الوصع هنا حين تبقى الزوجة في منزل والدها إنما هو حالة زواج البنات الصغار القاصرات، وقد كان هذا موجوداً بلا شك نظراً لأن القوانين الآشورية قد نصت على زواج الصبيان اعتباراً من سن العاشرة.

ويمكن للإنسلي الافتراض أنه وبالنسبة لزواج القاصرات كانت الزوجة القاصرة تستمر بالمعيش مع والدها حتى تصبح في سن تكتمل فيه قدرتها على تحمل الوضع الزوجي، وعندها تذهب إلى بيت زوجها

ولكن حتى ولو حدث هذا أحياناً فليس لدينا ما يشير أن الزواج من القاصرات كان الحالة الوحيدة التي تطرق إليها القانون.

وإن أبسط تفسير هو إن القانون كان مؤسماً على التمييز ما بين مرحلتين مختلفتين في عملية الزواج.

ففي آشور كما هو الحال في المجتمعات الأخرى كانت الرسميات القانونية للزواج (وهو عمل عقد الزواج) يمكن أن تنفصل خلال فترة زمنية عن فترة المقارنة القانونية

إذ إن القانون الذي يميز للزوج زيارة زوجته في منزل والدها إنما يشير إلى وضع يحمل المرأة تتأخر في العودة إلى منزل زوجها مع أن عقد الزواج قد تم في منزل والدها، وهكذا فإن رواج القاصر ربما دلّ على حالة معقدة خاصة. ولا شيء في هذا الوضع يمنع الزوجة في أي وقت كان العودة إلى منزل زوجها بطريقة عادية.

كان هناك عدة هدايا ومدفوعات محتملة متصلة بالزواج، فهي وقت الزواج كان الزوج يقدم المجوهرات للعروس، مع أن هذه الهدايا لا تصبح في ملكيتها الخاصة وإنما تبقى ملكاً لزوجها، وفي حالة وفاته فإنها تنتقل للورثة، وإذا لم يكن له ورثة فإن الروجة تحتفظ بها.

وما دام هناك أولاد فإن الروجة لا تعتبر وريثة للزوج، ومن الممكن أن يخصص شيئاً من أملاكه لتنفقها الزوجة في حالة وفاة الزوج وصيرورتها أرملة، مع أن هذه الأملاك جزء من أملاكه مادام على قيد الحياة.

ويُقدّم مبلغ آخر لوالد العروس ولكنه ينهي إرجاع هذا المبلغ في حالة وفاة الزوجة دون مولود ذكر.

وينتجح بعض الحقوقيين والمحتصين بالعلوم الإنسانية على اعتبار هذا المبلغ مهراً، ولكن بالحقيقة أنه ليس كذلك، ومن الممكن أن تجلب الروجة بعض الممتلكات مساهمة في عملية الزواج كنوع من المهر.

ومن نجد أحد عقود الزواج في القرن السابع يحدّد المهر الذي خصصته إحدى الموظفات الكبيرات في القصر لابنتها.

فقد كان هذا المهر يشتمل على مجوهرات وملابس وأسرة وكراسي وعدة أواب ومقاليات وأدوات منزلية، ولقد بقي هذا المهر ملكاً للروجة، وبعد ذلك تحول إلى الأطفال وليس لورثة الزوج الذين من الممكن أن يكونوا إخوته.

ولكن مع أن الملكية بقيت مغولة للزوجة إلا أنه يبدو أنه لم يكن لها الحق بالتصرف به مادام زوجها على قيد الحياة.

من الواضح أن العائلة الآشورية كانت ذكورية في توجيهاها ، فلقد كانت النساء تحت سلطة الرجال ، وطبقاً لقوانين العهد الآشوري المتوسط فقد كان للزوج الحق في إيقاع العقوبات البدنية على زوجته حتى التشويه الجسدي . ولكن وصف مثل هذه الأعمال البربرية في القوانين إنما لا يتمثل معياراً دارجاً بل يشير إلى الحدود التي لا ينبغي للزوج تجاوزها ، فقد كان على الأقل مموعاً من قتل زوجته ما عدا في حالة الرما الثابت ، وهناك حق من حقوق الزوج على زوجته وهو أنه يستطيع بيع الزوجة مع أنه مما لم يكن شائعاً ، إذ ليس لدينا إلا وثيقة واحدة تذكر مثل هذا الموضوع .

يبدو أنه كان هناك بعض المراسيم التقليدية التي كانت تحدث ما بين زمن عقد الزواج وبين ليلة الزفاف .

وهناك قانونان يشيران إلى حبس الزوج الزيت على رأس عروسه ، ومع عدم وجود تفاصيل حول هذا الموضوع فإن هذه المادة إنما تنتمي إلى ممارسات المسح بالزيت التي كانت كثيرة الشيوع في الشرق الأدنى القديم ، ولطالما ذكرت في التوراة

ولما كان القانونان المذكوران يتطرقان لشكر جلب العريس أطباقاً من الطعام للوليمة ، فمن الواضح أنه كان هناك حملة لعرس الزواج .

كانت القوانين الخاصة بالحمص صرامة بالمسبة للزوجات ، إذا لم يستطيع الرجل المتزوج أن يبرئ عقوبة الموت بزوجته الزانية ما لم تنجح في إقناع زوجها أنها اعصبت .

وكان للأرامل حرية أوسع ، وقد صور لنا أحد القوانين إحدى الأرامل التي تعيش مع رجل دون وجود عقد زواج ، وإذا استمر هذا الوصف مدة سنتين فإن الأرملة تصبح زوجه رسمية يحميها القانون على الرغم من عدم وجود عقد زواج . ويمكن للرجل أن يطلق زوجته ، وفي بعض الأماكن وبعض الأوقات كان الطلاق يتم بأن يبرق الزوج حاشية ثوب المرأة أمام شهود رسميين .

وإن بابل ينكرون وجوب دفع أموال لقاء الطلاق، ولكن في آشور لم يكن يطلب من الرجل أن يقدم لزوجته السابقة أي تعويض مع أنها تحتفظ بالهدايا التي قدمها الزوج في زمن الزواج، وليس للزوجة أي حق بطلب الطلاق بناء على رغبتها، والحقيقة أنه في بعض الأماكن وبعض الأزمنة في منطقة ما بين النهرين إذا حدث وتجرأت على التعبير عن مثل هذه الرغبة فإنها تلزم على الخروج من بيت زوجها عارية ومفلسة.

لكن لم تكن المسائل دوماً وفي كل مكان إلى هذا الحد ضد الزوجة وفي منطقة نوزي في آشور (وهي قرب كركوك) وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد نجد امرأة قد تم تبنيها كإبنة ثم تزوجها إلى أحد المبيد وكانت تقول حليموي من منوبيا (وهو زوجها) وقد موي لأرتيا كزوجة. وعلى المموم وفي آشور إذا حدث وأن غادر الزوج المنزل دون إعطاء الزوجة أي نفقة ودون وجود أولاد يملونها فإنه وبعد خمس سنوات يجوز لها أن تتزوج زوجاً آخر.

وفي الحالات العادية لا يستطيع الزوج الأول المطالبة بالزوجة إذا حدث وعاد ولقد كان هناك بعض الاستثناءات، وإذا لو كان غياب الزوج على الرغم من إرادته مثلاً وقوعه في الأسر، عندها يستطيع استعادة زوجته حتى بعد مضي خمس سنوات على غيابه شريطة أن يقدم للزوج الثاني زوجة بدلاً عن زوجته ولكن إذا كان سبب غيابه خدمة الملك لا يجوز للزوجة أن تتزوج رجلاً غيره حتى ولو بعد مرور خمس سنوات.

ربما يجب المرء كيف تستطيع المرأة دون وجود معيل مدة خمس سنوات أن تُنْجَر نفسها.

أو من الممكن أن تعود لبيت أبيها أو لبيت أحد أخوة زوجها مع أن القانون لا ينكر شيئاً عن مثل هذه الأحوال.

ولكن ما يقوله القانون واضح جداً إذا يقول

((إذا صادف أن ذهبت المرأة وعاشت مع رجل آخر قبل انفصاء خمس سنوات على غياب زوجها وأنجبت أطفالاً فإن لزوجها الحق لدى رجوعه ونظراً لأنها لم تنتظره طبقاً لمقد الزواج بل تزوجت فإن لزوجها الأول الحق أن يستعيدهما ويأخذ الأولاد.))

وبهذا يعطي القانون انطباعاً وهو أنه مع أن الزوجة قد تمهرت تصرفاً غير مناسب فإن الوضع سوف يكون مقبولاً دون إنزال أي عقوبة عليها.

وهذا اعتراف أنه وفي بعض الظروف تضطر المرأة إما أن تتخذ زوجاً آخر أو أن تموت جوعاً.

ومن الممتع أن الأطمال الذين ولدوا من خلال المرأة غير الشرعية، ومع أنهم أولاد غير شرعيين إلا أنهم يعتبرون ملكية ذات قيمة ويمكن للزوج الأول أن يطالب بهم.

ومن الممتع أيضاً أن الآشوريين لم يقيموا أي اعتبار للعذرية بينما راد اليهود والإسلام والمسيحيون من اعتبارها بشكل كبير

الحياة الجنسية

نعلم القليل عن الجانيب الجنسي في الحياة في أرض ما بين النهرين القديمة مع أن جزءاً قليلاً من شواهدنا إنما هي متصلة بصورة خاصة بأشور أكثر منها بابل.

يوصف الاتصال الجنسي في عدد من الأختام الأسطوانية والألواح الفخارية التي تظهر أن العملية الجنسية كانت تمارس بأوضاع مختلفة، فضلاً عن أن مواجهة الوجه للوجه يُعد الوضع الطبيعي في المجتمع العربي الحديث (مع أن ذلك غير معتبر في أجزاء أخرى من العالم) وهناك بعض الصور التي يظهر فيه الرجل وهو يجامع المرأة من الخلف.

ويُفسّر بعض الباحثين في تاريخ آشور أن هذه الممارسه كانت من الشرع، ويضربونها بأنها نوع من اللواط، ولكن وعلى الأقل فإن الشخص المستلم هو امرأة، ويشبه هذا الوضع ممارسة الاتصال بالفرج من الخلف.

ومن جهة أخرى فإننا نعلم بالتأكيد أن بعض الرجال من منطقة ما بين
النهرين كانوا يمارسون الاتصال الشرجي مع المرأة من الخلف، ونحن نعلم ذلك
من مجموعة من الرقعات تشير واحدة منها إلى وضع يستمر الرجل فيه القول
لزوجته ((أهلي إلى الخلف))

ولا نعلم فيما إذا كان هذا العمل ما بين الرجل والمرأة هو شكل من أشكال
مخ الحبل، أم هو مجرد عمل نوع من التمييز وهذا ما علينا أن نحزرم
ولكن هناك إشارة واضحة إلى كاهنة ذات مرتبة عالية فكانت تمارس
الاتصال الجنسي من الشرج وذلك ممعاً للحبل.

وهناك وضع آخر مذكور يصور الرجل مستلقياً على ظهره بينما المرأة فوقه
من الأعلى، وعدا عن ككون هذا تبادلاً للأدوار فإنه ربما كان تلميهاً لإحدى
النصوص التي تذكر

إن رجلاً عمورياً كان يقول لزوجته

((أنت ستكونين الرجل ولذلك دعيني أمثل دور المرأة))

ومع ذلك فقد كان تبادل الأدوار ممروفاً في نابل وربما في آشور

وفي بعض الأحيان كان بعض الناس يمارسون الجنس وهم وقوف، وهناك
إشارات إلى اللعب بالجنس يشجع الرجل فيه زوجته أن تداعب قضيبه حينما تطلب
المرأة من الرجل أن يداعب هرجها

وإن نقبيل ومداخلة القضيب مذكور في النصوص، وقد صور هذا الوضع
الأخير

وهكذا نجد دكراً لبعض النساء وهن يمارسن العادة السرية وهن يتبادلن
المنظرات مع الرجل.

وكان شكل من الرجل والمرأة على السواء يلجؤون إلى دهس أعصائهم الجنسية
بقصد تسهيل الجماع والإدخال.

وكان منع الحمل ساري المفعول أيضاً أحياناً ، لأننا نجد خصوصاً تشير مثلاً إلى (التاديتو) وهن جماعة من خادمت الممابد ، يحافظن بطرق بارعة على عدم دخول المواد القوية إلى أرحامهن.

ولكن لا نعرف ما هي تلك الطرق البارعة في مثل هذه الحالة ، وفي حالات أخرى نجد بعض المعلومات الخاصة حول وجود سدادات توسع داخل الفرج لهذا الغرض ، وكانت الرقي والأعشاب تستخدم للغرض ذاته.

وعندما كانت نماء الساديتو وغيرهن من خادمت الممابد يمارسن الجنس بشكل فوضوي كانت محاولتهن لمنع الحمل تبوء بالفشل ، لأن هنالك ذكر لولادة أطفال لهن إبادا ولد أطفال غير مرغوب بهم (ليس فقط بالنسبة لنساء الممابد) فإن هؤلاء الأطفال كانوا يلقون في الشارع ليموتوا أو لتأكلهم الكلاب.

ولكن كانت مثل هذه القصة تحدث ضمن النوايا الحسنة ، وقد ذكر عن شخص يختطف طفلاً من ثم أحد الكلاب في الشارع.

وأما الشدوذ الحسي واللواط بين الرجال فقد ذكر عن وجوده في منطقة ما بين النهرين ابتداءً من الألف الثالث قسباً ، مع أن بعض اللوحات والأهتام التي فسرت بأنها تصف القيام بهذا العمل إنما هي صور حالات من الاتصال الجنسي (وهو من الفرج وليس الشرج) مع امرأة من الخلف.

وهناك مصوص تشير إلى علاقات لواطية بما فيها اللواط بين رجل ورجل ، أو بين رجل وصبي.

وأما في مايل فيظهر أنه لم يكن هناك أي إدانة لهذا العمل.

وأما في آشور وفي الفترة الآشورية الوسطى كانت مثل هذه الأعمال وفي بعض الظروف تعامل بقسوة بالغة

ومن الممكن أنه وفي هذا السياق كانت هناك هروق بين بابل وآشور في المواقف.

ففي آشور: كانت القوانين تنص أنه إذا وجد شخص يمارس اللواط مع شخص آخر فإنه أولاً: تمارس اللواط على هذا الشخص، ثم يتمرّص هذا الشخص للإحصاء.

وليس من الواضح فيما إذا كان هذا القانون يعالج اللواط بالنسبة لجميع الحالات المكتشفة أم أن الإشارة كانت بالنسبة إلى الاعتصاب الجنسي اللواطى. وبالنظر إلى المبدأ القديم الذي يجعل العقوبة مناسبة للجُرم وأن الجاني كان يتمرّص بنفسه إلى الاعتصاب الجنسي فإن الوضع الأخير كان هو السائد.

كان الخصي ظاهرة مألوقة، ولكن وجود الرجل الذي تعرّص للإحصاء كمعقوبة كان قهلاً الوقوع، إذ الممل الشائع كان إحصاء الصبيان، إذ إن عمل الخصيان العملي هو الخدمة في البلاط الملكي.

وقد أصبح كثير من الخصيان موظفين مسؤولين كبار، وقد استمر هذا الوضع في الإمبراطورية التركية والفارسية حتى القرن التاسع عشر بعد الميلاد. ولكن لم يكن جميع رجال البلاط الآشوري خصياناً، وكانت هذه الحالة تؤكد تسمية بعض رجال البلاط بـ (شاحقني) بمعنى (أبو لحية) وهذا يكون غير مخصص.

وتسمية أخرى باسم: (شاريش) وهو المخصص.

وكان هناك في آشور شأن البلدان الأخرى قسم صغير من الذكور الذين لم تتطور وظائفهم الجنسية، وأصبحوا خصياناً طبيعيين وكان هذا سبباً لوجود شكل من الدعارة الذكورية.

ولقد اعترف أهالي منطقة ما بين النهرين أن للجنس عنصره من الدين، فقد كان هناك دعاة ديمية (ذكورية، وأنثوية، وحثوية) مرتبطة ببعض المعابد التي كان يجري فيها بعض الممارسات الجنسية، وكانت تشمل اللواط في بابل.

وكانت الإشارة إلى النشاطات الجنسية في المعابد في آشور أقل منها في بابل، ولكن هناك شواهد كافية عن وجودها في آشور، مع أن الداعرين الذكور كانوا من الخصيان، إلا أن هذا لم يكن هو الواقع دائماً

فقد كانت (الداعرات) من النساء موجودات في منطقة ما بين النهرين بشكل طبيعي عادي، وذلك لوجود عادة المسحاق (ذكر عنها في حالة واحدة فحسب) وهذا يتعارض مع كثير من الإشارات إلى بعض الزوجات اللواتي يُغذّن العشاق، وهذا قد كان ينتج الشر لجميع الأطراف إلا أنه كان ذا جاذبية خاصة فإذا استلطاع الروح أن يقيم على العاشقين بالجرم المشهود فإن له الحق (بعد الاتهامات الواحدة والبراهين) أن يقتل الزوجة وعشيقها، أو أن يقطع أنف زوجته ويحصي العاشق، وكان ينبغي معاملة كلا الطرفين معاملة متماثلة، إذ إن ترك الزوجة دون عقاب كان يعني إطلاق سراح العاشق أيضاً

ويعتبر الزوج لا حطر إذا اتحدت زوجته عاشقاً لأننا قد وجدنا إشارة إلى امرأة قد شجعت عاشقها على قتل زوجها، وذلك لكي تستطيع الزواج من حبيبها

ويذكر الاعتداء الجنسي على الأقارب، ويذكر السفاح، مثلاً اتصال الرجل بأخته جنسياً، أو بابنة أخيه، أو ابنته، أو كخته، أو والدته وذلك بعد وفاة والده.

وربما لم يكن من العدل أن نعزو هذه الصمة الأخيرة للأشوريين لأن شواهدنا على هذه البشاعة قد أتت من بلاد بابل وذلك من قوانين حمورابي في أوائل الألف الثاني، ولقد اعترف بهذا العمل جريمة بكراء وكانت عقوبتها حرق الأم وابنها

وكما كان الحال في المصور والاماسكن الأخرى كان بعض الناس يقومون في الحب وكانت قلوبهم تتأكل إذا رُفصوا.

ولدينا أمثلة على وقوع الحكاية الشديدة من هذه الأسباب، وفي بعض الأحيان كان الرجل والمرأة يصليان للآلهة أو يلجآن إلى رهي مسخرة للحصول على حب المحبوب.

كانت بعض الطقوس السحرية مضمونة، مثلاً أن يعصها يدعي أن الرجل إذا قام بإتمامها فإن المرأة سوف تنكح مع عد مقابلته لها، وسوف تصبح هافدة الإرادة فلا تستطيع المقاومة، ومن الحكمة للرجل أن يمارس الجنس معها.

فيذا حدثت الخصومات بين العاشقين فكانت المرأة المحرومة تلجأ إلى رقى وتعاويد، ولها كنا نجد بعض الوصفات بالنعيم للسيدة التي تصادف مثل هذه الأحوال، وتقول الوصفة:

((إنه ولوجود هذا السحر فإن المرأة سوف لا تقام وحيدة، بل إنها سوف تكون محبوبه))

ولكن كان للرجال مشكلات أخرى في هذا السياق وببها ظهور الشيب، والمجر الجنسي، والقذف السريع، وقد كان شيب الشعر يعالج بالسائل المستعمل للصباغ والتماويد.

وكان هناك سلسلة من الطقوس ومستحصرات طبية محتمة بما هيها المراهم والمبشطات فكانت متوفرة لمعالجة المجر الجنسي، ولكن وبينما هناك إشارات إلى القذف المبكر إلا أنه لم تتوفر أي علاجات لهذه القضية، ومن المعتقد أنه قد تم قبول هذا الوضع بعينه شيئاً سوف يعالجه الرمي والممارسة

التعليم

إن معرفتنا عن التعليم في بلاد ما بين النهرين القديمة متقطعة، فلقد علمنا عن تعليم الكتبة وذلك لسبب واضح وهو - إلى الكتبة هم الذين كانوا يؤمنون النصوص، وكان هذا هو النوع من التعليم الذي يهتمهم.

وحتى في هذا الصدد فإن جميع شواهدنا المفصلة تأتي من بابل في أوائل الألف الثاني إذ إن الوضع في آشور في فترة متأخرة ككل مختلفاً

نعود المعلومات المفصلة بالنسبة للتعليم في الألف الأول إلى الأسرة الملكية، ويروي آشور بانبيال في القرن السابع كيف أنه درس حكمة نابو وأتقن فن النسخ تماماً، معرفة جميع الخبراء وتعلم فن الرمي بالقوس وركوب الخيل والمربات

والإمساك برمام الخيول وفي مكان آخر يصل لنا كيف تعلم القراءة والكتابة بقوله

((لقد قرأت نصوصاً معقداً، كانت النسخ السومرية غامضة والنسخ الأكادية من الصعب فهمها، ولقد بحثت في الكتابة المسمارية على الحجارة من فترة ما قبل الطوفان.)) ولكن لم يكن هذا أمراً شائعاً، فلقد كان تعلم القراءة والكتابة باللغة المسمارية محصوراً بالكتابة حسب، وكذلك الإداريين.

مع أنه اعتباراً من أواخر القرن الثامن كانت اللغة الآرامية تسير بخطوات سريعة في آشور مع وجود الكتابة بالحروف الأبجدية المرتبطة بها، وكانت هذه الأبجدية أسهل من المسمارية، وأصبحت واسعة الاستعمال.

وأما بالنسبة لتدريب الكتابة فقد كان هناك مدارس، إذ نجد مثلاً مجموعة تدعى (كتابة كالكيري) (وهي بلدة في شرق آشور) وهنا يشير إلى طلابهم الذين كانوا يتعلمون مهنة النسخ، ولكن ليس لدينا أي شواهد لوجود مدارس لتعليم مجالات أخرى من المعرفة.

وكان نظام الوراثة سائداً في المجتمع الآشوري وكان الابن يتعلم مهنة الأب أو تجارته وذلك بمراقبته ومساعدته حالما يستطيع المشي، وكان يتقن هذه المهنة بمرور الزمن وإن من الممكن التلمذ لدى أحد المهنيين وكان من الممكن العثور على عقود التلمذة بحيث تكون الواجبات ملقاة على الطرفين.

الملك والبلاد

أنا الدولة كانت هذه الكلمة وبكل معنى الكلمة من الممكن أن توسع صمن أقوال أي ملك آشوري حديث. فقد كانت كل مظاهر الحياة الدولية والسياسية والعسكرية والدينية مرتبطة بالملك وكانت سلطة الملك مطلقة نظرياً مع أنها وبصورة عملية كانت هذه السلطة محاطة خلال حدود صارمة بعمليات المحرمات (التابو) التي كانت تحيط بمركز الملك الرفيع المقام.

وإذا قارنا الأوضاع بوصف الملك الآشوري فإننا نجد أن ملوك إسرائيل ويهودا المنحدرين من نسل داود إنما كانوا قديمين جداً ومفتصبين للسلطة، فقد كانت هناك سلسلة طويلة من الملوك تحتوي على ما يريد عن تسمين ملكاً حفظت أسماؤهم لنا بشكل سلسلة مستمرة غير منقطعة وقد حكم هؤلاء في آشور قبل أكثر من ألف عام من الزمن الذي أسس فيه داود أسرته.

وكما ذكرنا سابقاً فمع أننا شأنا شأن الآشوريين أنفسهم، نعتبر الحكام الآشوريين ملوكاً، وحتى القرن الرابع عشر كان الحاكم الآشوري يلبس تاجاً شمسي أداد الأول الذي لم يطلق على نفسه ذلك اللقب الذي نترجمه باسم الملك ويدلاً من ذلك كان يطلق على نفسه اسماً معناه (وصكيل الإله آشور) مما يعكس مركزه كتمثيل للإله على الأرض.

ولكن الحاكم الآشوري لم يكن إلهاً بالمعنى الكامل بل كان هو مثل الإله، وقد وجدنا كتابة رسمية موجهة للملك تذكر هذا في كلمات متعددة مثلاً ((إنه والد الملك سيدي كان صورة للإله بعل، وإن الملك سيدي هو صورة لبعل أيضاً)).

وكان الملوك أيضاً يسمون ((شمس الشعب الإلهية))

ومن الممكن أن ندعو هؤلاء الحكام ملوكاً كهنة نظراً لأنهم وفي داخل مدينة آشور اعتمدوا وارثي السلطتين الدينية والمدنية، وعندما بنت دولة آشور المدنية سلطانها لتصبح ما ندعوه دولة آشور الحديثة صدها امتدت سلطة حاكم آشور معها فوق المدن الأخرى القديمة مثل (أرابخا وأرييل ونيوى) وأراضهم. ولكن وإلى النهاية وحتى بعد أن انتقلت العاصمة إلى مكان آخر حافظ ملوك آشور على علاقة وصلة دينية خاصة بمدينة آشور.

ولقد عاش الملك في بناء يدعى أكاديان (أيكالو) وهو يعني حرقياً (البيت الكبير) ولما كان هذا البناء هو مكان إقامة الملك فإن هذا الاسم يدعى

بالقصر ، ولكن تستعمل نفس الكلمة للدلالة على الأبنية الادارية وهي بعيدة عن العاصمة ، وقد كان يمثل أيضاً مقر الحكومة والدولة فقد كان القصر الملكي أكبر من مقر الملك بل كان هو مركز الحكومة والدولة الرئيسي.

ويهدد الصفة فقد كان لا ينسج للمقر الملكي للملك فحسب بل وما يتهمه من اماكن وضع الموز لامتصاص ضيوف الدولة من الطباخين والحيالزين وصانعي البيرة ، وكذلك هيئة كبرى من موظفي الدولة والإداريين المدنيين وضباط الجيش فضلاً عن السمراء الأجانب والأمراء القادسين من الدول الموالية والمحكومة الذين حملوا في البلاد كرهائن ولكي يتعلموا في أشور المادات الآشورية.

وهناك أشخاص آخرون يعيشون ضمن القصر الملكي وهم الكتبة الذين يتقنون عدة لغات وهن الكتابة ، وكذلك موظفو جمع الضرائب والمترجمون والأطباء والموسيقيون ورجال الدين والمهرة وكذلك طبقات عديدة من الكتبة ورجال الدين.

وكان هناك أيضاً الخزانة الملكية بما فيها من الموظفين وكانت إعمال جميع هذه العنات واجباً ثقيلاً تتم تليته من الإمدادات التي يرسلها المسؤولون في المناطق ، ويمس الثمرات كان هناك أسود ملحقة بالبلاط تطعم بوجبات منتظمة من الأغنام.

وفي داخل البلاط الملكي كان هناك عدة بلاطات ثانوية مثلاً بلاط والده الملكة ، أو ولي العهد مع ما يتبعها من الموظفين مع أنه في إحدى الأزمنة كان نولي العهد قصر مختص به يدعى. (دار ولاية العهد))

وربما كان للحاكم المحلي قصر في العاصمة ممصل عن القصر الملكي. ولم تكن مقابلة الملك متوفرة لجميع الشعب في البلاط ، وذلك لأن هذا الشخص شبه الإله معمر من عدد كبير من المسموعات (تأبو) ولم يكن مسموحاً بمقابلته إلا لموظف واحد فقط ، وهو ناظر القصر الذي يحق له وحده الاتصال بالملك.

ولا يصح لولي العهد الاتصال بالملك إلا عندما تسمح المؤثرات الفلكية بذلك
وتتكون هذه المؤثرات الفلكية مناسبة.

ومع ذلك فقد كان هناك مناسبات يستطيع بها رجال البلاط الآخرون
الاتصال بالملك مثلاً عندما يوصل أحد المراسلين للملك خبراً مفاده أن أحد رجال
البلاط قد قبل هدية من شخص طالباً منه أن يكلم الملك بالنيابة عنه.

وقد كان هناك أي شخص يأتي من الخارج ويسمح له بمقابلة الملك يفعل ذلك
وهو مصوب العينين، وهذا وإن إمكان الاقتراب من الملك ومقابلته عندما تكون
الظروف مواتية وأن يبقى الملك منعزلاً عندما تكون الظروف غير مواتية، هذا
الوضع سبب زيادة نفوذ الخبراء الذين يمسرون الظروف العلنية.

وقد كانت هناك مناسبات يظهر فيها جميع الموظفين الكبار أمام الملك
لتأدية فروص الطاعة، وكان ذلك أمراً مكلفاً بالنسبة إلى الأشخاص المعنيين
بالأمر لأنه كان من المنتظر أن يقدم هؤلاء هدايا ذات قيمة، وتتصح قيمة سلم
هذه الهدايا من الموظفين الكبار إلى صاحب الجلالة وذلك من قيمة الذهب التي
أرسلها أحد الحكام إلى ولي العهد بما قيمته رطل من الذهب، بما يعادل حسب
أسعار أوائل الثمانينات من هذا القرن (١٩٨٠م) مقدار (٢٠٠٠) جنيه إسترليني.

ولقد تكررت المنوعات التي كان يحضر لها الملك وذلك إما لتلبية متطلبات
الطقوس الدينية أو كحماية للملك من أي حوادث تحدث في يوم من الأيام من
حوادث سوء الطالع.

وكان بعضها يشمل الإهانات أو الإزعاجات وهكذا وفي مناسبات عديدة
نجد أن على الملك الآشوري أن يقوم بالصيام مدة عدة أيام حتى ظهور القمر من
جديد، أو أن يمتنع عن تناول الطعام الملبوح أو أن يلبس ملابس إحدى المربيات، أو
أن يبقى محبوساً في داخل القصر أو أن يلبس ثوباً أبيض لمدة عدة أيام، أو أن
يجلس لمدة أسبوع في كوخ من القصب ويعامل كما أنه لو كان مريضاً.

وكانت العلائم الفلكية تستطيع توقيف جميع أعمال الدولة، مثلاً المعاهدات
التي ينبغي تصديقها عن طريق أداء القسم أمام الآلهة يمكن لهذه الإجراءات أن

تتم صمن أيام معينة، وذلك لأن أداء القسم في أيام غير مواتية ربما يسبب نتائج وحيمة

وإن أغرب تلك المنوعات وأطرفها ذلك الذي كان يأمر في حالات تظهر فيها علائم خطيرة أن يتنازل الملك عن السلطة مؤقتاً ويسلم العرش إلى شخص بديل، وأن يتزوج هذا البديل عروساً ويحكم مدة مائة يوم ويستعد لجميع الشرور التي كانت تهدد الملك، وهكذا يقف الملك الدولة من إحدى الحكايات.

وفي نهاية الأيام المائة يعدم الملك البديل وعروسه ويدفنان باحتفال كبير ويمود الملك إلى عرشه بأمان.

وكان أحد الملوك الجدد ولاسيما (اسرحدون) كانت تتنابه الكوابيس والحراصات حول سوء الطالع، وكان الحبراء في قصايا سوء الطالع يتلاعبون كالأطفال بالملك، إذ يجد الملك مثلاً - قلقاً لأن حيواناً يدعى النمى قد جرى تحت عريته إذ إنه كان يعرف سوء الطالع الذي حدث عندما مد النمى يده بين رجله، وهل هذا ينطبق على الوضع إذا كان هذا الرجل راحياً عريته؟ والحقيقة هذا ينطبق.

وفي حالة أخرى نرى الملك (اسرحدون) حائفاً جزعاً وذلك عند حدوث هزة أرضية ولم يكن حائفاً من الحادث نفسه بل من الشرور التي كان يتنبأ بها الحادث.

فقد كان أحد الكهنة يقول له:

((إن الذي صبح الهرة الأرضية قد صبح أيضاً الطفوس المضادة للحيلولة دون وقوع الشر الذي تقدر به الهرة.))

وقد كان اسرحدون يعبر عن قلقه ومخاوفه مما جعل من الضروري مواساته ولاسيما حول الخصوف والكسوف.

وفي حالة أخرى حاول أن يكتشفها من بعض الكتب ما كانت بعض مدر
الشعر من ولادة معينة تذره. بينما يحاول أحد الكهنة أن لا يشقه على اتناح
هو صي الأشعاع من الهواء المتدخلين في شؤون الغير

وقد قال الكاهن ((إن ذلك الكتاب كان صعب المهم جداً، ولا يستطيع أي
إنسان لم يدرس هذا الكتاب دراسة مفصلة أن يفهمه، وإن هذا الكاهن سوف
يمسّر للملك شخصياً عند مقابله.))

(وهذا شاهد عن سهولة وصول الكهنة إلى الملك)

كان مسكن الملك مفصلاً عن القسم المخصص لشؤون إدارة الدولة،
وكانت مشكلة الملك الرئيسية هي إبقاء مسائه في ظروف النظام، وإن لدينا
سلسلة من المراسيم تدعو إلى ذلك، وهي تعود إلى ما بين القرن الرابع عشر
والخامس عشر.

ولقد كان إحلال النساء إلى النظام عملاً مزعجاً ومعرجاً، وذلك نظراً لأنه
بالإضافة إلى الزوجات والمخلصات اللواتي اتخذهن الملك بناءً على اختياره
الشخصي فإن لديه عدداً كبيراً من السيدات الأخريات القادمات إلى القصر سوهُن
إما كن مرسلات من بعض الأمراء الذين كانوا يطلبون التحالف معه بسبب
المصاهرات، أو إنهن قد جُلبن كجيرة من الجرية والفنائم من المدن المغلوبة على
أمرها-

فالحياة سوف تكون مرعبة وتميب شدة الأعصاب عند وجود عُصبة من
النساء محصورات كلهنّ معاً، وهنّ يتنافسن على رضا رجل واحد
وتشير المراسيم إلى زوجات الملك والنساء الأخريات اللواتي كنّ يتقاتلن
ويتلاعن بعضهن مع البعض الآخر.

ولذلك تشير المراسم الخاصة بسماء البلاط إلى أن النساء كن كالمهارات،
وقد كانت مشاجراتهن مصدر تلمية لرجال القصر، ولكن إذا سمع أي شخص
من هؤلاء النساء وهن يتشاجرن أو يقمين الأمر الذي كان يشبه ما يحدث في

الشرق الأدنى في هذه الأيام، فإن هذا الشخص الذي سمع معرض للضرب الشديد، أو قطع إحدى أذنيه.

وبالمسبة للنساء أنفسهن فكان من الصعب إحلال النظام بينهما، وكانت سماء القصر يملك حق الأمر بضرب خادماتهن ثلاثين مربة بالعصا إذا قمن باقترااف أي ذنب ولأول مرة.

وكانت هذه العقوبات تحري بشكل وحشي، يهل إلى حد قتل الفتاة ضرباً، ولكن في حال حدوث ذلك فإن السيدة نفسها تصبح عرضة للعقاب.

هناك قواعد صارمة بخصوص التقاء رجال البلاط بساء القصر، فإذا حدث ودعت إحدى سيدات القصر أحد رجال البلاط وكانت عارية من الثياب، وإذا نظر إليها أثناء المحادثة فإن هذا الرجل كان يُضرب ضرباً مُبرحاً وهذا يدل أن بعض ساء القصر يصل إلى حالة من الصعر إلى درجة تسلية أنفسهن بتفديف رجال البلاط.

ولم يكن مسموحاً ولا بأي حال من الأحوال أن يقترب أحد رجال البلاط أكثر من مسافة سبع خطوات من أي امرأة ليتكلم معها

أما اللقاءات غير الشرعية إذا حدثت واكتشفت فإن ذلك يعني الموت لكلا الطرفين.

وإذا اضطر أحد الموظفين للدخول إلى داخل القصر فكان على جميع السموة الخروج من المنطقة إلى خارج أماكن إقامة الحريم

وكان هناك حالة المنع الشرقي المادي بالمسبة للمرأة التي تمر بعثرة العادة الشهرية، وتنص بعض المراسيم على ما يلي

((علما يحل وقت تقديم الأصحابي (وهو أحد الفانصات الدينية) فإن أي امرأة من التي لا يجوز الاقتراب منها، (وهذا يعني حالة المرأة في حالة العادة الشهرية) إنه لا يجوز لمثل هذه المرأة أن تدخل إلى حضرة الملك.))

والطريف أن يمنع دخول المرأة في تلك المناسبة مما يعني أن ذلك مكان مسموحاً
في الأيام العادية.

الفصل العاشر

الحياة المثالية

تكشف الأشياء التي يُحيط الناس بها أنفسهم مكنون مواقفهم وكنائنها عبارة عن دراسة لمؤسساتهم الاجتماعية ، وهكذا فإن فحص الملابس والأثاث لدى الآشوريين ربما يساعدنا على فهم أي نوع من الناس كل من هؤلاء الآشوريين.

الملابس

إن هدفنا هنا أن نركز بقدر الإمكان على الشواهد التي تطبق بصورة خاصة على آشور وبصورة خاصة في الفترة المتأخرة (أي. الألف الأول).

وهناك نوعان رئيسيان من الشواهد -

أولاً، هناك نصوص تقدم لنا عدة كلمات حول اللباس بما فيها قائمة مفصلة ذات تركيز لغوي وهو نوع مؤسس على موسوعة روحية ، ولسوء الحظ فإن هذا لا يوصلنا إلى الهدف الذي نبحثه ، وفي عدة حالات لم يكن لديها أي فكرة عن المواد التي تصيبها هذه الكلمات أو كيف تظهر الثياب ، وهذا ما نحتاج المساعدة لمعرفة من مصدر الشواهد.

الثاني. وهو يمثل الثياب الحقيقية التي يمكن أن توجد على عدة مشاهد فنية مثل المنحوتات واللوحات المحسّمة والألواح والعاج المنقوش والاحتام الأسطورية

هل كل إنسان يلبس ثياباً؟ إذ حسب معرفتنا اعتباراً من الألف الثالث فصاعداً فإن الناس الوحيدين الذين يسبرون أحياناً عراً كانوا بعض الكهنة في أثناء بعض الطقوس الدينية التي تتطلب التمرى.

وأحياناً كان أسرى الحرب يسبرون وهم عراً عند تقديم واحبات الخضوع والطاعة ، وهناك لوح محسّم يظهر بعض الناس وهم عراً يجرّون قارباً ثقبلاً

محتملاً ولكن وفي هذه الحالة من الممكن أن يكونوا قد تمرّوا بسبب اضطرابهم للخوض داخل الماء

إن إمكان التمرّي لجميع السكان تلمسه من فترة قالها الملك أسرجدون. بأنه سوف يمد المرأة بالملابس، ولكن هذا كان في بابل عندما حاول الملك أسرجدون أن يراب الصدع الذي أحدثه والده سنعاريب، وهكذا كان الحال بالنسبة لعدد كبير من السكان المفلسين ومن اللاجئين، وكان وصفاً استثنائياً

ومن الجائر أن أسرجدون كان يبالغ في مدى البؤس الحاصل للتأكيد على كرمه، وتذكر إحدى النصوص إمكان حصول العوز والمافة عند بعض الناس، لدرجة أنهم يرتدون الثياب المصنوعة من ورق البردي وهو الورق الذي صنع منه الورق المستعمل للكتابة قديماً

سوف نبحث أولاً في الملابس المودجية للمرأة وكان العصر الرئيسي هو رداء يحيط بالوركين ليفطي عورتها، ونعلم أن هذا الثوب يسمي أن يمد بين السابقين وبعدها يربط، وذلك يعرف من أحد النصوص الذي يذكر إحدى العاهرات قد فكت رباطها ليسهل الوصول إليها، ويظهر أن هذه القطعة كانت تشبه النوع القديم من حماضات الأطفال في الوقت الحاضر، لكنها تربط بواسطة رباط بدلاً من الديوس، وهناك تلميحات بوجوب ارتداء المرأة ككساء حول ثدييها ولكن ليس ثدياً مملوفاً حول هذا الموضوع، إذ نحن نقابل بعض الصور حيث تبدو بعض الخادومات وأثناؤهن عارية، ولكن ربما كان هذا بدعة ضيقة ولا يبرهن بالضرورة على انتشار عري الصدر بين الإماء

عندما كان الوضع بين القتيات الإماء هين السيدة الآشورية لم تكن تظهر أمام الجمهور دون ارتداء الملابس الكاملة، مع أنها كانت في حالة السرية في بيتها حفيضة الملابس، وكان هذا هو النوع بالنسبة لسيّدات القصر في الألف الثاني المتأخر، نظراً لأن المراسيم بالنسبة للحريم الملوكي في تلك الفترة تمنع أن سيّدات القصر يتّبعن أن تحصل على إذن للحصول على ملابس تلبسها عند خروجها، ومن المحتمل أن تكون الملابس الموصوفة والتي تتم لبس السيدة حكماً يجب إيفا

هي الملابس التي تصبّر بها السيدات في مجال المي بحيث إن اللباس المنزلي كان أبسط من تلك، وإن الصور تظهر أن السيدة التي ترى في المجتمع عادة كانت تلبس رداءً فضفاضاً ابتداءً من الكتف حتى الكامل مع وجود نصف حكم وهو مثبت بحرام.

وفي أسفل الرداء هناك تبدو ثلاثة أو أربعة حلاخيل على كل ساق، وإن شعرها الطويل (الذي يدعمه أحياناً شعر مستعار كما تكشف المصوم) كان مجدولاً بمدة صفائر

وتذكر المراسيم المختصة بالحريم الملكية أن السيدة يسمى أن تخرج من القصر وهي مرتدية حذاء للخروج مما يدل أن السيدات داخل القصر كن يمشين حافيات الأقدام.

وكانت الماهرات يرتدين ملابس خاصة من أجل جذب الانتباه، وقد سمعنا أنهن كن يرتدين نوعاً خاصاً من المعطف الجلدية، وكانت إحدى ماهرات المعبد متميزة بالشعر الأجد، ولم تشجع الماهرات على ارتداء ملابس محتشمة وقد كانت الماهرات ممنوعات من قبل القباون من ارتداء حجاب الأمر الذي كان مبرحاً على السيدات المتزوجات عندما يخرجن من بيوتهن.

كان الشكل الأساسي للملابس الرجل التي كانت تغطي الرجل من رقبته حتى الركبتين مع أحكام قصيرة وحزام في الخصر لكن كان هناك صيغ مختلفة لهذا اللباس، فمن الطريقة التي تُلق بها الثياب كان للرجل ثياب خصوصية عند الخروج مؤلمة من ثوب مبرد، ومنع من ملابس الخروج.

وفي بعض الحالات فإن الجزء تحت الحرام فيه نوع من الشرائط بالطول الكامل، وهي تظهر أنها كانت تلف حول الجسم ونحوي أنها كانت جرمياً مبرحاً من الثوب تشبه ثوب الخروج، وكان من الممكن تعديل هذا النوع من اللباس بطرق محتشمة، فهي بعض الحالات هناك شرائط ممتدة بلليل من كل كتف وتصلب عند الصدر.

وفي حالات أخرى فقد تطورت إلى نوع من اللزج المزلّف من زرد كان يستعمله الرماة.

كان الجندي المادي والرجل المادي يرتدي رداءً يمتد حتى الركبة، ولكن الأشخاص ذوي الرتب العالية كالموظفين الكبار والصباط العسكريين كانوا يضيفون عباءة فوقه، وكانت هذه مسألة هيبة وذلك لأن مراسيم الحريم ذكرت أنه إذا اتهم أحد رجال البلاط بإهمال واجبه فإنه يعاقب بتحريره من عبايته

وكانت العباية مصنوعة من الصوف وأحياناً من الكتان ضمن سلسلة من الألوان التي تتدرج من الأزرق والأحمر والأرجواني والأبيض.

وعداً عن العباية كان هناك رداء يلبس فوق الملابس وهو بدون أكمام، وكان يلبس فوق الرقبة وكان يشبه الكوتش (وهو المعطف الواقي من المطر) والرداء الكهنوتي.

أما ملابس الملك وأيضاً ملابس الموظفين الكبار فقد كانت معقدة بحيث إنه من الصعب تحديد ما يلبسه الملك حين نشاهد صوره في لوحة مجسمة، وعندما نرى الملك مرتدياً ملابس تلبس في المناسبات الاحتفالية فإنه يلبس عدة طبقات من الثياب مع أنه من غير الثابت إذا كان الرداء معنوياً ثوباً واحداً أم أكثر

وإن الجره المرثي بالنسبة لنا يمكن أن يكون شريطاً واحداً من القماش ملفوفاً حول الملك مثل المساري الهندي، وكان هذا الرداء مزيناً بأزهار مجوهرية وأحياناً مطرزاً برسومات ذهبية

وفي الحالات التي تلزم بها مرعة الحركات كما هو الحال في حالات الحرب أو الصيد فإن الملك كان يلبس شكلاً أبسط من الملابس مؤسماً على قميص الجندي المادي، ولكن مع إضافة شيء من الوفاق يجعله ممتداً حتى الكاحل وهو بالتالي يشبه القميص الليلي أو ما يدعونه في العراق اليوم بالدشدشة.

كانت المادة الأكثر استعمالاً في صنع الثياب هي الصوف، مع أن الكتان كان معروفاً من قنرات مبكرة، وقد استعمل في صناعة أردية من أبناف من

النوعية الأرضي، أما القطن فلم يصبح متوفراً إلى أن استقدمه ستعاريب وأدخله إلى بلاد آشور حوالي عام (٧٠٠ ق.م) وهو تاريخ بدء استخدام القطن في صناعة الألبسة.

وقد استعملت مواد أخرى أحياناً في صناعة الألبسة، وهذه تشمل الجلود وأوراق البردي.

لباس القدم - الحذاء -

وإذا حكمنا على أساس اللوحات المصنوعة، فقد كان الآشوريون يمشون حفاة الأقدام حتى في أثناء الحروب، وكان أكثر الأنواع شيوعاً هو الصندل المكون من كعب ذي إسمين يُثبت بواسطة أشرطة تمتد فوق أعلى القدم وحول الإصبع الكبير أي: الإبهام ولكن هناك أحذية أكثر تعقيداً.

وهناك شكل من هذه الأحذية كان حذاءً يغطي كامل القدم وكان الجزء الذي يغطي قوس القدم مصنوعاً من مادة مختلفة عن بقية الحذاء. ويظهر وكأنه مصنوع من القماش المدروز في الجلد.

وقد ظهرت الجرمات غالباً ولاسيما التي كان يلبسها الصيادون أو الرجال الذين يشتركون في إحدى الحملات العسكرية، وكانت هذه مزلفة عادة بطول الركبة أو بطة الرجل ويلبس فوق جوارب طويلة.

وهناك أيضاً مادتان مختلفتان مصنعتان فقد كانت مقدمة رجل الجزمة مصنوعة من القماش مع أن البقية كانت مصنوعة من الجلد.

وكان هناك إصافة لتقوية الحذاء عند الكعب وقد كان بعض الأجانب يلبسون نوعاً من الأحذية له حبات للأصابع ملتفة إلى الأعلى يشبه نوعاً من الأحصاف موجودة الآن في تركيا، ومن المنطقة حول كركوك وحوالي عام (١٤٠٠ ق.م) سمع عن طماقات مصنوعة من نوع من القماش، مع أنه ليس من الواضح إن كانت هذه جرماً من الجرمات أم أنها عبارة عن قطع معصلة بذاتها.

أما المعلومات حول أحنية النسوة فكانت أقل وفرة مع أننا نجد مراجع تشير إلى أنواع خاصة من الأحنية تلبسها السيدات، ونحس نحلل صورة لملكة آشور بانيبال وهي تلبس نوعاً من الخف الذي كان يعطي التصف الأمامي من القدم من النوع المتداول المعروف الآن باسم (الخف).

المجوهرات

لقد كان الرجال والنساء، يلبسون المجوهرات، ومع أنها لم تكن من نوع واحد، فقد سبق أن ذكرنا عن لبس النساء الخلاجيل، وهذه العادة لا تزال مستمرة بين الفلاحات في العراق حتى الوقت الحاضر

وفي بعض الفترات وفي منطقة ما بين النهرين كانت النسوة من أعلى الطبقات يلبسن رينة للصدر مكونة من معادن ثمينة، ولكن لا يبدو أن هناك شواهد على هذا في الفترة المتأخرة من عصر دولة آشور

وكانت بعض المجوهرات الحاضرة بالثمناء الآشوريات تتألف من قلائد من العقيق الأبيض معلقة في سلسلة ذهبية، وقد وجدت هذه في بعض القبور.

وكان الرجال يلبسون أيضاً مثل هذه القلائد وذلك حسبما نعلم من عقيق مكتب عليه نقش مفاده أنه:

حجر الرقبة خاصة توكولتي- نينوترا

وكان هذا هو الملك الثاني الذي كان يحمل هذا الاسم، وقد حكم هذا من عام (٨٨٤-٨٩٠ ق.م) وكان سلمه الأكبر توكولتي- نينوترا (١٢٤٤-١٢٠٨ ق.م) قد رُسم في لوحة ناهرة وهو يلبس اقراطاً في أذنيه.

وكان الرجل يلبس حجر تعويذة يتدلى من عنقه، وكانت هذه التعويذة بشكل رأس شيطان، وهي مستعملة لدرء الشر، وأحياناً كانت حجراً نقشت عليه تعويذة.

وأما الأختام الأسطوانية المؤلفة عادة من أحجار شبه كريمة ، وكانت هذه تلمس بنفس الطريقة

وكان من المعتاد بالنسبة للرجال الآشوريين ذوي المراتب العالية وأحياناً النساء أيضاً أن يلبسوا الأساور على المعاصم ، وكانت الإسواره تحمل زهوراً مستديرة بحيث تظهر بشكل ماسة اليد في العصر الحاضر وكانت الأقراط عنصراً مشتركاً بين الرجال والنساء ، وكانت تحمل الهلال ، وكانت مصنوعة من الذهب أو الفضة ، مع وجود قلائد من أشكال مختلفة ملحومة بالقرط.

والقارئ الذي يرغب في الحصول على تفاصيل وافية عن هذه سوف يجدها موصوفة في كتاب Hyslop .

تأليف K R. Maxwell

واسم الكتاب المجوهرات الآشورية القريبة منذ (٣٠٠٠-٦١٢ ق.م) عام (١٩٧١م) من الصفحات (٢٢٥-٢٤٦).

الشعر وأغطية الرأس

يطلق الرجال الآشوريون الذين يريدون لحاهم بشكل كثيف ، وكذلك شواربهم الضخمة

وأما الرجال الذين نشاهد صورهم بدون لحى فقد كانوا إما شباباً صغاراً ، أو خصيئناً

وكان شعر اللحية طويلاً ولكن كان يمتس به كثيراً مع ترك الأذنين مكشوهتين ، ووجد اللحي وشعر الرأس متموجاً وأجعد بنهايته ، وليس من المحتمل أن تكون شعور الآشوريين جميعهم مموجة ، إذ معنى ذلك أن الرجال كانوا يلجؤون إلى الحلاقين لتمويج شعورهم

وهناك بعض الموظفين الذين كانوا يعملون في الخدمات الدينية والذين من الممكن أن تتجاوز ودعوتهم كهنة ، كان هؤلاء يحلقون بقمة من رؤوسهم كعلامة على طيبة وظائفهم ، وكذلك كان الأطباء.

لدينا كثير من الصور يُرى فيها الآشوريون لا يسيّن غطاء الرأس، ولكن قمصاً كبيراً من هذه الصور تمثل الآلهة، والعائلة المالكة والجنود أو الهيئات الدينية الذين كانوا يلبسون في بعض المناسبات أغطية رأس قديمة مهجورة، ربما كانت مرتبطة بمراتبهم أو أحوالهم الدينية

ونمست هذه معلة لطرار أعطية الرأس في ذلك الزمن مما تمثل أعطية الرأس في الوقت الحاضر، والتي يلبسها الشرطي أو لباس الرأس للكهنة الكاثوليك، أو لباس الرأس للديون الإسماعي

وقد كانت الأشكال الوحيدة لأغطية الرأس الآشورية التي تمثل لنا لكي يستنتج أنها عطاء رأس نموذجي هي عصاة الرأس

وقد كان هناك عدة أشكال من هذه العصاة يمتطع الحبراء المليون تميزها وإطلاق أسماء خاصة عليها.

ولكن بالنسبة للأغراض العملية فلم يكن هناك سوى عصاة الرأس التي من الممكن أن تكون مريسة أو بسيطة، أو تكون لها ترويسة أو لا تكون.

وكان الرجال والنساء يلبسون مثل هذه العصاة لكي تظل شعورهم مرتبة أو ربما تُثبت فوق عمامة كانت من طراز معقد ومهيب بالنسبة للملوك والموظفين الكبار

المفروشات المنزلية

ليس من خطأ الكتابة في بلاد ما بين النهرين تكون معارفنا عن التجهيزات المنزلية قليلة ومتقطعة.

فقد كانت طبقة المثقفين موعمة بإدخال الأنظمة والموديلات الجديدة إلى عالمهم.

ولذلك ودعماً لهذه المعكرة كانوا يدونون قوائم طويلة تشمل جميع الأشياء، ابتداءً من أسماء الآلهة إلى المصطلحات الخاصة بالأعنام، ولم تكن محتويات

اليوم، محرومة من هذه الاعتبارات إذ إن المصنوع المسمارية تقدم لنا كاتالوجات وأهية تصف فيها المروشات المترية.

ولسوء الحظ فقد بقيت هذه المصطلحات مجرد أسماء بالنسبة لنا ، وفي بعض الأحيان كانت تصاف تفاصيل إضافية للمصنوع ، أو اكتشافات مواد من الحفريات وهذه تسمح لنا أن نخصص اسماً لينة من بود الأثاث المنزلي.

ولكن وحتى بالنسبة للأشياء المعروفة في بلاد ما بين النهرين القديمة فلا نستطيع الافتراض أن هذه الأشياء مستعملة في بلاد آشور

وهيما يلي سوف نهتم بما يمكن إثباته فقط ، أو ما يمكن استنتاجه بشكل معقد بالنسبة للبيوت الآشورية والقصور في الألف الثاني والأول قبل الميلاد

إن اختلاف أصناف المروشات التي تستعملها البشرية متعددة بالحاجة إليها ، إذ إن معظم الناس هم بحاجة إلى أشياء تحميهم من الرطوبة أو البرد أو حرارة الأرض أثناء النوم ، وهم بحاجة إلى بعض المنطوح التي يستطيعون أن يأكلوا منها طعامهم.

وإن أول المتطلبات اقتضى ضرورة استعمال الحصار والحرايات والتي تطورت فأصبحت فراشاً وكانت هذه الفراش تشمل إما فراشاً تمد على الأرض مباشرة أو طيليات مرتكزة على قوائم والتي يعرفها باسم الطاولة

وبوجود استعمال الطيليات كان الأكثرون يجلسون على الأرض وربما يضعون بعض الوسائد تحتهم طلباً للراحة.

ولكن وجود الطاولات التي كان يفصلها سكان ما بين النهرين القدماء يستلزم إضافة كراسي للأظهر أو مصطبات أو كراسي عادية وقد وجدت في بلاد آشور جميع قطع الأثاث الرئيسية مثلاً. الكراسي بلا ظهر والقاعدة والكراسي والطاولات والأسرة

ولكن لا يعني هذا أن كل إنسان في آشور القديمة كان يستعمل هذه الأدوات إذ إن قطع المروشات الشديدة التمهيد كانت محدودة بالأغنياء ، أما

الرجل العادي فكان يعيش في هذه الحياة دون وجود أي مقروشات عدا بعض
العصر من القصب التي كانت تخدم شؤون الجلوس والأكل والنوم وشؤون
الذهب.

الكراسي بلا ظهر - الطاولات والكراسي العادية -

كانت الكراسي بلا ظهر مصنوعة من القصب وإطار خشبي، مع أننا نسمع
عن وجود كراسي من هذا النوع أكثر تعقيداً وكانت تصنع من الخشب القاسي
المتآثر، وترى بنقوش من العاج أو الذهب وكانت هذه الكراسي تستعمل
كمقاعد أو ككراسات يجلس عليها الإنسان قديمه

كانت المصنوعات مصنوعة بصورة شائعة من العصار (اللبن) أو العصار
المشوي، مع أنها كانت تصنع أحياناً من الخشب

وكانت تثبت عادة على طول الجدران وتظهر الشواهد الأثرية عنها وكانت
تعود إلى فترات مبكرة قديمة في المعابد وبيوت السحرة.

ولكن يبدو أن الشواهد عليها في بلاد آشور شحيحة وقليلة وقد وجدت كلمة
في بعض النصوص الآشورية الجديدة يفتبرها بعض الباحثين أنها تعني مقعداً للنوم
ربما دلت على شيء مختلف تماماً

وهناك شواهد أثرية وافرة حول الكراسي التي كانت ذات هيكل مصنوعة
من مختلف أنواع الخشب، وأحياناً كانت ترين بنقوش من النحاس أو البرونز أو
الفضة أو العاج المزخرفة

وكانت المقاعد تعلّى بالجلد أو سمف النخل وأوراق البردي ومن الممكن أن
تكون مبطنة بالباد، وكانت الكراسي تزود أحياناً بأغلبية هضماضة من
الكتان، وكان من الممكن إحداث تحسينات مختلفة على الكرسي البسيط
مثلاً يمكن تطويره ليصبح كرسياً ذا ذراع، ومن الممكن في حالات خاصة أن
يصبح عرشاً للملك.

إد نحن سري متعاريب جالساً على كرسي من هذا النوع عند حصاره لأخيبي.

ومن الممكن إضافة بعض الأعمدة للكراسي يجري استخدامها كمحفات متقلة، وهذا التطوير يقلل عن الكرسي صفته كمنصر من عناصر الأثاث المدرلي. وقد شاهدنا أن متعاريب كان يستعمل مثل هذا الكرسي.

ليس هناك صعوبة من إيجاد أمثلة عن وجود الطاولات في بلاد آشور، فقد وجدت الطاولات ومداخل منها ضمن الحفريات هناك، ويرى هذه الطاولات متمثلة بالألواح الناصرة وكانت تصنع من الخشب بشكل عام مع أنه كان من الممكن إضافة زينات من المعادن، وكانت يمس الطاولات تصب بشكل هياكل من البرونز.

وأما في آشور فقد كان النوع السائد هو طاولة صغيرة مربعة قائمة على أربع قوائم مزخرفة

وهناك شواهد على استعمال عطاء الطاولة ثاني من مقاطع يدكر واحد منها (قماش من الكتان موضوع على الطاولة المدهبة الخاصة بالإله شمش).

ومع أن هذا المثال قد أتى من بابل وليس من آشور، وقد استعملت حتى الفوط على الطاولة مع أنها لم تكن بالشكل الذي نعرفه فقد كان أحد الخدم يحمل الموطاة ويقدمها إلى الشخص الذي يتناول العشاء ليمسح يديه عندما يفصلها بعد انتهاء الطعام.

وهناك أثر لهذا الاستعمال في الشرق الأدنى يوجد من الطريقة التي تقدم بها خادمة الكهنة الإصحيلية العليا في بريطانيا هوطة للكاهن لكي يمسح أصابعه بها بعد الفصل من خلال القرعان.

الأسرة

لم يمتلك الإنسان ممريراً فقد كان الفقراء يتناهبون على حصير من القش أو القصب وحيث كان هناك أسرة، وكانت هذه مؤلفة من إطار يدعم قاعدة مصنوعة عادة من الخشب مع أنه كان هناك إمكانيات أخرى، وكانت هناك مواد بديلة تشمل الحبال أو قطع القصب.

وكانت بعض الأسرة (وليس جميعها) مزودة بجوانب خشبية تحمل السرير بشكل صندوق خشبي قليل العمق.

وكانت تدعمها قوائم مصنوعة من أشكال من الرينة وعادة تتألف من قدم منعوتة بشكل مقلد أو حافر ثور فكما هو الحال بالنسبة للكراسي والطاولات، فقد كانت أسرة الملوك والآلهة مزيّنة بالذهب والفضة والماج المحمور.

وكان السرير دعماً للماشاء، وكانت الفرشة مغطاة بالصوف أو شعر الماعز أو بسمف المخمل، وكانت أغطية السرير مصنوعة من الكتان أو الصوف.

ومن الممكن أن نجد الومائد المذكورة في الكلمات الأكادية المشكوك في أمرها، و كانت الحصير تستعمل بالتأكيد بجانب السرير.

إن ذكر الحصير المستعمل بجانب السرير يذكرنا بالمسألة المهمة وهي موضوع أعطية أرض المعرفة، ونحن نعلم أنه لا بد من وجود السجاد في القصور نظراً لأن هناك في الألواح المصنوعة من الحجر الكلمي منقوشة لتمثل السجاد التي يبدو أنها كانت متعمة لامتداد السجاد فعلاً في المساحات ذات التمرض الأقل للاحتكاك الشديد.

الإضاءة الاصطناعية

إن إحدى وسائل الراحة التي نعدّها ضرورية في وجودنا الحضاري هي تأمين شكل من أشكال الإضاءة الاصطناعية التي تدير ساعات الظلام، والحقيقة أن الإضاءة الاصطناعية هذه كانت متوفرة بالنسبة لسكان المدن التي أصبحت بلاد آشور في أزمنة ما قبل التاريخ.

وكانت المصابيح عبارة عن أوعية تحتوي على ريت بدور المصتان مع وجود فتيل مصروع من قصب أو نبات آخر أو حتى الصوف، وكانت الأهداف مستعملة في الأرملة القديمة كالأوعية وبعد ذلك تم تقليدها بصنع أوعية من الفخار أو المعدن. وكانت القصور تزود بالمشاعل المتوهجة عند حدوث حفلات، وكانت هذه المشاعل مصنوعة من خز من القصب المعطسة بالزيت ويحملها الخدم عالياً

أدوات التجميل والتواليت

استعمل الآشوريون مرايا من الذهب أو الفضة أو البرونز الذي كان يلْمَع حتى يتحول إلى سطح عاكس.

وكان هذا يتم عن طريقه صقل المعدن بواسطة نوع من الجلد يشبه الشامواه، وذلك لأن بعض النصوص تذكر اسم الجلد الدومو لأجل المرأة.

يجري تمثيل الآشوريين بشعر طويل، ولكنهم مدبب، وليس عجيب أن نجد أنهم كانوا يمتلكون الأمشاط التي كانت تصنع من الحشب أو العاج وبمهارة.

وقد ذكرت الشعرات ولكن ليس لديها تفاصيل عنها مع أننا إذا حكمنا بوجود ذلك المظهر النظيف والمرتب للشوارب واللحية المتمثلة بالأعمال الفنية فإن هذه الشعرات كانت عظيمة الفعالية

استعملت النساء أدوات التجميل، للعيص والبشرة ولا شك أنه وعلى الأقل في بداية الألف الثاني كانت عملية تكحيل العيون تعتبر ذات جلاذية جنسية وهذا واضح أنه من إحدى الأساطير.

إذ يقال: إن الإلهة السومرية أنلانا (كانت عشتار آلهة الحب فيما بعد) لاستعداداتها أن وضعت على عينيها مرهماً يدعى.

(أرجو أن يأتي، أرجو أن يأتي) وهكذا فهل كانت العلاقة ما بين ميكياج العيب والإثارة الجنسية لا تزال معترفاً بها في آشور في الألف الأول ق.م؟

الحقيقة أننا لا نعرف ذلك فقد كان ميكياج العيب المصنوع من معجون مادة الأنتمون ويوضع على الجسم بواسطة ديويس معحوت من العاج، وأن الشواهد على استعمال أحمر الشفاه طميعة ولكنها أكيدة

وقد قدمت لنا هذه المعلومات قائمة فسرت فيها المصطلحات السومرية التي تسمى حرها: (المعجون الذهبي) والذي يفسر باللمة الأكادية بأنه الصباغ الأحمر للوجه.

أدوات المائدة

لقد احتوت الأدوات المنزلية على الملاعق والسكاكين وكانت الملاعق مصنوعة من الخشب أو المعدن، وأحياناً من العاج مع أن بعض أقدم الملاعق المعروفة في منطقة ما بين النهرين القديمة كانت مصنوعة من الفار، وهذا يعطي شعوراً بالاحترام للزمن القديم لاستعمالهم الأعواد البلاستيكية لتأمين الأدوات المنزلية.

وكان للسكاكين شفرات من البرونز أو الحديد أو من الصوان وهذا (من مخلفات العهد النيوليتي وهو العصر الحجري الحديث) وكانت أدوات القلع المعدنية تُس على أداة جلع مسطحة (بطول الإصبع تقريباً)

وقد وجد حكايت هذه السطور بعض هذه المجالغ في تل الرماح غرب الموصل ووجد أن هذه حكايت من أفضل الوسائل الفعالة التي وحدها والتي تصلح لسحبي الجيب.

وسائل التخزين

لقد كان البيت الآشوري شأنه شأن أي بيت بحاجة إلى حاويات لحفظ أواسي المطيع والمزّن، وتدرج هذه اعتباراً من حاويات الخشب أو الجلد لحفظ المرايا والأدوات والحناجر والأحذية وتدرج هذه حتى الصناديق الخشبية الكبيرة. لقد استعمل نوعان من الحاويات الخشبية التي تشبه الأقفاص والصناديق لحفظ المواكح.

وكانت هناك مادة أخرى للتخزين وهي القصب الذي إذا جُمع عازلاً للماء بواسطة الفار من المصكس أن يصبح بشكل حاوية لحفظ الملابس الكتانية في حالة جماعه أو أن تكون بشكل أوعية لحفظ السوائل.

وهناك مادة متوفرة وهي العاج ولكه نظراً لملاء ثمنه، فقد كان استعماله مقصوراً على الأغطية المنقوشة الخاصة بصناديق الرينة

وكانت الحاويات الخاصة بالأطعمة والسوائل تشمل الطاسات الخاصة أو الخشبية أو أباريق الشرب الفخارية أو المدمية، وقد وجد في أحد القصور في نمرود (كالاح القديمة) بعض الكفاسات الصخرية الجذابة وهي مصنوعة من الفخار دقيق الصنع تعود إلى القرن السابع ق.م، وقد استعمل الزجاج أيضاً ولاسيما بصنع الفوارير وكان المبيد يخرن في جوار حاصة تتسع لعدة عائلومات، وقد وجد عند من هذه التي كانت كل واحدة قد كتب عليها حجمها وسعتها وجدت في نمرود

تجهيزات المياه

إن توفر المياه ضروري لبهاء المستوطنات فلقد كانت آشور مملوءة بالمياه فكان فيها النهر العظيم وهو نهر دجلة مع تابعيه الراب الأعلى والزاب الأدنى، بالإضافة إلى عدد كبير من الجداول الصغرى التي تعدي هيين الراهدين.

وهناك أيضاً عدد من الوديان والحدوال الصغيرة التي كان بعضها دائم الجريان طول السنة وهذه تشبه أحد الينابيع الرئيسية التي تغذي البرك طوال

السنة ، تشبه أحد الينابيع المتواجدة في قرية تدعى (تل أبو مرياح) في الجزيرة إلى الغرب من الموصل.

ولقد أضاف بعض الملوك الآشوريين إلى الإمدادات المائية المتواجدة حول عواصمهم عن طريق إنشاء مشاريع هندسية لجلب المياه القادمة من الجبال. وحيث لا يوجد إمدادات من المياه السطحية المتوافرة كان الماء يجلب من طريق حفر الآبار.

ولقد وجدت عدة آبار آشورية ونُظِّمَتْ في منطقة نمرود وقد مارس كتاب هذه السطور تجربة النزول إلى أحد هذه الآبار حتى عمق تسعين قدماً أو ما يقارب ذلك لعحص مقدرة الآشوريين في بناء المشاريع التي استعمل فيها الحجر.

وكان في كل مدماك ثالث من الأجر في مخطوطات ملحكية تشهد على حفر باني البئر الملكي الذي قاوم عمله هذا صفت التراب مدة تقارب ثلاثة آلاف عام.

ومن هذا البئر كان الماء يندفع بواسطة قنور متهمة سعة الواحد نحو نصف جالون وهي مشدودة من أعاليها بحبل يشكل سلسلة طويلة ويديره جعش على قمة البئر بحيث تظل القنور في حركة دائمة وهي تعلس في البئر.

وبالنسبة لنقل الماء من مصدره فكانت تستعمل دلاء ، وكانت هذه مصنوعة من الخشب أحياناً ، ومن الفخار أو البرونز في أحيان أخرى ، وكانت العادات القديمة في الشرق الأدنى تقضي أن هذا العمل كان من واجب النساء مع أمه لا يبدو أن هناك شاهداً أو برهاناً على ذلك.

الأوزان والمقاييس

إن بيع وشراء بعض البضائع يتطلب وجود بعض وسائل الوزن ، وهذا كان ضرورياً لقياس الكميات الصحيحة اللازمة لبعض المعاملات القيمة الخاصة التي كانت تشمل الطبخ مثلاً.

ولهذا استعملت الموازين مثل هذه الأغراض ، وكان بعض هذه الموازين صغيراً لدرجة أن استعملته وزن نصف شاقل (وهذه قيمته عراماً أو أكثر بقليل).

والأخرى كبيرة بشكل كاف لتزن رجلاً، ونحن نعلم هذه المعلومة من بعض التقارير التي مصادها أن أحد ملوك آشور قد وصع أحد أعدائه الأسرى على ميزان وذلك لكي يقدر وزنه بالفضة التي ينبغي دفعها للشخص الذي أسره.

وكانت الأوزان المستعملة مصنوعة من الحجارة أو البرونز التي كانت مبحوثة أو مسحووية بشكل جميل جذاب يمثل بطل أو أسد.

وأما قياس الحجوم فقد كان أكبر مقياس هو الإيمار ويعني حرفياً: حمل الحمار، وهذا يقسم إلى عشرة (سوتو) وذلك بدوره يقسم إلى عشرة (ككو) وكان حجم الككو يبادل ثلاثة بايت^(١) أو أقل من لترين، وهذا يحمل قيمة الإيمار مساوية بالحبيط لخمسة (بوشل) هذا وإتسا على علم بقيمة مقاييس الحجوم الآشورية بشكل دقيق وذلك نظراً لأن بعض جرار التخزين فيها علامات تدل على سميتها

(١) الباييت مقياس للموائيل يساوي ١ على ٨ غالون والمالون = ٤٠٥ لتر

الفصل الحادي عشر

الزراعة وتربية الحيوان والتجارة

كانت أساليب الحياة لدى الآشوريين من أول نشأتهم حتى نهايتهم مرتكزة على نوعين من الأنشطة.

وهي النشاط الزراعي (وتربية الحيوانات) ثم التجارة

الزراعة

لقد اعترف ملوك آشور حتى أولئك الذين حازوا على شهرة حربية هائلة بأهمية الزراعة في حياة الآشوريين، ويذكر أكثر من واحد منهم عن تطوير الموارد الزراعية والحيوانية قام بها أثناء حكمه وهكذا يقول تملات بلاسر الأول (١١٥-١٠٧٧)

(لقد أتيت بالمحارث لتعمل خلال جميع أراضي آشور، وهكذا جمعت لديها أكوام من الحبوب أكثر من عهد أي حد من أجدادي.

ولقد ربيت قطعاناً من الخيل، والمواشي والحمير وذلك من الغنائم التي كسبتها وبمساعدة سهدي الإله آشور من البلدان التي استوليت عليها)

وبعد أربعة قرون تقريباً مدح سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥) قم نفسه أو ربما مدحه الآخرون لأنه:

((قد قرر أن يستثمر الأرض المراحة، وأن يزرع البساتين وقد قرر أن يجني المحاصيل الزراعية من منحدرات الجبال الصخرية التي لم تنتج أبداً أي محصولات زراعية، وقد قرر أن يحفر أنفاقاً وأحاديث في الأراضي القاحلة التي لم تعرف وجود المحارث طيلة حكم من سبقني بحيث تجعل الناس يشدون أناشيد المرح.))

لقد تبينت نتائج سياسة سرجون الاجتماعية والاقتصادية، فلقد كانت هذه السياسة تبني إقبال البشرية من الحوج والحاجة بحيث لا يصبح الزيت وهو

الضروري لترخية المعصلات غالي الثمن داخل البلد ، وبحيث تصبح بذور الكتان رخيصة الأثمان في الأسواق كالثعير.

ولقد أشرنا سابقاً أن مشاريع الري لم يكن من الممكن الاستعناء عنها في الزراعة في آشور ولعكس الري حيث يكون متوهراً كان ذا فوائد معتبرة

وقد هندس عدة ملوك بناء أنظمة لمقاي الأراضي حول عواصمهم ومن بينهم آشور ناصر بل في (كالح) وسرجون في (دور شار كين) وسيناري في (سينوي) ، وحول المواسم استنطاق الملوك بناءً على وفرة المياه ، القيام بتمديد مشاريع طموحه بشكل استثنائي.

ولقد امتنم سنحاريب بصورة خاصة بعض مياه الري المتاحة لتفديد مشاريع زراعة واسعة حول نينوى ، حيث استنبت أشجاراً غريبة ونباتات كالقطن الذي جاء به من الخارج ، ولكن مثل هذه المشاريع كانت استثنائية ، وعلى الرغم من الأهمية التي أظهرها سنحاريب في نقوشه للحدائق إلا أن معظم الأراضي حول نينوى كما هو الحال خلال بلاد آشور ، كانت تلك الأراضي مكرسة لزراعة المحاصيل الزراعية الفدائية ونباتات العلف.

كان المحصول الرئيسي في آشور هو الشعير مع القمح وهو النَّد الثاني ، وكانت الحبوب الثلاثة هي القمح الفاخر والدخن وهناك إمكان وصول الرور إلى آشور من خلال بلاد فارس وذلك في الألف الأول قـم.

وكانت الأداة الزراعية الرئيسية هي المحراث في أشكاله العديدة المختلفة وكان أحد أشكال المحراث هو الذي يشق التربة ، والشكل الآخر كان لزراع البذور الذي كان في عملية واحدة يقطع الأتلام ويسقط البذور وكان كلا هذين النوعين يُجران إما بواسطة الثيران التي كان عددها يصل إلى الثمانية أو بشكل أقل بواسطة الحمير أو نادراً بواسطة الخيول.

كان موسم الزراعة في بلاد آشور (كما هو الحال اليوم) يبدأ بالحراثة وبذر البذور في أواخر شهر تشرين الأول وتشرين الثاني اعتماداً لطول الأمطار ، وفي

السنوات الجيدة تبدأ أول زخات المطر في شهر تشرين الثاني مع أن المطر الغزير إنما يحدث حوالي شهر نيسان، ولكن لا تهطل الأمطار دوماً في شهر تشرين الثاني وإذا تأخرت الأمطار طويلاً نتج عن ذلك سوء الموسم حتماً، وقد كان هذا يحدث حتماً ولقد صادفه في عام ١٨٤٧ ميلادي السيد هـ لا يارد.

يحدث دائماً أن يمر الموسم دون سقوط أمطار، وهكذا كان الحال في هذا العام فهي خلال الشتاء والربيع لم تهطل الأمطار، وبدأ السكان وهم في حالة يأس وقنوط بسبب السماء الخالية من الميول وقد راقبت الأعشاب الصغيرة النامية وهي تحاول التماسل للخروج من خلال الأرض الصلبة اليابسة ولكن هذه الأعشاب تحترق قبل ولادتها.

وفي بعض الأحيان قد تدوم غيمة فوق النلال المستوحشة في أربيل، وإذا ارتفعت الميول في السماء قادمة من الصحراء في اقاصي القرب فإن ذلك يؤدي إلى بداية الأمل، وإذا هطلت بصفة قطرات من المطر فإن ذلك يؤدي إلى ظهور الصرح والحبور، ولكن كان يتلو ذلك حبة الأمل، فقد مرت الميول وظهرت فوقها السماء الزرقاء الصافية.

وبالنسبة لأشور القديمة (كما هو الحال بالنسبة لنقص المصلحة طيلة القرن الماضي) كان انقطاع المطر يؤدي إلى كوارث ويهدد بالمجاعة، ونتيجة لذلك كانت أحوال مصير الحصاد قضية ذات أهمية خاصة لجميع الناس في خلال البلاد.

مما يجعل من الأهمية بمكان أن يبادر المسؤولين الإداريون لرفع التقارير إلى الملك ويجبروه بالوضع الحاضر بالنسبة للأمطار والمحاصيل.

وقد لقيت الحرافات دورها بحيث ترسل إلى الملك تقارير ملكية حول الوضع الراهن بواسطة الخبراء الدينيين، وكان هناك قدر من الاطمئنان ضد سوء المحاصيل الشامل وذلك لوجود موسمين لزراعة الشعير موسم متقدم وموسم متأخر، وذلك في أرض تختلف نوعياً، وهكذا، إذا هطلت الأمطار باكراً عند أحد المزارعين وهطلت بشكل حائل عند مزارع آخر فإنه يصبح عندها من المؤكد أن الموسم سوف يصبح جيداً عند أحدهما

وهناك تهديد ثانٍ رئيسي للمحاصيل الزراعية وهو أمشاط الجراد ، وقد كانت أخبار هذه المصيبة تصل إلى الملك في رسائل يرسلها الولاة المحليون أو يتبأ بها الفلكيون في تقاريرهم ، ولكن وجود الجراد بأعداد ضخمة لم يكن كارثة عامة لا يمكن تجنبها ، فقد كانوا يصطكون بالجراد ويأكلونها كطعام بدل على البهد ربما كان مثل القريدس (برغوث البحر)

إن ما نعرفه عن المحاصيل الزراعية الآشورية من النصوص القديمة يمكننا الآن إتباعه نتيجة لأعمال الباحثين النباتيين المتعاونين مع علماء الآثار وذلك لفحص بقايا النباتات المتبقية.

ويحيرنا المرحوم الأستاذ هانس هيل وهو واحد من الرواد في هذا المجال: إنه وبعد الحكم عن طريق بذور الأعشاب النامية بين بقايا التربة فقد حملت حقول الشمير كميات من الأعشاب مثل الشوفان والشهلم والكرسه والمحمص

وهو لا يذكر (بسبب عدم وجود بقايا من البذور) أن النباتات البصلية وبصورة خاصة نباتات الثوليب الذي كان حتى الستينات من القرن العشرين لا يرال بكميات وافرة في حقول الدرة في بعض أجزاء شمال العراق حيث لم تكن عملية الحرثة العميقة التي تلت هذه البذور قد وصلت إلى المنطقة

فإذا لم تسقط محاصيل الحبوب ضخمة للجفاف أو الجراد فإنها كانت تجنى ابتداء من نهاية شهر نيسان حتى أواخر حزيران وذلك باستعمال المناجل التي كانت تصنع من الألف الثالث ق م من النحاس أو البرونز ، وقد استعمل الحديد فيما بعد

وقد كانت الدرة تقطع وتجمع بشكل حزم وترفع بواسطة المدراة وتقل إلى أرض البيدر ، وكانت هذه عادة مستوية ناعماً من الصعر في مكان غير ممرص لهبوب الرياح وذلك من أجل عملية التبرية ، وكانت عملية دراسة المحصول تتم بمساعدة الثيران التي كانت تجر مورجاً وهو لوح خشبي عررت فيه قطع من الأحجار المنيبة من الصوان ويدور هذا اللوح فوق الترة المنشرة

وبعد فصل حبوب الدرة عن السنابل كانت تجري عملية التذرية وذلك برمي الذرة في الهواء بواسطة رهوش خشبية وتحمل الرياح التبن الخفيف أما الحبوب الأثقل فتسقط على الميهر وأخيراً توضع الحبوب النظيفة في مخزن، وهذا يحسن شعصاً معيناً أو يرسل إلى المعبد أو إلى معاصر الدولة، وحتى في تلك المرحلة هناك مشكلات واجبة الحل بظراً لأنه إذا وجدت الثيران والطيور طريقاً إلى المخازن فإنها سوف توقع الهلاك في معاصر الحبوب.

ومن الممكن أن تجميع الحبوب للاستهلاك السريع من قبل الآلهة أو البشر أو الحيوانات، وفي حالة الحيوانات فإن الحبوب تستعمل إما كاملة أو مطحونة كعلف للمواشي أو الخيول، أو تستعمل بشكل كرات من المعين لتسمين البهائم والإوز، أما إذا كانت تستعمل كطعام للبشر فإن الحبوب كانت إما أن تسحق للاستعمال بشكل برغل أو تطحن لعمل الطحين وتنعم للخبز وكان الشعير يستعمل لصنع البيرة.

هناك نوع من المحاصيل الزراعية التي حدد هويتها الأستاذ هيليك من بقاياها الكريونية وهو على نحو يقبل الجدل وهي بذور الكتان وهي مصدر الزيت الذي يدعى زيت الكتان وحبوط الكتان.

ولا شك أن هذا النبات كان يمو في منطقة ما بين النهرين القديمة قبل الألف الأول ق.م، وأن المقولة المثيرة للجدل التي تظهر أنه كان هناك أيضاً نبات منتج للرئت وهو يدعى باللغة الأكادية شما شامو (والتي معناها أحلا نبات الرئت) وعندما يعلم الإنسان أن الشين الأكادية يصبح شيئاً بالمربية فمن الواضح عندها أن هذه الكلمة هي أصل اسم سمسم بالمربية، ولكن هل كان السمسم نباتاً حقيقياً ؟

وقد أجاب الأستاذ هيليك على هذا السؤال بكلمة: كلا، فهو يظن أن هذه الكلمة تعني: نبات الرئت، وهو بذور الكتان الذي وجد منه كميات هائلة وليس السمسم الذي لم توجد منه أي كمية بالقيّة.

وطبقاً لرأيه فإن السمسم لم يصل إلى منطقة ما بين النهرين من الهند إلا في الألف الأول قـم عندما حل محل بذر الكتان واتحد اسمه السابق.

ولكن الرأي حول التاريخ المتأخر لوصول السمسم لا مجال للشك فيه ويستمر بعض الباحثين بالقول إنه كان مستعملاً في بلاد ما بين النهرين القديمة بما فيه آشور.

وهناك بين النباتات العدائية التي وجدت المدس والحمص والخيار ، وقد ذكرت البساتين في النصوص وأحياناً ظهرت مرسومة في الألواح الناهرة ومن بين المواكح المعروفة من مثل هذه المصادر والمتميزة بتشكيل نباتي من بقاياها وهي العنب والتين والريتون والرمان وكن التمر طعاماً شائعاً في آشور مع أن أشجار الخيل لا تنجح هناك ، وكان مصدر تصديرها ووجودها أت من بابل.

لدينا مصادر أخرى من المعلومات حول الأشياء التي كانت تزرع في بلاد آشور ، مثلاً هناك قائمة بالمأكولات التي استهلكت في المادية التي أقيمت عند تدشين العاصمة التي بناها آشور ناصر بل الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩) قـم وهي كالآخ ، وفيها تعد أعداد كبيرة من الطعام والتي كان الكثير منها من أصل نباتي ، وليسوء الحظ فإن تحديد هوية الأكثرية من هذه المواد هو عمل حتمي ، ولكننا نستطيع وثقة أن نعرف على البصل والثوم والكرات والملح والبهارات.

وقد أنشأ بعض الملوك الآشوريين عمداً بعض الحدائق التي زرع فيها نباتات وأشجار منقولة من بلاد أخرى ولكن عرف كثير من الحالات كانت النباتات الجديدة قد أحدثت تأثيرات على الزراعة في آشور بصورة عامة.

وهناك مثل قد تطرقنا إليه سابقاً كان تقديمه ذا أهمية اقتصادية وهو القطن ويذره وكان مريحاً يذكره كواحد من النباتات التي زرعها في حديقته حول بيوتى وقد سماه الأشجار التي تحمل الصوف ، وكان قد صرح بوضوح بالنسبة لاستعمال هذا النبات بقوله :

لقد قطعوا الأشجار التي تحمل الصوف وعزلوها وسجوها لتشكيل بعض الألبسة.

تربية الحيوانات

كان هنالك عصر مضى في أهميته للمحاصيل الزراعية وهو تربية الحيوانات، وكانت أهمية تربية الحيوانات القومية قد اعترف بها لتكوين موضوع شير العمال الحرس التي كانت ترسل إلى الملك، وهكذا نجد تباينات من النوع الثاني ((عندما نحيط حالة بالقمر - ونجم القمر يقف صمها فإن المشية في البلاد سوف تفتح إنتاجاً حسناً)).

أما الآخرون من الكهنة فيذكرون ممانى عكسية إذ يقولون.

((عندما يقترب الكوكب زحل من مجموعة نجوم هايادس (ومعها الحرة في ذلك الثور) فإن هذا يعني إما أن الظروف المناسبة المواتية في البلاد سوف تختفي أو أن منتوجات المواشي والأغنام سوف تصبح في حالة عسيرة من عدم الأردهار)).

وكان للمواشي أهمية مردوجة فلم تكن هذه ذات قيمة بالنسبة لكونها مصدراً من مصادر الطعام بحسب بل لكونها أيضاً تستعمل كحيوانات للنقل والجر.

فالتيران كانت تستعمل لجر المحارث والعربات فضلاً عن عملية دراسة الحبوب ولما كانت الثيران غير لازمة الآن للتربية فإنها كانت تخص عادة مع أن بعضها كانت تترك حرة لأن بعض الطقوس الدينية تتطلب تضحية ثور غير حصي، وكان لحم العجل من العناصر المقبولة على مائدة الطعام مع أنه ليس شائعاً سوى على موافد الأغنياء

وقد تصبغت مائدة الملك آشور ناصر بعل مئة ثور مملح (من المحتمل أن تكون بشكل قطع كبيرة لأنه من المستحيل تمليح الثور كاملاً لحفظه من الفساد)

وهناك إحدى المظاهر المهمة بالنسبة للبقرة وهو إنتاجها للحليب ولدينا صورة مشهد حلب البقرة من فترة مبكرة (مع أنها ليست من آشور) وبالإضافة إلى استعمالها بشكلها الأصلي فإن حليب البقر يستعمل بشكل يدعى الحليب الحلو، وقد تكون هي اللبن، الباعورت وكذلك تحضير الجبنة مع أن الجبنة الوحيدة

من أهل معروف مذكور في النصوص الآشورية إنما هي من حليب الفهم ، وكانت المواشي تحفظ بشكل قطعان في الحظائر وتقيم في سفيما.

ولكن يجب أن يكون قد حدث شيء من تجمين التمثل ضمن المواشي الممرية لأن النصوص تشير إلى إدخال ثيران بزية إلى الحظائر وكانت هذه الثيران ترضع مع البقرات، إذ لم تكن هذه الثيران قد أحضرت لأجل الرعي فحسب.

كانت الأسماء شائعة جداً بشكل أجناس مختلفة ونحن نعلم أسماء بعض الأجناس من النقوش، ولكننا لا نملك أي وسيلة لمعرفة خصائص هذه الأجناس مع أن أحد هذه الأجناس يحمل اسم ذات الصوف الذي يشبه الأسلاك وهذا الاسم يمسر بمسه، وهناك اسم لا يقدم لنا أي مشكلة بالنسبة للتمييز في هويته وهو الفتم ذو الدب السمين، وهو لا يزال شائعاً في العراق في هذه الأيام وقد عرفت بعض أجناس محلية مثلاً: العموري والأكادي وعم حاماً

والأخير سمي باسم مكان واقع في منطقة الفرات الوسطى مع أننا لسنا متأكدين فيما إذا كانت هذه الأجناس موجودة في آشور، ولكن نعلم بالتأكيد أن هناك جساً مرموقاً في آشور باسم (حابي) وهو اسم مأخوذ من مكان تواجد في الجبال الشمالية، ولقد كان هذا سبباً في تشويش جرى على بعض الباحثين في دراستهم الجغرافية القديمة عندما اهتموا أن أي مكان ذكر فيه اسم أجناس (صباح) لا بد أن يكون من منطقة تدعى صباحا.

لقد كانت أهمية الأجناس تكمن في لحومها وحليبها (وهو المستعمل في جميع الأشكال المذكورة بالنسبة لحليب البقر وكان يشار إليه بشكل مستمر) وكذلك لأجل أصوافها

وحتى عام (١٤٠٠ ق.م) كانت الأجناس في بعض أجزاء آشور على الأقل تتعرض للنتف وليس للجزأ أي - إن الصوف كان يجري اقتلاعه أو برعه بالتمشيط عند فترة تهديل الحيوانات لصوفها، ولكن جز الصوف المعروف الآن بأنه كان مستعملاً في وقت أبكر أصبح العمل العادي المعروف فيما بعد.

ومن الممكن أن كان ذلك مصحوباً ببعض التغيرات الجينية في الأغنام التي جعلت الصوف سهل الجز ، وقد كان موسم الجز في زمن قدوم الصيف وبالتحديد في شهر أيار

وكانت جميع الأجناس المدجنة تستعمل لتقديم القرابين للآلهة ، ولكن الأغنام لعبت دوراً إضافياً في مجال السحر والدين ، وكانت إحدى الطرق الأكثر شيوعاً للحصول على فال حس أن تقدم سؤالا أو رغبة للإله ويمدها تذبح شاة ثم تمحس كبد الشاة ، إذ إن أي شذوذ في كبد الشاة كان يفسرها منجم حبير بأنها هي إجابة الإله على سؤالك واستفسارك.

ولقد أصبحت هذه الأشياء أقل أهمية في آشور عند ازدياد أهمية التجميم لنفس الغرض ، كانت الماعز عالياً ما ترعى مع الأغنام ، إلا أنها كانت أقل عدداً من الأغنام وكانت تقص شعور الماعز في الوقت نفسه الذي تجز فيه أصواف الغنم. وفي هذه الأيام أصبح شعر الماعز ذا أهمية لكونه يشكل البهاق مهمة لصنع الحيام والسجاد ، وبطل أنه كان يستعمل هكذا في الأزمنة القديمة مع أن الشواهد المحددة غير متوفرة ولكننا نعلم علم اليقين أن شعر الماعز يستعمل لحشو الفرش.

وكان حليب الماعز يستعمل في نفس الأغراض التي كان يستعمل فيها حليب الغنم ، وكان لحم الماعر صالحاً للأكل فكما هو الحال اليوم في العراق.

أما جلد الماعز فهو مفيد في صنع حاويات مائية لحفظ الماء (قرب) وكانت تستخدم عندما تربط بإحكام وتنعخ في صنع الأطواف العائمة وكانت الأطواف العائمة من هذا النوع مفيدة للسباحين وقد ظهر هذا العمل في أحد الألواح الجدارية النافذة في آشور.

وما تزال تستعمل من قبل الصيادين العراقيين على نهر دجلة في الموصل في السمينات من القرن العشرين (١٩٧٠) وكانت مجموعات من جلود الماعز المنصوخة تستخدم للوم في القوارب التي تسمى ككيليك المستعملة للنقل فوق مياه نهر الفرات والدجلة منذ أيام الآشوريين حتى الخمسينات من القرن العشرين (١٩٥٠ بسم)

كانت قطعان الأغنام والماعز تحت إشراف الرعاة الذين كانت واجباتهم حماية الأغنام والماعز وهي ترعى حول القرية أو في مسافات أبعد في الريف القصيح، وكان يساعد الرعاة كلب الحراسة المتوحش، وكانت هذه الكلاب مجبرة على معالجة الهجمات التي كانت الأسود والدئاب تشنها على القطيع، ولقد بسى هؤلاء الرعاة أكواخاً لحمايتهم وتأمين راحتهم، وكانت القطعان ربما تحص أشخاصاً معينين أو تخص المعابد أو تخص الملك وكل بعضها كثير العدد

وفي بابل كانت المعابد تمتلك قطعاناً ضخمة بحيث إن الموظفين الذين كانت حقوقهم بالرعي تتأثر بهذا الوضع، كانوا يتدمرون وهكذا نجد تقريراً أرسل إلى الملك في الوقت الذي كان الملك آشور يحكم بابل، مملوء

((إن أهالي مدينة بوزشيبا (وهي مدينة قرب بابل وفيها معبد للإله نابو) كانوا يشتكون بقولهم إن مواشي وأغنام الإله نابو تعطي وجه الأرض)) وكانت المعابد الآشورية تحت رقابة شديدة من جهة الملك ولم يكن من المنتظر منهم أن يسيروا لحقوق المواطنين.

بينما كان هناك عدد كبير من الأغنام في آشور وبشكل قطعان، إلا أن بعض الأفراد الفقراء لا يملك الواحد منهم أكثر من غنمة واحدة أو غنمتين للحصول على الحليب لصنع الجبن وغيرها

وهناك ذكر الأغنام على سطح المنزل وهذا ربما يشير أن صاحب المنزل يمكنه اقتناء بعض الأغنام ووضعها على سطح منزله.

وكانت قطعان العنم والمواشي م عرضة للتلف بسرعة تريد من معدل زيادتها الطبيعية وذلك لأننا نسمع عن أمراض معدية وجوائح في الحيوانات كانت تسبب نسبة كبيرة من الموت للحيوانات، وهناك أيضاً اليرقات الطفيلية التي تسببها بعض أنواع الذباب التي كانت تهاجم الأغنام والمواشي والخيول.

كان التخزين حيواناً معروفاً في منطقة ما بين النهرين القديمة، وكان يخدم كمعامل لجمع القمامة والتخلص منها في المدن، وفي الأزمنة المبكرة كان هناك قطعان من الخنازير وكانت لحومها ودهونها مواد مقبولة للأكل، ولكن هناك

منعاً دينهاً وتحريماً للحم الخنزير بقي قائماً حتى اليوم في الديانة اليهودية والإسلامية

ولكن هذا المع في طريق التطور والروال تدريجياً . إذ إنه وفي الفترة المتأخرة وصف الخنزير بأنه محرم من قبل جميع الآلهة ولكن لم يحدث هذا إلا بعد عام (١٤٠٠ ق.م) وهو الزمن الذي حدد فيه أن بعض أجزاء آشور كانت تستعمل لحم الخنزير

الحمير والخيول والبغال

كان الحمير (وهو نوع يختلف في تصميمه عن حمير الوحش الذي كان من الحيوانات المعروفة في منطقة ما بين النهرين) كان حيواناً آخر ذا أهمية اقتصادية كحيوان يصلح للحمل ، وكانت قوافل الحمير في آشور في بداية الألف الثاني متوفرة للقيام بالأعمال ونقل البضائع إلى أواسط الأناضول ، ولقد سميت مقاييس الحمير باسم الحمير ففي اللغة الأكادية يدعى أكبر مقياس للحمير إيمار أو إمار وفي العبرية كلمة حور المشابهة لها تعني حمل الحمير ، وهي مشتقة من اسم هذا الحيوان وكذلك أطلق اسم الحمير على وحدة المساحة وهي نفس الكلمة التي تعني . مساحة الأرض التي من الممكن بدار كمية من الحبوب تساوي حمل حمير .

وفي الأرمية القديمة كان الحمير حيواناً معصماً للركوب مع أنه قد بدأ الاستعاضة عنه بالحصان في الألف الثاني ق.م.

إلا أن ركوب الحمير كان مبادئ في نظام المواصلات الملوكي في الألف الأول ق.م في آشور .

فالحمير أكثر أمناً عند الركوب من الخيول ولا سيما في الأراضي الصخرية حيث إن حدوث أي زلة تعني الكارثة ، وحسب معرفتنا لم يستعمل لحم الحمير للأكل ولكن لحم الحمير الميت من الممكن استعماله طعاماً للكلاب .

ولقد عرف الحصان وما يزال حيواناً ذا هيبة وكبرياء مع أنه وباعتبارات تختص بالتراجمات الدينية المحافظة لقد عد الحمار أو النفل أكثر ملامة منه للأغراض الدينية الاحتفالية.

ولقد أصبح الحصان ذا أهمية بالغة في بلاد آشور في الألف الأول قـم لاسيما للأغراض العسكرية بالنسبة للكريات والخيالة.

ولقد استوردت قطمان الخيول بشكل دائم من الشمال والشمال الشرقي وذلك على شكل جزية أو بشكل عمائم حرب، وهناك مناطق شهيرة بتربية الخيول إلى الجنوب من بحيرة أورميا مباشرة في شمال غرب إيران، ولقد تناقست آشور مع جارتها مملكة أورارتو للسيادة على تلك المنطقة، وبهذه المناسبة يقول الملك سرجون الثاني باعتزاز :

"وبالنسبة للناس الذين يعيشون في تلك المنطقة في أراضي أورارتو فإنهم ليس لديهم أي مهارة في قيادة خيول المرممان، هالمهور التي يربونها لخدمة القطع العسكرية الملكية تمسك سنوياً وتلحظ إلى بلاد سوبي (للتدريب) حيث يرون مغدريتها فلنفس من المسموح أن يعتلي أحد ظهورها، وهي لا تتلم من الهجوم أو حر العرصات أو من التفهقر أو التدريب على الحرب"

ويشار إلى سلالتين من الخيول وهما: سلالة الكومسي وسلالة الميس وهما تنفرعان من أجزاء مختلفة من الأراضي الواقعة إلى الشمال وإلى الشرق.

وقد ذكرت عدة ألوان من الخيول أيضاً، فالخيول البيضاء مخصصة من الواضح أنها تُعد حيوانات حية صالحة للأغراض الاحتفالية أكثر منها كصحاحيات لتقديم القرابين لبعض الآلهة، ووعلى الرغم من الإشارات المتعددة إلى استيراد الخيول إلا أنه من المؤكد أن الخيول كانت تربي في بلاد آشور لأنه قد ذكرت الأفراس والمهور ولم يستعمل الآشوريون حيولاً للأغراض العسكرية سوى الفحول من الخيول.

ونرى أحد الملوك الآشوريين يذكر باحتقار عن ملك من ملوك الأعداء المهزومين قد هرب راحكياً فرساً.

كان تأمين الخيول للأغراض العسكرية أمراً ذا أهمية خاصة، ويشير الملك سرجون إلى إحراق مخازن التبن التي كان أحد الملوك الأعداء في شمال آشور قد أعدها لأجل خيوله. وعندما مار الملك ستمعاريب زاحاً إلى الخليج العربي لإتمام هجوم بحري على عيلام (إلى الجنوب العربي من إيران) فقد حمل الحبوب والتبن بواسطة الممر وذلك لاستعمال حيوله التي سارت عن طريق البر حتى وصلت الخليج ومن ثم نقلت بحراً عبر الخليج.

وكما ذكرنا توأ فقد عرف الحصول لأول مرة من مناطق في الأقطار الشمالية وقد حصل الآشوريون على حيولهم من الشمال أو الشرق، لذلك لا عجب أن يكون الآشوريون قد اكتسبوا خبرتهم بالخيول من شموه قطنت في تلك المناطق، ولقد رأينا سابقاً واجبات الاحترام والتقدير التي قدمها سرجون لبعض الشموه في شمال غرب إيران بهذا الخصوص.

وهناك برهان ثابت أن المنطقة الشمالية كانت مركز تربية الخيول يظهر من أحد النصوص التي ترجع إلى الألف الثاني وهي تذكر شيئاً عن تدريب حيول جر العربات، ولا شك أن هذا كان معروفاً في آشور لأن لديها نصاً (ولكن لحق به ضرر كبير) فيه إرشادات بالنسبة لهذا الموضوع وهو لا شك مدين بما فيه من المواد إلى المصادر الحثية، ونجد فيه أن الخيول كانت تعامل بمعاملة عظيمة كما تعامل في هذه الأيام.

وهنا نذكر جزءاً من هذه التعليمات:

”يجب أن تترع السروج عن الحيول- دعها تتدحرج حول نفسها.. وقدم لها الملف.. وحافظ على دفنها. وافركها جيداً“

وكان من الممكن أن تنهار الحيول صحية للأمراض المسارية كما يحدث للماشية والأعنام إذ نحن نجد ما يذكرنا بهذه الأمور

أما البغل فهو يستج كعجس عقيم عن تلقيح الحمير والخيول وهو حيوان معروف أيضاً من منطقة ما بين النهرين القديمة بما فيها آشور، وهناك مثل بابلي

مضحك يمحس الحقيقة التي مفادها، إن البغل يمكنه أن يرث صفات الحمار أو الحصان ويقول المثل:

((عندما يركب الحصان المنعب ظهر حمارة، يهمن في أذن الحمارة: دعي المهر الذي سوف تحملين به أن يكون عداء متلي ولا تجعليه حيوان جر وحمل مثل الحمير))

وعلى الرغم من طموحات الحصان الفحل الأب فإن البغال في آشور كانت تستعمل للجبر والحمير كانت تستخدم للركوب، البغل هو ابن الحمار من المرس.

الطيور

كانت أسراب البط البري وكذلك الإوز تصطاد بواسطة شباك، وقد ربيت بعض الأصناف المهجنة من سلالات مختلفة لتكون مصدراً من مصادر الحصول على اللحوم وكانت تسمى بعد أكل الضمير الذي كان يقدم لها بشكل عجيبة.

وكان شحم الإوز يستعمل كدواء في الطب، ففي بابل وفي الألف الأول كان هناك ساحات خاصة لتربية البط وكانت تلحق أحياناً بالمعبد ومن المحتمل أن ذلك كان سائداً في آشور أيضاً

كان الحمام (الذي كان يمتاز بالنظرة الشاعرية إليه في الأدب الآشوري) يربي في بلاد آشور وبشكل وتشير قصة الطوفان البابلية التي نقلت في التوراة باسم طوفان نوح تشير هذه القصة إلى أن الحمامة قد رجعت إلى الفلك بعد أن أطلق سراحها، وهكذا فقد كان سكان ما بين النهرين القدماء عالمين بمزايا الحمام المتلقة بحب الوطن، ولكن ليس هناك أي ذكر لاستخدام الحمام الذي ينقل الرسائل.

التجارة

كان العامل الثاني الذي سبب ازدهار آشور هو التجارة بشكائها الداخلي والعالمي.

التجارة الداخلية:

إنه وفي علومنا الاقتصادية نأخذ بالحسبان وجود نظام مميز مؤسس على المال وهو يحدم كمقياس للقيمة وأيضاً كوسيلة من وسائل التبادل وبذلك يساعد المرء وبسهولة على التصرف بما ينتجه وعلى الحصول على ما يحتاجه، وهناك بعض المرونة التي تتحقق عن طريق نظام القروض الذي تقوم به البنوك.

لم يعكس الاقتصاد القائم على المال متوهراً في آشور القديمة، وعلى الرغم من الإشارة المبهمة التي نموه بها الملك سنجاريب عام (٦٩٤) ق م حول حب التماثيل البرونزية التي قال عنها إنها تشبه "صك قطع الشيكول"

(وربما أنه كان يعني أن الحرشين في بلاده يستعملون التصرف بكميات كبيرة من البرونز بشكل ماهر كما لو أنهم يصنعون قطعة نصف شيكول).

إلا أن النقود المعدنية لم تلعب أي دور في نظام التوزيع الآشوري فقد استعملت عملة النقود المعدنية أولاً في آسيا الصغرى في وقت لا يقل عن الوقت الذي سقطت فيه الإمبراطورية الآشورية، ومن جهة أخرى كان هناك في آشور سلف بدائي لاقتصاد المال، فقد كانت المعادن تستعمل بصورة مستمرة كوسيلة للتبادل ولم تكن هناك عملة معدنية محتومة، بل كانت المعادن تستعمل كقطع تعرف قيمتها بوزنها، وفي الأوقات الصعبة كان الذهب والفضة والقصدير والنحاس كلها تستعمل لهذا الغرض مع أن الأكثر شيوعاً من هذه المعادن في الفترة الآشورية الجديدة كان النحاس.

ولقد تجاوزت الأعمال الآشورية استعمال الفضة كوسيلة للتبادل، بل وصلت إلى مفهوم استعمال النحاس كمقياس للقيمة، وهكذا نشأت حالات حين كانت

تحدد الديون بكمية من الفضة ولكن هذه الديون كانت تنفع بطرق أخرى مثلاً
بكمية من الشعير

وبالاختصار فإننا لا نود إنشاء نظرية اقتصادية جديدة عندما نقول: إن هذه
العملية وهذا الاقتصاد هو (اقتصاد شبه نقدي)

لم يكن الاقتصاد الذي تمتثل فيه المعادن كواسطة للتبادل، ولا بشكل
من أشكال النظام المتبع بالتوزيع المتوفر في دولة آشور في الألف الأول ق م فقد
كان هناك مساحات واسعة من الأراضي تمتلكها الدولة المتمثلة بشخصية الملك،
وكان هناك كثير من الناس ابتداء من الموظفين الكبار حتى الأقنان والعبيد
وكان هؤلاء جميعاً يعتمدون على الدولة من أجل تأمين معيشتهم، وهذا كان
يسمح بإحداث نظام مباشر للتوزيع، فقد كانت منتجات أراضي الدولة تصل إما
إلى العاصمة أو إلى المزارع في المدن الرئيسية المحلية، أما المنتجات التي كانت
تصل إلى العاصمة فقد كانت تستعمل لتلبية حاجة البلاط والمعابد وبعضها كان
يخصص كإعاشة لمختلف الموظفين والعمال.

وكان القمح المحرز في المدن المحلية يوزع جزء منه حسب المقصيات، وبمعه
الأحر كان يشكل احتياطي استراتيجي لاستعمال الجيش عند القيام بحملات في
المنطقة أو خارجها

وكان هذا هو نظام التوزيع المباشر وهو يقع خارج الاقتصاد شبه النقدي،
وكانت إمدادات الحبوب التابعة للدولة بشكل كلي خارج الاقتصاد شبه المالي
وهي تدخل ضمن التجارة الخارجية المالية، حينئذ نسمع مثلاً عن ممويات عند
المجاعة قد أرسلت من آشور إلى عيلام في أوقات الطوارئ.

أما منتوجات الأرض وهي غير المنتوجات التي تملكها الدولة بشكل مباشر
معرضة لتكوين نظام توزيع مختلف، فقد كان كثير من الموظفين لديهم حصص
من الأراضي وقد استلموها من الدولة، وكانت مثل هذه الصبغ تدفع جزءاً من
معاصيلها للدولة كمصرائب، مع أن أراضي بعض الموظفين الأرضي عنهم كانوا
يتمتعون بإعانات من المصرائب وكان قسم من معاصيل الضيعة ينقل عن طريق

التوزيع المباشر إلى العائلات المتصلة بالأرض، وكان هذا يتم بالطريقة التي كان المعتمدون بشكل مباشر على الملك يحصلون بها على دخلهم، وأما الباقي، وبعد خصم بعض الالتزامات، فهو يصبح تحت تصرف مالك الضيقة، ويصدق هذا على أي هائن يحصل أولئك الملاحين من مالكي الأراضي الذين كان عددهم في تراجع وتقص مستمر

وهذا المائن سوف يكون متوفرًا للدخول في الاقتصاد شبه المالي، ويحدث أحياناً تماس مباشر ما بين الظاهرتين المتواريتين من الاقتصاد، وهكذا نجد عقداً يعطي الحق لشخصين لشراء الحبوب بواسطة المينة التي حصلوا عليها، ولكن الحبوب يبيعي أن تشتري في إحدى الولايات وتسلم عن طريق النقل الخائي في النهر في ولاية أخرى.

ولكن يبدو أنه باستعمال الاقتصاد شبه المالي فقد أصبح من الممكن استعمال الفائض من القمح في إحدى الولايات للتغذية من نقصه في ولاية أخرى، وعن طريق المبادلات التجارية لهذا النوع من البضائع أصبح من الممكن التحرك من اقتصاد التوزيع المباشر إلى الاقتصاد شبه النقدي.

ومع وجود مجتمع معقد لا يسمح بإمكان التبادل بالمقايضة الحرة على مقياس واسع وفي مجتمع غير مؤهل بشكل كاف لوجود اقتصاد معتمد على توزيع الحصص المباشر وحمله مناسباً كلياً كان من الضروري وجود نظام شبه نقدي.

فقد كان هناك في المدن أعداد متوفرة من الناس الذين لم يحكوبوا من طبقة الموظفين الذين يحق لهم استلام الإعاشة من الدولة، ولا هم من العمال العاملين بشكل مباشر في إنتاج وسائل التغذية، وربما بطن المرء أن هؤلاء الناس كانوا عبارة عن جماعة من صائمي الفجار والساحين أو صناع المادن أو ناقضي الاختام ولكن وجود بعض هؤلاء في خدمة الملك لا يؤثر على وضعهم كطبقات مستقلة

وكان هناك أيضاً رجال أحرار فقراء لم يمتلكوا أي أرض ولكمهم لم يكونوا ملتصقين بأي أرض أو ضيقة الأمر الذي يعطيهم الحق ليمسهموا في جني المحاصيل.

وقد كان مثل هؤلاء الناس يمشون كعمال في مختلف المجالات، مثلاً المساعدة في جني المحاصيل أو القيام بمهام البناء وهلم جرا، وبينما كان هؤلاء العمال يستلمون ما يدفع لهم بشكل حصص أسبوعية من الطعام والشراب ولحسب حاجياتهم الأخرى من الممكن أن تُلبى بشكل دفعات من المصروف اعتبارها وسيلة تبادل.

ومما يدل أن هذا كان يجري فعلاً ما تثبته مذكورة تشير إلى دفع الفضة أو النقاس للعمال، وفيما يلي مثال حول عقد لإتمام بعض أعمال البناء، اشتمل فيه جماعة من الرجال في مشروع يتوقع أن يستغرق شهراً وقد دفع لهؤلاء وجبات يومية (إعاشة) وكمية من النقاس في آن واحد.

وفيما يلي مثال عن عقد جرى لإتمام بعض أعمال البناء، عمل به مجموعة من العمال ويُتَظَر إتمام العمل في مدة شهر واحد، وقد دفعت لهم كملاً الإعاشة وورقة من الفضة.

هنا توجد قائمة من الأسماء الشخصية

المجموع ستة عمال.

وزنتان من النقاس.

٦، ٣ وهومر (وهو مكبال عربي قديم) من الخبز والبيرة

ولسوف ينجزون العمل في مدة شهر

لهما سطر معناه غير مفهوم

وهم سوف يتمون الدعائم

ولسوف يركبون السقف

وسوف يضمنون الصندوقي في مكانه

وإذا صلدف ولم يتموا هذا العمل

فإنهم سوف يستمرون في العمل حتى النهاية

أي حتى ينهوا عملهم بعد شهر.

وإن الصندوق المذكور ربما كان الفطاء الخشبي لبرج التهوية على السطح.

وأما كميات الطعام الموجودة فهي كميات الطعام اللازمة لكل عامل في كل يوم، بواقع نحو ستة بلونيات من الخبز وستة بلينات من البيرة في حالة وجود ٢،٦ هومر من كل واحد من هذه الأصناف أو نصف هذه الكميات إذا كان هناك ٢،٦ هومر وهي مجموع كميات الخبز والبيرة

ومن الواضح أن الرجال كانوا يستلمون وجبات أساسية كاملة وكذلك كميات النحاس المذكورة كالأجور التي كانوا سوف يستلمونها كمصروف للجيب لأجل تلبية حاجاتهم الأخرى.

وبالنسبة لأسعار النحاس الحالية فإن الورتين من النحاس المذكورتين يعادل ثمنها عشرين جنيهاً استرلينياً لكل رحل لمدة شهر واحد، ونظراً لوجود فروق شاسعة ما بين تكاليف المعيشة في منطقة ما بين النهرين القديمة وتكاليف المعيشة في المجتمع العربي الحديث، فإن هذه التقديرات لا تمثل أرقاماً ذات معنى حقيقي لتقدير الأجور القديمة بالنسبة للقوة الشرائية.

لا نعلم بالتفصيل كيف يستطيع العامل استعمال الكمية الضئيلة من النحاس أو الفضة للحصول على بضائع وأشياء أخرى، ومع ذلك فقد كان هناك عدد كبير من التجار وبينما نرى بعضهم مهتماً بالتجارة على مقياس واسع، مثلاً الصفقات المذكورة آنفاً لجلب الحبوب من مقاطعة أخرى، لذلك نجد أن هناك دلالات عن وجود بعض من هؤلاء من الذين يعملون في تجارة على مقياس ضيق يشبه عمل أصحاب الحوانيت والمطاريين، فقد كان هناك أداس بالتأكيد وكانوا يبيعون المواد الصغيرة للأفراد على مقياس ضيق حيث إننا نجد دكراً للحقيبة الجلدية التي توضع فيها الأوران.

وهناك أيضاً نص يذكر إمكان حدوث أعمال الغش من قبل تجار المُفْرَق ويتكلم عن نوع من الأشخاص يملك بالمهزأ ويرداد في أعمال الغش بأن يبدل الأوران.

وأما بالنسبة إلى وجود العطارين نجد أن رجل أعواد الثياب ورجل الملح مدكورين (مع أن هؤلاء كانوا موجودين في بابل وليس في آشور) وكلاهما يدل على صفار التجار الذين لا ينتقلون من منزل إلى منزل.

ولقد عرفت آشور إجراءات منح القروض وذلك لتسهيل الأعمال التجارية وكسات المايه والشخصيات العادية تقدم الفضة بقصد أغراض العمل.

وكاست النقود المستقرضة تصاد في الوقت المحدد بشكل بضائع وينتظر مقرض الفضة أن يستقيد بالحصول على سعر مناسب في لحظة تسديد الديون، أو بأن يدفع له الفوائد أو كلا الأمرين.

وكان من الشائع أن تكون البضائع ذات العلاقة من الحبوب ولكن فيما يلي وصف صيغة تجارية بخصوص تزويد الحمور:

٢،٥ هومر (حوالي ١٠٠ غالون) من الخمر.

وهي تخص عانو - سكي - نهوى.

هي من الالتزامات التي على بارتامبا،

فهو سوف يسلم الحمور في نهوى،

في شهر أيار،

وإذا لم يسلم هذه الخمر في هذا الوقت،

فسوف يدفع الفضة طبقاً للأسعار في نهوى.

اليوم الخامس والمشرون من شهر كاكور الثاني.

وقد كانت الحمور تنتج في المناطق الجبلية في الشمال والشمال الغربي، وإن تسليم مئة غالون منها في نهوى في أوائل الصيف كان من الواضح أنه عملية تجارية بحثة

وإن الرجل الذي قدم له كميته من الفضة يأمل أن يحصل على فوائد عن طريق الشراء بسمير رخيص في الشتاء في منطقة إنتاج الخمر، وكان المقرض معممياً في حالة تأخر التسليم وذلك بأن يكون له الحق بالتعويض عن المئة غالون

من الخمر بالسعر السائد في نينوى في شهر أيار، أي في بداية شهر الحر، عندما يرتفع سعر الخمور والمشروبات الأخرى ولا سيما إذا ظهرت ظروف معاكسة في الشمال وهي التي ستحمل المؤن بلادة الوجود

وفي بعض الأوقات وبمصر الأممية في منطقة ما بين النهرين القديمة بُدلت محاولات لتسبغ الأسعار عن طريق مراسيم حكومية، ولكن لم يكن الحال هكذا في الإمبراطورية الآشورية، وإذ إن العقود التجارية كانت تؤكد دوماً، كما سوف نلاحظ من المقد التالي، أن الدفوعات تكون طبقاً للأسعار في مكان ما وفي زمن ما.

وهذا يظهر أن هناك اعتراهاً واصحاً بالحقيقة التي مفادها أن الأسعار في آشور كان يقررها أحوال وقوى اقتصادية خاصة، وليس بالمراسيم الرسمية.

ونحن نجد أيضاً بعض الرسائل التي تذكر أن أسعار البضائع المختلفة في مناطق مختلفة كان يجري إخبار الملك عنها ولم يقررها الملك، ومن الواضح أنها أسعار يتلاعب بها السوق وليست أسعاراً تنظمها الدولة

وهناك نقوش تظهر أن الملوك أنفسهم كانوا يعلقون على الأسعار وعلى تأثير القوى الاقتصادية المختلفة على الأسعار، وقد تكلم الملك سرجون الثاني عن سياسته الرامية إلى تحميم الزراعة في أراضيه، وكان يعلق على نتيجة هذا تحميم الأسعار بالنسبة للربح وبدر العكس وقد اهتممتنا هذا المقطع، وقد علق فيه الملك على زيادة الفسائم الحربية وتأثير ذلك على الأسعار في آشور، وبعد أن عدد الأدوات المعدنية التي جلبها بعد القيام بحملاته يقول:

((إن الأملاك المقولة التي حصلت عليها لا تعد ولا تحصى من التي لم يحصل عليها أجدادي أبداً، لقد كوّمتها في عاصمتي قلعة سرجون.))

وفي بلاد آشور يستطيع الناس دفع أثمان الأشياء بالفضة كما لو كانت نحاساً

ويعد أن استولى آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧) ق.م على أعداد من الجمال بشكل عنائم وبعد أن ورع هذه الجمال بصورة واسعة علق على تأثير هذه الكميات الرائدة على الأسعار وهو يقول.

(في بلادتي تباع الجمال في الأسواق بسعر شيكل واحد أو نصف شيكل من المضة لمن الجمل الواحد).

وطبقاً لأسعار الفضة في الثمانينات من القرن العشرين ب م يصح قيمة هذا المبلغ جنهين استرلبيين وهذا سعر رخيص بالنسبة لجمل مستعمل، ويمكننا أن نصنف أن أهمية التجارة بالنسبة للدولة كانت عاملاً معروفاً

ودلك أن التجارة كانت مرافقة للمحاصيل الزراعية في أهميتها أما ندر المال الفلكية والتي كانت منحصرة بالمسائل ذات الأهمية بالنسبة للدولة وفيما يلي مقتطفات نموذجية من مثل هذه التنجيمات الفلكية

((عندما يظهر القمر في وقت ليس هو موعده فإن نشاطات الأعمال التجارية سوف تنقص، وعندما يظهر الكوكب مع ظهور الشمس في شهر أيلول (سبتمبر) فإن نشاطات العمل سوف تزداد وترتفع وسوف تزيد الكميات المحبوبة.))

وهناك أحد التنجيمات الفلكية من نفس الموضوع مع أنها في الحقيقة متعلقة بعلم الأرصاد الجوية أكثر منها بعلم التنجيم:

((وعندما تظهر ويرداد الضباب في البلاد فإن المحاصيل الزراعية سوف تزداد وسوف تصبح التجارة مستقرة.))

إن هذا حول ريادة أو نقصان أنشطة العمل تظهر اعتراضاً جزئياً بدائياً بوجود الدراسات التجارية (نشاط- ركود- نشاط) وإن ربط هذه الحركات بالظواهر الفلكية يدل على أن الناس قد شعروا أن هذه الحركات ليست ذات أسس عقلانية.

التجارة الخارجية

تعود قصية التجارة العالمية أو الخارجية في جذورها إلى أرمنة ما قبل التاريخ. ونظراً لموقعها على طول نهر دجلة معترسة الطرق الممتدة من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى راعروس ومن جبال طوروس إلى بابل فإن المنطقة المعروفة باسم بلاد آشور كانت مهمة دائماً.

ونظراً لوضعها الجغرافي فإن شعب آشور قد أصبح في وضع يحوله أن يكون شعباً تجارياً وسيطاً.

ولكن هناك عاملاً آخر قد شجع التجارة الخارجية أو العالمية، على الأقل التجارة الداخلية في منطقة الشرق الأدنى القديمة، وهو: عدم الاستقرار في التمويين العدائي ومن الواضح أنه إذا كانت الأمة في حالة من الاكتفاء الذاتي اقتصادياً دون اشتراكها في أي صلات تجارية مع حيراتها فإنها سوف تحصد الفشل حتماً.. وهناك في الحقيقة مناطق قليلة جداً لا تشكو ولا تفكر في سوء المحاصيل الزراعية.

وحيث تعتمد محاصيل الحبوب على الري فإن زيادة ممسوب المياه في النهر أو حدوث طوفان هائل ربما أدت إلى مجاعة كما يحدث عند قدوم سنة جافة في مناطق تعتمد على هطول المطر

ومن الممكن تدمير أي محصول زراعي واعد عن طريق الجراد والأفات الزراعية

وإن الوقاية الوحيدة ضد مثل هذه النكبات هي الاحتياط بتخزين كمية وافرة من المحاصيل التي جنت في المواسم المباركة أو عن طريق الحصول على الحبوب من المجتمعات التي صادفتها ظروف مواتية وبذلك يحصل عندها فائض من المحاصيل.

هذا وإن نقل الحبوب من الميسوريين الذين عندهم حبوب إلى الفقراء الذين لا يملكون حبوباً يكون إما عن طريق الحرب أو عن طريق التجارة.

هذا وإلى المجتمع الذي صادفه الحفظ بجني محاصيل وافرة سوف يكون متأثراً بغيرائه الجياع، وليس لديه في المحصلة إلا أن يلجأ لأحد أمرين إما الحرب أو التجارة، كما أن المجتمع الحائض ليس لديه سوى أن يقتل أو يتاجر أو يموت.

كانت التجارة والحرب أمرين مترابطين في دولة آشور من البداية إلى النهاية، ولقد عانى المزارعون الأوائل القاطنون بسهولة آشور من العارات على محاصيلهم الزراعية ومعزوناتهم من قبل شعوب قادمة من التلال المجاورة أو من الصحراء وعندما أصبح هؤلاء دولة منتظمة فقد استعملوا هم بأنفسهم التجارة أحياناً والحروب أحياناً أخرى للحصول على البضائع التي كانوا يرغبونها من اجراء أخرى واقعة في الشرق الأدنى.

وكانت أقدم مظاهر التجارة الخارجية الآشورية المعروفة بتماصيلها هي التجارة ما بين مدينة آشور وكاروكيا (الجزء الشرقي الأوسط من تركيا) وذلك في بداية الألف الثاني ق م ولقد ناقشنا هذه القضية في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

ولقد عرّفنا شيئاً عن دور آشور في التجارة الخارجية في الألف الثاني ق م ولقد ناقشنا أعماله المفاوضات التي جرت بين الملك آشور أباليث (١٢٦٥-١٢٣٠) ق م ونظيره المصري لإنشاء علاقات تجارية بشكل تبادل الهدايا، ولقد تمت التجارة لمسافات طويلة عن طريق القوافل.

وهنا كانت أهم المشكلات هي الأمن وهي عامل أسهم في إيجاد الصلات بين التجارة الخارجية والأنشطة العسكرية.

وفي المراسلات التي جرت ما بين آشور أباليث والملك المصري، لقد شكك الأخير من تأخر رسله، ولقد أخير آشور أباليث الملك المصري أن هذا التأخير نتج عن القبائل الرحل المتواجدين في منطقة منتصف الفرات، وأنه قد اتخذ الخطوات لمعالجة أمور هذه العشائيات.

وفي نفس الفترة اشتكى أحد ملوك بابل إلى نظيره المصري عن عدم توفر الأمن في فلسطين، وكانت تلك المنطقة ضمن السيطرة المصرية الاسمية. وقد جاء في الرسالة

(إن كنعان بلد حاسع لك وملوكها خدع لك وتكفي تهبّت في أرضك. ألق القبس على الأشعاص ذوي العلاقة وإلا إنهم سوف يعودون ويقضون على قوافلي وحتى على رسلك)

وفي أمكنة أخرى كتباً سمع باستمرار أخبار قتل أو خطف التجار مؤكداً الحاجة لتدخل الدولة لتأكيد الأمن بالنسبة لاردها للتجارة.

وعلى العموم فقد كانت سيطرة الدولة على التجارة الخارجية شديدة وصارمة في أواخر الألف الثالث قـم.

وهكذا تقدم لنا أحد النصوص العائدة لأحد الملوك الحثيين والتي يعود تاريخها إلى ما بعد عام (١٢٠٠قـم) الشروط التي يسمح بموجبها للتجار من الأناضول بالتجارة داخل أوعاريت، وكانت هذه المدينة خاضعة تقع في شمال سورية، وكانت هناك شكوى واضحة محلية تشير إلى أن التجار كانوا يحاولون اكتساب حقوق منافية لمصمة أهل البلاد والأهلين، ولذلك فقد أصدر الماهل المحلي مرسوماً يلزم فيه التجار بالنشاط داخل أوعاريت أثناء الصيف فحسب، وليس أثناء الشتاء

وأما لا يجوز السماح لهم لكسب حقوق الإقامة أو شراء البهوت والأراضي. هناك وفي أواخر نفس القرن نجد أن القصد من استورد من الأناضول عن طريق تاجر حاص، ولكن ليس لدينا أي معلومات حول الشروط التي بموجبها كان هذا التاجر وعملاؤه يتحركون في الخارج.

عندما تلقى نظرة على التجارة الآشورية في الألف الأول قـم بمصادف صورية من الصموديات وهي هل كان هناك أي شيء في المجال الدولي يمكن أن ينطبق عليه مصطلح التجارة بالشكل الصحيح.

ولا مجال للشك أن كميات لا بأس بها من البضائع قد وصلت إلى آشور من الخارج ولكن التنمية الطاغية لما نريد أن نسأل عنها أتت من الغنائم الحربية أو الجزية.

ومن الممكن أن يذكر أن هذه كانت شحناً من أشكال التجارة تدفع تكاليفها بعض الصادرات بشكل مواصلات جيدة وأمن في الطريق، والتحرر من الهجمات الخارجية، ومع أن هذا النوع من التصريعات من التحمل لم يظأ أعداء الإمبراطورية إلا أن هذه هي الطريقة التي يفكر بها الحكام الحاضرون حول هذا الموضوع.

ولديها مثال واضح حول هذا الأمر في التوراة عند ذكر العلاقات ما بين (أحاز) ملك يهوذا وتعلات بلأسر الثالث ولقد هند أحاز ملك يهوذا التحالف ما بين إسرائيل وسورية، وهكذا التجأ إلى تعلات بلأسر بقوله:

تعال وأقذني من سطوة ملك سورية أو من سطوة ملك إسرائيل اللذين يهاجماني (٢ملوك ١٦: ٧) ولقد فصل تعلات بلأسر هذا فأرسل أحاز هدية إلى ملك آشور ومن الواضح وبالسبب لهذه القصة الجريئة التي دفعها أحاز فكانت «قابل الخدمات التي استلمها».

وهناك ملك آخر في أقاصي شمال سورية ترك نقشاً يذكر فيه حكم قدم هو ووالده من ولاتهم للملك تغلات بلأسر الثالث، ذلك الولاء الذي اشتمل على وضع الجerie، وبعد ذلك يذكر الموائد الاقتصادية لبلاده من هذا الولاء.

وسواء كان علينا أن نعتبر أداء الجزية جرمًا من التجارة الخارجية أم لا «مبهر»، إلا أنه كان نوعاً من التجارة الخارجية ليس فيه مجال للجدل، واستمر في الإمبراطورية الآشورية، ولقد عثرنا على رسالة تثبت هذا من أحد الموظفين في صور، فلقد كان الناس هناك يمارسون عادة قطع الأشجار في غابات لبنان ويجلبون الخشب إلى المدينة حيث كان الآشوريون يتقاصمون صربية عالية، وبعد مشوء بعض الاضطرابات حول الصربية قام المسؤول الآشوري بقرص حطر على بيع الخشب إلى مصر بقصد أن يبيع أهالي صور الخشب إلى آشور.

وهكذا فقد انضغ الرابطة التجاري نظراً لأن الموظف الآشوري قد هدد بأن لا يسمح لأهالي صور بقطع الأشجار إذا أحدثت اضطرابات أخرى حول الضريبة.

وقد كان هذا التهديد مخيفاً لو كان الآشوريون قد استلموا الخشب كعجربة دون أن يدفعوا الثمن، ومع أنه وفي تلك الظروف فقد منعت السلطات الآشورية أهالي صور من المفاجرة بالخشب مع مصر، إلا أن سرجون الثاني صرح بأنه يشجع التجارة ما بين المصريين والآشوريين.

وفي مكان آخر نجد معللاً يذكر شيئاً عن تسليم الرصاص الذي كان يجلب من منطقة تسمى الآن كوردستان، وليس هناك من دلالة تشير بأن هذا كان جرية.

وهناك وثيقة تشير إلى نقل نحو (٧٢٠) حصاناً قد جلبها التجار وهذه شهادة على وجود تجارة خارجية حقيقية نظراً لأن الأهمية الرئيسية للخيول في آشور كانت لأغراض عسكرية، وأن الخيول وبهذا العدد إنما قد أرسلت للاستعمال الحكومي.

وكان التجار يعملون وكلاء للدولة ولكن كون التجار مشمولين بهذا الأمر إنما يدل أن هذه كانت تجارة حقيقية وليست تسليم الجرية

إن ذكر بعض البضائع التي كان أصلها من خارج المنطقة الحاضمة لآشور ما هو إلا شهادة دامغة لإثبات وجود التجارة الخارجية حتى ولو وصلت إلى آشور بشكل جزية

وبهذا تكون قد تركت البلاد التي أنتجت فيها عن طريق آلية التبادل التجاري، وإن إحدى هذه البضائع هي ناب الفيل المأجي الذي تعدد قادمه إلى بلاد آشور من نهاية القرن الثامن ق م وذلك بعد أن انقرضت الفيلة عن سورية، وهبل أن سيطرت آشور على مصر وهي البلد الوحيد الذي كان من الممكن أن يكون هذا الماع قد أتى منه

وكذلك كان الوضع بالنسبة للارورد الذي كان يستعمل لتزيين المعابد والقصور وقد كان مصدر الارورد أفغانستان إلى الشرق من إيران التي لم تصل إليها السيطرة الآشورية.

وفي نهاية القرن الثامن قم بدأ الآشوريون بلعب دور رئيسي شرقي زاغروس ومن ذلك الوقت بدؤوا بالحصول عليه عن طريق الجزية من القبائل في غرب إيران الذين حصلوا عليه عن طريق التجارة مع أقاصي الشرق.

والحقيقة أننا نجد ذكراً لبعض الارورد الذي أتى كجزية من القبائل الإيرانية ولكن ليس بذلك الانتظام الذي يجعله المصدر الرئيسي للارورد الذاهب إلى آشور، أو أن البقية كان من الممكن أن تصل إلى آشور عن طريق التجارة عبر الموثقة

بالتبع كانت القوافل التجارية لا تزال في حركة دائمة عالمياً خلال الإمبراطورية الآشورية الحديثة وأيام عزها مع موافقة الملك الآشوري، وذلك لأن الملك سرجون كان يشير دوماً إلى الأعمال التي عليه أن يجرها ضد رجال القبائل الأرامية الذين استمروا في الإغارة على القوافل التي كانت تحمى مواطنين بابلين. ومع ذلك فإن المؤشرات التي ذكرناها قبل قليل ووجود بعض المؤشرات الأخرى المماثلة حول التجارة الخارجية بالنسبة للإمبراطورية الآشورية الجديدة يظل تؤتيق هذه المؤشرات صعباً ونادراً.

وهناك طريقان يمكن تمييز هذا الأمر بواضحتيهما

الأول: هي أن آشور لم تمتلك سوى تجارة خارجية صئيلة وهي التي كانت بشكل استلام الحرية فيما لو اعتبرناها شكلاً من أشكال التجارة، ولكن من الممكن أيضاً أن تكون التجارة الخارجية بالحقيقة واسطة ولكن كانت تحمل بآلية ثم لم تترك أي سجلات.

ونحن نعلم أن اللغة الأرامية بشكلها الأبجدي المكتوب كانت أبسط بكثير من اللغة المسمارية الأكادية، وكانت اللغة الأرامية قد أوردت استعمالها في آخر

قرن وربع من حكم الإمبراطورية الآشورية وكانت هذه اللغة تكتب ولكن ليس مثل المسمارية التي كانت تكتب في ألواح من القرميد وغير قابلة للتلف، إلا أن الأرامية كانت تكتب بالحبر وعلى قطع من الحزف أو أوراق البردي أو الدفوف. إن قطع الخرف تمتلك القدرة على البقاء، ولقد وجدت بصعة أمثلة من الوثائق الأرامية (ولكن ليس لهذه علاقة بالتجارة الداخلية أو الخارجية أو العالمية) ولكن بالنسبة للمناخ فمن الصعب بقاء أوراق البردي المكتوبة عبر آلاف السنين بحيث إن أي تجارة خارجية مسجلة على هذه المواد لا يمكن أن تترك أي أثر

الفصل الثاني عشر

السيطرة على البيئة

الآشوريون والموارد الطبيعية

لقد كان العنوان المقرر لهذا الفصل هو: العلم والتكنولوجيا، لكننا أضفنا هذا العنوان لكونه مضملاً

إذ إنه مع أن الآشوريين قد عرضوا بعض الحقائق التي من الممكن أن تدرج تحت عنوان عام وهو: المعرفة العلمية، وقد استعملوا عمليات ربما نعتبرها ضمن حقل التكنولوجيا

إلا أنهم افتقروا إلى تنظيم معرفتهم، ذلك التقييم الذي ربما برز استعمال كلمة علوم، ومع أن الاصطلاح المعروف باسم التكنولوجيا من الممكن تبرير استعماله حينذاك، إلا أنه يبدو وكأن فيه شيئاً من المبالغة عندما يطبق على مهارة صنعاعة القرميد.

ومن الممكن أن نتلاعب بالكلمات ونقول: إنه ما دام أن العلم من حيث الاشتقاق اللغوي يعني: المعرفة، وما دام أن الآشوريين كان لديهم معرفة، لذلك فنستطيع القول إنه كان لديهم علوم.

ولكن كما هو معروف اليوم فإن كلمة العلوم لا تعني المعرفة فحسب، بل تعني مجموعة منتظمة من المعارف تتوسع دائماً عن طريق البحوث التجريبية التي ربما تؤكد، وربما ترفض الفرضيات.

ولهذا نعتبر ضمن هذا المصطلح أنه لم يكن هناك أي علوم في آشور أو في أي مكان في منطقة ما بين النهرين القديمة، ما عدا الزمن الذي حدث فيه تحول من الألف الرابع إلى الثالث قبل الميلاد

ففي تلك الفترة المبكرة عندما كان العقل السومري المتوقد يتفكر الأسس المادية والمعنوية بالنسبة لجميع المجتمع القديم في منطقة ما بين النهرين.

فقد حدثت هناك تغييرات سريعة كانت تدل على ذلك الاستعداد للدخول في حقل التجارب مع المواد والأفكار التي تمد أسساً للعلوم.

ولكن منجزات السومريين الأولى كانت طاغية واكتسبت شهرة مهيبة عظيمة بحيث أصبحت المعرفة السومرية وبسرعة كشيء ثابت ونهائي.

وبعد الألف الثالث ومع وجود بعض الاستثناءات أصبح كل ما يجري عمله في أي مظهر من مظاهر الحياة محترماً إذا شعر الناس أنه متناغم ومتوافق مع ما أنجز في الماضي.

ولكن البهنة لمحت ثابتة، مثلاً من الممكن أن تتلاشى بعض الغابات التي كانت مصدر الحصول على الحشب، أو من الممكن أن تهجر إحدى المستوطنات نظراً للموجة التربة هناك خلال إنجار عمليات الري خلال مدة طويلة وقد أصبح هذا التهج من التطور في بعض درجات التغير حتماً بمرور الزمن.

ولكن وبالنسبة إلى منطقة ما بين النهرين القديمة فإنه عندما حدثت مثل هذه التغييرات كانت تعاط بالتعليمات التي توجب أن يظل الجديد متناغماً مع القديم. هذا وإنه من وجهة النظر النموذجية لمنطقة ما بين النهرين القديمة فإن المعرفة كانت شيئاً مستقراً ونهائياً، وذلك لأن الآلهة هي التي قدمته في البداية.

فلم تكن المعرفة شيئاً نامياً بشكل عفوي من الممكن تطويره وتحسينه عن طريق روح التساؤل.

لقد صرح بوجهة النظر هذه (بيروسوس) وهذا أحد الكهنة البابليين في القرن الثالث ق م والذي وصل إلينا بعض كتاباته باللغة اليونانية.

(وقد قصد بهذه الكتابات تفسير طرق الحياة عند البابليين لمعاصرة (اليونانيين) ويصف بيروسوس كيف أن (أوانيس) وهو مخلوق إلهي يظهر بشكل رجل يشبه السمكة وقد ظهر من البحر في الأزمنة المابرة وقدم لشعب منطقة ما

بين النهرين جميع المعارف، فقد قدم لهم بعض أحوال نفاذ البصيرة والحروف وفي جميع فروع العلوم والفنون من جميع الأنواع، وقد علمهم كيف يبنون المدن ويؤسسون المعابد ويبتدعون القوانين ويهيمون الأرض.

ومن ذلك الوقت لم يستطع أحد أن يضيف شيئاً ذا قيمة لتحسين تعليماته.

وفي الألف الثاني قم بذل الكتبة البابليون محاولات ضعيفة لتنظيم معارفهم (ولكن ليس لتوسيعها) فقد جمعوا وفحصوا جميع النصوص التي تعود إلى جميع المواضيع المتوفرة، ووضعوا نسخاً متقناً عليها لبعض النصوص، مثلاً الأساطير والنماذج والأناشيد والصلوات والتنبؤات الفلكية والوصفات الطبية والملاحظات الفلكية والمواد اللغوية، وكانت المواد اللغوية تشير إلى شيء مثل الموجودات من الأثاث المنزلي والكتالوجات تحصى قوائم الغنائم وقوائم بأسماء الآلهة والنباتات والمعادن والأشجار والمهن والأشكال المختصة بقواعد اللغة والتجويد.

إن إيجاز الأشياء المتفق عليها كما يقول المهتمون بالدراسات الآشورية والأشكال القانونية لسلسلة النصوص كانت تعتبر كافية في حد ذاتها ولم يستطع الكتبة أن يتجاوزوا قوائم النباتات الحيوانية أو المعادن ليصلوا إلى دراسات منظمة لبدائيات علوم النبات والحيوان والجيولوجيا (علم طبقات الأرض) وقد كانت كميات النصوص التي نشأت في بابل في الألف الثاني قم وكانت من جذور سورية تامة للألف الثالث قم.

ولقد وجدت بعض هذه النصوص في آشور والكمية الموجودة الآن في مينيوي في مكتبات مختلف الملوك الآشوريين وخصوصاً آشور بانيبال قد جمعوها، ولذلك فإن أي شيء يمكن قوله عن العلوم الآشورية المؤسسة على مثل هذه النصوص الأدبية إنما تعود لما كانت آشور قد نقلته واستعارته مباشرة وبشكل مقصود من بابل، ومع ذلك هناك بعض العوامل التي تظهر الثقافة الآشورية التي عرفناها إما من اللقيات أو التصاريح التي وجدت في النقوش ذات الأصول الآشورية ليس البابلية والتي من الممكن أن نمرزها لآشور نفسها

ولكن علينا القول ومع أننا لا نفتقر أن نسمع للأشوريين بنيل قصب السبق في معرفة العلوم المنظمة عندما يكون علينا الحذر عند استعمال الاصطلاح (تكنولوجيا) نقول:

إله كان هناك حالة عظيمة في آشور عندما عرفوا أنه من الممكن التوسع في المعرفة، ومن الممكن تحسين عملياتها وإيداعها التي قبلت على علاقتها ولم تلبس لباس المحكمة الإلهية القديمة

تمتاز شعوب المنطقة الجنوبية من أراضي ما بين النهرين بوجود إحدى المفارقات وهي: إنهم استمروا بالقيام بجميع منجزاتهم العظيمة في بيئة كانت فقيرة في كل شيء من الموارد الطبيعية كالحجارة والخشب الجيد، والمعادن الحام، فالأشوريون في شمال منطقة ما بين النهرين قد حالفهم الحظ في موقعهم فقد كانت الأحجار بمتناول أيديهم، وكانت أمامهم التلال الحجرية (وهذه تحتوي الحجارة العظيمة أو الرخام) التي كانت على مرأى النظر بالنسبة لكل من عواصمهم المتعاقبة.

ولقد حصلوا على الحجارة عن طريق المقالع المتوحة، إذ تركت إحدى هذه المقالع في عملياتها نوعاً واضحاً في وحوه الصخور قرب (المسكن-موصل) إلى الشمال الغربي من نينوى وكانت الأحجار مادة حام لا تصلح لبناء المعابد والقصور فحسب، بل أيضاً لبناء أبنية أخرى أيضاً

وهكذا كانت الأحجار تقلع بشكل قطع عظيمة بمساحة خمسة أقدام طولاً بعرض قدمين ونصف وذلك في أوائل القرن التاسع ق م، وقد استعملت هذه الأحجار في بناء سور لأحد المراكز.

وهناك قطع كبيرة يصل وزن الواحدة منها إلى عشرين طناً وكانت تحتل ثلث سوراً أو صدأ مثلاً.

وإن الإمدادات من الحجارة هي إحدى النقاط التي يمر منها معالم التجديد الواسعة نظراً لأنه وفي أثناء حكم سنجاريب (٧٠٤-٦٨١ ق م) أرسلت عدة فرق منها المساحين للتحقيق عن مصادر جديدة لأحجار وأجمل أنواع الحجارة.

أما الخشب الجيد وهو مادة ثباتية أخرى مهمة بالنسبة إلى منطقة ما بين
النهرين القديمة، وقد كان من السهل الحصول عليه لدى الآشوريين، ففي الأزمنة
القديمة التي كانت التلال القريبة من المواسم تحمل أشجاراً عظيمة (وقد بقي
منها البعض التي حمتها بعض الظروف المواتية) وحالما نفذت تلك الأشجار كانت
السيطرة الآشورية قد امتدت بحيث أصبحت الغابات فوق جبال زاغروس وطوروس
متوفرة وفي متناول اليد.

وكانت الشعوب المهزومة معتادة على قطع تلك الأشجار وتصديرها إلى آشور،
وهنا نجد أيضاً أن سحراريب قد قام بتجديد آخر، فقد أرسل هذا الملك المساجين
إلى الجبال بقصد التفتيش الدقيق عن مصادر جديدة للأخشاب الكبيرة الصمغة.
ولكن وعلى الرغم من استعمال الأحجار والخشب بقيت المادة الضائعة في
البناء هي اللبن والطين، وقد كان اللبن يستعمل بشكل قرميد مجفف بالشمس،
ولكن كان القرميد يتعرض للشوي أو الطلي بألوان متعددة بالنسبة لأعمال الرية
والقصور أو المعابد وكانت هذه الألوان تتراوح ما بين الأسود والأحمر والأزرق أو
الفضي.

وفي بعض أنهاء المعابد والقصور استُخدمت مواد عازلة للرطوبة وكذلك
البيتومين وقد وجد أن قطع الحجارة الصخرية التي شكلت عرساً في كبالاخ في
القرن التاسع ق م قد ثبتت بالبيتون، ويشير سحراريب بعد حوالي قرنين إلى نفس
الممارسات.

وقد استعملت هذه المادة أيضاً عند سد الشقوق في القوارب وكان البيتومين
متوفرًا من حضر خاصة موحودة في آشور نقيمها وهناك مثلاً حصرة من هذا النوع
(والحقيقة أنها عبارة عن تصرب من حلاقة حقل نفطي) على بعد قليل من وسط
نمرود.

وكانت هذه المادة تستعمل بشكلين إما كبيتومين خام قد أخرج ثواً من
الحصرة، أو بيتومين جاف وهو مادة لزجة ناتجة عن مزج القار مع الحجر الصخري
المطحون وهذا الشكل يستعمل بمجاء في بناء الأرضة

وكان هناك إحدى المواد الخام غير موجودة في جميع منطقة ما بين النهرين وآشور وحتى بابل وهي الخامات المعدنية ، ويجانب الذهب والفضة (وهذان كانا لبنين فلا يستعملان إلا في أغراض الزينة وهما أيضاً نادران فلا يستخدمان بشكل واسع) فالمعادن المعروفة في العالم القديم كانت الرصاص وكان هذا أيضاً أيضاً فلا يستعمل في معظم الأغراض مع أنه مفيد في صنع الحلويات للماء أو الأنابيب.

وكذلك الحديد والنحاس والقصدير وكان المعدنان الآخران بحلطان لتكوين البرونز ، لقد استعمل النحاس وخليطه البرونز في المشرق الأدنى ابتداء من الألف الرابع ق م مع أن الحديد عرف في أواخر الألف الثاني ق م.

وتوجد خامات النحاس والحديد التي كانت معروفة لدى الأقدمين في جبال طوروس وزاغروس وفي جبال الأناضول وفي هذه المناطق وحواليها بدأ إنتاج المعادن وتطور

ولازلنا نجهل كيف أصبح منتج المعادن في طوروس والأناضول قادرين على العمل في إنتاج البرونز الذي يتطلب إيجاد خليطة من القصدير.

وحتى الألف الثاني ق م لم يعرف صانعو البرونز في الأناضول عن وجود القصدير وخاماته في منطقة طوروس والأناضول وكان عليهم لذلك استيراده من بلاد آشور والأناضول ولذلك استوردوا القصدير من إيران التي كانت تعرف كمصدر من مصادر القصدير منذ الأزمنة القديمة

وفي هذا الوضع كان الآشوريون ابتداء من بداية الألف الثاني ق م (وحتى قبل ذلك) قد اشتغلوا في تجارة المعدن ونكس هذا العمل لم يؤهلهم ليصبحوا رواداً في علم تقنية المعادن والتي ظلوا فيها إلى النهاية أهل شأناً بالنسبة للشعوب الجبلية إلى الشمال منهم. وقد كان الآشوريون مصطربين لاستيراد معادنهم من الخارج وكلما كان لديهم أي إمكانيات كانوا يستوردون المعادن بشكل نقي مصفى أكثر منه بشكل خامات تفقر إلى الصهر.

ولكن كان للآشوريين إلام يعتمدون الخامات ولا سيما خارج أراضي آشور بالذات ، حيث لا توجد خامات ومنذ أيام اسرجدون (٦٨٠ - ٦٦٩) ق م الذي صرح

أن مصدر الذهب الذي استعمله هو العالم السفلي فقد كانت خامات المعادن تعاد معاملتها لهذا المرض.

وحلال الألف الثاني كان النحاس والبرونز، وبشكل عملي، هما المعدنان الوحيدان المتوفران في آشور، وكانا يستخدمان في جميع المجالات ابتداء من الأسلحة والأدوات حتى أحذية الحيول، ولقد كان الحديد الناتج من أصول ريزكية معروفاً في منطقة ما بين النهرين ابتداء من الألف الثالث ق م ولم يستعمل حتى القرن الثاني ق م وذلك بصهره من خاماته.

وكان مركز هذه التطورات آسيا الصغرى، وحتى هناك فقد بقي الحديد متوجهاً نادر الوجود حتى أواخر الألف الثاني ق م، وكان استعمال الحديد الرئيسي صنع الأسلحة، وهناك إمكانية محاولة ملك الحديد أن يمارس سيطرته على تصديره، وإن وجهة النظر هذه مؤسمة على رسالة أرسلت من قبل حاكمه حتى يعود رمته إلى منتصف القرن الحادي عشر

وقد أرسلت هذه الرسالة إلى ملك آخر من الممكن أن يكون شلمناصر الأول ملك آشور وقد اعتذر الحاكم الحثي بسبب تأخره في تقديم الحديد الذي طلبه الملك الآشوري، كان عدده من الأعداد المألوفة في دوائر التصدير وهو صمويات الإنتاج ولكن هل كان عدده صادقاً أم كان يحصي محاولة فرض الحظر التجاري؟

ولقد وجدت قديماً محاولات لفرض السيطرة الاستراتيجية والتي أشهرها القصة التوراتية التي تذكر كيف أن الفلسطينيين في القرن الحادي عشر ق م رفضوا أن يتعاملوا مع الإسرائيليين في الصناعة النقية للمعادن وذلك لئلا يصنع الإسرائيليون لأنفسهم سيوفاً ورمحاً.

ولكن سواء كان التأخير في انتشار إنتاج الحديد راجعاً لمحاولة الهيثيين الاحتفاظ بالاحتكار بالمصبة لهذا المعدن، أو إلى صمويات إنتاجية فعلاً، إلا إن هذا المعدن قد بدأ متوفراً لدى الملوك الآشوريين ويمكن بكميات صغيرة في القرن الثالث عشر ق م عندما نسمع عن ذكر حجر حديدي.

وفي القرن الثاني عشر ق م يرد ذكر حداد في البلاط الملكي قد منح خازنين بناء على أمر أحد الملوك وهذا يدل على أنه ليس الحديد محسوب بل أيضاً معرفة العمل بالحديد قد انتقل من آسيا الصغرى إلى آشور.

ومن الممكن أن يكون ذلك الحداد وابنه هو الذي صنع رؤوس النبال التي استعملها تفلات بيلامير الأول (١١٥-١٠٧) ق م بعد جيل من الرمان وتباهى باستعمالها ضد الثيران الوحشية ، ولكن لم يكن حتى أوائل القرن التاسع أن أصبح الحديد متوفر الوجود بشكل كاف لتزويد عدد كبير من المساهكر بالحاجز الكافية

وايذاء من نفس القرن فصاعداً استعمل الحديد لصنع الدروع المصنعة (التي لم يكن الجنود يلبسونها محسوب بل كانت الخيول الحربية أيضاً) وكذلك الخوذ والمزوس لتنظيف الطرق أمام الجيش.

ولا ينبغي لنا أن نظن أنه حالما أصبح الحديد متوفراً فقد حل محل النحاس والبرونز بصورة أوتوماتيكية في جميع الاستعمالات حين يمكن دحوله ، ولكن لم يكن الأمر كذلك ، إذ إن هناك عاملاً آخر هو أنه ليس من السهل التحكم بنوعية الحديد ، فالحديد الرديء قد يكون أقل فعالية من البرونز الجيد والنحاس الجيد.

وهكذا ومع أن المزوس الحديدية كانت تستعمل في شق الطرق في عهد آشور فاصير بمل (٨٨٣-٨٥٨) ق م إلا أن ابنه شلمناصر الثالث في نفس القرن وسرجون الثاني في أواخر القرن الثامن كلاهما يشيران إلى استعمال البرونز والنحاس في شق الطرق أثناء الحملات العسكرية.

ولكن بحلول القرن الثامن أصبح الحديد متوفراً لصنع أصناف متعددة من الأدوات وأواني المطبخ ، وفي قوائم الفنائم تذكر موافد التدفئة في الشتاء والمصابيح المصنوعة من الحديد بينما هناك أصناف حثيقية قد وجدت مثل السلامل والمعاول والأزاميل والمنغشبر والمسكاكين وشفرات الحارث والمطارق كلها كانت مصنوعة من الحديد

وقد وجد في الحفريات مخزن واسع يحتوي على أدوات من الحديد والقصدير التي جلبها سرجون الثاني ويبلغ وزنها حوالي (١٦٠ طن) من الحديد ، وقد وجدت في خورسباد وهي موقع عاصمة سرجون (دور شاروكين) ولقد حصل تحليل لبعض الأشياء التي وجدت في خورسباد ولم تكن النتائج متسقة.

فقد وجد أن معولاً وقدموماً مصنوعان من الحديد اللين، بينما كان هناك قضيب حديدي وعلى الرغم من أنه لم يكن متجانساً في تركيبه إلا أنه قد احتوى في بعض أجزائه ما يكفي من الكربون لجملة قاسياً كالقولاذ ، ولم يظهر أن الخبير الذي قام بهذه التحاليل كان متأثراً بالمهارة التقنية للحداين القدماء (الذين ربما لم يكونوا آشوريين بظراً لأن الأشياء كانت من الفائم) فلم يكن الخبير متأثراً في مجال التحكم بنوعية المعدن أثناء تدرجه من الحديد اللين حتى العولاد القاسي الذي يحتوي كميات كبيرة من الكربون.

ويبدو أن حداثي البرونز اللين كانت لديهم تقاليد طويلة الأمد ومشكلات أقل هؤلاء كان يبدو أنهم كانوا أفضل في أعمالهم.

واعتباراً من بدء الحفريات في آشور في منتصف القرن التاسع عشر بهم فقد لوحظ أن الآشوريين أو أولئك الذين سمعوا لهم البرونز قد تمرشوا على الخصائص المحتملة للبرونز وخللطه وتركيبها

وبينما كانت الطلسمات والصعرون والأقراط مصنوعة من نوع من البرونز المؤلف من جره واحد من القصدير بنسبة واحد إلى ستة ، فلقد كان الآشوريون ماهرين في صنع البرونز فلقد استطاعوا صنع أنابيب ذات أقطار صغيرة جداً تصلح أن تدخل في قضيب الرجل أثناء إجراء المعالجة الطبية له.

ولكن هناك بعض معاصري الآشوريين الذين كانوا أشد مهارة منهم في صنع البرونز فهي شمال آشور وفي الجبال التي أصبحت أرمينيا فيما بعد كانت هناك مملكة (أورارتو) ولقد كشفت الحفريات على كثير من أعمال البرونز هناك، ووجد أن كلاً من الصفات الفنية والتقنية عندهم أفضل من الأعمال الآشورية ولا بد أن الآشوريين كانوا موافقين على هذا الحكم، وذلك لأنه عندما سنحت

الفرصة كلما كان الحال عندما استولى الملك سرجون الثاني على أورارتو في حملة عام (٧١٤ ق.م) عندها أخذ الجيش الآشوري كميات هائلة من البرونز الأورارتي ككنائهم، ولم يكن البرونز بشكل معدن بل بشكل أشياء مصنعة

وقد أحصى سرجون الأشياء المأخوذة من الحديد والفضة فضلاً عن البرونز وكانت أعدادها تصل إلى مئات الألوف التي كان منها الخناجر البرونزية التي كان مقدارها (٢٠٥٠٠٠) ولكن لم تستطع ترجمة أسماء كثير من الأشياء المأخوذة.

وكان سرجون يساهم في الشعور بهذه القوة عندما اشتمل في قائمته (١٢٠) مادة برونزية من صنع بلنهم ولم يكن من السهل كتابة أسماء هذه المواد

التكنولوجيا الكيميائية

لا يعرف إلا القليل عن التكنولوجيا في المنطقة ما بين النهرين القديمة وتحتصر معلوماتها بما نستطيع استنتاجه من بقايا التجهيزات التي وجدت في الحمريات، ومن صيغة نصوص تماذج مثل هذه الأمر وتلميحات متناثرة في أمكنه أخرى.

ولسنا بحاجة إلى الإشارة أن تحضير الطعام في منطقة ما بين النهرين كما هو الحال والاماكس الأخرى كان يشمل بمص المظاهر المأخوذة من التقنيات الكيميائية باستعمال مواد كيميائية إضافية (كما هو الحال عند حفظ اللحم بواسطة التحليل) (عمل المخلات).

وبعض العمليات الميكروسكوبية مثل: استعمال الأنزيمات والبكتيريا والمطور في صناعة البيرة والتببيذ واللبس الرائب والخبز.

وعدا عن تحضير الطعام فإن العمليات الكيميائية المعروفة في منطقة ما بين النهرين القديمة بما فيها آشور كانت صنع الزجاج والمطور والصبغ ودباغة الجلود وتحضير القلويات والصابون، وعمليات التعدين التي تشمل الصهر في الأفران، وربما التقطير

والحقيقة أنه ليس لدينا نصوص واضحة مرتبطة مباشرة بأشور موسى صناعة الزجاج وتحضير المطور

إن الافتراض أن شعب منطقة ما بين النهرين كانوا قادرين على استخدام التقطير مؤسسة على الاستنتاج من وجود بعض الفخار والأواني الفخارية ذات حافة غريبة مزدوجة وكمات شتيها الداخلية مثقوبة وأحياناً لا تكون مثقوبة ، وعند رؤية غطاء في الأعلى ونار مشتعلة في الأسفل مع وجود شكل وعاء دون وجود ثقب للتصريف في الأعلى من الممكن أن تستخدم كجهاز للتقطير.

بينما نجد أن الشكل المجهز بثقوب للتصريف في القمة العليا من الممكن أن يكون جهازاً للتكثيف يشبه جهاز راووق القهوة.

مع أن هذا التفسير يبدو ممكناً إلا أنه ليس لدينا أي شهادة إيجابية أن أوانٍ من هذا النوع قد استعملت فعلاً كأدوات للتقطير أو أدوات للتكثيف.

هذا وإن الحصول على النار هو مظهر من مظاهر التقنية العيماوية القديمة التي لا نزال نجهلها ، ومن الألف الأول هناك إشارات عديدة قبل على استعمال الكبريت وإنتاج اللهب هناك مثلاً تعليمات في عدد من الطقوس تقول: ((إنك سوف تصبي مشملاً من نار تنتج من الكبريت)).

ولكن ليس هناك من دلالة على كيفية إشعال الكبريت.

وفي الألف الثاني وجد في آشور عظمات مصبغة الجانبين مصنوعة من بلورات منحرفة ومن الممكن استعمال هذه لتركيز أشعة الشمس بحيث تنتج احتراق ما تحته ، ومع ذلك فليس هناك من شواهد أبداً أن هذه العظمات قد استعملت بهذا الشكل.

إن أوسع مجموعة معروفة من النصوص المعمارية المختصة بالتقنيات الكيميائية تتكون من خمسة دزينات من النصوص تشرح صنع الزجاج الملون ، ومعظم هذه النصوص مأخوذة من مكتبة آشور بانيبال في نينوى.

وينبغي أن نشير إلى أن هذه النصوص تمتلك تاريخاً أدبياً طويلاً خلفها وفي الشكل النهائي الذي تتخذه ربما تعكس إجراءات حدثت قبل بضعة قرون في بابل وليس في آشور.

ومع ذلك فإن صنع الزجاج كان يتم بالتأكيد في آشور في الألف الأول، الأمر الذي نعلمه من وجود أوان زجاجية حقيقية وأشياء أخرى مثل بعض الخمر من الزجاج كلها وجدت في المواقع الآشورية.

لقد وضعت التعليمات التقنية في إطار سحري ديني مع وجود الحشوش الغيبي الممتد وكان على التقني أن يكشف (ربما عن طريق التنبؤات الفلكية وجود شهر مناسب أو يوم مناسب) وعندئذ يوسعه أن يبنى أتناً له ويمدها كان عليه أن ينصب بعض التماثيل التي تدعى كولو وتسمى هذه الكلمة ((الطفل المولود ميتاً))

وهكذا فإن هذه التماثيل تشير إلى أرواح الأطفال الذين ولدوا ميتين، وكان من الواجب تقديم طقوس الإراقة وهي سحب سائل على الأرض تكريماً للإله.

وكذلك ينبغي أن تقدم الضحايا لهذه التماثيل ويضع اقرباب أي شخص غير ملأهر طقوساً من هذه المشاهد، ومن الواضح أن هذه التمهضيرات السحرية كانت تدعكس شعور صانعي الزجاج بأن إلماهم التقني يعملهم غير كاف لصمان الزجاج وبمدها تتبع التعليمات التقنية وكانت هذه تشمل وزن العناصر المكونة وطعنها ثم مزجها، وبعد ذلك وضعها في أتون تحت شروط خاصة حتى تذوب الكتلة ويصبح متجانساً مع تكرار العمليات عند الضرورة

وبعد ذلك كان الناتج يبرد ويطحس ويمزج مع المواد الأخرى (لبلوغ اللون المطلوب) ثم يعاد تسخينه.

هذا وإن أحد تلك النصوص يقول.

((إنه في المرحلة الأخيرة ينبغي أن يترك باب الأتون مفتوحاً حتى يتوهج الزجاج المنصهر ويصبح لونه أحمر وعندئذ يقفل باب الأتون)) ومن الواضح أن تقنيي

منطقة ما بين النهرين كانوا يعلمون أن هناك نتائج مختلفة وقد تولدت عن طريق الأكسدة والاختزال.

نقد أشرنا إلى مضمون تتعلق بصناعة العطور وأن جميع هذه النصوص عدا نحن واحد قد أنت من مدينة آشور في القرن الثاني عشر، وكانت العملية التي يصفونها بالتحمر والقع والقلي برقق للنباتات العطرية في الماء لعدة أيام وبعد ذلك يصاف الزيت لامتصاص المادة العطرية وثم تستخلص العطور من طبقة الزيت الرقيقة جداً.

هذا وقد جرت محاولات لتفسير بعض المصطلحات التقنية المشكوك في أمرها في النصوص وذلك بالإشارة إلى عملية التقطير ولكن هذا أصبح أمراً مشكوكاً فيه أيضاً.

تخطيط المدن

كانت المحاولات المقصودة للسيطرة على البيئة التي تمثلت ببناء المدن ما هي إلا مظهر آخر من مظاهر تحكم الإنسان المتزايد في الطبيعة ولكن وفي الوقت نفسه فإن شكل المدن القديمة من الممكن أن يعكس تشكيل الطبيعة للإنسان.

وذلك لأن أصولها نابعة من الجغرافية، هذا وإن مواقع المدن القديمة وإلى حد كبير محططات مساحة الأرض والمواد المستعملة إنما تقررت عن طريق مظاهر طبيعية، أي. عند وجود نهر أو تلة أو أرض حصية، أو مواد قريبة من العبارة، أو الأخشاب المستعملة في البناء.

وصمن هذه المقاييس تمت المدن الأصلية كمجموعات متشابكة من الجيران، مثلاً منطقة المعبد أو سوق الحمامين، أو سوق بائعي الفخار، أو بيوت المسكن التي تبنى دون تخطيط معقول.

ولكن فيما بعد عندما وجدت السلطات المحلية التي تستطيع تجاوز الاعتبارات الحزنية طبقاً لمصالح الدولة ككل، عندما أصبح من الممكن إيجاد

شبه من تخطيط المدن التي أصبحت ضرورية من الضروريات، إذا اقتضت المصالح الوطنية إعادة بناء مدينة

ومع ذلك وحتى في مثل هذه الحالات هناك تغييرات لما يمكن عمله، وقد كان أوضح هذه التغيرات المظاهر الدينية المحافظة التي كانت تطلب أنه حيث كان هناك معبد عندها يجب بناء معبد شبيه له بالضبط على ذلك الموقع ولعكس وضمن هذه القيود تم بناء عدد من المساكن وتم إحداث تخطيط جديد وذلك في الألف الأولى قبل الميلاد في عواسم منطقة ما بين النهرين القديمة وبابل ونينوى.

وقد كان مجال الترميم التام واضحاً في بابل نظراً لأن هذه المدينة قد نهبت وهدمت إلى الأرض من قبل منحاريب ولكن تفصيل ذلك الترميم إنما يعود للتاريخ البابلي وليس للآشوري. هذا وتهمما جداً نينوى وهي آخر عاصمة آشورية وسُحِبَ ورسمها إلى حد لا بأس به من منحاريب.

كانت إحدى أبحاث بعض المؤرخين القدماء هي ما يخص الأوائيل، وعلى هذا الأساس يمكن أن ندعو منحاريب أول مخطط للمدن. وكان من منحاريب مخططاً نموذجياً وقد أوضح الخصائص المهمة جيداً وما هو سين فيها.

وكان لديه رغبة صادقة لعمل ما هو الأفضل لدولته ومدينته وشعبه، وكان معتقداً بأنه يعلم ما هو الحير بالنسبة لهؤلاء، ولم يكن يتورع عن إبداء الحقائق بشكل تبدو فيه مناسبة لأغراضه.

تظهر هذه الحقيقة وبداية سرد منحاريب للأعمال التي قام بها في نينوى، ومع أنها كانت مدينة ذات أهمية متزايدة منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

وقد كشفت العاصمة القديمة آشور بالنسبة لأهميتها الاقتصادية والتجارية قبل ظهور منحاريب إذ أنها لم تصبح عاصمة لآشور المتوحدة قبل منحاريب.

ورغم ذلك فإن سنحاريب يصف نينوى بأنها المكان (حيث منذ الأزمنة القديمة مارس الملوك الذين أتوا قبلي من أجدادي شؤون الملك قبلي، ووجهوا رعايا الإله انليل).

والحقيقة أنه ليس من كذاب في هذه التصريحات فقد حكم أسلاف سنحاريب نينوى كما يقول التصريح، ولكنهم لم يحكموا نينوى كما تقيد العبارة التي ذكرها وهي أنهم وجهوا رعايا الإله انليل.

وربما كان هناك بعض الصراعات السياسية التي وقعت وراء هذا الادعاء وهو مسألة نقل العاصمة، إذ إنه مع وجود إمبراطورية متعددة شمالاً وشرقاً وغرباً كانت مدينة آشور في أقصى الجنوب، وهذا موقع غير مناسب بصورة استراتيجية كموقع مدينة الشمال.

ولكن كان هناك عامل ثانٍ إذ إنه نظراً لأن آشور كانت مدينة ومركزاً معترفاً دينياً فقد اكتسب مسكناتها واحتفظوا بالميزات، مثلاً الإغفاء من الضرائب والسفرة (وهي واجبات الخدمة الإجبارية).

وقد شعر عدة ملوك بالقيود الناتجة عن ذلك، فقد بنى توكلتي نينورتا الأول لنفسه مدينة عبر نهر دجلة

وأسس آشور- ناصر- بعل عاصمة جديدة كلياً في (كالك) وقد بنى هذه المدينة فوق مدينة سابقة صغيرة.

وحسب شلمناسر الخامس عرشه بسبب حصوماته مع مدينة آشور، في حين أن سرجون الثاني وهو والد سنحاريب قد اضطر للتنازل عن جميع مطالبه من شعب آشور لكي يحصل على تأييدهم في مطالبته بالعرش، مع أنه ولكي ينجو من هبصتهم بنى لنفسه قاعدة ملكية جديدة إلى الشمال الشرقي من نينوى في المرتفع الذي أطلق عليه اسم دور شارووكين (وهي مرتفع خورمبلد اليوم).

لقد زاد سنحاريب من قيمة نفسه عندما مكتب تصريحاته في سبيل إعادة بناء نينوى، ولكن لم يكن هناك من شيء غريب عندما يصف أحد الملوك الآشوريين عمليات بناء عاصمته الجديدة.

فقد تخلصت النقوش الآشورية الملكية من ذكر أحوال البناء وأصبحت تذكر الملك نفسه وألقابه، وأضافت ملاحظات مختصرة عن بعض الحوادث الجارية في الدولة وذلك لكي يتم تثبيت التاريخ، وبعد ذلك كان بعض أعماله التي تدل على التفوق عند بناء ما بنى.

وقد قدم الملوك الآشوريون نقوشهم الملكية بتوسيع أخبار أي حادث جديد في الدولة، وجعله قصة مفصلة تصف الحملات الملكية.

ولكن أخبار البناء كانت دائماً في القسم الأخير من النص، ولو كان هذا النص غالباً ما يشير إلى إصلاحات صغرى في معبد أو أي بناء عام.

وهذا يعني أن شكلاً تقليدياً كان بمقتول اليد عندما يريد سنحاريب أن يصف ما صممه نينوى، وقد حصل على كل المائدة من هذا العمل.

والرواية الآتية التي تبين ما كان يدعيه وما فعله، وهي تجدد عدداً من الروايات المحتملة عن عمله في المدينة وهي تمثل الروايات جميعها حول معجزات سنحاريب في هذا العهد، ولهمت روايات متسلسلة متكررة حول النظام الذي قال عنه. إنه أتى به ذلك العمل.

ويبيني أن نذكر هوراً أن هناك كثيراً من الأشياء التي لم يحبرها عنها سنحاريب التي نُسرت أن نعرفها، إذ إننا نود أن نعرف كيف يعين الناس العاديين، وكيف بنيت بيوتهم وكيف تجمعت وكيف يتصرفون في أمور السوق والطعام والمعابد ولكننا نستطيع أن نكتشف ذلك من الحفريات، فقد كان كل اهتمام سنحاريب في مثل هذه الأمور هو أن قرر بأن لا يجوز أن تكون البيوت الخاصة معيطة بالطريق الملكي.

وكان اهتمام سنجاريب الرئيسي منعصراً في بيته وهو القصر الملكي، ولقد كان هناك قصر ملكي في نينوى دوماً ولكن الآن وبمقد أن أصبحت نينوى العاصمة الإمبراطورية أصبح ذلك القصر صغيراً، ولم يكن يقطن نصف هذان أو ما يقارب ذلك، ولذلك قرر سنجاريب أن يبني قصراً مناسباً وأن يبني عاصمة مناسبة أيضاً

ولم يكن هناك نقص في الموارد وقد قدمت حروبه عدداً من المبيد للممل، فأرسل عدداً من الخبراء الجيولوجيين إلى الجبال للتحقيق عن أحجار شبه كريمة وأحجار تصلح للبناء، ولقد أمس سنجاريب ووضع تحت تصرفه كميات من الخشب الجيد المجلوب من الجبال الممتدة من جبال لبنان وأمانوس في الغرب حتى جبال زاغروس شرقاً

وكان هناك مادة ثمينة للبناء وهي أشجار القصب الهائلة (التي يبلغ طول الواحدة منها ٢٥ قدماً) من المستنقعات الواسعة في جنوب العراق والتي يقال عنها إنه قد سحبها وأوصلها إلى آشور ولم يمضُ كثيرٌ جرّت هذه الأشجار ولكن تصريحه من الممكن أن يعني أنها قد ربطت ونقلت عبر النهر في قوارب.

كانت الأيدي العاملة تأتي من جميع أنحاء الإمبراطورية. من مستنقعات في جنوب بابل ومن شمال غرب إيران ومن أسية الصغرى من سواحل فلسطين، وقد أسهمت هذه المجموعات المختلطة المولمة من جماعات عرقية وثقافية مختلفة، في توحيد مناطق الشرق الأدنى تدريجياً ولم تذكر الأعداد التي كانت تستخدم للعمل في نينوى، ولكن كان هناك مئات الألوف من العمال تحت تصرف سنجاريب.

وتقع نينوى حيث يتصل أحد الروافد المدعو حوسر بنهر دجلة، وكان يجري إلى جانب القصر القديم فرع من حوسر يعرف باسم تيلتو وفي أوقات الفيضان، لم يسبب تآكل الأرضية التي وقف عليها القصر هعسب، بل وصل النهر إلى داخل المدينة وأتلف مدينة ذات قدسية تدعى الجيخوبو

ونبشت القبور القديمة التي احتوت عليها تلك المدينة ، وقد عالج سنعاريب المشكلة بأن حوّل مجرى ذلك النهر ، وملأ مجراه القديم بقطع كبيرة من الحجر الكلسي المجلوبة من الجبال ، وبثتها بالكهتومين ، وفوق هذه وجدت كميات من القصب وكانت مترابكة تهدد البيوت بالخطر ، ولقد أمنت الجمالية ضد الطوفان ، وذلك ببناء سور مدعوم بقطع من الحجر الكلسي.

وفوق كل ذلك بنيت شرفة علوها (١٧٠) متعامكاً من القرميد (وقد ذكر سنعاريب في مكان آخر أن عدد المهداميك (١٨٠ أو ١٩٠) فوق القاعدة ، وكان القصر الجديد في هذا المكان.

وفي عدة نواح كان القصر الجديد بناءً نموذجياً في نوعه ويتألف من عدة غرف متوضعة حول سلسلة من الباحات ، وكانت بعض الغرف عبارة عن أماسكن مفصصة للسكن أو مكاتب إدارية وهناك غرف طويلة تولم المقر الحكومي ، ونحن لا نعرف هذه الأمور من أي أوصاف ذكرها سنعاريب بل من الحفريات الحديثة ، وكان هناك تجديدات معمارية ذكر سنعاريب أنها تمنطق الذكر ، وكانت هذه تتحصر في وضع رواق ذي أعمدة على واجهة القصر وهو نسعة عن أسلوب البناء الموزي وهذه كانت تدل على رعية سنعاريب في تبني الأفكار الجديدة.

وكان المظهر الآخر من مظاهر القصر الذي اعتبره سنعاريب شيئاً يستحق التسجيل بالتعميل وهو حجم القصر فقد كان حجم القصر يزيد على عداين ونصف من الأرض وكذلك زينة القصر

وكانت المادة الرئيسية التي تغطي العظمة على البناء هي أخشاب الزينة المطرة ، ويقول الملك: إن الآلهة قد أظهرت له الأمكنة التي كانت أشجار الأرز الصخمة تنمو في الجبال وأنه قد أمر بجلب أشجار الأرز وأشجار أخرى من المايات الضخمة في جبال زاغروس وأملنوس.

واستعملت هذه الأشجار في تحضير العارضات والأعمدة والأبواب ومن الفرابية
 بمكان أن سنجاريب قد خسر جمال الغابات بسبب معيها للزخرفة، وقد أخبرتنا
 أنه وضع أبواباً مزدوجة من الأخشاب المطرة ويمدها كسماها بالمضرة والنحاس.
 3 وكان هذا يعني أنه إما قد دهنها بألوان فاتحة أو أنه طلاها بمعنن لامع
 ويُعتبر التفسير الأخير أنه الجواب الأكثر احتمالاً، نظراً لأنه وفي المصور التالية
 يقول الملك:

إنه قد بُت مسامير من القضة والنحاس حول العجيرات المذكورة، وقد استعمل
 العاج المحفور من أحل الزينة، أما الحدران الخارجية فقد زُيّنت بالقرميد المطلي
 الملون فوق كورنيش وإعريض مائل.

وكما ذكرنا سابقاً فإن سنجاريب قد أُرسل كشافين إلى الخارج للتحقيق
 عن مصادر جديدة للمعادن، وذلك لأنه يحيرنا أن الرخام الشفاف الذي كان نادراً
 في أيام أسلافه وأنه مكلف جداً، وقد اكتشف في أحد الجبال بحيث إنه
 يستطيع أن يصنع تماثيل معبوتة منه

ووجدت مصادر جديدة من الحجارة الأخرى بما فيها كريمة واسعة من الحجر
 الكلسي الذي نحتت منها تماثيل الثيران الهائلة، وقد كانت هذه الحجارة تنقل
 فوق نهر دجلة إلى نينوى على أطواف في موسم الفيضان.

وكانت تماثيل هائلة تصنع من البرونز بواسطة عملية جديدة وهي العبيك
 المتجوف التي اخترعها سنجاريب نفسه، وقد رُود القصر بعماء الشرب من آبار
 مجهرة ببكرات مثبتة على عارضة مع وجود سطول ترتفع من الممر وهي مثبتة
 بسلسلة طويلة من البرونز

أما التدفئة والتهوية فهي مظاهر تختص بتقنية البناء التي لم يتنازل سنجاريب
 بإحبارها عنها ولكن الحفريات العملية في قصره والقصور الأخرى تدلنا بما
 يساعد على ملء هذه الثمرة، إذ ربما يكون الطقس بارداً بشكل لادع في نينوى
 في فصل الشتاء، ولا بد أن سنجاريب كان لديه طريقته الخاصة للبقاء بشكل
 مريح

فقد كشفت الحفريات هناك وفي قصور أخرى عن إنشاءات بشكل سدك حجرية متوازية موضوعة في أرض القصر وتشبه خطوط القطارات، فقد اقترح أن هذه الخطوط كانت منزل فعم فيه حجرات من نار على دواليب يمكن أن تتحرك في الغرفة إلى حيث كان الدفء مطلوباً.

إن استعمال منزل النار المتحرك في القصر يتطلب شكلاً من أشكال التهوية وذلك في حالة رغبة السكان التخلص من أول أكسيد الكربون المصاحب ونتاجه الضارة، ولكن لم يستطع علماء الآثار تقديم أي قرينة تثبت ذلك نظراً لأن أي ترتيبات من هذا النوع تتطلب أن تكون متوضعة في الجزء العلوي من الجدران التي لا شك أنها اختفت.

ومع ذلك فإن النصوص تذكر وجود شيء في أحد القصور وهو يدعى بابها النسيم الذي يظن أنه نوع من نافذة للتهوية من الممكن فتحها وإغلاقها

وبالنسبة للشخص الآشوري كانت النظافة تقترب من العبادة، وكانت هناك عدة مناسبات كان من الواجب القيام بالاعتصام لأغراض طقوسية دينية وهي مختلفة تماماً عن قضايا المحافظة على الصحة والراحة الشخصية، وكانت هذه الحالة تنطبق على الملك، إذ كان هناك في قاعة العرش باب يؤدي إلى عرفة الاستحمام، وهذه كانت مظهراً شائعاً في القصور، وبشكل نموذجي كان للحمام أرض مصنوعة من القرميد المشوي لا يتمزب منها الماء لوجود البيتون، وهذا كان يحمي الأجزاء السفلى من الجدران وفي منطقة منعصنة من أرض الحمام هناك ثقب أو ثقبان لتصريف الماء وفيها سدادات حجرية

ولا يوجد في قصر منحاريب أي مكان يمكن أن يدعوه مرحاضاً مع أن هناك بعض الثقوب للتصريف من الممكن أن يركب فوقها مقعد، مع أن المقعد غير ضروري إذا كان الآشوريون يقرصمون عند التغوط، وذلك كما لا يزال العراقيون يفعلون ما ثم يكونوا قد تأثروا بالمعدات الأوربية.

وبالإضافة إلى بناء القصر فقد رُمّ منحاريب ووسع بناية ثانية كبيرة من الممكن أن نسميها بأنها ثكنة عسكرية مع أنها لم تحتو على عساكر بل على

حوول تعمل لمصلحة الجيش والمركبات الحربية (المریات والشاحنات) والنجبهزات الميدانية بمشكل عام، وفي البناء هناك، صاحة استعراض كبيرة تستعمل لتدريب الخيالة وتمارين حوول جر المريات فضلاً عن الحيوانات الأخرى المستعمدة عند القيام بالحملات العسكرية مثل البقال والجمال.

لقد اعتنى بمعدل القصر ووسّع الشوارع لإنشاء طريق ملكية عرصها نحو تسعون قدماً تولف طريقاً مرتفعاً مصنوعاً من ألواح الحجر الكلسي ومزيناً بمسلات على جانبيه، وقد صكبت إنداراً على جانب الطريق يذكر أنه إذا عمد أي إنسان إلى إعادة بناء بيته وحمل أسس هذا البناء داخله في الطريق الملكي فسوف يعاقب بوضعه فوق الخاروق على سطح منزله.

ولم يسنّ سنهاريب أن يزود قصره بمنظر ملائم ولذلك فقد أنشأ ما دعاه بالمنتزه العظيم وكان هذا المنتزه يشبه جبال أماموس، فقد كان فيه جميع أنواع النباتات المطرة وأشجار الماكهة التي تنمو في الجبال وفي أرض سكلدان، وكذلك الأشجار التي تحمل الصوف أي القطن، وليس من السهل زرع مثل هذه الأشجار في منطقة نينوى حيث درجة الحرارة مرتفعة ولا يهطل المطر ابتداء من شهر أيار حتى تشرين الأول.

ولم يمكن من الممكن جلب الماء من نهر دجلة في زمن سنهاريب لأن مياه النهر كانت منخفضة جداً بالنسبة للأرض حول نينوى، وقد تلعب سنهاريب على هذه الصعوبة وذلك بحفر نظام من الأقنية لجلب الماء إلى حديقته من الجبال والنباتات على بعد نحو ثلاثين ميلاً من ثلاث جهات على الأقل، وكان الجهر من هذا النظام الذي وصلت إلينا معلومات عنه من نقوش سنهاريب والذي كان أهم جزء من هذا النظام على العموم بحيث كانت المياه الجبلية تجر بواسطة الأقنية والقنوات إلى نهر حوسر وهو رافد من روافد دجلة، حيث بنيت السدود والقناطر وذلك لضبط منسوب المياه حالما يقترب حوسر من نينوى.

وما تزال أجراء، ككثيرة من هذا المشروع الهندسي الهائل ظاهرة حتى الآن ويمكن رؤية آثار الفن الآشوري في إقامة السدود على أحزاء من نهر حوسر عند

انخفاض منسوب المياه في النهر، كذلك نرى في أحد الأمكنة حيث ينبغي عبور أحد الوديان أنه قد بني نوع من الأقنية طولها حوالي (٢٠٠) ياردة وهي مؤلفة من حوالي مليوني قطعة حجرية مضممة تزن القطعة حوالي ربيع طن وكانت مرصوفة على أساس من الجص الغضنة، وكانت قمة القناة تبلغ أربعة وعشرين ياردة طولاً وتدرج بشكل يضمن تدفقاً منتظماً للمياه وهيها دعائم لتقوية جانبيها

رُما يتساءل المرء فيما إذا كان المشروع الطموح ذا فائدة اقتصادية وذلك من وجهة نظر نمو الاقتصاد الزراعي في جوار نينوى، ومن المحتمل أن الأمر ليس كذلك ولم يكن هذا هو هدف التجربة الواضح اقتصادياً، فإن ما كان سنحاريب يحاول عمله -وهذا يُعدُّ من حسناته- كان تحسين نمط الحياة بالنسبة له ولشعب نينوى وذلك عن طريق بناء مدينة يهيج الإنسان أن يمشي فيها.

وهكذا فإن المياه الآتية من نظام القنوات، وبعد أن تستثمر في سقي الحديقة لا بد أن يسمح لها أن تجري بشكل عشوائي لتصل إلى نهر دجلة للاستفادة منها، كتمدنية المنطقة التي كانت -لولا ذلك- ستصبح مستقماً، وتنفذيتها للمنطقة سوف تشجع إكثار النباتات والحيوانات حيث أجمعت القصب والظهور المائية المفردة والخنازير البرية، ولقد شجع أهالي نينوى على القيام بواجباتهم في حمل المدينة مناسبة ومستثمرة، فقد قسمت الأراضي في أعالي الجداول إلى قطع تبلغ مساحة القطعة فداناً واحداً أو ما يقارب ذلك وذهب سنحاريب هذه الأراضي أهالي نينوى لكي يزرعوا فيها الحنائق.

لقد زادت مساحة المدينة كثيراً، فقد كانت مساحتها سابقاً تبلغ ١٨٠ فداناً والآن بس سنحاريب سوراً يحيط بالمدينة التي أصبحت مساحتها ألف فدان ويقال: إن السور كان سمكه حوالي أربعين قطعة من الفرميد وعلوه حوالي ١٨٠ مدماًحاً، وهذا يعني أن سمك السور أربعون قدماً وعلوه خمسة وأربعون قدماً وكان هناك ١٥ بوابة في السور وبعد هذا السور الداخلي كان هناك سور ضخم هو السور الخارجي.

والى شمال وجنوب المدينة كانت هناك حدائق أخرى ومن المحتمل أن الأراضي المحروثة التابعة للمدينة كانت منتشرة إلى مسافة تبلغ خمسة أميال وحتى عشرة فيما وراء المدينة.

البيوت الخاصة

لا يعرف إلا القليل عن البيوت الخاصة في آشور كما يعرف عن القصور ولا بد أن يكون هذا الأمر محتوماً، إذ إن الملوك الآشوريين يقدمون لنا معلومات واضحة عن قصورهم في نقوشهم ولكن لم يكن لهؤلاء الملوك أي مصلحة أو اهتمام بوصف البيوت الخاصة

وهو قد ذلك فإن بقايا القصور التي كانت تبنى على تلال ظاهرة في المواقع الأثرية، هذه القصور كان من الممكن تمييزها بشكل أفضل من تمييز البيوت الخاصة، وكذلك عليها أن نمتدح أن القصور من المحتمل أن تحتوي مواد أو أشياء يمكن حفظها في المتاحف، وهكذا كان الوضع حتى الأرملة الحديثة، نجد أن علماء الآثار في آشور، إذا جاز لهم الاختيار فإنهم يختارون الحفر والتفتيش في قصر أكثر من اختيارهم الحفر في بيت عادي.

وأخيراً نظراً لأن القصور تحتوي على أجزاء لا بأس بها من الحجارة، بينما نجد أن البيوت الخاصة مبنية من المعار والقرميد حتى أنه ولو كان بالاستخانة الكشف عن بقايا البيوت الخاصة فإن هنالك مشكلات خطيرة تظهر إذ ليس من السهل العثور على معلومات ذات قيمة بالنسبة لشكل البيت.

ومع ذلك فإن لدينا بعض المعلومات الواردة من النصوص حول البيوت الخاصة، وهذه تأتي على العموم من الوثائق التي تشير إلى بيع أحد البيوت مثلاً، وهذه الوثائق التي طالما تعطي جرداً عن محتويات البيت.

وهناك نحن من هذه النصوص يسجل بيع بيت مبني وعمه عارضاته وأبوابه مع ما في الباحة والحمام، ومعنى الخدم في البناية الداخلية، وكذلك الطابق العلوي، وعرفة المنزل والسقيفة والمقبرة.

وهناك نص آخر يعود إلى الألف الأول يصف بيتاً في نينوى، وهو بيت مبني مع عوارضه وأبوابه، وغرفة الطعام وغرفة النوم، وحمام وغرفة غورسو (لا يعرف معنى هذه الكلمة) وغرفة مزين وطابق علوي، فيه أربعة أبواب.

وبالإضافة إلى ما تذكره مثل هذه النصوص فإننا نعلم شيئاً عن البيوت الخاصة ومحتوياتها بالهاكل الفعلية التي تم العثور عليها من طريق الحفريات في مكلتا العاصمةين آشور وكالاخ، وفي بلدة ريفية وهي شيباكيا (اسمها اليوم تلة تيب غاورا) وهي على بعد نحو (١٢ ميلاً) من نينوى.

لقد أظهرت الحفريات في كالاخ مجعداً مؤلفاً من ستة بيوت متلاحقة إزاء سور المدينة، وكانت الجدران من اللبن الطيني مغطاة بطبقة من الطين، كما أن اللبن المرصوص كان مستملاً في معظم البيوت وأرضياتها، مع أن بعض الممرات والباحات كانت مبلطة بالقرميد المشوي أو بالجر.

وكان أكبر هذه البيوت يحتوي على اثني عشرة غرفة أرضية، وكان يشغل نحو ثلاثة آلاف متر مربع (حسب الرقم الذي ذكره عامل الحفريات) وهذا الرقم غير دقيق، بل ربما كان (٢٥٠ متراً مربعاً) أو أقل من ذلك، أو ١ من ١٦ من الفدان، ومع ذلك فإن هذا البيت تبلغ مساحته ضعف مساحة أي بيت حديث، يحتوي على أربع غرف للنوم، وكان بعض جدران المشرى التي تقسم الغرف سميكاً، ووجود الأبراج يدل على أن البيت كان فيه طابق علوي.

ولكني تتم الشروط القطعية اللازمة لجلب الراحة في المنزل ينمي أن نلاحظ أن جزءاً من المساحة كانت تؤلف بعض الباحات.

وكان مدخل الدار يبدأ من باحة خارجية، وهناك باحة داخلية مبلطة، وهما غرف للمزج في جانب من الباحة، وغرفة الاستقبال في الجانب الآخر.

وفي حلق غرف المزن كان هناك قبو الدهن العائلي نظراً لأن موني الآشوريين كانوا يدهقون تحت أرضية بيوتهم، وقد وجدت غرفة صغيرة تحتوي هراً مخروطي الشكل لصنع الخبز وهو مصنوع من القمار.

وكان هناك غرفة كبيرة نوعاً ما وجد فيها الهيكل العظيم لكلب الحراسة في المنزل.

وفي غرف أخرى وجدت مجموعة أخرى من أواني جمع الطعام وكسرات وجرار كانت تحتوي على آثار من القمح والشعير والدخن ويدور الكتل والزيت وفأس من الحديد. وهناك أدلة أخرى على أسلوب المعيشة المترلية في بيوت الآشوريين ومنها ملقحة مصنوعة من العظم.

ولم يجد الأثريون أي أشياء مصنوعة من معادن ثمينة ولكن صادف أن كان البيت قد سرقت منه أدواته وأحرق ولا بد أنه قد سرقت منه معادن ثمينة لو وجدت. وكان في بعض البيوت الحامصة الآشورية مراحيض مع مصارف وهي بمثابة أقبية مصنوعة من القرميد ومع أنه وفي الألف الثاني قم أصبح هناك أنظمة للصرف الصحي مصنوعة من أنابيب من الصغار.

وكانت الأبواب الداخلية للبيوت تعلق على ركائز تدور داخل حجرات موجودة ضمن قطع من القرميد المشوي.

وكانت في بعض الأحيان تجويفات تدل على أنها كانت خرائن داخل الأرض وكان هناك محالين تحت أرض الغرفة تحفظ فيها الأشياء الثمينة

قوة الحيوانات والمواصلات البرية

هناك مرحلة أخرى مهمة تمثل سيطرة الإنسان على الطبيعة وهي استخدامه لقوة الحيوانات ويبدو أن هذه العملية قد بدأت في منطقة ما بين النهرين في زمن متأخر عن بداية الألف الرابع حين ظهرت الثيران وهي تجر المزارع

ولقد اخترع الدولااب في هذه المنطقة وبذلك تحولت المرحلة إلى عربة أو مركبة ولقد شكل هذا التطور جزءاً من نظام المواصلات في آشور وقيت العربات (التي قد تحسنت بشكل تقني وذلك باستعمال الدواليب ذات الأسياح بدلاً من الفواليب الخشبية).

هذا وقد ظلت هذه العربات تُجر بواسطة الثيران وعلى مقبضات بواسطة البغال حتى نهاية الإمبراطورية

وابتداء من زمن الإمبراطورية الآشورية الوسطى بدأ استعمال العربات الحربية السريعة الحركة والتي كانت تجرها الخيول.

ولقد استعمل الملوك الآشوريون الجدد شكلاً جديداً محسناً من العربات الخفيفة (دات الدولاين) وكانت هذه العربات مزودة بمظلة اتقاء لحرارة الشمس.

ثم حدث استخدام الحديد مع الثيران مما شكّل مرحلة جديدة لسيطرة الإنسان على بيئته وهو جر المحراث، ثم حدث استعمال ثالث لقوة الثيران في دراسة الحبوب التي كان الحيوان يجر نوعاً من النواحر المرسّعة بأحجار صغيرة من الصوان ويتمدد هذا النورج على رؤوس كهيّان الدرة الممتشرة على أرض البهر.

وكانت هناك قوة أخرى حيوانية وهي قوة الحمار ثم قوة الحصان واليغل الهجين وإلى حد محدود الجمل.

وإن الحمار هو الذي خدم كحيوان يحمل الأشياء بحيث كانت قافلة من الحمير تستطيع نقل كميات كبيرة من البضائع لمسافات طويلة في أرض صعبة التضاريس بحيث يتعدد مدى مشاهد هذه الحيوانات بإمكانية توفر المياه.

ومن الواضح أنه كان بالإمكان استخدام الحمير للركوب، ولكن ركوب الحمار أقل راحة من ركوب البغل، هذا وإن الحمار بطيء في سيره إذا قورن مع الحصان.

ولكن بحلول الألف الأول ق.م لم يعد الحمار مقبولاً بشكل عام، وهذا منجم الملك، وهو موظف من الدرجة الثالثة يطلب من الملك:

(أتوني بحمار أركبه لكي ترتاح قدمي).

أما تدجين الحصان ومن ثم تقديمه ووصوله إلى منطقة ما بين النهرين في نهاية الألف الثالث ق.م فقد كان له وقع كبير على حياة البشر

وبعد أن استعمل الحصان لجر العربات الحربية أولاً من قبل الآشوريين فقد وفر الحصان مبرراً ومنصة لإطلاق سهام الأمر الذي سوف يضمن النصر في المعركة إذا كانت التضاريس الأرضية ملائمة.

وعندما استعمل الحصان كوسائل للفريسة كما كان الحال بالنسبة للآشوريين في الألف الأول ق.م فقد وفرت قدرة الحصان على إتقان المناورة وإن سرعة الحصان أعطت أفضلية تكتيكية في المعركة مما أسهم إسهاماً كبيراً في نجاح الجيوش الآشورية في الشرق الأوسط ولكن لم يستعمل حصان الركوب في الحرب فحسب، إذ إنه قد وفر الاتصالات المبرية وقد عملت هذه النقطة في إحرار الآشوريين قصب السبق.

وحالما توسعت الإمبراطورية الآشورية اعتباراً من القرن الثامن ق.م، أصبح من الضروري لكي تستطيع هذه الإمبراطورية ضبط وحكم وإدارة نظام هذه السلطة الضعيفة تأمين المواصلات المنظمة والمستمرة ما بين حكام المناطق النائية والعاصمة.

وهكذا فقد جعل الآشوريون الحصان طرفاً في هذا النظام، ونشأت شبكات من طرق ومراحل البريد عبر الإمبراطورية مع محطات لتبديل الخيول (أما في المناطق التي يصعب فيها استعمال الحصان فكانت البغال أو الحمير هي المستخدمة) وعلى طول الدروب كان الخيالة يستطيرون وهم يركبون الخيول أن ينقلوا بسرعة بحيث إنه باستثناء ممر فقط، وهي التي تقتضي عبور صحراء سيناء عند الاتصال بها، لم يكن هناك أي جزء من أجزاء الإمبراطورية عاجزاً عن إرسال رسالة إلى العاصمة وأن يستلم الجواب خلال أسبوع من الزمن.

لقد تطلب هذا الوضع صيانة الطرق العامة، وليس لدينا أي شاهد على وجود طريق مهيأة خارج المواسم ولكن كان هناك وبالتالي كيد طرق رئيسية كانت مصانة واعترف بها كطرق عامة.

ومنذ بداية القرن الثالث عشر يُظهرنا الملك (توكولتي ييوترا الأول) عن الحوادث التي جرت في أوائل حكمه عام (١٢٤٤ ق.م) فيقول:

إمه قد قام بحملة في منطقة طور عابدين الجبلية (واقع في ديار بكر في شرقي تركيا) (لقد شققت طريق في جبالهم واستعملت الميوس النحاسية ووسعت ممراتهم التي كانت غير سالكة).

وفي حوالي عام (١١٠٠ ق.م) نرى الملك تغلات بلاسر الأول يخبرنا أنه مع وجود تلك التضاريس الطبيعية الصعبة.

((لقد شققت الجبال المزعجة والطريق الصعبة بالميوس النحاسية فأصبحت الطرق سالكة لمرور عرباتي الحربية وحشودي)).

ويحبرنا الملوك الذين تلوهم أعمال مشابهة بالنسبة للطرق.

ومع وجود مثل هذه العناية بخطوط المواصلات في الجبال فإنه من المؤكد أنها كانت على اتصال بالطرق الرئيسية في السهول التي كانت في الحقيقة مصانة، ومع أن تلك الطرق لم تكن معبدة إلا أنها كانت معدة بشكل جيد ودائم بحيث يمكن اعتبارها حدوداً للحقول التي ذكرت في وثائق بيع الأراضي، وأحياناً وفي مثل هذه الأحوال كانت الطريق تعطى تسمية خصوصية أو يشار إليها ببساطة بكونها (الطريق العام الملكي) أو بشكل أوضح الطريق العام الملكي الموصل إلى المكان الفلاني.

أو الطريق الذي يسمي من .. وإلى.. مع ذكر أسماء البلدات في نهاية كل قسم من الطريق.

ولا شك أن هذه كانت تعتبر طرفاً عامة دائمة ومعترف بها تصورها الدولة لتأمين نظام فعال من المواصلات.

وفي أزمنة الحروب كانت الممرات الملكية هي التي تستعمل الطرق.

أما في أوقات السلم فإن هذه الطرق كانت تؤمن إمكانية تحميل العربات أحمالاً لمسافات طويلة يصعب على قوافل الحمير أن تقوم بها.

وأما بالنسبة للممرات الفعلية فهي الحقيقة أن التكنولوجيا المحلية لم تكن لتواكب مثيلاتها في البلدان الأخرى.

وذكر الملك آشور بانيبال ويصورة خاصة أنه ولأجل تنفيذ المشاريع البنائية الخاصة به، كان القرميد يجلب من جميع أنحاء بلاده في عربات عيلامية التي كان قد كسبها كضرائب وهذا يدل أن هذه العربات إما أنها كانت أكبر وأقوى (أو كليهما) من العربات الآشورية والوطنية.

أما الأحمال الثقيلة جداً التي لا تستطيع العربات حملها مثل التماثيل الحجرية الهائلة التي يرون الواحد منها حوالي عشرين طناً فقد كانت تُجر على عجلات بمساعدة أعمدة طويلة تستخدم كرافعات وهذا ما نراه ظاهراً في لوحة جدارية ماهرة.

المواصلات المائية

كانت مدن آشور وكالاخ وبيسوى وهي العواصم الثلاث الأكثر أهمية في آشور كل هذه المدن كانت واقعة على طول نهر دجلة، الذي يشكل واسطة مهمة للنقل من منطقة إلى أخرى في الأجزاء المركزية من المملكة الآشورية وهناك شاهد على استثمار هذا المصدر المائي قد قدمه وجود جدار لرصيف ميناء ضخمة قد اكتشف في كالاخ.

وهو قريب من بعض الأبنية الملكية، ولقد تويجت آثار هذا الجدار بمساحة ٢٤٠ ياردة، فلقد بُني من قطع حجرية ضخمة ترتفع نحو ثلاثة وثلاثين قدماً فوق الأرض.

وكانت تهبط بمقدار واحد وعشرين قدماً إلى عمق النهر ولقد بنى سمحاريب ميناءً مماثلاً في بينوى وذلك كما يظهر من اسم واحد من الخمس عشرة بوابة لبنيته الذي كان يسمى بوابه الميناء.

ويصف سمحاريب أيضاً كيف كان النهر مستعملاً كطريق نقل نهري لجلب الحمولات الثقيلة جداً، وهي في هذه الحالة تماثيل ضخمة من الحجر العكلسي وكانت هذه الموانئ مصدراً من مصادر الدخل الإجمالي الوطني نظراً لأننا نعلم أن استخدام الميناء كان يقتضي دفع رسوم لقاء ذلك.

ولقد استخدمت عدة أنواع مختلفة وعديدة من المراكب على أنها من آشور وإن أكثرها بدائية فكانت طوعاً كبيراً يدعى الصكالاكو ، وهي كلمة لا تزال موجودة في التسمية العربية في الوقت الحاضر تعني نفس المعنى وهو كيليك ، وإن أطواها من هذا النوع لا تزال ترى على نهر دجلة حتى عام (١٩٥٠ م) وبعد ذلك بطل استعمالها لأنها غير ملائمة

وقد وصف ها لايارد لهذه الأطواف وطريقة صنعها قال إنه قد استعمل مثل هذه الأطواف في الأرمينيات من القرن التاسع عشر ١٨٤٠ بـم) وتستعمل جلود الأغنام والماعز الكبيرة ، وقد كانت هذه الجلود تُنزع وتسلخ بحذر حيث لا تسبب أي شقوق في الجلد وبمدها تحف وتعالج

ويتم نزع الجلود بواسطة الرنثيس والفم من خلال ثقب يقمل فيما بعد بواسطة حيط.

وبمدها يصنع هيكل مؤلف من أشجار الجوز وأغصان الشجر والقصب وتكون بشكل الطوف المقصود بنائه.

وبمدها يتم ربط الجلود المنفوخة عن طريق أغصان شجر الصفصاف وغيرها من الأغصان وتربط كل هذه المجموعات معاً بإحكام وبمدها يحرك الطوف إلى الماء.

ويجب الانتباه إلى أن الجلود المنفوخة ينبغي أن تكون أفواهاها إلى الأعلى بحيث يمكن فتحها بسهولة في حالة انفجار أحدها أو تفرمه بحيث يتطلب أن يُملأ ، عندما يمكن للناسل بالطوف أن يفتحها بسهولة ، وفوق الهيكل الخشبي يتم وضع بالات البضائع والأشياء الخاصة بالتجار والمساافرين.

وكان الكيليك يحكم تركيبه حيث من الممكن أن يكون بالحجم الذي تتطلبه البضاعة وكانت وظيفة رجل الطوف أن يوصل الطوف إلى التيار الرئيسي في النهر وأن يتجنب أي عقبات تصادفه في الطريق.

ويساء على ذلك فإن الطوف ينبغي أن يصير بسرعة تيار النهر أي دجلة إذ لا مجال لاتحاد مجرى الطوف بشكل معاكس لتيار النهر.

وفي حالة تكون الطوف قد وصل إلى هدفه كان الطوف يفكك عند وصوله إلى المكان المقصود وكانت تباع المواد التي ينقلها قوياً

هناك نوع آخر من الأطواف المائية التي لا تزال موجودة على أنهار العراق خلال العقدين الماضيين هو قارب دائري ذو قعر مسطح ، وإن اسمه الحديث باللفة العربية هو : (جوا أو كفا) هذا هو الاسم الأكادي (كوبا) وهو يعني الصلة وهذا الاسم يمثل المصمون فهو عبارة عن صلة كبيرة جداً مصنوعة من القصب القاسي وهي ضد الماء لوجود البيتومين فيها.

ومع أنها ثابتة ومثزنة إلا أنها ليست مناسبة لأن تدفع في مجرى تيار النهر لمسافة وهكذا فهي مفيدة للمواصلات المحلية بما فيها عمليات عبور النهر في الوقت الذي لا تصلح به لعبور المسافات الطويلة.

أما النوع الثالث من القوارب فهو الشكل التقليدي المعروف مع وجود مقدمه ومؤخره أما بالنسبة لقضية دمه فليس هناك من برهان أو إثبات على وجود الشراع إذ إن جميع صور القوارب العائدة لأشور تُظهر أن هذه القوارب كانت تُحرك بالتجديف أو تحريك القدمين في الماء.

وبالنسبة لثقل المائي فكما هو الحال بالنسبة للأشياء الأخرى فقد عرف الآشوريون أن هناك أمماً أخرى قد أصبح لديها مقدره تقنية أعلى من مقدرتها ولذلك فعندما قرر سنحاريب القيام بحملة بحرية ضد عملاء عبر الخليج العارسي فقد كلف بعض بناء السفن من شمال سورية لبناء أسطوله في بسوى وقد وثق بالبحارة المينقيين وسلمهم سمعه للإبحار جنوباً ، وكانت هذه السفن من نفس نوع السفن الحربية المينيقية التي ظهرت في لوحة آشورية ناهرة والتي كانت ذات ١٧ مجدافاً على كل جانب.

وحلال الألف الثاني قم كان نهر دجلة مملوئاً بالقوارب التي تحمل البضائع متجهة إلى العاصمة آشور بحيث كانت تحدث بعض الاصطدامات.

وكان هذا يمثل مشكلة ينبغي على قوانين دولة آشور في القرن الثاني قبل الميلاد حلها بإصدار قوانين حول قضايا المسؤولية إذا تسببت مثل هذه الحوادث في غرق إحدى الممن.

كانت القوارب لا تجول في الأنهار الرئيسية فحسب، بل في القنوات ومن المعتقد أنها كانت تجلب المنتوجات إلى العاصمة من الولايات البعيدة وليس لدينا أي رواية أو قصة عن أحد الحكام في القرن الرابع ق م وهو يحاول توسيع إحدى الأفتنة بحيث تستوعب قوارب ذات طول يبلغ خمسة وعشرين ذراعاً (تقريباً أربعين قدماً).

وهذا القياس يقدم لنا فكرة عن قيام أصعاب القوارب المستعملة بالإشارة إلى طول القارب وليس عرضه.

وعداً عن وظائف القوارب في حمل البضائع على طول القنوات في الأنهار فإن القوارب كانت تعمل كمحطة وصل في نظام المواصلات البرية وذلك بطريقتين:

أولاً، كانت هذه القوارب تستخدم لعبور الأنهار حيث كانت قوارب العبور الرسمية قد احتفظت بها تحت إشراف الحكام.

ثانياً، كانت هذه القوارب تستخدم كمسور وكان هذا يحدث بهم عدد من القوارب بعضها مع بعض عبر النهر، ولا يزال هذا النظام مستعملاً في بغداد حتى عام ١٩٥٧ م.

أما في آشور القديمة فكانت كلا هاتين الطريقتين ذات أهمية وطنية بالنسبة للقضايا التي سوف ترفع تقارير عنها إلى الملك.

الفصل الثالث عشر

عالم ما وراء الطبيعة

تستمد العالوية من سكان القرب أولى انطباعاتها حول الأمور الدينية في منطقة الشرق الأدنى من التورات.

ولذلك ينبغي علينا أن ننتبه إلى أن كل ما قيل عن هذا الموضوع من التوراة فيه الكثير من التحامل.

فالأنبياء الإسرائيليين مع ما لديهم من صفات الخوف من الله إلا أنهم كانوا قادرين -عن قصد- على التوصل مع شيء من حمن اليّة

فالقضية التي تشير إليها هي الصورة التي تتمثل وجهة النظر في منطقة ما بين النهرين حول آلهتهم، تلك الصورة التي تحصل عليها من أقوال ما يدعى أشعيا الثاني (بني-وهو المسؤول عن السمر ٤٠-٥٥ من كتاب أشعيا)

أولئك الذين يصرعون الذهب من أكياس دراهمهم، ويزنون الفضة في الميزان.

فهم يستأجرون أحد صائعي الذهب ويبدلون الفضة إلى ذهب

وبعدها يخروا على الأرض ويهيمكون في شؤون المبادء

وهم يحملون آثامهم فوق أكفانهم ويقلوبها

ويضعونها في أمكنتها حيث تبقى هناك

وليس من الممكن أن تتحرك من مكانها

(أشعيا ٦٦٤٦-٧)

وهنا نجد التماسين حول الدين في منطقة ما بين النهرين.

الأول وهو أن هؤلاء المسكّن فكّروا بالإله ليس إلا صورة فحسب.

والثاني -هو أن المتعبدين صوّروا تلك الآلهة بالصورة التي تحلو لهم ونزقوا لأحيائهم.

ولكن الحقيقة أن كلنا المفكرين خاملتان

لقد كان هناك صور للآلهة وهذا أمر صحيح وقد اعترف بهذه الصور بأنها مجرد منور وليست هي الحقيقة الإلهية المطلقة.

حقاً إن باستطاعة الناس الوصول إلى الآلهة من خلال صورههم، ولكن ما يدعى يهوه عند الإسرائيلين من الممكن الوصول إليه من خلال تابوت العهد، ولم تعد الصورة الإلهية بالنسبة لأحد أفراد منطقة ما بين النهرين هي جوهر إله أكثر مما كان تابوت العهد الجوهر بالنسبة إلى يهوه، أو القلب الذي يقدمه (الشخص الكاثوليكي بالمسبة للمسيح) وكانت الصورة الإلهية بالنسبة للمبشرين القدماء أو الآشوريين ما هي إلا النقطة التي من الممكن الاتصال بالإله عن طريقها، فهي النقطة التي ينكشف من خلالها الحضور الإلهي ولكنها لم تكن لتمثل الكمال الإلهي بذاته، وقد كان اللاهوتيون القدامى صريحين حول هذه الأمور
إذ يقول أحد النصوص:

((إن مردوخ هو الإله الأعظم في بابل)) مع أنه كان من الآلهة المعبودة في آشور، يقول النص:

(العالم السفلي هو الحوض الذي تمتلئ فيه، وأعالى السماوات هي الطاسة التي توضع فيها المنجدة التي تستعملها) وهكذا فإن الإله الذي يمتلك مثل هذه الأهمية الفلكية ليس من الممكن أن ينحصر داخل تمثال، وفوق ذلك فإنه بفضل النظر عن مطابقة الآلهة المظلمة بصورها إلا أن هذه الآلهة كانت تحظى بالاحترام والتبجيل ليس لكونها صوراً فحسب ولكن لكونها رموزاً
هكذا يرى أحد المتعبدين في إحدى النصوص راكعاً أمام مذبح وضع فوقه سيف.

ونرى في إحدى الوثائق القصصائية التي تعود إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد ما يشير إلى أن أحدهم قد قام بإداء القسم أمام حجر الإله آشور

تعدد الآلهة

هناك مظهر في ديانة ما بين النهرين من الممكن أن يتمرّض للسخرية من قبل أنبياء الإسرائيليين وهو تعدد الآلهة.

فقد عدت النقوش التي تذكر ملوك الآشوريين عدداً من الآلهة، مثلاً آشور السيد العظيم والد الآلهة، وأنوما نليل، وإيا-أوسن-وشمش، وآرات، ومردوخ، وبابو، ونيرحال، وعشتار، والسبعة هم الآلهة العظماء والذين يقومون إلى جانب الملك.

ولكن لم تكن مثل هذه القوائم تحتوي سوى كمية صغيرة من مجمل الآلهة الكامل الذي اعترف به اللاهوتيون القدماء

وإن ما ذكره أرميا عن يهودا لم يكن سوى نوع من التهكم بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين وذلك عندما يقول:

((إن عدد آلهتكم يبلغ بقدر عدد حذمكم)).

ففي منطقة ما بين النهرين نجد أن كل مدينة كان لها آلهتها الخاصة بها، ولكن بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك عدة مظاهر سواء كانت في الحياة المادية أو في المعتقدات البشرية، كل واحد منها كان له ما يحميه من القوى الإلهية

فقد كان هناك على سبيل المثال آلهة تصنع الخمر وآلهة للبناء.

وهكذا نجد الباحث الحديث الذي يذهب إلى منطقة ما بين النهرين القديمة أنهم يعتقدون ألوهاً من الآلهة في المجمع الإلهي ولكن لم تكن هذه القائمة الصخمة انعكاساً للمعتقدات الدينية العامة ولا انعكاساً لمعتقدات أي فرد من الأفراد، بل كانت من نبات أفكار الباحثين القدماء الذين حاولوا تجميع عدد من مجموعات الآلهة في محاولة منهم أن ينظموها ضمن نوع ما من أساليب التنظيم، وفيما عدا الدوائر المختصة بالعلماء الباحثين لم يعتبر أي إنسان لا في بابل ولا في آشور أن العالم يسير ضمن هذا المجتمع الضخم المظم الرسمي من الآلهة

ولا شك أن الإيتسان الآشوري العادي كان يرى نعمته محاطاً بأصناف متعددة من القوى الخارقة للطبيعة.

ولكن لم تكن هذه العودة للقوى الخارقة هي الهيكل الرسمي المكرس للباحثين، ومع أن الشخص العادي يعلم أن هناك هيكلًا مكرماً إلا أنه كان قد تعرف على التعاقيل بشكل ليس بأفضل من تعرف الشخص المسيحي العادي على القوانين العكسية المختمة بالتدريسين.

ولكن الآلهة التي كان الشخص الآشوري العادي مهتماً بها كانت قليلة العدد.

وكان أولها. هو الإله القومي آشور الذي لا يمكن لأحد أن يساء نظراً لعلاقته الوثيقة بما يملكه الملك وكان مكرماً ومقدساً في كل المناسبات الرسمية ولكن ربما لم يكن الشخص الآشوري العادي عالماً أن آشور امتنع عدة مظاهر من الإله السومري انليل (عضو اثناثوث الإلهي) ومن مردوخ إله بابل.

وإلى جانب آشور كانت هناك الإلهة عشتار التي لم تكن بعيدة عن الاعتبار نظراً لعلاقتها بالأنشطة الجنسية من جهة ومن جهة أخرى لارتباطها بالحرب.

وقد أظهرت عشتار نفسها في عدة أشكال، مثلاً، عشتار دينوى وعشتار إريبل وعشتار بيت عمجوري على سبيل المثال، وقد ظن بعض الآشوريين أن هؤلاء كانوا آلهة متميزين، ولهم الحق في ذلك نظراً لأن أشغال عشتار المختلفة ربما تكون قد تطورت وذلك بسبب إصعاف صفة الآلهة عشتار لبعض الآلهة المحلية المعروفة.

وبعد ذلك كان هنالك بعض الآلهة، المختصة بالظواهر الطبيعية مثل إله الشمس شاماش (وكان هذا هو إله العدالة) وإله القمر (سين) وإله الطقس (أداد)

وكل من هذه الآلهة كان مرتبطاً بالحياة اليومية فلا يجوز تجاهلها، وكان إله المحكمة (إيا) يحتل المقام الأول بالنسبة للوعي الديني مع أنه لم يكن مرتبطاً بالمحكمة بقدر ارتباطه بأهميته بالنسبة للممارسات السحرية والعبادات الماتية.

وكان (نيرجال) إله العالم السفلي والموت يهتم بشغل رهيب بأمور المسحر
بينما كان نيسوترا أحد آلهة الحرب والصيد يحتل مركزاً مرموقاً في حياة
الأشوريين.

وفي تلك الفترات الزمنية التي كانت النصوص الاجتماعية تهتم بالعلاقات
البابلية أصبح الإلهان البابليان مردوخ ونابو يمتلكان أهمية خاصة في آشور
لكن عدداً من هؤلاء، لا نحيل لأي واحد من ألوف الآلهة في المجتمع الإلهي
الرسمي له ذكر في بعض الحالات في النصوص الآشورية.
هناك شواهد قليلة تدل على أن أفراداً قليلين من المجتمع الإلهي قد دخل في
الصميم الشعبي.

ومع ذلك فإن الفكرة الأخيرة هي بحاجة إلى إبداء بعض التقييدات: إذ إن
عددًا قليلاً من أسماء الآلهة الأخرى موجودة كعناصر متعلقة في الأسماء
الشخصية

وربما كان هذا دلالة على وجود ظاهرة عبادة هذه الآلهة واستشارها الواسع مع
أنه ليس لدينا أي شواهد أخرى.

أما مجتمع الآلهة الأخرى فلم يهتم بهاجات العبادة بقدر اهتمامها بالتعبير عن
حالة الإحباط التي شعر بها المتقنون من ذوي العقول النيرة في بابل القديمة في آشور
وذلك لتنظيم جميع مظاهر الحياة.

وعلى هذا الفرضية فقد عمد اللاموتيون إلى ترتيب جميع الآلهة من معظم
الأحوال وصمها إلى مجتمع ديني منظم، يمتلك علاقات متداخلة محددة مع حق
الأفضلية

ولكن كانت التقاليد المحلية ذات قوة عظيمة بحيث كان الشعب الآشوري
العادي أصبح في وضع حرج أجبره على استحسان تلك النصيبات الموجودة في
المجتمع الديني الرسمي كما هو الحال بالنسبة للرجل المسيحي العادي الذي
يتوجب عليه أن يحدد العلاقة ما بين الإله الأب والإله الابن والروح القدس.

وكانت حالة الأفضلية فيما بين الآلهة الآشورية وقضية علاقاتها المتبادلة ، لقد بقيت هذه القضايا وبشكل واضح مشكلة من المشكلات حتى زمن نهاية الإمبراطورية قريباً.

وهكذا نجد الملك سنحاريب مجبراً على أن يؤسس (بمشيئة الآلهة) الترتيب المناسب لأفضلية عدد من الآلهة التي تشترك في الاحتفالات الدينية ، وهناك نص آخر يعكس نواحي الشك فيما إذا كانت الآلهة (شيراوا) هذه زوجة الإله آشور الذي كانت زوجته فعلاً تعرف باسم (نبيل) وهذا هو أصلاً اسم زوجة الإله السومري (أنليل) أو اخته.

إن الآلهة العظيمة التي ذكرت بصفتها مهتمة بحياة دولة آشور (ويابل) ككل من الممكن في الوقت نفسه اعتبار أن لديها صلات خاصة ببعض المدن.

وهكذا فإن الإله نيرجال الذي كان يصغته إله العالم السفلي كان مسيطراً على أهوال الموت ، فقد كان بالاشتراك مع زوجته (لاس) يوصف في بابل بأنه كان يعيش في مدينة (كومتها).

وأما في آشور فهو يوصف بأنه كان يعيش في نازيرو (وهي ممر على النهر شمال نيموى).

وأما آشور الإله القومي الآشوري فقد كان طبعاً مرتبطاً بالمدينة التي تحمل اسمه.

وكما لاحظنا سابقاً فقد كانت عشتار في أشكالها المختلفة ذات ارتباطات مختلفة مع نيموى وإربيل.

وأما (سن) إله القمر فقد كان يمتلك بيتاً في (أور) وأما في آشور العظيم فقد كان مرتبطاً بمعبد المتواجد في حران.

وفي الأصل فقد اعتبر الإله ككائنات ذات أشكال إنسانية ولكن خلف هذه المعتقدات كانت هناك معتقدات أقدم عهداً ما تزال تؤلف بعض آثار الصور والنصوص.

وهكذا فقد كان آشور ناصر بمل الثاني يحمل منجلاً بشكل رأس طير كان يمثل الإله نينورتا، وهو إله الحرب والصيد عند الآشوريين، وهناك خرافة ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد وهي من سومر ولكنها كانت لا تزال شعبية في آشور في الألف الأول ق م وقد أخبرتنا هذه كيف أن هذا الإله قد تعلّب على كائن إلهي بشكل طائر يدعى (أسد) وسلبه قوّته، وكانت هذه إحدى الطرق (مطبّقاً لبعض الإجراءات الشائعة ضمن القصص الخرافية) التي تمكّن كيون الشكل القديم لنيورتا كان ذلك الكائن الإلهي بشكل طائر وبالمقابل فإننا نرى الإله آشور يوصف بكونه جالساً على أسد، هذه الفكرة من الممكن أن توحي أنه وفي مرحلة أقدم عهداً كان من المتيقن أن القوى الحارقة التي كان يحملها هذا الإله كانت تتشكل بشكل أسد

مبدأ التوحيد البدائي

حتى مع وجود مجتمع الآلهة ذي الاستعمال المادي، هناك ميل للانتقام من شابه ولقد تأثر هذا الميل بالتطورات السياسية فضلاً عن التعميمات الدينية.

ففي دولة آشور عند المواطنين نفسه موجوداً في مجتمع كانت فيه جميع السلطات التي كان يحصص لها المواطن، إنما تمثل في نهاية المطاف مصدراً واحداً من مصادر السلطة وهو الملك.

وقهاساً على ذلك من المعقول القول: إنه وبالنسبة للعالم الإلهي فإن جميع الآلهة في نهاية المطاف ما هي إلا تمثيل لإله واحد محيط بجميع القوى الإلهية، وإننا نجد هذا الأمر موجوداً في عدد من النصوص -مثلاً- النص التالي الموجه للإله نينورتا:

عيباك أيها الرب هما تمثالان الإله أينليل ونينيل

وشفتاك تمثالان آنو وأنتو

وأما جبينك فهو يمثل الإله شالا وهي زوجته المحبوبة التي تفرح القلب

وأما عنقك فيشبه ويمثل الإله مردوح

وأما رأسك فيمثل الإله حدد

الذي خلق السماء والأرض

وكيفية جانبية من الممكن أن تشير أن هذا الشعر يمثل مظهراً آخر لذلك الرُخْم والتدفق الذي حدث داخل المجتمع الإلهي وعلى الرغم من محاولة اللاهوتيين تبني وجهة نظر واحدة متماسكة.

هنا يقول الإله حدد:

((هو الذي خلق السماء والأرض)).

ولكن لقد مُنح عدد من الآلهة الأخرى بعض اللقب، وكذلك فقد كُرمت كثير من الآلهة بالقُدرة على العلق بالنسبة لعلم الأساطير

ويذكر نص آخر:

((إن كوكب المشتري هو نجمة الإله (س) (وهو الاسم الذي يطلق عادة على القمر) وأن الإله (سن) هو آشور)).

ثم يمتنع هذا النص في القول إن نجومًا أخرى محددة مرتبطة بالآلهة الأخرى هي نجوم الإله آشور.

فهل إن الاعتراف بالآلهة الأخرى كمظهر من مظاهر وجود إله واحد، إنما تمثل الاعتراف بالوحدانية؟

إن الجواب على هذا السؤال يعتمد اعتماداً عظيماً على كيفية فهمنا للوحدانية.

فالمسيحيون يملكون أنفسهم وحدانيين، ولكن هناك بعض المسلمين الذين يتكفرون اعتراف المسيحيين بالوحدانية نظراً لأن المسيحيين يقبلون فكرة الأقاليم الثلاثة الأب والابن والروح القدس.

إن وجود ثلاثة أشخاص إنما يعني ثلاثة آلهة.

لكن إذا كانت التوحديات تعني الاعتقاد بأن جميع الحكمانات الإلهية هي في
آخر الأمر كيان واحد ، عندها يمكن اعتبار الآشوريين موحدين ، وعلى العكس
هنا الاعتماد على وجهة النظر القائلة
((إنه من الممكن للإله أن يظهر بعدة أشكال مختلفة)) وإن وجهة النظر هذه
منافية لبدا التوحيد ، عندها يتضح لنا أن الآشوريين لم يكونوا موحدين.

المعابد

كان الآلهة المعظماء موحدين في كل مكان ، لدينا نصوص مختلفة حول
الآلهة معادها ما يلي:

يصعد الإله المسموات فوق رأسه كأنها عمامة ، ويدوس على العالم السفلي
كما يدوس على الحذاء.

ولكن وكما هو الحال لدى اليهود والمسيحيين والإسلام فإن المكان الذي
يتقابل الناس فيه مع الإله هو الكنيس أو الكنيسة أو المسجد ، وهكذا وبالنسبة
لآشور القديمة كان المعبد هو المكان الذي يمكن فيه الالتقاء بالآلهة

لقد كانت المعابد قديمة قدم المدن نفسها ، فهي أوائل المستوطنات كان
المستوطنون يؤمنون لأنفسهم مساكن مناسبة للآلهة مع أنها كانت صغيرة بالسمية
للإله الذي سوف يسكن فيها ، وكان هذا الإله يحصر ومعه عائلته وما يلزمه
تماماً كما يفعل الحاكم من بني البشر ، وكانت تمثله آلهة أخرى أقل مرتبة منه
ولها أماكن عبادة ومساكن ملاصقة لأبنية المعبد الرئيسية ، وحالما توسعت
المستوطنة لتصبح مدينة كبيرة فقد توسع المعبد معها ، بحيث أصبح ابتداءً من
فترات قديمة وفي بعض الحالات مؤلفاً من أبنية ذات حجوم لا بأس بها وذات ثروات
وأبنية

وحينما انتمعت علاقات المدينة مع المجتمعات الأخرى انعكس هذا في علاقات إله المدينة وربما كان هناك بعض المعابد الصغيرة التي كانت تضاف لاستعمال الآلهة القادمة بآء على العلاقات الجديدة.

ربما يتوقع المرء أن تكون عبادة الآله مرتبطة بالمعابد، والحقيقة أنها كانت كذلك مع أنها لم تكن معصورة بالمعابد حين كان القصر الملكي مهتماً بشؤون العبادة، هذا ولدينا عدد كبير من النصوص الواردة من المعابد البابلية، أكثر منها من المعابد الآشورية، وهكذا فتح بالتالي بمعرفة معلومات أكثر عنها ونظراً لذلك علينا أن نتجنب ذلك الانحراف بميل المعجرات حول المعابد الآشورية من المعلومات التي نعرفها حول المعابد البابلية، لوجود فروق كبيرة بالتأكد.

ففي بابل كانت المعابد تمتلك بعض الصيغ على مقياس واسع، مثلاً في إحدى الفترات كان معبد إيانا في المدينة الجنوبية المدعوة (إيدس) قادراً على إدارة شؤون اقتصادية موارية وأحياناً مستقلة عن الشؤون الاقتصادية الخاصة بالدولة

ولم يكن يطبق هذا على آشور في الألف الأول قبل الميلاد حيث كانت الإدارة الآشورية تملك برمام المبادرة في جميع الشؤون الاقتصادية والحياة الإدارية في البلاد، في حين أن المعابد هناك لم تستطع امتلاك الأراضي المحيطة بهذه المعابد، وحتى في الأحوال التي كانت فيها أحد المعابد الآشورية يمتلك أرضاً مجاورة للمعبد وحتى في الحالات التي لم يكن المعبد الآشوري يمتلك أرضاً، كان مدى امتلاكها غير كافٍ لتأمين الوظائف الاقتصادية المطلوبة، ولا يعني هذا أن المعبد لم يكن عنيماً، فالمعبد الرئيسي ذو الوظائف التعبدية والدينية التي كانت مقررة من الملك يمكنه أن يجد الوسائل من وقت لآخر لتقديم عطايا وهدايا لازمة لإصلاح بآء بعض المعابد.

وكانت التقدمة من المتعبدين أيضاً ذات شأن، فقد ذكر أن أحد القائمين على خدمة أحد المعابد قد أخير الملك أنه قد حصل على (١٢) مئناً من الذهب حصل عليها من التقدمة التي كان يقدمها المتعبدون وأنه قد خصص هذا الذهب

لعمل زخرفات لزوجة الإله، وتبلغ قيمة هذا الذهب (١٠٠٠، ١٠) جنيه إسترليني حسب سعر الذهب عام ١٩٨٠ ب، وهذا بالتأكيد كان من أعظم المعابد في بابل. وهذا نموذج لذكر مظاهر العبادة في المعابد الآشورية، إذ نظراً لأن المعابد كانت أولاً: هي المأوى الدنيوي للآلهة لذلك فعلياً أن نتوقع شهادة تدل على الوجود الإلهي فيها وكانت العادة أن يتمثل الإله بوجود التماثيل التي كانت مصنوعة من الحشب والحجر المرصع بالذهب أو تماثيل محفورة من النحاس أو المعادن الثمينة، وكان لكل تمثال يقف أو ينتصب على قاعدة أو منصة ولكن وكما ذكرنا سابقاً لم تكن تماثيل الآلهة ذات أشكال بشرية

وليس لدينا أي شاهد معين عن وجود أي إله آشوري بشكل حيواني ولكن من المؤكد أن يمثل الإله برمر من الرموز الإلهية، مثلاً أحد الخناجر بدلاً من تمثال.

لم تكن التماثيل في المعابد الآشورية تمثل الآلهة حصراً إذ نحن نسمع عن تماثيل ككبيرير نصباً في معبد القمر في حران، واحد منهما عند يمين تمثال الإله والآخر عن يمينه، بالإضافة إلى تماثيل صعبة لأمرأة المائلة الملكية من الأمام، ولم يكن هذا يدل على الهوية الملك بل كان المرص من هذا أن يحصل الملك على بعض الموائد السحرية لمصاحبة الدائمة لهذه التماثيل مع إله القمر.

ولقد فسر الحكام الذي رُتب هذه المجموعات بما يلي:

((نظراً لأن الإله القمر المتوح يرتفع وينهب شهراً بعد شهر فإنه سوف يرسل إلى الملك سيدي بيشانر مشجعة لمرر طويل واستقرار للحكم وعظمة للسلطة)).

بيت الإله

إن الحاجات الرئيسية لبني البشر هي المأوى والطعام والملابس ولذلك فقد نشأت فِرعية معقولة من وجهة نظر الإنسان في منطقة ما بين النهرين:

إن الإله إذا كان سوف يتشكل بشكل بشري، ينبغي أن يساهم في الحاجة لمثل هذه الأشياء والحاجات.

كانت أول حاجة للإله هي وجود معبد كبيت له، وكانت الأمثلة الأولى للمعابد في بلاد آشور في الألف الثالث ق.م ذات أبعاد متواضعة، ولكنها أصبحت فائضة فيما بعد، بحيث كانت مصارعة للقصور الملكية

إلا أن المعبد كان يختلف من ناحية واحدة عن القصر فقد كان يحتوي على برج ذي درجات (وكان هذا البرج مريمأ في آشور) (الزاقورات) وهو يحتوي على سبع درجات، وهناك صورة موجودة على حتم أسطوانتي يقدم لنا فكرة عن شكله، وهناك عدة زاقورات في آشور تلك الموجودة في نمرود وهي عبارة عن تلة مرموعة من صنع الإنسان مع أنها لا تظهر بوضوح شكلها المدرج.

أما بالنسبة للزاقورات المعروفة في آشور فكانت حجوما الأصلية تتدرج من ثمانين قدماً مكعباً حتى ما يزيد عن (٢٠٠) قدماً مكعباً (أي من ٢٤ متراً مكعباً إلى ٦٢ متراً مكعباً) وكان في ورسبال بقايا زاقورة تحتوي على أربع درجات مع وجود درج منحدر عرضه ستة أقدام مصنوع من الحجر المشوي وهو معلمي من الخارج بهتراس دائري.

وأما الأوجه العمودية للدرجات الأربع فقد كانت مطلية بالجص ومدهونة باللون الأبيض والأسود والأحمر والأزرق بالتوالي، وكانت هذه تدل على رموز دينية لم نفهمها ومن الممكن أن يكون هناك ثلاث درجات ولكن ليس هناك من دليل على ذلك.

لقد جرت نقاشات عديدة حول القصد من بناء هذه الزخارف، فمن المؤكد أنها لم تكن مرصداً فلكية (كما يقترح البعض) ولم تكن تخدم كقبور مثل الأهرامات ربما كان بناء الزاقورات مما له علاقة بالفكرة الشائعة في منطقة الشرق الأدنى القديم وهي:

إن الآلهة كانت تعيش في الجبال بحيث كانت الزاقورة بديلاً عن الجبل في سهول منطقة ما بين النهرين.

ولكن هناك مجالاً للشك فيما إذا كان الآشوريون أو البابليون من الألف الأول ق.م يملكون معرفة أكثر منّا حول الأفكار التي تكمن وراء هذه الظاهرة المعمارية في الألف الثالث.

لم يكن من الضروري تأمين معبد للإله بل تأمين الكساء اللازم والطعام اللازم وكانت الملابس الطقوسية للتماثيل العائدة للآلهة جزءاً هاماً من مظاهر العبادة في جميع الأزمنة في منطقة ما بين النهرين القديمة وكان هذا يطبق أيضاً على آشور كما على بابل.

وفي الفنون الآشورية كان هناك تمثيلات وصور لبعض المواقف التي تظهر فيها ملابس الآلهة ولكن ليس هناك منصوص تظهر كيم ومتى كانت تلبس هذه الملابس.

ولكن لدينا قوائم فعلية للأردية الإلهية والمجوهرات في بابل وهناك يبدو أن الملابس الاحتفالية التي تحمى الآلهة كانت تستعمل في مواكب خاصة أو أعياد وليس في كل يوم، ونحن نعلم أن الآلهة كانت تقدم لها الأطعمة في المعابد الآشورية يومياً لأننا لاحظنا أن تقديم الطعام في معبد ينهي الوجبات الصباحية والمسائية للآلهة في نيموى قد ذكرت.

وللمرة الثانية نجد أن المعلومات مشوّهة بالنسبة إلى بابل التي نجد فيها نصوصاً تقدم التفاصيل التي لا تحصى القضايا الاحتفالية لخدمة الآلهة فحسب بل حتى قوائم مواد الطعام، فقد كانت الآلهة تروء بوجبتين غذائيتين رئيسيتين ووجبتين خفيفتين يومياً وكان الطعام يشتمل على البيرة والحليب وخبز الشعير وخبز القمح ثنائي البذرة ولحم العنم ولحم البقر ولحم البط والمواشي الأخرى ويبيع النعام وبعض البط والتمر والتين.

ومن المريب أنه على الرغم من الكميات الكبيرة من الأطعمة التي كانت تقدم للآلهة إلا أنه لم يرد ذكر قضية التغوط، إذ يبدو أن هذا كان من وظائف البشر التي كان يستغني عنها الآلهة، نظراً لأن علم الأساطير يظل صامتاً تجاه

هذه القضايا ، ومع أن الآلهة كانت تشترك في معظم الأنشطة البشرية الأخرى كالأكل والشرب وأعمال الحب والحنس وسوء المزاج والعبوس والبكاء والنوم.

وهضلاً عن الواجبات التي تحتم العناية بصور الآلهة إلا أنه كان هناك عدد كبير من المراسم بعضها يجري شهرياً وبعضها في المناسبات في أيام خاصة من السنة ، وفي أيام تنصيب الملك الجديد وفي أي وقت كان من الواجب حضور المعبد لأداء بعض الفروض والطقوس ، وذلك لتجنب شروء سوء الطالع وكانت بعض هذه الاحتفالات تشمل صورة الإله وتمثاله الذي يلبس بعباية ويخرج من المعبد للاشتراك في الاحتفالات ثم الرجوع في بعض الحالات كنا نعلم عن الاحتمالات من تلميحات عابرة في النصوص مع بدة التفاصيل أو عدم وجودها ، ومن الممكن مثلاً أن نجد سطرأ واحداً في نص يشير إلى الوقت الذي يضحي به الملك بأحد الحراف أمام النجوم والذي ستمتج منه أن شيئاً ما ذا أهمية وطنية تشمل الملك سوف يحدث ليلاً ربما في باحة المعبد أو في المعبد أو على سطح القصر ولكن لا نعلم فعوى الحادث.

وكانت بعض الطقوس معقدة جداً وهي تشمل وجود عدد كبير من الآلهة ، وهكذا نجد أحد الطقوس يذكر خمسة عشر إلهاً أنهم واقفون إلى يسار الإله آشور وخمسة عشر إلى يمينه من الواضح أن هذا كان إحدى الاحتمالات الرائعة ، ولا نعلم ما كانت تفعله هذه الآلهة في هذا الاحتفال ولكن يبدو أن هذا كان اجتماعاً سرئياً وحلوة للآلهة ، لأنهم كانوا مزودين بالطعام المثلث من الخضروات في هذه المناسبة وكذلك بذور الحنكس والمكسرات والقصب والرمان والتين والخبز والنبيد والبيرة.

كانت معظم الطقوس في المعبد مؤلفة من صبيخ معدلة لمناصر مختلفة كصميراث الآلهة والتصحية بالحيوانات وتقديم الطعام والشراب وتلاوة التعاويذ والصلوات وإنشاد الأناشيد واحتفالات الاعتسالي ، وموسيقى الطبول (وعلى مستوى أهل) تمثيل درامي لحوادث خرافية وكانت عناصر هذه الأخيرة تحتوي على قتال طقوسي وسباق أو الذهاب إلى القراش لممارسة الجنس ، وهذا الطقوس يدعو

الباحثون الحديثون، وهم خطلون، بالزواج المقدس، وكانت الطقوس مصحوبة بالموسيقى وبخاصة قرع الطبول الذي كان شائعاً جداً بالنسبة لمختلف الآلهة.

وتُعدُّ إحدى القوائم ثلاثة عشر من هذه الاحتفالات الدينية الإلهية في آشور التي كانت تحدث ما بين أشهر أيلول ونيسان، وتذكر إحدى النصوص القديمة أن العرض من قرع الطبول كان دعوة الآلهة.

هناك واحد من الأعياد التي نسمع عنها الشيء الكثير هو ما يدعى (أكينو) مع أن هذا يترجم باسم عيد رأس السنة، ولكننا لا نعلم ما معنى هذا الاسم أصلاً، ونحن نستعمل الترجمة نظراً لأنه وفي بابل هذا هو ما حدث، فقد كان هذا العيد يتم في الشهر الأول من السنة وهو نيسان.

وفي بابل كان هذا العيد يبدأ بتلاوة جميع أحداث أسطورة الخلق، وكذلك تمثيل الصراع الطقوسي ما بين إله المدينة والوحش البدائي المدعو نيامات (وهو عبارة عن تين بشكل امرأة).

وأما الزواج المقدس فقد كانت هذه الاحتفالات تتم لتأمين راحة المدينة في السنة القادمة وترويج الملك الجديد، ولكن لا يجوز شرعاً الافتراض أن علينا أن نرى في الاحتفالات في آشور نسخة طبق الأصل عن الاحتفالات في بابل.

ففي بابل ليس من الضروري أن يحتفل (بالأكينو) في بداية العام وفي شهر نيسان، بل نجد ذكر مثل هذه الاحتمالات مثلاً في شهر آب وأيلول في مكان قرب إيربيل وفي آذار في مكان لم يحدد، وقد حدثت الاحتفالات في شهر آذار خلال الألف الثاني ق.م.

ومع ذلك فإننا نجد أن هناك احتفال (الأكينو) في شهر نيسان في مدينة آشور مع وجود دلالات قوية أن كثيراً مما حدث كان موارياً للاحتفال الذي حدث في بابل، وهذا لا يمثل الماديات الآشورية القديمة فعصب بل يمثل نفوذ بابل الأخير.

وفي اليوم الثاني غادر الإله آشور مَعبده بعد أن تناول فطوراً من اللحم، وركب عربة تجرها الخيول البيضاء على رأس موكب من الآلهة متجهاً إلى بناية تدعى

بيت أكيتو، وكان هذا معبداً قد بنى من حاروب خارج المدينة، ولقد اعتبر من حاروب الأرض الواسعة هي خير مكان لبناء بيت أكيتو، نظراً لأنه من الواضح أنه عند بئانه هذا المعبد كان يشير بوضوح أن عادة إقامة العيد المحتف به بوليمة آشور ملك الآلهة قد تطور، وأصبح داخل المدينة بدلاً من إقامته في الهواء الطلق.

ولكن هذا يحتمل المبرهنة أنه رغم آراء من حاروب القوية فقد كان هناك تقليد آشوري بديل في هذا المجال وإن تأكيده من حاروب على ما هو حق وصحيح لربما كان متأثراً بتجربة البابليين.

ولم يحبرنا أحد ماذا فعل آشور عندما وصل إلى بيت أكيتو، ولكننا نستطيع مع ذلك أن نستنتج أنه عدا عن تروسه للوليمة التي ذكرها من حاروب فقد استأنف ذلك الصراع القومي ضد الوحش تيامات، وأن السبب الذي يجمعنا نفكر بهذا الشكل هو أن من حاروب يصف بيت أكيتو بأنها مزخرفة بتمثال آشور الذي كان ذاهباً لخوض معركة ضد (تيامات) حالما يرفع قوسه وهو راكب في عربته وعلى حصره سلاح الطوفان.

ولكن هنا أيضاً يعجب الإنس إلى أي حد قد وصلت هذه التفاصيل إلى آشور القديمة وإلى أي حد قد اقتبست آشور هذه التفاصيل من بابل.

لقد كان الدين الآشوري هو دين الدولة وكانت الدولة تعتمد على الملك لذلك لا عجب أن تتركز طقوس المعبد على الملك أيضاً، وقد ظل هذا الوضع صحيحاً حتى بالنسبة إلى العايد المتوسطة في مدن بعيدة عن العاصمة حيث لا يستطيع الملك أن يحضر بنفسه جميع الاحتفالات، وفي هذه الحالة كان رداء الملك الطقوسي يرسل إلى المعبد ليقوم بالدور الذي كان الملك سوف يقوم به.

وكان من العادة أن يحضر آخرون من أفراد العائلة المالكة وفيهم نساء، الملقوس في المعبد وهكذا نجد أن أخت الملك أو ابنته قد دعيت للاحتفال وذلك لكي تستدعي بالاسم روحه الإله آشور الأعلى حالما يقدم لها شيء من اللحم المطبوخ.

كهنة المعبد ورجال الدين الآشوريون

كان المعبد الرئيسي في مدينة رئيسية ربما يقصصها وجود الممتلكات والضيع التي كانت تتمتع بها أي مدينة مماثلة في بابل، وكان هذا المعبد لا يزال مؤسسة معقدة تتطلب وجود موظفين ورجال دين أيضاً.

وبالنسبة للمعبد في العاصمة القديمة آشور فقد تركزت السلطة بموظف لم يكن ذا شخصية دينية وهو يدعى الأباراكو (أي مدير الأعمال) في بيت الإله آشور.

وفي بعض المعابد الآشورية كان المدير الرئيسي يعرف باسم الرجل المسؤول عن البيت بينما كان يدعى في معابد أخرى شانفو وهو الموظف الكهنوتي الأول، وهكذا فقد ترجم لقبه بكلمة كاهن ومن الممكن أن يحمل هذا الرجل لقبين وهما (الرجل المسؤول عن البيت) ولقب: شانفو وكان استئصال أحد هذين اللقبين يدل على أي من هاتين الوظائف كانت أعلى مقاماً في ذلك الوقت.

وعادةً كان هناك نائب للشانفو نظراً لأن شانفو معبد عظيم كان رجلاً ذا أهمية كبرى وعالياً ما كان ذا اتصال مباشر مع الملك شخصياً أو في المناسبات الاحتمالية أو عن طريق المراسلة حول الحوادث التي تجري في المدينة أو الدولة.

وكان من الممكن أن يكون هذا ذا ثروة هائلة وأن يمتلك الضياع الكبيرة بالإضافة إلى الأجور التي كان يتقاضاها كحصنة من مدخول المعبد.

ولقد كان الملك هو الذي يعين هؤلاء الموظفين مع أن اختيار الملك في مثل هذه الحالات كانت معالجة بماملين:

الأول وهو قبول مبدأ التوارث، وهكذا إن تقريراً قد أرسل إلى الملك فحوام أن الرجل المسؤول عن البيت في أحد المعابد قد توفي، وكان يقترح على الملك أن يعين بدلاً عن المتوفي إما ولده، أو ابن أخيه وابن عمه الذي سبق أن أقبل بعد أن كان نائباً للشانفو، إذ إن التعيينات في ذلك المعبد كانت منحصرة في دائرة ضيقة.

أما العامل الآخر من القيود على حرية الملك في الاختيار فهي: أن اختيار الملك ينبغي أن ينال موافقة الآلهة واحتمال ديني وهكذا فقد أصبح الكهنة المحترفون مسيطرين على الإجراءات اللازمة للحصول على القرار والتأييد الإلهي، ومن الواضح أن هذا التأييد كان يوفر لهم المرحمة للاعتراض والنقص بالنسبة إلى أي نعيمات لا يوافقون عليها.

الشافو

كان للشافو مساعد وهو نائبه عند الضرورة وهو الذي يعني بالشؤون المالية للمعبد فقد كان مسؤولاً عن استلام التقدمة وإدارة شؤون المعبد المالية وكان مسؤولاً عن أملاك المعبد بصورة عامة (ما عدا حالة المعبد الرئيسي في آشور حيث كان هناك مدير للأعمال (أباراكو) (معبداً لهذا المرض)، وهذا وإن حماية أملاك المعبد لا تخلو من مشاكل إذ إن الاحتلاسات التي يقوم بها بعض أفراد موظفي المعبد لم تكن نادرة، وفي بعض الماسبات نجد بعض الموظفين الإداريين يقدمون شكاوى إلى الملك أن أحد الموظفين المحليين قد نهب أموال المعبد

وكان الشافو ونائبه هما المسؤولين عن طقوس المعبد، وطالما لعبا دوراً رائداً في هذا المعبد مع أن شخصيات وفيه أخرى مشكوك فيها.

هذا وكان ملك آشور نفسه الذي كان الرئيس الأسمى لطقوس الدولة يحمل لقب شافو بين ألقابه الكثيرة

كان هناك عدة طبقات كهنوتية عدا عن الشافو مرتبطة بالمعبد، وآخرون كانوا غير مرتبطين ويتوقف يكون مثل هؤلاء الموظفين أصحاب صفة كهنة أو غير كهنة على وجهة النظر الموضوعية بالنسبة لمعنى كلمة كاهن.

وكلمة كاهن تستعمل أحياناً متصلة باصطلاح وصفي (لهامه) ولكن على الرغم من هذا فإن وجهة النظر المعتمدة هنا هي أن هؤلاء الموظفين الدينيين (مع استثناءات ممكنة) لم يكونوا كهنة كما كان الحال بالنسبة للشافو الذي

كان على اتصال وثيق بالإله لكونه مسؤولاً عن تسيير الطقوس في بيته وهو المعبود

والحقيقة فليس التمييز بين الكاهن وغير الكاهن لم يكن من اختصاص الثقافة الآشورية ، إذ كان هناك تمييز واضح بين الأشخاص الذين كانوا أعضاء في هيئة الموظفين في المعبد والذين لم يكونوا كذلك وكان الاسم الذي يطلق على المصو في هيئة موظفي المعبد (أريب ييه) ومعناه الحرجة: (الشخص الذي يدخل البيت).

إن مثل هؤلاء الموظفين كانوا مسؤولين بانتظام عن تسيير شؤون المعبد ، بينما لم يكن الأشخاص الآخرون مسؤولين عن هذا الأمر.

وهذا الاصطلاح ربما شمل الصانع فضلاً عن الموظفين الديين وأحياناً بعض الموظفين المصكين ، وكان مثل هؤلاء حق المساهمة وأخذ حصة من التقديمات التي كان يستلمها المعبد

الكالو

إن الطبقة الثانية من طبقات الموظفين الديين الذين عُدا موظفين رسميين في طاقم المعبد كانوا يعرفون باسم الكالو ، وترجمتها (كاهن الابتهاالات) مع أن هذا الكاهن كان يقوم بأنشطة أخرى عدا عن الأنشطة الكهوتية ، وما عدا الدور الرئيسي والاحتفالات الكبرى التي كان يقوم بها الشانقو أو نائبه ، وإن أكثرية الطقوس في المعبد كان يقوم بها الكهنة الذين يُسمون بالكالو ويمساعتهم.

ونحن نجد هؤلاء يقومون بتأدية أعمال كممثل نمب الطبول في فناء المعبد عند إقامة طقوس خاصة بمناسبة خسوف القمر ، أو يؤدون طقوساً دينية ليلية ذات علاقة بالمعجرات وعلم النجوم ، وبمساعدة الأشيبيو (سوف يذكر فيما بعد) كان الكالو يقيم طقوس تطهير المعبد التي تشمل عمليات التنظيف الطقوسية وبشر البخور ، أو سكب الخمر على جسد الأضحية وهو ما يدعى بالإراقة.

ولقد وجدنا أن سنعاريب قد أرسل أحد هؤلاء الكالو ومعه أحد الأشيبيو لإنجاز الطقوس الضرورية عند شق إحدى الأقفنة.

ولكن الوظيفة الرئيسية للكالو كانت الإتشاد وهو ترجمة اسمه التقليدي، فلقد كان الإله يسكن في بيته الأرضي وهو المبد ، وكان من الضروري الحفاظ عليه في مزاج جيد ، وإبقاء أساليب التواصل مفتوحة وذلك للمساعدة على إبقاء شمعة ورحمة الإله للبشر حين وقت اللزوم.

وكان هذا هو عمل ووظيفة الكالو الذي كان يقوم بترانيله وإنشاداته الطقوسية الموجهة إلى الإله والتي كانت تتخذ شكل الصلوات أو الأبتهاالات بصورة نموذجية ، وكذلك الصلوات والأغاني الدينية التي تدعوها بالرامير وترافقه بعض الآلات الموسيقية كالطبل أو القيثارة.

أما الموسيقيون من الطبقة الدنيا فكانوا يساعدون في أداء الأناشيد الفعلية، واللعب تحت إرشاداته، ومن الممكن أن يكون الكالو رجلاً ذا أهمية وثروة، إذ نظراً لأنه كان يقرأ وينشد طقوساً صعبة فإنه كان ينتمي إلى طبقة المتعلمين وهم أقلية

وبجد بعض هؤلاء الكالو يعملون كتبةً وفي بابل (ولسنا متأكدين أن هذا ينطبق على آشور) كان الكالو المتقّم المتعلم يجمع ما بين عدة وظائف إذ يمكن أن يكون (كالو) و(شانتفو) في معبد آخر، ولكن ليس من الضروري أن يكون الكالو من طبقة اجتماعية راقية

وبحسب نجد قضية كالو قد اعتنق من المبودية إكراماً للإله بعل، وليس من الواضح إن كان هذا الكالو عبداً في الأصل أو سيداً، ولكن من الواضح أنه كان تحت سيطرة اجتماعية تجعله مشبوهاً

موسيقى المعبد واليلاط

لقد لعبت الموسيقى دوراً مهماً في الطقوس في كل من الهيكل والدولة، وبالإضافة إلى ذلك في التراتيل التي كان يقدمها الكالو، وكان هناك طبقة من الناس قد كُرموا أنفسهم للموسيقى، وكانوا يقدمون موسيقى الصوت والمزف على الآلات الموسيقية، وكان الشخص من هذا النوع يدعى (بارو) والمؤت نارتو، وكان الموسيقيون يذكرون إلى جانب الكالو في الطقوس في المعابد ولكن مراتهم الاجتماعية كانت أدنى من هؤلاء.

وكانت مسرولية ترتيب التراتيل تقع على الكالو، وكانت واحيات البارو أن ينشدوا الأناشيد بشكل جيد وأن يمزقوا على الآلات الموسيقية، وقد كان الموسيقيون سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً يذكرون بأعداد كبيرة بما يخص بشؤون القصور، إذ إن الملوك الآشوريين كانوا حريصين على جمعهم ولدى الاستيلاء على بلاد أخرى كان الآشوريون يجلبون أحياناً مجموعات من مثل هؤلاء الناس باعتبارهم جرماً من المائث، وكان الموسيقيون يرافقون الملك الآشوري أثناء غزواته.

الآشوري

كان الدين الآشوري معقداً جداً فهو يحتوي على مريج مختلف من المواقف من اصول مختلفة كانت تعمل على مستويات مختلفة إذ لم تكن المعابد ولا العبادات المؤسسة على الإيمان بآلهة تتخذ أشكال البشر، هي كل الديانة الآشورية. وفي هذا المجال كان الاعتماد السائد هو وجود آلهة ذات مواقف إنسانية بشرية مع قوى حارقة لقوة البشر، وكان لهذه الآلهة اهتمام بالبشر الذين يستلهمون الاقتراب من هذه الآلهة.

وإن هذه الكائنات الإلهية إذا تم الوصول إليها بشكل لائق ومناسب من الممكن إقناعها بأن تستعمل قواها لفائدة الأشخاص الذين يعبدها.

هذا وإن القرءاء إذا كانوا قد نشأوا ضمن تربية وتقاليد مسيحية أو يهودية ربما فكر هؤلاء أن هذه الأقوال بديهيّة، والحقيقة أنه لم تكن جميع المعتقدات الدينية الآشورية معتقدات متديّنة فقد كان هناك معتقدات بالنسبة لما وراء الطبيعة ذات أصول مختلفة وممارسات مختلفة وتعود هذه المعتقدات إلى أزمنة ما قبل التاريخ قبل أن يكون هناك أبداً أي دولة آشورية، أو أي ملك آشوري، وفي بعض الحالات حتى قبل أن تتشكل فكرة الآلهة دوي الشكل البشري وهذه اشتملت هذه الأوضاع ما ندعوه في الاصطلاحات الحديثة بالسحر أكثر منه في الدين.

وإن كثيراً مما حدث في هذا السياق كان منحصراً بالمضال ضد التأثيرات الشريرة، وهو الذي كان يبدو أحياناً هلامياً، وأحياناً يُشخص بكونه شكلاً من أشكال الشياطين، ولكن في آشور لم يكن هناك تعبير قاطع ما بين السحر والدين، ونتيجة لذلك وجد بعض رجال الدين الذين كان نشاطهم منصباً على مجال السحر وليس مجال الدين كما نفهمه ولهم مركز ضمن الطقوس في المعابد والاحتمالات الدينية

وكان أشهر وأنشط العاملين من الكهّان في هذا المجال هم الخبراء بالتعاويذ السحرية، وهم المعروفون باسم الأشيبو (أو ماش مهبشو) التي تترجم باسم طاردي الأرواح الشريرة، مع أن كلمة الساحر أو طبيب الساحرات ربما تبدو أكثر دقة وأكثر إحصاحاً عن وظيفة هؤلاء في المجتمع الآشوري.

وكان من المعروف أن الأشيبو كان لديه قوى سحرية هائلة لدرجة أنه وفي النصوص الدينية كانت قد وصفت بعض الآلهة بأنها أشيبو الآلهة وهذا يعني إن قوة الأشيبو كانت عظيمة جداً بحيث إنها تفوقت حتى على القوى الإلهية، مما دعا الآلهة أنفسهم لتظهر السرور بامتلاكها، وهكذا يصبح الأشيبو متمماً بهيبة واحترام.

لم يكن الأشيبو بموحد طبيعة وظائفهم عبارة عن موظفين في المعابد مع أنه كان بعض هؤلاء يمينون في ملاك موظفي المعبد لإنجاز وظائفهم المختصة بهم كما يجب، مثلاً: عند إنشاء التعاويذ، أو عند محاولتهم طرد الأرواح الشريرة والشياطين من حضرة الملك.

وكان معظم هؤلاء يعملون خارج المعبد، وكان بعضهم يعمل في خدمة الملك، وكان بعضهم في ملاك موظفي القصر.

ومرى واحداً منهم يعمل كموظف عبادات بممل في الاحتمالات الدينية عند افتتاح قنال شقه منهاريب.

وكان آشوريون آخرون يرسلون التقارير المنتظمة إلى الملك حول قضايا تخص أحوال الملك وأحوال عائلته، وأحوال الدولة.

ويذكر بعض الطقوس اللازمة للتأمين ضد الأخطار، وكان الملك يحترم آراء هؤلاء خصوصاً عندما يصاب الملك بالحواف المريع بحيث يبالغ في الأشياء، وإن لدينا رسالة من أحد الأشيبو إلى الملك يذكر أشياء مشابهة لهذه، ولم نعرف ما سبق هذه الأخبار ولكن هاك ما يقوله الأشيبو:

((لماذا لم تأت مائدة الطعام وللبوم الثاني إلى حضرة الملك لسيدي) الذي هو في الظلام طيلة اليوم، وذلك لأن إله الشمس وهو ملك الآلهة بات في الظلام اليوم بطوله، والليل بطوله، ومدة ثمانية لمدة يومين.

ولسكن الملك وهو سيد البلاد ما هو إلا صورة للإله الشمس، ولكن ينبغي أن يظل في الظلام مدة نصف يوم فحسب)).

يبدو أن شيئاً ما قد حدث للشمس، وربما كان كسوفاً شمسياً، وكانت متطلبات هذا الكسوف تستوجب البقاء في الظلمة.

ويقترح بعض الباحثين أن هذا العمل يعني المواجه والدب (مع أنه هنا ليس المعنى المعادي) أن يبقى في الظلمة لمدة يومين.

فقد كان الملك يلاحظ ويتقيد بهذا الطلب الشديد الوطأة، ولكن عندما أتى الأشيبو وهو يقول-

((إبه نظراً لأن الملك يضعه عبارة عن إظهار بشري للإله شمس فإن فترة بقائه في الظلام (أو في حالة من حالات التذب والضعف) وسوف تتحدد بنصف يوم))

ولكن لماذا عرض الأشيبو هذا الاقتراح بعد أن كان من الواضح أن الملك قد قضى في الظلام مدة تزيد على نصف يوم؟

ولكن أقوال الأشيبو- إن بمقدور الملك أن يتخلص من الدب بقضائه نصف يوم في الظلام هو قول خادع

فإذا كانت هناك قاعدة تقضي بقضاء يومين من العقوبة ضد ديب أو حادث خاص من سوء الطالع، عندها كان من الواجب أن يكون الملك وهو الذي يمثل دولة آشور هو الذي عليه أن يقوم بهذا العمل.

وقد وجد مكان غير مقروء في رسالة أشيبو، ولكن وحيث أمكن فهمه فإن هذه الرسالة تعطي اسطبعاً يبرز السبب الذي جعل الأشيبو يلتمس عذراً للملك في كسر الصيام.

وأما بقية الرسالة (وفيها بعض المقاطع غير مفهومة) فهي تكما يلي:

إن تناول الطعام الطيب وشرب الخمر سوف تملأ الملك من مرضه، ويبني الأخذ بهذه النصيحة، فإذا كان الامتناع عن الطعام والشراب سوف يقلق ذهن الملك، ويجلب له المرض، والرجاء أن يصفي الملك لما يقوله خادمه حول هذه القضية:

((والحقيقة أن فرض الصيام والانقلاق بالنسبة للملك قد كان سبباً في زيادة قلقه.)) وقد اضطر الأشيبو أن يجد طريقة يحدد ويقلل فيها الأضرار التي سوف تصيب الذات الملكية دون المساس بسلطة وقوة المطالب الطقوسية السابقة

لم يكن الملك وحسب ولكن الأعضاء الآخرين من العائلة المالكة، وربما أيضاً الموظفين الكبار في الدولة، كل هؤلاء كان من الممكن أن يكون لديهم (أشييو) في ملاك موظفيهم الدائمين.

وهكذا نسمع عن وجود أشييو رئيس في بيت ولي العهد وهذا ما يدل أن لدى ولي العهد مجموعة من الأشييو تحت تصرفه إذا هددته بعض الشرور، وقد كان كثير من الأشييو يحصلون على ما يرضي معيشتهم من الأجور التي يتقاضونها لمساعدة الناس العاديين للتغلب على الأمراض، أو التغلب على سلسلة من الخصوم من النوع الذي يدعو الحظ السيئ، وهما يلي نص موضع للطريقة التي كان الأشييو يتصرف بها وهو كما يلي

لأجل استبدال رجل بشيء يخص أيديش كيمال (آلهة العالم السفلي) عند غياب الشمس ينهي على الرجل المريض أن يمتطح معه أنثى من الماعز الصغيرة في الس والتي لم تلحق لتستلقي بجانبه، وفي نهاية الليل سوف تستيقظ عند المجر ثم يسعى أن يتطلع وتغير وجهك إلى الجانب الآخر من الماش، ثم ينهي على الرجل المريض أن يضع أنثى الماعز بين ساقيه (وفي الحالة) التي تنطلق برجل وامرأة يكون معنى هذا الجماع الجنسي مع امرأة.

وأما حالة أنثى الماعز يمكننا أن نعطي الرجل مع ما بلغت حالة مرضه فائدة الشك، ونقبل الفكرة التي عمادها أنه قد اتحد موقف الاتصال الجنسي غير المعال ولكنه تكاف لخداع القوى الضعيفة.

وبمدها تجعل الرجل المريض وأنثى الماعز يضطجعا على الأرض ويعدها تلمس عنق الرجل المريض بخنجر مصنوع من خشب الطرفاء (وهي شجرة بحيلة الأعصان) (وكانت الطرفاء تعد ذات خشب سحري) ويعدها تقطع عنق أنثى الماعز بخنجر مصنوع من النحاس.

ثم تعمل أحشاء أنثى الماعر التي دبحتها بالماء ثم تدهن بالزيت ثم تملأ أحشاؤها بالتوابل، ثم تلبس بعض الملابس وتكس أقدامها بأحذية ثم تكمل

عينها بالكحل، ثم تصب الزيت الحلو على رأسها، ثم تفرع عمامة الرجل المريض وتضعها على رأس أنثى الماعز، وأن تعاملها باحترام كأنها رجل ميت.

ثم يهض الرجل المريض ويخرج من الباب وعندئذ يبدأ الأشيبو بتلاوة بعض التعاويذ ثلاث مرات وهي (ذلك الرجل هو الذي مسته لمة الإله) ثلاث مرات.

وبعدها يطلق الأشيبو صرخات من البكاء على المريض قائلا (ذهب يواحه مصيره ثم يبدأ بالوواح والبكاء على المريض)

وبعدها تقدم مقدمة الجنازة إلى الإله إيديش كيغال ثلاث مرات.

ثم تصنع صحنين من البرغل الساخن أمامه.

وبعدها تقوم بمدح وتكريم (الميت) ثم تصب الماء والبيرة والذرة المسلوقة والعسل والزبدة والزيت.

وبعدها تقدم مقدمة الجنازة لأرواح أفراد عائلتك وكذلك لأنثى الماعز وبعدها تردد بعض التراتيل أمام الإله إيديش كيغال وهي- إن الشي (عالو هو اسم مرادف لأشيبو) هو أخوهم.

ويبني معاملة أنثى الماعز باحترام كما لو كانت لا تزال على قيد الحياة، ثم تدفنها

إن كلمات التوجيهات الطقوسية تبدو وكأنها تشير إلى أن هناك اثنين قد اشتركا في القيام بالطقوس:

أولهما، الأشيبو المذكور لقبه شخص آخر يحاطب بكلمة أنت، ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص هو (بارو) الكاهن الذي كان يهتم بالمرضى دائماً ومن جهة أخرى: فإن النصوص من هذا النوع لها تاريخ طويل على طريق التطور، وإن تعبير الكلام من أنت إلى هو ربما كان نتيجة إضافات تدريجية.

وهكذا فمن الممكن أن تكون كل التعليمات متوجهة إلى الأشيبو، وليس هناك من مجال للشك أن العمليات المذكورة في الطقوس المقولة ما هي إلا شؤون

صحبة تختص بالصحبر، فالرجل المريض متطابق ومتماثل مع أنثى الماعز الصغيرة مع اختفاء صفة الحتمية على أنثى الماعز.

ويمتصر أن يكون لحياة أنثى الماعز الصغيرة تأثير عن طريق الحقيقة المجردة وهي وجودها

ولكن لم تذكر قضية الدين بمعنى التقرب إلى الآلهة للحصول على تدخلها الرحيم في مصير حياة الإنسان.

ومع أنه لم يرد اسم إيديش ككيغال آله العالم السعطي، ولكن ليس هناك أي أقل الدلالات بوجود أي تقرب لها كآله تمتلك بعض العلاقات مع البشر، ومن الممكن الاقتراب منها سواء بقصد الاسترخاء أو التصرع.

هذا وإن تقديم اسم الآلهة إيديش ككيغال لا يبدو أكثر من علاقة طفيفة باتجاه الإيمان بالآلهة ذات النُوجه البشري المستعمل كاصطلاح مضاعف لقوى الشر التي لا يمكن تسميتها أو معرفتها وجودها، وقوى الموت التي كانوا يودون حذائها عند القيام بأداء الطقوس.

فمن يعرف عملاً المناسبة التي أُنم فيها الطقوس المشار إليه، فقد كان هناك الطقوس بالنيابة عن ولي العهد الذي كان مصاباً بالحمى، وهذا المرض قد عرى الأشيبو حصوله لاقتراف بعض الذنوب (ربما كان الذنب حرق الطقوس الدينية) بالنسبة للملك نفسه.

وهناك مثال آخر عند وقوع المشاط السحري الذي يقوم به الأشيبو وهو يتلخص بالمقتطعات التالية من رسالة أرسلها الأشيبو الرئيس إلى الملك.

بشأن طقوس الأيتغال التي تسمى: ((حقاً أنت الشرير)) التي أرسل إلى سيدي الملك رسالة بشأنها فهذه الطقوس تتم من أجل طرد الشيطان الشرير (آلو) وطرد المرض الطارئ وهو مرض السقوط (وهو يعرف على العموم باسم مرض الصرع).

إذا كان حصل للمريض شيء ما فإن الأشيبو سوف ينهض ويعلق فأرة وغصناً من شوكة الحمل على باب عتبة البيت، وسوف يرتدي الأشيبو ملابس حمراء،

ويمسح قناعاً أحمر، وسوف يحمل غراباً بيده اليمنى، وصقراً بيده اليسرى،
وبعدها ينشد نشيد الابتهاال: ((حقاً أنت شريف))

وبعد الانتهاء فإن الأشييو يصاحبه أشييو آخر يقومان بدورة حول هراش
المريض وإلى جانبيهما مبحرة ومشكل، وبعدها سوف ينشد نشيد الابتهاال ((أيها
الشیطان هوكتوبو اغرب عن أظاربا)) حتى يصل إلى الباب، وبعدها توسع تعويذة
على الباب.

ويسمى أب يكرر هذا الابتهاال صباحاً ومساءً حتى يُطرد الشيطان، والواضح
من النصوص الموزجبة التي ذكرت أن اسم الطيب الساهر هو أكثر ملاءمة
للأشييو من اسم الحكاه، ذلك لأن البسته فصلاً عن الطقوس قد خدمت
للإلهاع، فإن قدرته على طرد الآثار السيئة ما هي إلا مرافقة مره الحرافات
إذ إن الثوب المستعمل عند أداء أنشطته الرسمية كان ثوباً أحمر، وهذا
وبالنسبة إلى عدة ثقافات هو الذي يخدم قصبة طرد الشياطين والعفاريت.
وبالنسبة لبعض المراسيم فقد أعطى المحسن الفريية المستهجنة، وذلك لوجود
القناع الذي ليسه.

وتذكر النصوص الحرافية أنواعاً مختلفة من المخلوقات الهجية المملة مثلاً:
الرجل السمكة، ورجال العفاريت ذات الصفات المسحرية، وسمى على بعض
الانصاب الأشورية رجالاً يلعبون أقتعة تجعلهم يظهرون وكأنهم رجال سمك، أو
رجال أسود، وما شابه ذلك.

وتحتص هذه التمثيلات بالطقوس السحرية وكان الرجال الذين يرتدون
الأقتعة ليسوا أكثر من أشييو وكهة وهم يمارسون أعمالهم.

العراقون- البارو

لقد عمد الإنسار في معظم المجمعات لإيجاد وسائل تمكّنه من معرفة ما سيحدث في المستقبل.

ولم يكن أهالي ما بين النهرين شواذاً عن هذه القاعدة، ولقد اخترع كثير من تقنيات العرافة للتمسّك عن ما سوف يحدث، وتعود بعض هذه إلى الألف الثالث ق م في منطقة سومر، وربما كانت أصولها حتى أقدم من أزمة ما قبل التاريخ، وقد ازدهرت هذه المظاهر في آشور في الألف الأول ق م.

وتظهر أهمية هذه الوسائل لمعرفة المستقبل والثقافة الآشورية عن طريق ما وراء من محتويات المكتبات التي أسسها ملوك آشوريون مختلفون، وعلى الأخص آشور بانيبال والتي بناها في نينوى.

ولقد اكتشفت هذه المكتبات في القرن الماضي، ويوجد أنها تحتوي حوالي (١٢٠٠) من الأعمال الأدبية القديمة المحتملة، ومنها حوالي ثلاثمائة مخصصة بالعرافة والتنجيم.

ومن وجهة نظر شعب ما بين النهرين القديم كان شكل العرافة من أعلى المستويات مرتبطاً ببعض الكهّان المعروفين باسم (بارو)، مع أنه ولا حوالي نهاية الإمبراطورية الآشورية الجديدة تحلّت العرافة عن وضعها المرموق وتركته للتنجيم. وقد كان البارو ومذ أقيم الأرملة مثراًفاً مع تقنيات معشنة ولكن مرافقته كانت تحري بشكل أسامي عن طريق فحص الأعضاء الداخلية المهمة في الحيوانات المذبوحة والمصحّى بها.

وكانت تفاصيل هذه الإجراءات تختلف من فترة زمنية إلى فترة زمنية أخرى، ومن مكان إلى مكان، ولكن وبصورة أساميّة إلى ما كان يحدث في دولة آشور في الألف الأول قبل الميلاد كان كما يلي.

يُكتب سؤال على لوح من القضار، ويوضع هذا اللوح أمام الإله، وبعد ذلك كانت تُذبح غنمة وتُفحص أعضاؤها الداخلية، وبعدما يصل تقرير الإله وبمسيره

على افتراض أن الإله قد وضع جوابه على الأعماء الداحلية للحيوان بشكل صور وأشكال خاصة ، مثلاً الحجوم والألوان والبقع وغيرها من المظاهر الشاذة
وسكان للمرافين مفاتيح بشكل نماذج من القضاة للأعماء الداحلية (ولاسيما
التكيد) وهي تبلى على المظاهر الموجبة ، والمظاهر السالبة
وقد كانت المظاهر الموجبة والمعالمية بديقة ، ويكون الجواب الذي وضعه الإله
مختلماً حسب غلبة الموجب والسالب.

لديها المصوم الفعلية لبعض الأسئلة التي كان الملوك الآشوريون يطلبون
الإجابة عليها من خلال تقنيات (البارو) وفيما يلي جزء من هذه الأسئلة
أه- يا شمش ، أيها السيد العظيم ، أجبني بتأكيد حازم عن المسألة التي أسأل
عنها

أجبني بتأكيد حازم
وابتداءً من هذا اليوم وهو الثالث من شهر الإرحنى
الحادي عشر من شهر آب من هذا العام
خلال هذه الأيام المائة والليالي المائة وهي أنصرها
المنية بقضية الاستئصال.

هل سيقوم جنود السيمريين أو الميديين أو المانيين أو أي عدو آخر مهما كان
بمعاولة القتال أو التآمر ضدي؟

وسكان الكهنة البارو يحضرون مشهد المرافة عن طريق عدة تحضيرات ذات
طبيعة سحرية ، مثلاً. مصغ خشب الأرز ، أو حرق البحور ، وعمل التعاويذ وهمسها
في أذن الحيوان المضطرب.

ومن الواضح أنه وتحت سطح إجراءات تبدو أنها تطلب التجدة من إله دي
شكل بشري ، وتطلب الجواب ، هناك شيء أكثر بدائية ولكنه ليس ذا طبيعة
إلهية ، وهو الاعتقاد بقوة غير مشخصة وخارقة ولكن يمكن السيطرة عليها
بواسطة أساليب سحرية.

وشأنه شأن الكالو والأشييو كان البارو بحاجة لاستعمال النصوص
المسمارية خلال أنشطته المهمة ، ولذلك أصبح ينتمي إلى تلك الأقلية المتقفة مع
جميع الموائد التي تجمله قادراً على الاقتراب من الدولة ، ومن إدارة المعابد.

والحقيقة أن البارو كان منتبهاً إلى الشريحة العليا من المجتمع ، ونحن نعلم
مثلاً عن جماعة من (البارو) كانوا أبناء (الشاجو) وهناك بعض مسماري يذكر
إنه ليس بإمكان أحد أن يصبح (بارو) ما لم يكن خالياً من العيوب الجسدية ،
وأن يكون من أصل حر

ولم يكن من الضروري أن يكون البارو موظفاً في المعبد أو موظفاً في
الدولة ، مع أن طبيعة عمله كانت تقتضي أن يخدم المعبد ، أو يخدم الملك.

وبالنسبة للمناميات المهمة كان أفراد البارو يعملون بشكل مجموعات ،
ويشير كثير من الملوك الآشوريين إلى عدد من عرائس البارو مشركين في عمليات
الاستئصال وكانوا مورعين بشكل فردي.

لدينا مجموعة لا بأس بها من الرسائل أرسلت إلى الملك الآشوري من قبل
رجل كان يدعى البارو الرئيسي ، وقد خدم هذا في هيئة الموظفين الملكي مع
المسؤولية لتنظيم أحوال زملائه من البارو الآخرين ، وقد منحت له قطعة من الأرض
كأجر من قبل الملك.

وكان البارو الرئيسي المذكور يعمل في مكتب متواجد في القصر
الملكي ، ولكن لم يسمح لكل بارو يعمل في خدمة الملك أن ينجز أعماله في
خدمة القصر أو المعبد ، مثلاً. كان هناك بمصهم يخدم في الجيش الملكي ،
وكان مستمداً لإبجاز بعض الطقوس ، وإعطاء القرارات عن طريق المراهة عندما
يطلب منه ذلك.

وكان بعض (البارو) يصفون خدماتهم تحت تصرف أسام عاديين ،
وكانوا يخدمون أغراضاً خاصة كالكشف احتمالات الأمراض ، وعندما كان
البارو يتعاون مع الأشييو

لغات المرافقين الأخرى

لقد اعتبرنا البارو أولاً: بأنه يمثل أعلى طبقة من طبقات المرافقين، ولكن كان هناك قياسات أخرى متعددة، مثلاً: هناك قائمة من المحترفين تذكر فئتين تدعيان شا إيكو، وماهو، فضلاً عن الأشيبو البارو

لا يعرف إلا القليل من المعرفة التفصيلية عن الشا إيكو وذلك من أخيار آشور في الألف الأول، وربما كان ذلك نظراً لأنه هو أو هي (لأن المرأة تستطيع القيام بهذه الخدمة) قد أصبح منحصراً بالشريحة الدنيا من المجتمع، بحيث إنها لم تذكر في النصوص المسمارية الباقية التي تعكس وبصورة رئيسية مصانع الشريحة العليا المثقفة.

وفي مستهل الفترة الآشورية المتأخرة كان (الشا إيكو) وبصورة خاصة الإناث من هذه الشريحة متخصصين بتفسير الأحلام، واستحضار الأرواح بحيث ويسبب حاجتنا إلى شواهد أكثر تفصيلاً ربما افترضنا أن هناك مشتركاً ما بين الشا إيكو وساحرة (ايندور المذكورة في التوراة).

ولكن معرفتنا بالمايكو تفوق معرفتنا بالشا إيكو، وبموجب علم اشتقاق الألفاظ فإن هذه الكلمة تعني الشخص المصاب بجنون مزقت.

وإن الشخص الموصوف بهذا الوصف هو الشخص الذي يقع في حالة من الانجذاب بحيث يعطي بعض الرسائل القادمة من الله.

وهناك عينات من المذكور والإناث المصابين بهذا المرض وهم يكونون هيئة موظفين في المعبد أو أشخاصاً عاديين.

وهناك أوصاف أخرى متعددة استعملت في بلاد آشور للدلالة على أشخاص من هذا النوع، وكانت رسالتهم النبوية على نسق أولئك المذكورين في العهد القديم والذين وصفت نبوياتهم بأنها نبوءات أنبياء كتابيين (كما ذكر في سفر الملوك في التوراة) وكانت هذه النبوءات تمثل الموافقة على أعمال الملك وتشجيعه.

ولقد كان ملوك آشور يقدرون تلك النبوءات ويأخذونها على محمل الجد، بحيث إنه في إحدى المعاهدات مع أحد الأمراء التابعين عمده الملك اسرجحون على ريبط الأمير التابع يتمهد أن لا يخفي أي كلمة يلفظها أي شخص يعرفه.

وكان باستطاعة (الماكو) الاشتراك في حفلات المعابد، ومن المظنون أن ذلك الاشتراك يتم بشكل يسكن فيه هذا الشخص أحد الدراويش.

وكان هناك نوع آخر من المرافين الذين نشطوا في الألف الأول قبل الميلاد في آشور، مثلاً نسمع باسم ملاحظ الطيور، وهو شخصية رسمية يخدم الملك بأن يقدم تقاريراً للملك تحتوي على تنبؤات فلكية مأخوذة من حركات الطيور وتحتوي إحدى الوثائق الآشورية قائمة من الأسماء من الممكن تلخيصها بما يلي:

١٧- أشيبو

٥- باروس

٩- اطياء

٦- كالكوس

والآن لا بعد هارثي كلمة آشورية وطنية، فهي كلمة مصرية تدل على مفسري الأحلام، والكلمات الثلاث التي وجدت كانت كلها مصرية، ولهمست آشورية.

ولهذا هم الواضح أن الملوك الآشوريين قد جلبوا بعض مفسري الأحلام من مصر لإضافة هؤلاء إلى ما عندهم من جماعة المتنبئين بالمستقبل.

علم التنجيم

كانت أكبر الوسائل البروزة للتميز بالنسبة للدولة وأغراضها في حوالي نهاية الإمبراطورية الجديدة هي علم التنجيم، وكان هناك عدد كبير من الخبراء في هذا العلم من الذين كانوا يقدمون تقارير بانتظام إلى الملك حيث يذكرون ملاحظاتهم لأوضاع القمر والكواكب والنذر التي يلاحظونها

وينبغي أن نشير إلى أن علم التنجيم في آشور كان مختلفاً عما نعلمه من هذا الاسم في هذه الأيام وإذ إن ما يذكر من وراء علم التنجيم في هذه الأيام إنما يفترض فيه إخبار عن مصير الأفراد من خلال شموذة مؤسسة على مراكز الأجرام السماوية في الزمن الذي ولد فيه هؤلاء الأفراد

ولكن علم التنجيم الآشوري ومع أنه حال من الشعوذة إلا أنه لا يلزم إلا بأخبار شؤون الدولة وليس الأفراد (عدا العائلة المالكة ضمن الوضع الذي تتجسد فيه الدولة في الملك)

ولقد آتت التنبؤات من تطبيق التفسيرات التقليدية على الحوادث الجارية والسموات مثلاً: حوادث الخسوف والكسوف، والحلقات حول القمر، أو أوضاع الكواكب، ويأتي ضمن هذه المقولة الرعد والبهات الأرضية، ومن الممكن فهم طبيعة علم التنجيم الآشوري بالنظر إلى بضعة أمثلة وكلها بشكل تقارير موجهة إلى الملك.

عندما يرى القمر في اليوم الثالث عشر ظمأً سيكون هناك صقيع أو أن يسمع صوت العنق.

وعندما يعيد ملاحقة القمر يظهر هذا عالياً في السماء فإن العدو سوف يستولي على البلاد بالقوة.

وعندما يصبح القمر مرثياً في وقت أبكر من ميعاده فسوف تظهر الاضطرابات في هذا الشهر

وهنا نورد تفاصيل أخرى:

في هذه الليلة أحاطت هالة بالقمر ويظهر كوكب المشتري وتكون كوكبة
العقرب في داخلها ، وعندما تحيط بالقمر هالة ويصبح كوكب المشتري في داخلها
هنا ملك أككاد سوف يُعاصر ويطلق عليه.

وعندما تحيط بالقمر هالة ويتوضع المشتري داخل هذه الهالة فسوف تحدث
جائحة تسبب موت قطعان المواشي والحيوانات البرية.

هذا وإن نجمة الإله مردوخ عند رؤيتها لأول مرة هي.

S U L - P A . E وعندما يشرق مدة ساعة مردوخة يكون في حالة :

S A G . M E - N I G وعندما يتوضع في منتصف السماء فهو نيبورو .

وعندما تحيط هالة القمر ويتوضع المقرب في داخلها فإن الكاهنات سوف
يُفصل اتصالاً جسدياً مع الرجال ، أو أن الأسود تكما تقدم شرحه سوف تخرب
وتقتل العروق في البلاد

وتأتي التنبؤات الفلكية من السلسلة التالية :

عندما تحيط هالة بالقمر ويتوضع المشتري (**S U L - P A . E**) داخلها ، فإن ملك
الأراضي المربية سوف يمارس القوة ويخرب بلاد عدوه ، وهي مذهب شرم.

إن ما ذكر أعلاه يتطلب بعض التفاسير ، فالظاهرة الأساسية التي لوحظت
واضحة قد كانت هناك حلقة حول القمر تتضمن أجراماً سماوية مصيئة ، ويظهر
أن المجمع قد فُتس عن معاني تلك الملائم في السلسلة (أي في كتاب النصوص)
الذي يرجع إليه في النهاية ، وشأنها شأن النصوص المسمارية القديمة فقد سميت
هذه السلسلة باسم المطر الأول.

وهو يسر المسألة وهي إنه ومن وجهة نظر علم التنجيم فإن الكوكب بعينه
وهو المشتري تطلق عليه عدة أسماء طبقاً لعلوه في الأبراج ، وهو يعوق ذلك بإعطاء
تفسيرات مناسبة لوصفين مختلفين.

وقد عمد الباحثون الأولون الذين ألفوا كتب النصوص إلى وضع بعض
المعوقات ، وذلك بتقديم تفسيرات اختيارية بالنسبة لكوكبة السرطان ، وهكذا

أصبح مجال الاختيار والتمييزات غير المواتية مما يجعل المنجم يستجيب ان الظاهرة التي رآها إنما تعني شيئاً سيئاً بالنسبة للدولة.

وكان هناك بعض التقارير الأكثر إيجازاً وأكثر وضوحاً، مثلاً: عندما تحيط بالقمر هالة ويتوضع قلب الأسد **Regulus** في داخلها فإن النساء سوف تلد في تلك السنة مواليد من الذكور.

ففي هذه الحالة والحالة التي كانت قبلها فإن الظاهرة المذكورة هي ما شاهده المنجم، وقد أطلق الاسم فوراً وذلك بقصد الاقتصاد بالكلمات.

وأخيراً إننا سوف نقبس جزءاً صغيراً مأخوذاً من تقرير طويل مختص بالتنجيم وذلك من أجل التعليقات الاجتماعية التي يحتوي عليها، وهو يقول:

((عندما يصل القمر إلى الشمس ويسير جيباً إلى جنب معها، أي إلى القرن سوف يمانق القرن فسوف تتحتم أحوال البلاد المملوكية، هالابن سوف يصدق مع والده))

وهنا من الممكن أن نترض أن الوصف في ذلك الوقت كان عكس ذلك. تحتوي بعض التقارير التنجيمية معلومات عن الطقس ربما كانت مرسومة أصلاً على الملاحظة مثلاً: عندما يسمع الرعد في شهر أيار فإن القمح والخضروات سوف تسوء منتوجاتها

أو عندما يسمع الرعد في شهر شباط فسوف تمر على البلاد بقمة الجراد.

((وعندما نسمع صوت الرعد في شهر شباط فسوف يسر البرد))

وفي هذا التقرير الأخير فإن المنجم يقتبس تنبؤين فلكيين مختلفين قد وجدتهما في مجموعة النصوص، خاصة والتي تمود إلى شهر شباط، وإن الإشارة إلى زول البرد في شهر شباط ما هو إلا نتيجة الملاحظة، فالرعد في شهر شباط غالباً ما يتبعه زول البرد.

ومن المحتمل أن يكون هذا التنبؤ غير صحيح نظراً لوجود علاقة عرضية فإن
توارد أنماوصاف الرعدية مع درجات الحرارة في شهر شباط يؤيد في العراق سقوط
ترسبات بشكل بارد

أما التنبؤ حول جائحة الجراد ربما أتت من ملاحظة بعض الأشخاص أنه وفي
بعض المناسبات فإن الرعد في شهر شباط كان يتبعه هجوم جائحة الجراد ، وفي
هذا المجال ليس هناك من علاقة عرضية بين الحادثتين.

وقد نشأ التنبؤ على أساس الجملة اللاتينية التي فُحوها: ((إن هذا يتبع ذلك،
لذلك فإن هذا قد كان نتيجة عن ذلك))

ومع ذلك فإن معظم التنبؤات كانت على أساس مختلف عن هذا ، وهذا نوع
من الترميزية ، ويمكن للمرء أن يرى كيف يحدث ذلك من المقطع المذكور أعلاه
الذي مفاده

((عندما تحيط حالة بالقمر ويتوضع المشتري داخلها فإن الملك الأكادي سوف
يُحبس)).

وكان المشتري هو كوكب الإله مردوخ ، وكان مردوخ هو إله البابليين ،
وكانت بابل هي عاصمة المملكة البابلية المعروفة باسم: أسكاد بلقة المجمعين.

وإن الكلمة الأكادية التي نترجمها بمعنى: حالة ، يمكن استعمالها
أيضاً بمعنى حظيرة لحفظ الماشية ، وهكذا فإن رؤية الكوكب المشتري في
داخل حالة القمر يوحي بأن القوة العظمى في بابل كانت في داخل الحظيرة التي
سوف تمثل الوصع إذا أصبح ملك بابل تحت الحصار

وبشكل مشابه فإن التنبؤ الذي يشير إلى أن القمر قد وصل إلى الشمس وسار
جنباً إلى جنب معها ، وأن الابن سوف يصنق مع والده ، إن هذه الحقيقة تقدم نوعاً
من الرمزية إلى الأب والابن اللذين ينبغي أن يبقيا على وئام وسلام.

لقد سببت ظاهرة الخسوف والكسوف الذعر والخوف بالنسبة للأقوام البدائية وأحياناً لغير البدائية ، وطبقاً لذلك فقد كانت ظاهرة الكسوف تدل على قبال سيئ

ومع ذلك فكان من الممكن أن يحترق النجم تفسيراً للخسوف والكسوف لكي يوفر على الملك شيئاً من القلق.

وهكذا نجد ما يلي

((لقد حان وقت الخسوف، ولكنه لم يلاحظ في آشور إذ إن ذلك الخسوف قد تجاوز آشور تلك المدينة التي يعيش فيها الملك.

فقد كان هناك عيود في كل مكان بحيث لم نعرف أن الخسوف قد حدث أم لم يحدث، ألا فليدع الملك يرسل الرسائل إلى آشور وإلى جميع المدن في كل مكان - إلى بابل، وإلى بيهور، وإلى العريش، وإلى بورشيبا، إذ ربما قد لوحظ خلال تلك المدن، وليسمع الملك التقارير المنتظمة.

فلقد عمد الآلهة في المدينة التي يعيش فيها الملك إلى تمتيع السماء، وهكذا لم يظهر الخسوف، وهكذا فإن الملك سيدي من الممكن بالتأكيد أن يتحقق من أن هذا الخسوف لم يكن ضد سيدي الملك، أو ضد أراضيه وهكذا فلنظل الملك سعيداً.))

وهكذا يقرر النجم أنه سواء حدث الخسوف أم لم يحدث فإن الدلالة مناسبة بالنسبة للملك.

(ومن الممكن أن نلاحظ أيضاً أنه من الغريبة في الزمن الذي نحن بصدده كان المنجمون يعرفون معلومات كافية حول حركة القمر بحيث استطاعوا التنبؤ بالخسوف القمري الذي يحدث عادة كل ستة أشهر، ومع ذلك وبسبب الأفكار المحافظة الخرافية كانت لا تزال تمد ظاهرة الخسوف دلالة على القبال السيئ).

وكان هناك مظهران لهذه التقارير التحقيقية:

أحداهما: أن يقدم للملك إنداراً وتحديراً من الحوادث القادمة وهي ذات أهمية بالنسبة للدولة.

أما الثاني: فهو لإعطاء الفرصة لإتمام شملائر الطقوس وذلك لتجنب أي حوادث سيئة قد أندرت بها هذه التقارير، ولقد اعتنى جماعة الموظفين الآشوريوس بهذا المظهر الثاني.

ربما يلاحظ القارئ أنه مع أننا لا نزال نعالج القضايا الدينية في هذا المصل من فصول الكتاب إلا أنه قد مضت صفحات وصفحات دون ذكر أي شيء عن الآلهة

وهذا مكان مناسب لإيضاح الانعكاس الذي كانت الآلهة تشمله في الموقف الآشوري تجاه الحياة.

ولقد بدأنا مناقشتنا حول الديانة الآشورية بالتحدث حول طبيعة الآلهة المظام، ولكن هذه المقاربة إنما هي نوع من التنازل لطريقتنا في التفكير حول دور الدين في المجتمع.

وبالنسبة للرجل الآشوري المادي فإن الآلهة المظام لم تكن هي الجزء من العالم الذي يمثل ما وراء الطبيعة الذي كان متأثراً به إلى درجة عظمى، مع أنه عندما قبل السيطرة على ذلك العالم الذي يعيش فيه مع الآلهة المظام، فإن تماسه الشخصي السريع بتلك الكائنات الإلهية ربما أصبح صئلاً جداً

ولكن لم يمت هذا أن الرجل الآشوري المادي سوف يهمل عالم ما وراء الطبيعة، بل لقد كان عالم ما وراء الطبيعة هو كل ما كان حوله وقد أثر في حياته بكل معنى الكلمة.

وهكذا فإذا أصابه المرض بسبب الشياطين أو ربما كان شراً من الشرور التي نهاجمه، وإذا فقد ولداً من أولاده فإن الشياطين هي المسبب، وهو يرى القوى الشريرة من عالم ما وراء الطبيعة هي التي تعمل.

ولكنه لم ير أى قرار من قرارات الآلهة العظام، فلم يكن هناك إيمان
توكلي عميق بوجود الأهداف الإلهية التي تسمح للأشوري أن يقول عندما تصادفه
مصيبة فادحة ((إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى، وَاللَّهُ قَدْ أَحَدًا)) ومبارك هو اسم الرب، ولقد
دخل الآلهة العظام في هذه القضية كقوى تستطيع إذا تم التصرع إليها ومباشرتها
أن تحيط بالنشر التاجم عن القوى الشريرة

لقد رأى الآشوري العالم المحيط به مليئاً بالقوى التي تؤثر فيه، وهكذا نحن
عندما نعد الميضاض الحاصل من النهر أو العاصفة كقوى طبيعية أو يرى الأمراض
ويعتبر أن سببها فيروس في الخلايا

إلا أن الآشوري كان يعد كل هذه الظواهر من عمل مشيئة خارجية، ويمتد
الشخص الآشوري أنه لا بُدَّ من وجود كائنات تتحكم بالمهضاض والعواصف
والأمراض.

وبدلاً من حالة وجود قوى عظيمة تؤثر في جميع أنحاء العالم وهي تؤدي نوعاً من
وظيفة واضحة ومفهومة في تخطيط ونظام الأشياء، مثلاً نظام العواصف أو حركة
الشمس، فقد بدأ واصفاً بالنسبة للآشوري أن المشكلات التي تشغل هذه القوى
ينبغي أن تكون عقلانية، وقد أصبحت هذه المشيئات مشحونة بشكل آلهة
تتصف بجميع الصفات الحمسة، والصفات انسيئة للبشر ولكن على مقياس أوسع.
ولكن حدثت بعض الأشياء غير العقلانية والمستبعدة فقد كان الأطفال
المولودون حديثاً سرعان ما كانوا يهرلون ويموتون. أو كانت الأمهات تصاب بدوع
من التعرّيج ذي الرائحة الشديدة بمصاحبة الحمى والهديان، وتنتهي بموت مؤلم

وكان باستطاعة الآلهة العظمى القتل، ولصحتها كانت تقتل وعندها غرض
وهدف من هذا القتل إذ إن هذه الوفيات المتعمدة من الأطفال والنساء وعند الولادة
كانت ليست بذات معنى، ولا يمكن أن تكون إلا عمل شيطان شرير

وقد كان هذا المجرم يتمثل باسم امرأة من الشيطانات تدعى لاماتشو التي لم
يكن لها أي وظيفة في هذا العالم سوى مهاجمة تلك الصعاليح العاجزة والمسالمة

كانت لاماتشو الأكثر شهرة ولكنها لم تكن الشيطانة الوحيدة، فقد كان العالم مليئاً بمثل هذه الكائنات اللبية، فقد كانت أي مصيبة أو إرماع أو شذوذ ذي طبيعة عرسية تصيب الإنسان إنما كانت من عمل أحد الشياطين.

ولكن ليس من الصحيح أن نقول: إن الشياطين ما هي إلا مصائب مجمدة، ولكن كانت بعيدة عن أن تكون مجمدة تماماً، ولكن بمصها كان من الواضح أنها كانت لا جنسية أي: بدون حمس، أو بدون اسم، وبدون شكل وكانت معتبرة لبعض الخصائص التي تثبت أنها كانت وكما نقول بمض النصوص لم يكن معترف بها من قبل الآلهة الحكماء.

ولم تكن الشياطين عبارة عن مصائب مجمدة بل كانت عبارة عن إرادة سيئة عملت على تشييط الكوارث والمصائب.

إن هذا الموقف بالنسبة إلى الحياة يؤلف الأرضية للأنشطة السحرية للأشيبو وكان التعود الهائل لهذه الطبيعة من السحرة لدى البلاط الملوكي أو لدى الشخص الأشوري العادي كان سببه وجود الأشيبو بطقوسه التي كانت ممثلاً لطرد الآثار المشروعة لتلك القوى الخارقة للطبيعة، التي كانت تحمى بالشعب الأشوري سواء كان الملك أو أي رجل عادي من كل الجهات.

ولكن بتشقة نوع من التوازن كان هناك اعتقاد مقابل بوجود الأرواح الخيرة التي يمكنها أن تسكن في بيت وتحميه، وأن تحمي البناية، أو تراقب وتحمي أي إنسان، ونحن نجد هناك تصريحاً يتناول قضية الرجل الذي يعمل ككاهن بريدي ((أن الآلهة سوف تقدم له (شيدو) وهو نوع من الملاك الحارس الذي يعني به)).

أما في بابل فإن المصطلح المستعمل للدلالة على الروح الحامية هو (إيلو) أو (عشتارو) ولما كانت هذه الأسماء تدل على الإله أو الآلهة، فإنه عالياً ما يقال إن لكل إنسان إلهاً شخصياً أو إلهة الشخصية، ولكن مع استثناء الملك فإن ما يدعى بالآلهة الشخصية أو الإلهات لم يكونوا أعضاء رسميين في مجتمع الآلهة، وبذلك تصبح كلمة ((الروح الشخصية الحامية)) هي الانتماء الدقيق والصحيح لذلك المفهوم الكامل.

المساحرات والسحرة

لقد استخدم الأشييو سحرة لحماية البشر من القوى فوق الطبيعية، أو الشرور التي تحيط بالإنسان، ولكن كان هناك بعض الناس الذين كانوا يستخدمون تقنيات متعددة لتوجيه تلك القوى ضد الحكايات البشرية، وكانت هذه الحكايات الشريرة وهي المساحرات والسحرة الذين كان باستطاعتهم مسح الناس، وإرسال الأرواح الشريرة ضدهم وأن تفصلهم عن الأرواح الخيرة وتجلب لهم أي نوع من أنواع سوء الطالع أو المصائب.

ولدينا سلسلة طويلة من النصوص التي تعطي السحر المضاد ضد هذه الأعمال السحرية، ومن العريب أن نجد أحد الباحثين الذي لم ينجح في فهم الدور الذي يتم في كل المجتمعات عن طريق الإيمان بوجود السحرة في مجتمعات عديدة، فحاول أن يعمد إيمان الآشوريين بالسحرة إلى نوع من الهوس النفسي، أو الهدمان، وعلى هذا الأساس فإنه يدعي أن النصوص التي تذكر السحر المعاكس ضد السحرة كانت من أحد الكتب التي تبحث في الطب النفسي عند البابليين.

والحقيقة أنه كان هناك نصح حالات تزعج أهالي منطقة ما بين النهرين قد فسر بها هؤلاء أنها مسببة عن السحرة ولكنها بالنسبة لنا نعتبر بأنها حالات مناسبة للطب النفسي، ولكن كان كل إنسان في منطقة ما بين النهرين يمتد بوجود السحر، وإن عزو المصائب والكوارث والأمراض إلى السحر كان من الميزات الثقافية، وليست قضية هوس نفسي.

ولم يعد لدى البابليين أي علم مختص بالطب التمسحي بالقدر الذي لم يكن لديهم أي معرفة بعلم الفيزياء النووية.

الفصل الرابع عشر

الطب عند الآشوريين

لقد وضعنا الطب عند الآشوريين في فصل خاص خارج عن الالتزام بالتصنيف الحديث.

ولقد ريعت الآشوريون أنفسهم باسم الطبيب (أسو) ريعاً وثيقاً باسم الموظف الذي كان يلقب الأشيبو ، والذي ترجمناه باسم الساحر أو الساحر الطيب ، وكان هذا الريع واضحاً جداً كما سوف نرى ، فالوظائف كانا يعملان بشكل وثيقاً معاً

ولقد اقتبسنا نصاً يعدد الأطباء مع الأشيبو والكالو (وهم الكهنة الذين يعملون بالمذبح والناس) وأيضاً عدة أنواع من العراض.

ولقد كان هناك في آشور ما يدل أن الأسو كان ذا مرتبة أدنى من مرتبة الأشيبو

وتظهر لنا إحدى الرسائل التي أرسلها أحد الأشيبو إلى الملك أن الملك قد قام باستشارة الأشيبو قبل أن يسمح لولده ولي العهد أن يشرب شراباً قد وصف له من قبل (طبيب على الأرجح) ولقد نصح الأشيبو الملك قائلاً إن الشراب لا بأس به ، ولحكمة اقترح كإجراء وفائي أن يشرب أحد العبيد بعضاً من هذا الشراب قبل أن يشرب ولي العهد منه.

وهذا يظهر لنا المرتبة العالية التي وصل إليها الأشيبو بطريقتين

أولاً: الحاجة للحصول على موافقة طبيب ساحر قبل تناول الدواء ، وهذا

يظهر أن خبره الأشيبو كان لها حق الأفضلية

ثانياً وبينما كان هناك نوع من فقدان الثقة انعكست باستفسار الملك

حول المعالجة بواسطة الأدوية ، إلا أنه ليست هناك من دلالة على أن الملك كان

يسمى للحصول على رأي آخر عندما قرر الأشيبو ضرورة اتخاذ بعض الإجراءات السحرية.

ولقد قام الباحثون ببعض المحاولات لتحديد الحد العاصل بين أنشطة (الأشيبو) وأنشطة (الأسو) ولكن دون إحراز أي نتائج حاسمة، ويمكن سبب ذلك عدم وجود خط فاصل واضح بينهما فقد كانت وظائفهما متداخلة، وفي بعض الظروف كانت كلتا الوظيفتين تملآن بشكل متساوئي، مثلاً هناك رسالة آشورية مؤداها أن أحد الموظفين المسؤولين يعتذر للملك عن الحضور إلى مدينة آشور بسبب مرضه، وقد أنهى رسالته باقتراح بأخذ علاج لمرضه فائلاً أرجو أن يمين الملك أحد أعضاء الأشيبو واحد أعضاء الأسو ليكوبا تحت تصرفه، ودعهما يمارسان وظائفهما معاً

مفهوم الآشوريون للمرض

لقد اعتبر شعب ما بين النهرين القدماء (كل من بابل وآشور) أن المرض حاصل من أحوال ترجع إلى ما وراء الطبيعة، ولدينا كثير من التصريحات حول هذا الموضوع، وكانت الفوائد الفعلية أمراً مشكوكاً به، مع أن الاسم كان يقدم دلالات واضحة لضرورة التكفير على أسس خطوط سحرية، فقد كانت تلاحف وبعد ذلك كان المرض يُنسب إلى تدخل معين مما وراء الطبيعة، وهكذا فسوف نستشهد ببعض الأمثلة المرضية ولكنها نموذجية

إذا شكك المريض باستمرار قائلاً يا رأسي يا رأسي فإن هذا من فعل الإله (هالان المالاني).

إذا شمر المريض يدوار في الرأس وكانت بطنا رجليه باردين فإن هذا من فعل الإله (هالان المالاني).

إذا استمر رأسه في الوجع وظلت الحمى تهاجمه فإن هذا من فعل الإله عشتار إذا كان صدغه يؤلم ويستمر بالصراخ: ((يا بطني، يا بطني)) فإن هذا من فعل إحدى الأرواح، وهناك إمكانات أخرى أن يكون ذلك من فعل الآلهة عشتار،

وهو سوف يموت، وأما إذا كان من فعل الأرواح فسوف يبقى حياً مدة قصيرة ثم يموت.

إذا تغير كلامه وظلت الحمى تهاجمه فإن هذا من فعل الإله ينوترا

إذا سال الدم من قضيبه فإن هذا من فعل الإله شمش.

والثبُّ هو إلى أرض لا عودة بعدها وهي العالم السفلي.

إذا التهاب قضيبه وحصيته فإن يدي الآلهة دليلات قد أدرجته في الفراش (أي:

إن الإلهة دليلات قد سببت له المرض)

إن الأمثلة المقتبسة مأخوذة من نص مسمل ليمس موجهاً للطبيب أسو فحسب

بل إلى الطيبة الساحرة أشيبو، وهو يحمل عمواً من السطر الأول بهذا الشكل.

((عندما تذهب الأشهبو إلى بيت رجل مريض)) ويستمر النص في الأسلوب

الموصوف في ذكر أعراض ممكنة، وهناك بعض النصوص المماثلة تتعلق بوظيفة

الأسو مع إدراج قائمة بالأعراض، يتبعها وصمة تحدد العلاج (وهو عبارة عن مواد

طبية مع ذكر كيفية الاستعمال) وذلك بدلاً من ذكر الأسباب الراجعة إلى

قضايا تتعلق بما وراء الطبيعة

وهذا الاختلاف ربما يوحي بأن هناك تعارضاً تاماً بين وجهة نظر الأشهبو

بالتنسب للمرض (وهي نظرية حراشية) وبين وجهة نظر الأسو (وهي نظرية عقلانية)

ولكن ليست القضية بهذه البساطة، فإن كلا من الطيبة الساحرة والطبيب قد

اتفقا أن للأمراض بعض الأعراض الجسمانية التي من الممكن معالجتها وشفاؤها

أحياناً عن طريق الإجراءات الطبية وباستعمال المواد الطبية

ولكن وفي الوقت نفسه نجد أن (الأسو) بالإضافة إلى الأشيبو قد اتفقا أن

هناك عسراً شيطانياً يعود إلى ما وراء الطبيعة قد سبب المرض وهو يتطلب

المعالجة بأساليب سحرية، ولاشك أننا لا نستطيع ربط الفرق بين هاتين المهنيتين

بالقول بشكل ارتجالي أن الأشيبو كان يعمل ويتعامل السحر والتمويدات، وأن

الأسو يلجأ إلى العقاقير والضمادات التي يقلب استعمالها من قبل الطبيب ولكنه من المحتمل أيضاً أن يستعمل التمليز إلى جانب الأساليب العقلانية في العلاج.

وهكذا نجد أحياناً أن الأسو يصف سداة تحشى في الأنف لوقف النزيف كعلاج لسرير الأنف ولكنه في الوقت نفسه ينصح بتلاوة بعض الانتهالات.

وإذا كان المريض يعاني من انتعاش في البطن فإن الأسو يجعله يشرب دواء معيناً لكي يرتاح، ولكنه يقرر ذلك بتلاوة تعويذة

وعندما يعالج الأسو أحد الملوك فإنه يصف له بعض الضمادات التي تُشد بطريقة خاصة، ولكنه في بعض الوقت يقدم حجاباً يعلقه الملك حول عنقه.

قد كتب أحد كبار الأطباء (راب اسمي) إلى الملك يصف له هاعلية بعض العقاقير التي يستعملها ويقول إن العقاقير التي أرسلتها إلى الملك نوعان يختلف الواحد عن الآخر ... وربما قال سيدي الملك. ما هاندة هذه العقاقير؟

والجواب ((إنها مهيذة في طرد السحر، وهي مهيذة للمرأة حين الولادة))

ومن الواضح أنهم كانوا يعتقدون أن المواد الطبية تستطيع العمل ضد القوى الشريرة فيما وراء الطبيعة، والحقيقة أنه كان هناك ادعاءات محددة تدكر أن عقاقير (الأسو) يمكن استعمالها ضد التأثيرات الشيطانية التي فشلت أساليب الأشيبو في القضاء عليها، وهكذا يقال: إذا ظل نشاط الأرواح مستمراً وشديداً بحيث لم يعد بمقدور (الأشيبو) أن يزيلها، ولذلك لكي تزيله فإن عليك (أي على الأسو) أن تحصل على ثمانية عقاقير وتمرحها معاً.

لم يكن هناك أي خلاف في عقول القدماء بين المعرفة بأن إحدى المواد تستطيع تخفيف معقول بعض الأعراض، وبين الاعتقاد بالأسباب الراجعة إلى ما وراء الطبيعة لهذه الأعراض، مثلاً. كان من المعتقد أن هناك بعض أعراض الحمى التي سببها سيطرة الشياطين، وكان من المعروف أن معالجة هذه الأعراض بتماطي مادة معينة كانت تسبب ارتياح المريض، وهناك من الممكن التوفيق ما

بين وجهتي النظر هاتين بالقول إن المقار كان مفيداً في طرد ذلك الشيطان
المسؤول عن هذا العمل.

إن استخدام الأسو ليمص الأدوية لا يمكن اعتباره شهادة على وجود موقف
عقلاني بالتمسك للأمراض إذ إن لدينا أسباباً وافرة للاستنتاج أن فاعلية المواد
الطبية كانت تعتبر مدعنة للسحر (أي. العمل ضد الشياطين التي سببت تلك
الأعراض) أكثر منها للمعالجة الطبية، وهذا الأمر يثبت دون أي شك عندما نجد
المواد الطبية موضوعاً في حاوية ومعلقة حول عنق المريض...عندها ليس هناك دلالة
أوضح من هذه أنه وعلى الأقل في بعض الحالات كانوا يعتبرون أن الدواء يعمل من
خلال وسائل سحرية

إن طبيعة الأدوية نفسها تؤدي إلى استنتاج معقول، إذ ربما يتبادر إلى الذهن أن
بعض المواد المستعملة سوف تضعف بعض الأعراض إذا لم تحدث الشفاء التام من
المرض، ويدخل في هذه المقولة الزيوت، النبيذ، الملح وحجر الشب، وبعض النباتات
وشوارها، ومع ذلك فقد استعملت بعض الأدوية التي كان معمولها مشكوكاً في
أمره وأن أسماها توحى بإشارات واضحة إلى تفكير يعتمد على السحر

فهناك مثلاً شيء يدعى العَصُو التماسلي للحمار وهذه كانت صندقة بحرية
قد اتخذ ذلك الاسم من حجمها وشكلها، بالتماسية كان هذا العَصُو التماسلي
يستعمل لمعالجة امطرابات قصب الرجل، إما بطحنها ونفخها داخل القصب من
خلال أنبوب، أو توضع في البيرة وتُشرب.

وبالنسبة للمرض المذكور فإن هذه الأعمال ربما لم تكن لها أي فائدة
عملية، ولكن يمكن للمرء أن يرى كيف أن السحر كان يمتلك السيطرة على
التفكير بحيث يُعتقد أن صندقة ذات شكل معين سوف تؤثر على قصب الرجل.

يمكن للمرء أن يتوقع أن اختصاص الأسو في استعمال الأدوية سوف يؤدي
لولادة علم الصيدلة، ولكن الجو الذهني السائد لم يترك سوى إمكانية مشبهة
للتجارب والتقدم في ذلك الاتجاه، وحتى لو لم نعتبر تلك العناصر السحرية التي
كانت تتدخل في نشاطات (الأسو) فلم تكن المهارة أو المعرفة التي توصل إليها

الطبيب بصفة شخصية، والتي كان يُظن أنها تسبب الشفاء، والتي لدينا نصوص من الوصفات الطبية التي استعملها (الأسو) بل إن قيمتها الرئيسية كان من المظنون أنها نتيجة عن سلطتها الإلهية القديمة

وهذا واضح من التذييل (أي: خلاصة التفاصيل التي ألحقها آشور بانيبال بيمين النصوص الطبية، والتي أضافها إلى مكتبته في القرن السابع

وتصف إحدى هذه التذييلات النصوص بأنها وصحات للشفاء لجميع أنحاء الجسم من الرأس حتى أصابع القدم وهي مجموعة موجودة خارج مجال المجموعات الأخرى وتحتوي على العلوم التجريبية وما يحص وظائف الآلهة الأطباء وهما نينوترا وجولا.

ويضيف آشور بانيبال: ((لقد أودعت هذه النصوص داخل قصري كمرجعية ولأجل الرجوع إليها ومطالعتها وقراءتها بشكل مستمر)) هذا يوحي ومن وجهة نظر آشور بانيبال بأن الحكمة الإلهية الموجودة في النصوص نفسها هي الأداة المعالة وهذا متوافق ومتناغم مع الموقف القديم، فقد وضعت النصوص الطبية (شأنها شأن جميع النصوص في مكتبة آشور بانيبال) وقد أعيدت كتابتها ونسخت في الألف الثاني ق م بشكل مستقل عن الأعمال الطبية المعاصرة، وكانت لسصوص هذه سلطة وهبة التقاليد القديمة التي كانت تقاوم أي محاولة للتجربة أو التجديد

الطبيب في الممارسة

نتجّه الآن لنذكر ما نعرفه عن الأنشطة الفعلية والإجراءات التي كان يقوم بها الطبيب، وتدل النصوص أن الأسو عندما يفحص الشخص المريض (وهذا ينطبق على الأشيبيو) كان يبدأ رأساً بملاحظة الأعراض، فقد كان يلاحظ مثلاً أي أعضاء الجسم كانت ساخنة أو باردة، ويلاحظ لون الجلد ولون البول، وإذا كان هناك دم في البول، والألم، أو الشكّل أو عدم انتظام الحركة وحالة الأوردة الدموية وإفرازات القيح فضلاً عن حالة المريض العقلية، وبعد ذلك يتوجه

إلى معالجة المريض التي تشمل إما إعطاء الأدوية أو الضمادات أو كليهما، وكان استعمال الضماد من المظاهر المميزة للمعالجة التي كان يقوم بها (الأسود).

ولم تنكس هذه الطرق تمثل الاستقامة في العمل كما يبدو، نظراً لأن الأفكار السحرية والدينية كانت تتداخل في الأمور، فلم تكن القروح والجروح هي التي تعالج بالضمادات فحسب بل كانت الضمادات تستعمل في حالة بعض الأمراض التي كانت تعزى إلى أصول ما فوق الطبيعة، مثلاً: (يد الروح) وفي مثل هذه الممارسات كانت الضمادات تثبت بعض الأدوية فوق أجزاء الجسم ونظراً لعدم وجود أي أسجة في الجسم تلزمها المعالجة فإن المرض من استعمال الضمادات كان لظرد المرض من الجسم بطريقة سحرية، وذلك بالتعاس المباشر للأدوية المستخدمة ضد الشيطان الذي سبب المرض.

ويظهر المصدر السحري الديني أيضاً عن طريق الابتهالات التي كانت توصف أحياناً لتستخدم مع الضمادات، وكان هناك أيضاً طرق صحيحة وطرق خاطئة في استعمال الضمادات، وبمقدور هذه الحالة إلى الرجوع إلى الأفكار السحرية الدينية وليس للاعتبارات العملية.

وقد روي عن أحد الموظفين الديني وثقة الملك لأنه منحه عندما أصابه المرض أثناء إحدى حملاته الحربية في أراضي العدو باستعمال تقنيات أجبية في استعمال الضمادات تلك الاستعمالات التي لم تكن مناسبة في بلاد آشور ويصنف الكتاب:

((دعونا نحافظ على المعايير التي وهبتنا إياها الآلهة، ووهبتنا للملك سيدي))

ومعنى هذا أن الطريقة الأسورية في استعمال الضمادات كانت مباركة من قبل الآلهة، وأن التجارب بطرق بديلة سوف تعتبر عملاً غير شرعي.

لقد أشرنا حتى الآن إلى أنشطة الطبيب بما تختص بالأمراض، وكان عمل الطبيب يعتمد إلى مجالات أبعد وهي الجراحة مع أنها كانت في مستوى بدائي تماماً، وتشير مجموعة قوانين حمورابي (التي هي بابلية وليست آشورية) بشكل

متكرر إلى الأسو في عمله الجراحي موضحة أنه من الممكن أن يحدث جراحة في الجسم (ربما يشير إلى استعمال الموضع) أو معالجة العظام المكسورة وتشير القوانين الآشورية حوالي نهاية الألف الثاني إلى أن واحداً من (الأسو) قد عالج حصية رجل أصيبت في الحرب دون التأكد من نجاح تلك العملية نظراً لأن القوانين تشترط معرفة ما سيحدث للشخص الذي اقترف حادثة الإصابات، ومعرفة فيما إذا كانت الحصية الأخرى سوف تصاب بضرر.

ونحن نعلم أنه وفي نفس الفترة في آشور كان هناك أطباء ملحقون بالبلاط الملكي الذين كانت واجباتهم تقتضي بالتأكد أن الدسكور من الموظفين في القصر قد حصل إحصاءهم بالشكل الصحيح وهذا لازم للسماح لهم بالاقتراب من السيدات، ونحن نعتزم ولكن ليس عن طريق تواتر الأخبار أن عمليات الإحصاء الضرورية كانت تتم على أيدي الأطباء.

المواد الطبية

كانت المواد التي استخدمها الطبيب من أصول مختلفة فقد استخدمت كثير من الأعشاب والحلصات النباتية التي كانت من أكثر الأدوية شهوفاً، بحيث إن كلمة الأعشاب أصبح يطلق عليها اسم دواء.

وقد قدم الباحث (R.C. Thomp, ٥٧) في قاموسه عن علم النبات الآشوري عام (١٩٤٩) بمحاولة بطولية لذكر أسماء جميع النباتات المذكورة مع مقارنة الأسماء المستعملة في اللغات الشرقية المتأخرة بعد أن أخذ بالحسبان معرفة أي من النباتات يمتلك التأثير المطلوب على الأجزاء المذكورة.

ولكن لا يزال هناك مجال للشك حول التماثل والمطابقة.

إن المشكلات التي تواجهها عند بحث المطابقة أننا نلاحظ أن هناك دكراً لنبات اسمه (لسان الكلب) وكان هذا النبات يستعمل لمعالجة السعال واليرقان،

ولكن ليس لدينا أي وسيلة لمعرفة هيمّا إذا كان هذا الاسم هو نفس اسم النبات المدعو (لعن الكلب) والمستخدم في إنكلترا ، وهناك بعض النباتات كانت تستعمل لمعالجة جميع الأمراض ويحمل أحد هذه النباتات اسم ((صالح لمعالجة ألف مرض)) كان بالحقيقة دواء مُسهلاً

وقد وُصف في الوصفة المخمصة للاستعمال ما يلي

يسمي على المريض أن يشرب هذا الدواء مع البيرة ويمدّها سوف يتسبب ذلك في حركة أمعائه ، وهناك مواد دوائية أخرى ذات أصل حيواني فالدم هو مثل واضح ، فالمخلوقات مثل الصالح والبقارب كانت أقل المخلوقات مناسبة لتكون أدوية ، ولعكها كانت مشمونة ، وقد استعملت بعض المعادن مثل الملح ومادة الثوب ، وكان الطبيب يحفظ هذه الأدوية في صندوق أو حقيبة جلدية ، وعندما يحين زمن استعمالها كانت تحصر عن طريق عدة عمليات مثل الطحن ، أو القلي وبعد ذلك توضع مع مادة مناسبة مثل البيرة إذا كان الدواء سوف يستعمل عن طريق الابتلاع ، أو إضافة الزيت أو الشحم إذا كان الدواء سوف يستعمل كمرهم.

وقد استعملت طريقة غسل الجزء المصاب من الجسم بواسطة غسل كشكل آخر من أشكال العلاج ، وكان من الممكن إدخاله إلى الجسم بواسطة التعاميل والحقن الشرجية ، وكانت هناك إمكانية ثانية وهي أن يذوّج الطبيب المواد الدوائية الضرورية في إحدى فتحات الجسم.

وهكذا نجد بعض الوصفات التي كان الطبيب يذوّج الدواء المطلوب بواسطة نوع من القصب حيث يدخل الدواء إلى أنف المريض أو أذنه أو بواسطة أنبوب من البرونز أو الرصاص حيث يدخل إلى قصب الرجل.

وكانت هاعليه المواد الطبية تختلف تبعاً لطبيعة الدواء اختلافاً معتبراً ، مع أنه ليس من الممكن أن نقول أقوالاً مسهبة حول هذه القضية ، نظراً لأن كثيراً من المواد المذكورة في النصوص القديمة لم نعرف أسماءها أو هويتها بشكل أكيد دون أي محال للشك ، فقد كان الصكبريت الممزوج مع زيت شجر الأرز مستملاً

لعلاج حكة الرأس وكان هذا الدواء فعالاً جداً تبعاً للحكمة، وهناك أدوية أخرى مثل تقديم الحليب الذي وضعت فيه مسحوقية وغليت فيه، ويتعمد هذا الحليب للمريض ليشره وقد بدا بأنه نوع من العلاج بالسحر أكثر منه علاجاً عقلياً.

وهناك حالة موارية لهذه الحالة في وصفة إنكليزية شعبية لا تزال مستعملة لعلاج السعال الديكي وهو مؤلف من البزاق المغلي بالحليب، وكان المرضى دوماً يشكون بماعلية الأدوية، وهكذا نجد أن الملك يصّر أن يجرب الدواء الذي وصفه لولي العهد ليشره، أن يجرب هذا الدواء أولاً بتقديمه لأحد العبيد ليشره

دعوة الطبيب إلى النزول

لدينا نص أدبي يخبرنا شيئاً عن الطريقة التي كان الطبيب يتصرف بها ضمن مهنته، وهذه ليست مذكورة في النصوص الطبية، وهناك قصة تمتد إلى الألف الثاني قـم (وهي لم تقع في آشور بل في بلاد بابل) واسم هذه القصة (الرجل الفقير في نهبور)

وقد كان هذا الرجل الفقير قد وقع عليه الظلم، ولذلك فقد قرر أن ينتقم من الظالم، ولقد حذعه المحافظ لذلك فقد قرر أن يصبره ثلاث صريات، وقد عمد إلى القيام ببعض الحيل، والحيلة المناسبة لنا كانت عندما تحقّى وأظهر أنه طبيب وذلك بعد الحصول على إذن لدخول بيت المحافظ فقد قص شعر رأسه مما يدل أن الأطباء كانوا حلقى الرأس، وبمدها سار ومعه جرّة ماء ومجمرة مملوءة بالمحم المحترق، وهذا ربما كان من الأدوات اللازمة للأطباء في ذلك الزمن للمساعدة في تركيب الأدوية، ولقد قدم هذا الرجل الفقير نفسه للبواب وقال إنه (أسو) ماهر وقد سمح له بالدخول لمحص جروح المحافظ التي أصيب بعد أن ضرب مرتين، وبمدها أجاز الطبيب شخصاً كاملاً جعل المحافظ يثق بحبرته التامة، بعدها أخذ الرجل الفقير المحافظ لوحده معه بحجة أن المعالجة سوف تكون فعالة في الظلام، ولذا دحلا إلى غرفة مظلمة وهنا أطمأ الرجل الفقير الضوء الصادر عن المجرمة وذلك بصب الماء فوقها، ومرة ثانية قام بضرب مبرج للمحافظ، والنقطة التي بهتم

بها في هذا الجزء من القصة هي أنه كيف كان من المقبول إجابة طلب الطبيب
بإجراء المعالجة في الظلام، وهذا يؤكد مرة ثانية العنصر السحري الديني في
المعالجة الطبية في ذلك الزمن.

الفصل الخامس عشر

الفن الآشوري

إن من الصعب غالباً تجنّب قرص نظام أهركارنا على الشعوب القديمة عندما يبادر إلى دراسة هذه الشعوب، وليس هذا الخطر بأقلّ شأنًا عندما نتحدث عن الفن الآشوري، خصوصاً عندما نميل إلى أن نحيط عاماً بكل شيء جميل ودي هائدة.

وحتى لو نظرنا من منطلق وجهة نظرنا نرى أن هناك تقسيمات مقبولة بين العنود الحميلة (مثل الرسم والنحت) والعنود المميدة والنطيقية (مثل فن العمارة) حتى إسه ولو اتبعنا المعايير الحديثة نجد أننا مجبرون أن نفرص بعض القيود في التصميم.

وقد ذكرنا هذا التعليق نظراً لأن هناك بمص المكتب الممتازة التي عالجت موضوع منطقة ما بين النهرين والفن هناك ولم تترك شيئاً في مجال تعليقاتها إلا وذكرته ابتداء من حطيط وتخطيط المعابد والقصور مروراً بالمفروشات، والمجوهرات والأحتام الأسطوانية إلى المعونات والرسوم الجدارية واللوحات المجسمة.

إن ليس هناك من سبب يجعلنا نطّل أن الشعوب القديمة قد وصفت شكل هذه الأشياء ضمن تصنيف واحد وهو الفن، والحقيقة أنه لم يظهر هنا أن كلمة أكاديميه ترمز إلى الفن، وتشمل شكل هذه الأجسام الفنية، ومن جهة أخرى ينبغي علينا أن نقبل أنه من الواجب استثناء المخططات المعمارية الأرضية، أما البقية فهناك تبرير للورحي الفنون الذين يدرسون الكثير من أنواع المواد كلها مما طالما أن بعض الموضوع يتكرر بالتسمية لمواد مختلفة، مثلاً، الختم الأسطواني واللوحة المجسمة.

لقد قامت عدة سلطات موثوقة بوضع مؤلفات ممتازة حول الفن في منطقة ما بين النهرين مع تخصيص فصول متفصلة حول الفن الآشوري ولا سيما H. Frankfort. في كتابه الفن والمعمار في الشرق القديم (١٩٥٦) وكذلك مورنجر A. Moortgar في كتابه الفن في منطقة ما بين النهرين القديمة (١٩٦٩) ولم يتصد أي عالم للدعاء بمرهته وخبرته في تاريخ الفن. وهكذا فإننا سنحاول في هذا الفصل أن نقدم صورة واقية عن بعض الأنواع الرئيسية من المواد التي يمكننا إدراجها ضمن الفن الآشوري (من خلال تصنيفاتها الحديثة)

الألواح المجسمة

إن أكثر المواد المؤثرة والجديرة بالمعرفة في الفن الآشوري هي الألواح المجسمة الموجودة على حدران القصور في نمرود، وفي كالاخ وكوبونجيك (يسوى) وهورساباد (دورشاروكين) وإن أفضل النماذج موجودة في المتحف البريطاني. ولقد بدأ صنع هذه الألواح المجسمة في زمن آشور ناصر بمل (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) وقد كانت هذه تمثل أصلاً جمعاً ما بين شكلين من أشكال الفن القديم، وأحدهما: الأفريز الذي تُنقش عليه زهرات واطئة من نوع الأصعدة المربعة الحجرية التي ندعوها المسلة، وكان أقدم هؤلاء عبارة عن منظر مفرد يظهر بعض الأعداء المقهورين، وهم واقفون أمام الملك وتظهر رموز الآلهة الآشورية في الأعلى، وفي مسلة أخرى تعود إلى أواخر ذلك القرن يرى أن هذا المنظر المنمصل قد امتد ليشكل بداية عهد اللوحة النافرة الفصصية

أما النوع الآخر الذي كان من أسلاف الألواح الجدارية المجسمة في الألف الأول ق.م في بلاد آشور فقد كان الرسوم الجدارية، فقد كانت الأجزاء السطلى من الجدران في قصر آشور ناصر بمل في كالاخ مغطاة بالألواح من الرخام الشفاف التي نقشت عليها رسوم مجسمة، ونحن نعلم أنها نقشت بعد تثبيت الألواح نظراً لأن بعضها قد ترك فراغاً، وتظهر هذه الرسوم المجسمة الصلة الواضحة مع

رسومات جدارية أقدم، إذ هناك أحد الثقات البارزين في معرفة الفن في منطقة ما بين النهرين قد ترك لنا وصفاً لهذه النقوش الناهرة القديمة على الرخام الشفاف، وهي تنتمي إلى الرسوم الجدارية في قصر آشور ناصر بعل وقد تجسدت في حجر، ولقد تأكدت هذه الصلة بالحقيقة التي مفادها أنه وكما نُتيت الأثار الباقية من الألوان فإن اثاراً من الدهان قد بقيت في الجسملات، وهناك إمكابه ككون الأجرء العلبا من الجدران اللى هلمت ككانت مرلبة برسوماء جءارباء اللى النقوش الناهرة على الرءام الشفاف

وككانل الرسوم الناهرة في قصر آشور ناصر بعل ءولف برعب مءلقلبن من هبل المواءبب؁ وأءء هءبب النوعب بظهر مشاهء طقوسبء اءمالبب أسطوربب مءركزة ءول الملك؁ وأما الأءرب فككانل تظهر مشاهء من العهد أو الءرب

إن الماظر الطقوسبء تظهر لأول وهلة ءشكبلال ساكنة مءاربب مع ملامع الأشءاف وءناك مءال نموءبب مبور في إءءب اللوءاء فمب الوسل ءناك شبء عرب ومءاسق وعبر طلبمب بمثل شجرة مورقة مألوفة؁ وعلى كل ءانب من الشجرة بءوسع بمس الشءصبن المواءبن للشجرة وهما بمءرقان في إظهار الءراعب؁ وإن أءء الروءببب قء نظر إلبه من الءانب الأبمس والأءر من الءانب الأبسر وفوق الشجرة همالك رمز بءكوبن من ءناحب وءنب صقر برهرف بءناحبه لبءوسطه قرص عبه الءرب العلوب لكائن بءل لباس الرأس على إله

وأما المشهء الملقوسبب فهو سر مقبس؁ فللملوماء الإءبلهكانبء (وهب العكببببب الإءبلبرببب) مءرب الممر المقبس أنه إشارة ءارببب مرئببب لنعمة روءبب سامبب؁ وإن هءا بالصبط هو ما بءل عبه هءب النقوش الناهرة؁ هبب ءببر المشاهء أن الملك آشور قء امءلأ بالقة الإلببب؁ وأما الشجرة في وسط المشهء هبب الشجرة المقبسة؁ وهب رمز بئبب قءببم في مبطقه ما ببب البهربن بالنسبة للمببن؁ وهب موءوءة في مبطقة سوبر ابءاء من بءابب الألف الءالء قبل المبلال وهب مءل الءببب والءصوبب وهب ءلقة الوصل ما ببب الأشياء الءبب؁ والقة الءببببب الظاهرة في

النباتات، وإن صلتها بالآلهة والقداسة يُرمز إليها بشكل الصقر المحنق فوقها-
بدميه وجناحيه المنتشرين.

وهذا رمز معقد، ويقول علماء آثار آشور الذين تفضل عقولهم المرئية أن تكون
معملياًاتهم مصنّعة تمنينياً جيداً ومطيعاً، وقد ناقش هؤلاء فيما إذا كان هذا
الرمز يمثل الإله القومي لآشور، أو إله الشمس الذي يدل عليه وجود القرص.

والحقيقة أن الرمز ربما كان يمثل كليهما وأكثر، فهي أوائل العهد
السومري كانت الأصحة المنتشرة والسبب الخاصة بالصقر تصحبها قوة إلهية
تدعى الأسدوجود (الرياح العاتية) التي شملت طائراً هائلاً إلهياً يدعى (أسرو)
(وبلاحظ أن كلمة إله قد حذفت عن قصد في هذا المكان) وهذه الرياح العاتية
هي التي سرقت من الإله الأعظم (الليل) الشارة التي أعطته سلطته وقوته

وأما أنزو فقد تغلب عليه أحد أولاد (الليل) وهو الإله نينوترا الذي استلم قوى
أنزو، وكانت هذه طريقة حرافية للتعبير أن نينوترا كان التمثيل المجسم للقوى
التي كانت في مرحلة متقدمة من التطور الديني، وهكذا أصبح نينوترا الذي
تنبؤ في النهاية كإله المهد والحرب حائراً على جميع القوى الطبيعية وعلى
المواطف والحياة الحيوانية.

وهكذا فإن الأمور المبهمة ضمناً في النقوش النافرة التي تمثل الصقر
وأجنحته ليست فقط الإله آشور وقرص الشمس بل أيضاً قوى الطبيعة التي يمثلها
(نينوترا)

والآن نعود إلى الشخصيتين المرسومين في اللوحة بشكل بشري، إذ إن الشخص
الأقرب إلى الشجرة المقدسة هو في الحقيقة الملك آشور ناصر بمل نفسه، وفي شكلنا
صورته بجدد رافعاً يده اليمنى بثلاثة أصابع مثبته وأما اليسارية فكانت توشح
والإبهام بارز تحت اليسارية، وهذه علامة يظهر الملك فيها احترامه للإله، وهذه
إشارة تقليدية تمثل احترامه للآلهة، وإن الأوصاف المسببة للقرص المنجوع والشجرة
المقدسة وصورتي الملك تصل الملك بشكل حميم بكلا الرمزين الدينيين الذين
يوحدانه مع قوى الخصب في الحياة النباتية والحياة الحيوانية

وإن مظهر العصر المقدس يؤكد المخلوقان المجلجلان الموضوعان ككائنات إلهية لوجود القرون الثلاثية على رؤوسهم ويقف الواحد منها خلف كل صورة من صور الملك، ويحمل كل واحد منهم سطلاً وكوراً (وهذا رمز آخر للخصوبة) وكانا يرشأن الملك وهذا المشهد يعبر عن رفع الملك إلى مرتبة الألوهية حين يسيطر على جميع القوى الطبيعية، بحيث يجعل هذه القوى مستعدة لجلب الحبوب والازدهار إلى البلاد التي يحكمها وهذه التصاريح تدل على الاطمئنان والخير لأشور

وأما الألواح الناهرة التابعة لأشور ناصر بعل من المعبد الآخر فهي على مستوى مختلف فليس فيها شيء من الحرارة، وليست ساحكة فهي تصور الحركة والعمل وتظهر أنشطة الجيش الآشوري وشاطئ الملك الآشوري، وترى فيها مناظر الجصار ومناظر المعارك وترى الأسرى أمام الملك، ويرى الملك مشغولاً بقوة بصيد الأسود ولكن شكل هذه الروايات مع أنها مختلفة في تأثيرها السريع، إلا أنها تصيف التأكيد بأن آشور سوف تظل دائماً منتصرة ومزدهرة ما دامت تحت قيادة الملك بجلالة قدره.

ولقد استمر حلقاء آشور ناصر بعل في إقامة الألواح الناهرة مع إجراء بعض التحسينات في أسلوب العمل وظل هذا حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية، ولكن شكلاً آخر من أشكال الفن كان هذا الملك قد قدمه قد فقد بعد تولي ابنه الحكم، وهذا الشكل مشمول على البرور ويرف بشكل تقني باسم ريوسني، وإن هذه التقنيات المستخدمة في (الريوسني) هو عمل صورة على صمعة من المعدن بواسطة طرقها من الخلف.

وفي الأمثلة الآشورية فإن النتيجة هي شرائط من البرور تبرز عليها مشاهد مماثلة لتلك الموجودة في اللوحات المصنوعة من المعبد الروائي.

ولقد وجدت أمثلة من زمن الملك آشور ناصر بعل نفسه وابنه شلمناصر الثالث في موقع صغير اسمه (بالاوار) حيث كان هذان الملكان يملكان مقراً دينياً على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي من العاصمة (كالاخ) وقد ثبتت صماتح

البرونز على الأبواب الخشبية الكبيرة التي تفتح المجال للوصول إلى مفيد، ولم
تكتشف صور آشور ناصر بل حتى عام (١٩٥٦) ولم يكن قد أصابها التلف، بل
قد أصبح من المتعذر الحصول عليها من تعداد

وأما مقر الملك سلنناصر الثالث فقد اكتشف عام (١٨٧٧) وهو ظاهر
بشكل حسن في المتحف البريطاني، وكانت الأشرطة البرونزية المتواجدة على
بوابات قصر سلنناصر نحو ثمانية أقدام طولاً وأحد عشر إنشاً في علوها و ١٦
إنش في ثقاتنها، وكان كل شريط مقسماً إلى لائحتين لكل لائحة علوها خمسة
إنشات.

وعلى هذه اللوحات أنتج حرفيو الملك سلنناصر مطبوعة مرموقة من المناظر
الروائية وكانت مصحوبة بنقوش قصيرة معونة فوق الصور وهي تصف
الحوادث، وإن حبراء المنون يعملون إلى التقرر لدى رؤيتهم هذا العمل، إذ يقول
أحدهم: ((هناك مجال قليل في هذه الكتلة من التفاصيل)) بينما يعلن آخر بأنها
عبارة عن مجرد نثر وهمي، ولكنهم جميعاً معتمرون بالاهتمام ويعتبرون أن هذه
الأثر جديرة بالتحقق.

ونرى على هذه اللوحات خيولاً يستحثها مواسمها على جر العربات فوق جبال
متعذرة، وكانت أعناق الخيول مزينة بالتبر وهنا مرى عملية جر العائث من
البلاد المقهورة والمن المملوكة، وتسليم عدد لا نهاية له من الماعز والخيول والماشية
وجملين ذوي سنامين وكان هذا المنظر مربعاً حيث ترى فيه أيدي الأسرى وقد
قطعت وكذلك أقدامهم، ويرى الملك نفسه بجلالة هنره واقفاً تحت مظلة احتفالية
مع حرس الشرف في الحلف وهم يستلمون الحزبة، ويرى بعد ذلك الملك جالساً على
عرشه فوق أسكمة وهو يوجه عمليات الحصار التي كان يقوم بها جماعة من الرماة
رابضين خلف المنجنيقات الهدامة.

وهناك مطبوعة من المشاهد يظهر فيها الملك وهو يقوم بحملة على منطقة واقعة
عند منابع دجلة، وهي واقعة في عمق بلاد الأناضول في أقصى الشمال، وليس
يحدد أقصى حدود لمملكته فقد أقام احتفالات دبحت فيها الأضاحي ووضع لها

تمثال معفور على وجه الصعور ، وقد سميت كل هذه المشاهد على تلك الشرائح البرونزية التي تعلو بمقدار خمسة إنشات لكل شريحة.

ويشكلو حبراء المتنون من أشكال هذه النقوش ، ولكن ومن وجهة نظر سلمناصر فإن موضوع اللوحة وهو ما كان يهمه ، ومن جهة أخرى ومن خلال أنواع الريموزي فإن كل ما صنع عبارة عن رواية ألفت لتمجيد مآثر وأعمال الملك الآشوري ، ولتسهيل إنجازات الدولة الآشورية التي أخضعت جميع الشعوب لسלטانها وذلك حسب مشيئة الإله آشور

ومع أن أعمال الريموزي لم تعد تظهر بعد حكم الملك سلمناصر الثالث ، ولكن الرسوم الجدارية استمرت وربما كان لطبيعتها الهشة بالنسبة لتلك اللوحات المجسمة المصنوعة من الحجر كانت هذه سبباً لوجود كميات كبيرة منها أكثر مما يعرفه من أمثلة أخرى ، وفي جميع العينات الباقية فقد كانت الألوان المستخدمة هي الأزرق والأحمر والأبيض والأسود

وابتداءً من منتصف القرن الثامن (مع وجود نقاش بين الباحثين حول التاريخ المضبوط والحكم المضبوط) كان هناك أمثلة على رسوم جدارية مأخوذة من قطر آشوري في تل بارسب الواقع على نهر المرات في سورية ، وقد كانت الجدران جميعها مغطاة بصور مناظر تمجد الملك وهي تظهر أرتالاً من الموظفين والأعداء المهزومين ، وهم واقفون أمام الملك الجالس على عرشه في هيئة راتمة.

ولكن هناك أيضاً أمثلة عن تكوينات نهتم بالمجال الطقوسي وما وراء الطبيعة إذا قوربت بتلك التي وجدت في عهد آشور ناصر بل والتي ناقشناها سابقاً ، ابتداءً من نهاية القرن الثامن وصلت إلينا مصادج عن الرسوم الجدارية الآشورية مأخوذة من قاعة العرش للملك سرجون الثاني في قصره الذي بناه حديثاً وعاصمته الجديدة (دور شاروكين).

وهذا هو أيضاً مشهد من المجال الطقوسي في ما وراء الطبيعة ، وعلى طول الجدار هناك شرائط من أفاريز ذات طبيعة تزيينية ، وقد انتهت بشكل متناظر من مجموعة من الموضوعات الدينية ، وفوق هذه الأفاريز يعلو اللوح الرئيسي الذي

تحيط به أهريزات مرتفعة نحو القوس وفي داخل هذا اللوح هناك صورة الملك سرجون ومعه أحد الخدم واقف خلفه وهو واقف منتصباً أمام الإله وكانت يده متوفة بشكل الإشارة التي تدل على الاحترام والتي وصفها أنفاً

ولكن تركيب الصور يظهر أن سرجون وليس الإله كان في الوسط، وأن جميع الرحارف الحدارية تلفت النظر إلى عظمة الملك سرجون ومرة أخرى نجد أن الصورة لها وظيفة هي تعبر عن قوة وجبروت ملك آشور التي تقترب من جبروت وقدرة الإله.

وهنا يجدر بنا أن نعود إلى الألواح النافذة التي تظهر التطور والتحسينات التي حدثت في القرن الثامن والتي وصلت إلى أوجها تحت حكم آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق.م) في القرن السابع قبل الميلاد

ونلاحظ أن الألواح النافذة في زمن آشور كانت متأثرة وصغيرة بل كانت معدومة كلياً، وبدلك ظلت الحادثة وقد صورت في فراغ ولم يرتبط بأي خلفية من نوع خاص.

ولكن لقد تغير كل ذلك بحلول القرن الثامن. فقد أصبحت المناظر تستعمل بشكل أوسع بحيث تعطي الحوادث انطباعاً يوحي أنها قد حدثت في مكان حقيقي، وكذلك فقد حدثت حالة من الحرية في استعمال الفراغ على الألواح الحجرية، وفي الماضي كان النقش البافر يعامل كشيء كامل في نفسه ولكن الآن أصبحت المناظر تتقل من لوح إلى آخر وهي تبرز وتؤكد معنى الحركة ولقد توصلت الفراغات العمودية إلى شكل الاستعمال بشكل خبر

وعلمنا أن نقول: إنه حتى في النقوش النافذة الروائية الخاصة بالملك آشور ناصر بل لم تكن القضية أن يوضع جميع الأشخاص على الخط الأساسي، ومع ذلك فقد كان الخط الأساسي النقطة المرجعية بالنسبة لجميع الصور، ولكن وفي بعض النقوش النافذة كانت الصور موزعة خلال ميدان العمل بأكمله بشكل مستقل عن الخط الرئيسي، وهناك مثال جهد بصورة خاصة وهو تصوير آشور بانيبال لحادث هزمه للميلاميين الذي يصور المعركة في العراء المفتوح وصور

المطاردين والمطاردين والمنتصرين والمهرومين وجثث الموتى والمشوهين المبعثرة فوق وجه النقش البارز إنما حققت انطباعاً حياً عن المعركة بل المحررة التي حصلت في ميدان القتال.

هناك بعض النقوش البارزة المؤثرة وهي تمثل مشاهد الصيد في زمن آشور نينبال، ومع أن الخبراء الفنيين يمكنهم معرفة الاستعمال المتكرر للموضوعات بعضها مما يظهر أن المحتويات لم تكن عفوية بل كانت تستعمل موضوعات مقبولة، ولكن ما يؤثر في المشاهد العادية هو الدرجة الجديدة للواقعية بحيث يشمر الإنسان بالمعطف عند رؤية الحيوان من الحصر الوحشية وهي تفر وتنتظر إلى الخلف لترى ظلها الذي كانت تلحقه الكلاب وتمسكه وكذلك يظهر الحزن عندما يرى المشاهد أسداً يموت والسهام مضروبة في جسده.

تظهر بعض لوحات النقش السائر بعض الفروق في المقاييس وفي عناصر التكوين التي تمثل الأشياء الأشد هرباً والأشد بعداً، وهذا ما سبب حصول نقاشات عديدة حول إمكان أو عدم إمكان الآشوريين محاولة تمثيل المنظور في رسومهم، وحول إمكان الإنسا بالتحكم بصلق عن النقوش الباقرة عن المقدمات والخلفيات بالنسبة للنقوش النافرة، ولكن يظهر أنه لم يكن هناك أي اتفاق بين الخبراء حول هذا الموضوع.

إن الرواية أو القصة المشاهدة في النقوش الباقرة ليست جغرافية إذ إن قصد النقوش النافرة غالباً وصف وصح متطور يغطي فترة زمنية، إذ هناك بعض النقوش الباقرة تظهر فيها نفس المجموعات من الجنود تظهر بشكل متكرر في مواقف مختلفة مظهرة تطور الحدث، ويظهر حير مثال بسيط لهذا المبدأ من مبادئ الترتيب في مشهد صيد الأسد وهناك يظهر الأسد وقد أطلق سراحاً من قصصه، ولكنه يثار عندما يصيبه سهم في كتفه وعندها يجري ويهجم على الملك ليتلقى من الأخير ضربة الرحمة الصادرة عن رمح.

وهناك في النقش النافر يبدو أن هناك ثلاثة أسود تظهر في ثلاثة مواقف متتالية تماماً كما لو كانت قد حوَّرتها آلة تصوير في ثلاثة مواقف والنتيجة طامناً أدرك المشاهد هذا العُرف وهو تعزيز وتقوية الشعور بالحركة.

النحت الفراغي

كان هناك أيضاً نحت آشوري فراغي يتمثل بالتماثيل الحجرية بحجم الإنسان، ولكن الكتب التي تهتم بالصون في منطقة ما بين النهرين لا تعبر إلا وقتاً قليلاً واهتماماً قليلاً بهذا الأمر، وبالمقارنة مع النقش النافر يبدو النحت مادة فظة ممجوجة، إذا إن الأعمال الرئيسية ما هي إلا تمثيلات للآلهة والملوك وتقف الصور بشكل جامد في حالة استبعاد، والوضع الوحيد لتقاسيل الجسم تنحصر في بعض الثبات في الثوب تعطي سائر الجسم، ومع ذلك فإن أفضل العينات مثل تمثال آشور ناصر بل لا يخلو من الوقار والجلالة.

وهناك بضعة تماثيل صغيرة آشورية في المنطقة مصنوعة من مواد ليست حجرية (برونز أو كهرمان) ولكن خبراء الفنون لا يظهرون سوى حماس حذر بالنسبة للمواد المستعملة، ومهارات الصنع وتستحق تعليقات أوهي بالنسبة لهذا العنوان.

وهناك تماثيل الأسود الهائلة المجنحة والثيران التي كانت تحدم كحرس في مدخل القصر وتظهر قوتها الحارقة في أجسامها والقرون الثلاثية على رؤوسها وهي من علامات الألوهية، ويظهر الانطباع كاملاً بالإحساس بالقوة وهو المطلوب، وإذا أوردنا الكلام بشكل دقيق فإن هذه ليست هي الأمثلة الدقيقة عن فنون النحت في المنطقة نظراً لأنها لم تنترع من كتل حجرية قد حثت منها، ولما كانت متوضعة بشكل أرواج قريبة من جانبي البوابة فإنها لم تكن قد خصصت لتشاهد من جهتين فحسب وهما الجهة الأمامية والجهة الجانبية

وبالنتيجة لقد أصبحت لها مناظر توحى أنها قد دعمت بخمس أرجل أربع منها مرثية من الجانب واثنان من الأمام وكانت الرجل الخارجية الأمامية محسوبة في كلا المنظرين.

الماج المنحوت

وهناك نوع آخر متمثل في الألف الأول ق م في آشور وهو الماج المنحوت، ونمهم من هذا الاصطلاح شرائط مسطحة من الماج إما محرزة أو منحوتة بشكل نقش باهر قليل العمق من الممكن تطبيقه في تقنيات أخرى ربما توجد، ولقد وجدت كتل كبيرة من الماج في عدة مواقع، ولا تزال كميات لا بأس بها من هذه المادة لم تلمس، مع أنها لتكوينها من آشور إلا أننا لا نستطيع أن نطلق عليها جميعها اسم الصن الآشوري، فلقد سكان الملوك الآشوريون يستفيدون استفادة كاملة من المصادر البشرية في إمبراطوريتهم، وكانوا يستخدمون الحرفيين المهرة بشكل لا يقل عن العمال غير المهرة.

ومن الواضح أن نسبة لا بأس بها من الماج المنحوت في آشور كانت من أصول آشورية هندية، وهي تحتوي على عناصر ليست آشورية ويحمل عدد لا بأس به منها سمات مصرية في أهلها وذلك نتيجة للصلات الوثيقة الثقافية التي كانت سائدة عن طريق البحر في الأزمنة القديمة ما بين مصر وبابلوس على الساحل العنقي (أي اللباني).

ومع أن المواد المأجبة قد وردت من عدة مواقع آشورية، إلا أن أكثرها واشدها تأثيراً قد أتت من بمرود، ومن أشهر المواد التي وجدت في بمرود هي قناع مقمر أبعاد لا تزيد عن ستة إنشات طولاً، وخمسة عرضاً ويمثل وجه امرأة في نقش باهر طبيعي.

وهو منحوت في قطعة واحدة من الماج وهناك علامات من وقع الأزاميل في حاف القناع تظهر أنه كان سيوضع بحيث تظهر مقدمته فقط، وربما كان ذلك موجوداً على قطعة من المعروشات أو على حائط.

وليس من المحتمل أن يكون هذا القناع جزءاً من تمثال، وهناك لقية من نفس النوع (مع أنها صلبة في طبيعتها بدلاً من أن تكون مقعرة) وهي أكبر من القناع (وأبعادها تبلغ سبعة إنشات ونصف طولاً مع خمسة إنشات عرضاً) ولكنها لم

تكن متقنة الصنع مما دعا بعض خبراء الفنون أن يمتنعوا أنها كانت أقدم من تلك أصلاً

وهي بالتأكيد أقل جاذبية من وجهة جمالية بالنسبة للذوق الحديث، وإن علم دراسة الآثار والتطبيقات الأثرية لا يقدم لنا أي مساعدة بالنسبة لتواريخها المسيية نظراً لأن كليهما قد وجد في نفس البئر الذي رميتا فيه بعد تجريدهما من جميع الرينات الذهبية التي كان من المحتمل أن يحملها وذلك عند نهب مدينة كالكاج ومن نفس البئر اكتشفت أيضاً قطعة من العاج منحوتة بشكل كلي بشكل دائري لتشكّل رأس أسد يزار، وكان قطرها الكبير يبلغ نحو ثلاثة إنشات مع بعض التفاصيل الواقعية

وقد وجد في البئر أيضاً قطعتان من العاج مرموقتان وهما زوج من اللوحات العاجية منحوتة بشكل نقوش ناعمة وهما متشابهتان كأنهما مصنوعتان بحيث تتكاد إحدهما تكرر الأخرى، ويظهر فيها أسد حامل رجلاً زحياً يطرحه على الأرض من رقبته.

وهناك بعض الرخوفات النباتية التي تشكّل حلمية للأشكال الرئيسية مغطاة بالأوراق الذهبية مع صورة الأزهار تتكون على التوالي من المتيق الأحمر واللازورد الأزرق وهناك نقش بارز من العاج وهو جذاب بالنسبة للذوق القديم. وكانت مجموعة تمثل بقرة ترضع عجلها.

وكانت المنحوتات العاجية متقنة الصنع في وصفها وتصويرها للحيوانات، وهناك بعض المنحوتات العاجية التي تشمل مجموعة من الأجناب وقد جلبوا الجرية المولدة من الحيوانات، مثلاً أحد الأشخاص النوبيين يحمل قرناً على كتفه ووعلاً إلى جانبه وجلد فهد فوق ذراعه الأيمن.

وهناك عدد كبير من العاجيات المنقوشة بشكل مافر وبعض الأشكال الفراغية من التي تستحق الوصف أو الرسم لو سمح المجال بذلك، وكان هناك أيضاً تقييات فنية مختلفة، مثلاً: بحث شرائط عاجية بشكل نقش ناهر غير عميق

على كلا الجانبين أو أشكال ونماثيل (كاريكاتيرية) وهي تمثال امرأة تقوم مقلم عمود في مبنى.

وكذلك ألواح من الأعمال المفتوحة (وهو عمل يُرى من خلفيته ويترك أشكال الأشخاص واقفة بحرية في إطارها) وكذلك التقنيات الضميمة (تتألف من نقوش ماهرة عليها مواضع منقوشة)

ولكن الكتلة الكبيرة من الحاج المحبوت تتألف من ألواح صغيرة ليست منقوشة بقشاً ماهرأ بل كانت المشاهد محززة، وكانت هذه تؤولف بصورة عامة جزءاً من الزخارف في المفروشات مع أنها متواجدة بشكل مُستقل بشكل أشياء من الأمشاط، والملاعق أو غيرها، وعلى وجه التقريب أي: رسم أو مشهد موجود على النقوش البارزة أو الرسومات الجدارية من الممكن أن يظهر في هذه الاحتفالات مثل الحيوانات (سواء كانت طبيعية أو خرافية أو رمزية) وكذلك مناظر الحرب أو مناظر الصيد أو الاحتفالات الدينية أو الساج الهديسة أو المناظر الطبيعية.

الأختام الأسطوانية

لا ينبغي علينا معادرة بحث المنون الآشورية دون ذكر الأختام الأسطوانية، وكانت الأختام مصنوعة من نوع الحجارة متمسكة من الحجر الكلسي المادي حتى اللازورد الثمين.

وأما طولها فكانت تتفرج من أقل من إنش حتى حجم الإبهام، وهي تحمل تصميمات منقوشة مصهوية أحياناً باسم ولقب حاملها.

ولقد استعملت هذه الأختام ابتداء من أقدم عهود السومريين وكانت تُدحرج على قطعة كبيرة من الفخار وتطبع على أريطة البضائع وذلك لصبط المضاعة منعاً للمزقة

أو أن يطبع على الوثائق الرسمية كتأكيد على إعطاء الثقة بالفرق المتعاقد أو الشهود، وفي الأرملة المتأخرة كان للختم ثقب محفور بشكل طولاني بحيث يمكن أن يُربط بخيط ويلبس.

وتقع أهمية الأختام الأمطولية في التصميمات التي تحملها، وتكون هذه أحياناً ذات أهمية وجدائية حملية ولكن بالنسبة لمؤرخي الفنون فإن الشيء المهم هو وثيقة البواعث والأساليب ومطابقتها مع تطور الفنون الآشورية.

لدينا بعض المعلومات عن هذه مستقاة من الأختام الفعلية التي اكتشفت في الحفريات (أحياناً تحفر بشكل غير قانوني من قبل الأهالي في البلد نظراً إلى أنها سهلة الحمل وعالية الثمن) وأيضاً من طباعة الأختام على ألواح من العنبر.

هناك عدد كبير من طبقات الأختام تعود إلى الفترة الآشورية الوسطى (على المصوم القرن الرابع عشر ق.م) وهي مطبوعة على ألواح من العنبر من آشور بالإضافة إلى عدد كبير من الأختام الفعلية.

وكان القرن الرابع عشر رماً بدأت فيه آشور تتخلص من تابعيها لميتاني وعندما كانت بابل في الجيوب لا تزال محتفظة ببعض سمات عظمتها الماسية، وتحتوي الأختام الآشورية في العصر المتوسط أمثلة تُظهر نفوذ البواعث والأساليب المثبتة في هذه المناطق.

ولكن الأساليب الآشورية الخاصة كانت تتطور أيضاً، وكانت موضوعاتها مرتبطة بالمعاصر التي وجدت في أوج ازدهار الفنون الآشورية المتأخرة لاسيما بالنسبة للنقوش النافذة المذكورة أعلاً.

وما بين هذه الموضوعات نجد أزواجاً من الحيوانات المتحبة المتناظرة، وكان الواحد منها غالباً ما يواجه الآخر على شكل جانب من جوانب الشجرة المقدسة.

وكذلك القرص المجنح أو أحد الأبطال في المعركة أو مناظر الصيد بواسطة العربات وتظهر بعض هذه المناظر أنها من المجال الخرافي وهي توحى بأنه كانت

الأعمال المشابهة في القموش النافرة المتأخرة لها أحوالها في إضفاء صفة العلمانية على ما كان يُعرف مثلاً بالموضوعات الخرافية.

ولكن ومع تلك المناظر التي كانت تبدو خرافية، فإن الأختام الآشورية في الأزمنة المتوسطة كانت تشتمل على أمثلة من مناظر الحيوانات ذات الخلفيات الطبيعية مثلاً: الماعر الذي يرتع بجانب شجرة أو الغزالان الواضحة بجانب الأشجار. وإن هذا الاهتمام الذي أبداه صانعو الأختام بالحيوانات البرية والمناظر الأرضية من الممكن اعتباره جزءاً تلك المناظر الحية التي وجدت فيما بعد في الألواح التي تحمل نقوشاً باهرة.

إن الأختام الأسطوانية التي تطورت وتحسنت من البدايات الآشورية المتوسطة، تشمل مناظر طقوسية وبصورة خاصة عدداً من الأنواع المختلفة للشجرة المقدسة التي وجدت أيضاً في القموش النافرة ولكن وهو في كل شيء كانت مناظر الحديد ومناظر القتال حيث تظهر الآثار السافرة من المناظر الخرافية (مثلاً الحيوانات المجنحة والطيقات هذه المناظر تظهر أحوال هذه القموش في حضون منطقة ما بين النهرين القديمة).

ولكن وينمى الوقت كانت تحتوي على حيوية تشير إلى الطريق التي تؤدي إلى اللوحات المجسمة والقموش النافرة التي تصور الحيوانات في عهد آشور بانيبال.

الفصل السادس عشر

الجيش الآشوري

إنه وفي أثناء القرن الأخير أو ما يقارب القرن الأخير من عمر الإمبراطورية الآشورية كان هناك عدد قليل من الناس لم يتأثروا بتلك الإمبراطورية بصفة أو بأخرى وكانت المواحي التي تأثرت فيها الحياة اليومية (سواء تأثراً حسناً أم سيئاً) إنما هي القصايا الاقتصادية والإدارية.

ولكن النقطة التي دخل الإنسان منها إلى حالة التماس المباشر مع دولة آشور بابل كان عالياً هي الجيش الآشوري، وهذه هي أيضاً النقطة التي استطاع القارئ الغربي الحديث (إذا كان قد تمرّف على التوراة) أن يواحه الآشوريين لأول مرة نظراً لأن السمر الثاني من كتاب الملوك (أشعيا) ٣٦-٣٧ يكرس سميرين (الـ ١٨ والـ ١٩) لقضية حصار أورشليم وهناك ثمة من أسفار أخرى تكرس لهجوم الآشوريين على مملكة إسرائيل الشمالية.

استطاعت آشور تجييش الجيوش التي كان يبلغ تعدادها مئات الألوف من الرجال، ولم تكن أنشطة الآشوريين العسكرية لم تكن متمثلة بالحملات الحربية على ذلك المقياس.

وقد ثمت بعض العمليات العسكرية عن طريق قوى صغيرة أو عن طريق الحاميات التي كانت تسيطر على النقاط المتاحة وكان تعداد هؤلاء الجنود بضعة درينات حسب.

ولكن ومهما كان حجم هذه القوى فقد كان استعدادها المعال يعتمد على عاملين أساسيين وهما التنظيم والانضباط.

لم يكن جيش آشور العظيم عبارة عن قطيع من الملاحين المتعطشين لسفك الدماء تدعّمها قوة من المرسان الرهيبين الذين لا هم منيهم سوى العنائم، ولكن في الحقيقة كان الجيش منظمة معقدة تتألف من وحدات متخصصة من عدة أنواع،

وسكان بواتها هي الجيش المرباط وكان هذا الجيش مكثفاً بعدة مهام وواجبات على أسس دائمة.

أولاً: كان توفير الأمن الشخصي للملك الأمر الذي استدعى وجود الحرس الخاص الدائم.

وأيضاً: كان هناك الحاميات الدائمة المتواجدة في نقاط مفتاحية مختلفة في الإمبراطورية وهذه تستلزم تزويد هذه الحاميات بالرجال والعتاد بشكل دائم وعلى أسس من الأمد الطويل.

وهكذا فإنه لم يستطع أحد سوى الرجال المحترفين أن يؤموا هذه الواجبات، ولهذا فقد كان بعض هذه الحاميات مسؤولاً بشكل مباشر أمام الملك وليس أمام الولاة المحليين، وقد بدأ هذا واضحاً من التقارير التي كانت ترسل إلى الملك من قبل هؤلاء الوحدات.

إن إحدى هذه الوحدات من الجيش المرباط والتي نسمع عنها الشيء الكثير، كانت مجموعة من الجنود من أصول قبلية تدعى (الإنثو) ومن ناحية عرقية لم يكن هؤلاء من الآشوريين، بل كانوا مجموعة من الجنود من أصول قبلية آرامية من جنوب آشور وهم قرييون من مدينة آشور.

ولقد كان هناك في يوم من الأيام مزعجون للسلطات الآشورية ولكن لقد تم إحصاعهم تماماً.

وعندما ممنع عنهم في المراسلات الملكية ابتداء من أواخر القرن الثامن فصاعداً نجد أنهم قد أصبحوا وحدة متميزة يمكن الاعتماد عليها في أداء واجبات خاصة، ونجد مثلاً أنهم قد جلبوا لإعادة النظام في منطقة لبنان عندما تمرد أهل صيدا بمبيب الصرائب وقتلوا أحد مفتشي الضرائب.

هذا وإن قضية (الإنثو) تظهر أن الجيش الآشوري لم يكن مقتصرأ على الآشوريين فقط، إذ وكما ذكرنا سابقاً لم يكن لدى الآشوريين أي تمييز عنصري وقد أدخلوا الشعوب التابعة لهم في جيوشهم واعتبروهم على قدم المساواة مع الآشوريين الأصليين، وكانت كل مجموعة عرقية تحتفظ بشخصيتها وهويتها

بالنسبة لأغراض القتال وكانوا يؤلفون فوجاً أو وحدة صفى ويحتفظون بأنواع أسلحتهم وأشكال ملابسهم المستعملة في مناطقهم الأصلية.

وهكذا نجد في لوحات النقوش النافرة مبروراً لمجموعات من رماة السهام ورماة المقاليع والسفافرين وقرق المشاة الخفيفة وقرق المشاة الثقيلة الذين يتميزون بأحذيتهم الثقيلة وملابسهم وأغطية رؤوسهم فضلاً عن أسلحتهم، ولكن هؤلاء المحاربين كانوا بحاجة إلى الدعم التقني وتحبروا الأهاري والنصوص بوجود وحدات تقنية متخصصة

وكان هناك عربات حربية تستخدم في ميدان المعركة مرافقة للجيش، وعربات لنقل المعدات اللازمة التي كانت تشمل الطعام والخيام وقطع خاصة من المعدات مثل آلات الحصار والمنجنيقات، عندما أصبح الطرق صعبة بالنسبة لمرور عربات النقل والعربات الحربية وعندها أصبح الطرق مقفلة

وكان فتح الطرق من وظيفة جنود الاستطلاع المجهزين بالفؤوس البرونزية والنحاسية، وفي بعض الأحيان كان الجيش يصادف نهراً لا يمكن الحوض فيه وعبره وكان هذا يقتضي إنشاء أطواف أو جسور فكانت تصنعها جنود الاستطلاع، وكانت الأطواف من نوع الكيليك

أما الجسور فكانت جسوراً من القوارب أي: الجسور المتشكلة من قوارب مصفوفة عبر مرمى النهر وتوضع فوقها الألواح الخشبية التي من الممكن أن تصبح ممرات للمرات الحربية.

وبعدها وعندما يصل الجيش الأشوري إلى إحدى المدن المراد حصارها عندها يستعان بجنود الاستطلاع مرة ثانية لوضع المنجنيق والسلالم وأعمال حفر الخندق.

وكان هناك عدد من الموظفين فلة وهم الكتبة الذين يسجلون العناائم وتفاصيل الحملة الأخرى.

وكان هناك فئتان من الكتبة الفئة التي تكتب بالخط المعماري على ألواح من الفصصار ، والفئة التي تستخدم الحروف الأبجدية الآرامية التي تكتب على الرقوق أو على أوراق (أبليروس) المستوردة من مصر ، وكان هناك أيضاً المترجمون ورجال المخابرات.

وكان لدى الآشوريين أيضاً ما يمكن أن نسميهم بشكل فضفاض ومهلول دائرة القساوسة ، وكان هؤلاء مهتمين بالشؤون الدينية ولم يكن لديهم أي علاقة بالاعتناء بالجنود وأرواحهم.

والملك المذكور من الموظفين كان ملاكاً ديباً وكانوا يرافقون الجيش، وبالمناسبة فلم يكونوا متشغلين بتضحية القرابين فحسب بل أيضاً في تسيير وعمل التبرعات الفلكية عند الضرورة.

ويبدو أنه وبسبب تعاملهم مع التبرعات الفلكية فقد لعب بعضهم دوراً مهماً في الحفاظ على الأحياء العامة.

وبحسب علم عن كثير من الأزمات التي ساهم المتنبئون في الجيش في إعطائها غالباً من المال الحسن ساهم في تقوية معنويات المحاربين في الأوقات الصعبة ، وهكذا عندما اغتيل سمعاريب عمده ابنه أسرجدون للتحرك ضد جيش قاتلي الملك وقد تليت رساله من الآلهة تؤيد أسرجدون مما ساعد على تقوية قلوب جيشه وورع الخوف عند قاتلي الملك.

ويروي آشور بانيبال أيضاً طالاً حسناً تلقاه من أحد المتنبئين في زمن قيامه بحمله ضد أخيه المتمرد وهو ملك بابل.

وقد كتب على قاعدة تمثال إله القمر مايلي (بالنمبية إلى أولئك الذين يتآمرون ضد آشور بانيبال ويوزعون العداوات إنني أدعو عليهم بالموت البقيص ، ومن خلال الخناجر الحديدية اللامعة وبالحرائق الملتهبة ومن خلال المجاعة والطاعون سوف أنهي حياتهم).

وفي مناسبة أخرى واجه الجيش بهراً قد أحدث طوفاناً هائلاً الأعرج، وفي الحال استلم المتبزيون والموظفون الدييون تواصلاً إليها سبب لهم الطمأنينة.

(رأى الجيود بهر (أديدي) وهو هائج لذلك فقد حافظوا العيوز ولكن الإلهة عشتار التي كانت تعيش في إربيل أرسلت مناماً إلى جسودي في الليل وقد أخبرتهم (إسني ونمسي سوف أمشي أمام أشور بانيبال ذلك الملك الذي خلقته بيدي) وهكذا فقد تطمعت جنودي من جراء ذلك المام وعبروا النهر بسلام).

ويظن أنه كان بين الموظفين الذين مع الجيش من الدين يقومون بطقوس الحناثر بالنسبة للدين ماتوا في الخدمة العملية، مع أنه ليس هناك من شاهد متوفر ومن الممكن أنه كان هناك خطر أو مع الإشارة إلى عدد الأموات الآشوريين في الحرب.

والحقيقة أنه عندما تولى قائمة الإصابات في نقش رسمي فإن أعداد الموتى المصرح بها تكون صغيرة بشكل لا يُصدق.

مقدمات الرعة العسكرية الآشورية

لم تكن آشور دولة مهتمة للحرب دوماً، ففي بداية الألف الثاني كانت الأهمية العظمى للدولة مؤسسة على الجيش وكانت مدينة آشور مركزاً تجارياً لها مستعمرات تجارية في المناطق الأخرى بعضها يصل إلى أواسط الأناضول، والحقيقة أن العصر التجاري مع أنه قد طغت عليه النزعة العسكرية لم يخف بهائياً كعنصر مرموق في حياة الآشوريين.

ففي زمن انهيار الإمبراطورية الآشورية وانطوائها في نهاية القرن السابع ق م وقد انتقد هذا أحد أنبياء بني إسرائيل بقوله (لقد ارداد عند تجارككم أكثر من عدد البعوض في السماء (فاحوم ١٦: ٢).

ومع ذلك فقد انخفضت أهمية التجارة في القرن السابع في آشور بسبب الحروب، وهكذا كانت الحوليات الآشورية تتكلم في شؤون الحرب ولم تتكلم

في شؤون التجارة ولقد بدأ التغير بعد تسلم الميثانيين على آشور في القرن الخامس عشر

وقد اضطرَّ الآشوريون أن يحاربوا لاستعادة استقلالهم وبعد استعادة الاستقلال لم يعد لديهم حدود طبيعية يسهل الدفاع عنها وفي الوقت نفسه يُحافظ على أمن الأراضي المزروعة بالذرة والبلّاء بالمراعي التي شكّلت سواة الملاحكة الآشورية، وهكذا ظنوا أنهم قادرون على حماية أنفسهم من خطر تكرار الاحتلال والتهمة السابقة وذلك عن طريق التوسّع إلى المناطق التي من الممكن أن تأتي التهديدات منها

وهكذا فقد تقلبت آشور على التهديدات الأتية من ميثاني وذلك باحتلال ميثاني نفسها، وما بقي منها.

ولكن بعد أن أصبحت ميثاني على الحياد كان هنالك في طور عابدين جبال في الشمال الغربي وفي الشمال والشمال الشرقي شعب شرس جبلي مستند دوماً لفرو السهول الآشورية، ولإيقاظهم عند حدّهم اتخذت آشور رماح المبادرة وذلك بالقيام بنزاعات وحملات خلال الشرائط المعادية للجبال، ولكن ذلك لم يكن يضمن سوى سلام هش من الممكن أن يؤول لمجرد انسحاب الجيش الآشوري من تلك المنطقة

وهذا أوجب بذل محاولات تصمّن الأمن في تلك المناطق مما يجعلها بلداً عملية تجارياً أو بمرص الإدارة الآشورية المباشرة، ولكن حتى لو أجبرت منطقة معينة على التهادن مع آشور إلا أنه كان وراء ملك المنطقة التهديد القديم للأمن الذي سوف يعود للظهور، الأمر الذي جعل آشور مستمرة دوماً طلباً للاستقرار

ولقد كان هذا العامل في التوسع تمرره وتدعمه الاعتبارات الاقتصادية فقد كانت الجبال مصدراً من مصادر الخشب اللازم لبناء المدن الجديدة، ومن الممكن تجنيد المجتمعات القاطنة في وديان الجبال لجلب هذا الخشب، وقد كانت تلك المجموعات من شعوب الوديان تنتج المعادن وتربي الخيول، وكلا هذين الصنفين كانا غنيمة بلررة يتوق الآشوريون للحصول عليها.

وهكذا أصبحت الموائد الاقتصادية وطلب الأمن عاملين أثرا على نمو حركات التوسع الآشورية بعد القرن الخامس عشر ق.م. ولقد اقترح أنه كان هناك عامل أيديولوجي، فقد كانت إرادة الإله آشور أن يوسع الملك أملاكه، فالأوصاف التي أصبحت إلى اسم آشور ظهر أنها مظهر من هذه المظاهر، فهو الذي يستطيع أن يهرم جميع العصاة، والذي يبعثر الأشرار، وإن الذي يعمل ضده هو الذي لا يحترم كلمته، وإنه الواحد الذي لا يستطيع الشر أن يهرب من شبكته

وكل هذه الجمل كانت تأتي في سياق الإساءة إلى الإله آشور إذا عارض ذلك الجبروت العسكري الذي تتمتع به آشور، وهناك أحد الباحثين المتميزين يذهب إلى حد القول عن التوسع الآشوري الإمبراطوري بأنه نوع من اللاهوت الديني الذي يبرز الحرب الحقيقية، وهذا الرأي مؤسس على الادعاء بأن الإله آشور سوف يحكم جميع البشرية

يظهر أن الأيديولوجية اللاهوتية سوف تحاول أن تضع التوسع الإمبراطوري الآشوري في مستوى أعلى كليا من تلك الموائد السياسية والاقتصادية المجردة، ولكن لا يمكننا فصل الأيديولوجية عن الاعتبارات العملية فليس هناك من شاهد أنه في بداية الألف الثاني ق.م قد قام الإله آشور بالادعاء بحكمته للعالم بأكمله، إذ إن هذه المفكرة إنما تنبع من مفكرة التوسع الآشوري.

ويبدو أن اللاهوت لم يحرص على اتباع سياسة توسعية بل لقد حاول أن يعكس ويعطي تعبيرا دينيا لتلك السياسة أثناء تطورها

وهكذا فإن النظام اللاهوتي بالنسبة للحرب المقدمة لم يكن القوة الدافعة المستقلة بمسها بل نوع من التفسيرات بمصطلحات الحرافة لما كان يحدث فعلا تحت دوافع القوى الاقتصادية والسياسية، ولكن وبما أنها قد حدثت فقد خدمت لتدعيم وتحافظ على الزخم الإمبراطوري الآشوري، وهو يمثل ككشي لا يعتبر مجرد جواب بشري على الظروف المبرمة فحسب بل يعتبر نشاطا قد تقرر على مستوى إلهي.

و غالباً ما يشير الملوك الآشوريين لمهنتهم الإلهية ، وهكذا نجد أن تفلات
بيلاسر حوالي ١١٠ ق.م يحاطب الآلهة ويتكلم عن نفسه بضمير العائب ويقول-

((لقد وهبتموه قوته المصيرية لامتلاك السلطة وقررتم أن دريته العالية المقام
بين الحكمة سوف تظل إلى الأبد واقفة في المعبد)) (أي. المعبد الإلهي القومي
آشور)

وبعد أكثر من أربعمائة عام يدعي أسرحون: ((بأن الآلهة قد هومتني بالعمل
ضد أي بلاد قد أدنت ضد الإله آشور)).

وأصاف قائلاً ((لقد حولني آشور أبو الآلهة إجلاء سكان وإعادة توطين
سكان آخرين لكي تصبح حدود أراضي آشور أوسع)).

وأما الملك سرجون فيضرب مثلاً في حولياته على الاعتقاد بأن لآشور مهمة
دينية بأن يحكم ، وفي معظم الحالات فهو لا يقدم قصة حملاته بالقول والتصريح
عن كل الأمكنة التي ذهب إليها بل كان يُفضل أن يعطي تبريراته لهذه الحملة
حكما

((في السنة الخامسة بحكمي لقد أدنّب (ببسميري) ملك كركميش بحق
عهده للآلهة العظام واستمر في إرسال الرسائل إلى (ميتا) ملك بلاد موسكي التي
تضمر العداء لآشور لذلك رفعت يدي إلى سيدي الإله آشور عندها وقع ببسميري هو
وعائلته أسرى بين يدي)).

أو مرة ثانية نراه يتكلم عن الإجراء الذي اتخذه ضد الكلداني (أبال -
إيدينا) وهو الملك المُقْتَصَب للسلطة في بابل وهو يظهر أن عمله كان متناسقاً مع
إرادة الآلهة وهو يقول:

((ولدت اثني عشر عاماً لقد مارس الحكم والسيطرة على بابل مدينة الإله
وذلك بمكس إرادة الآلهة ، هذا وإن مردوخ السيد الأعظم الذي كره الأعمال
الشريفة لهذا الكلداني... وقصص أن يفرغ منه صولجانه الملوكي وعرشه ، كل ذلك
كان مرسوماً بين شفتيه ، ولقد ناداني أنا سرجون الملك المتواضع وذهب رأسي

عالياً ، ولكي يبعد الكلداني وهو العدو اللدود والشرير فقد عظم شأن
أسلحتي))

الحرب النفسية

وبالاستحجام مع إحساس الآشوريين بمهمتهم الإلهية فقد عمد هؤلاء إلى فرص
التوعي بهذه المهمة على الشعوب الأخرى ولكي يحافظوا على الاستقرار عبر منطقة
الشرق الأدنى ذلك الاستقرار المؤسس على أحقية السلطة الآشورية ، فقد كان من
الضروري إقناع الشعوب الأخرى بأنه من العبث مقاومة آشور

وكان من الواجب القيام بهذا عن طريق إظهار القوة الشاملة لأشور من جهة
ومن جهة أخرى عن طريق الدعاية ، ولم تكن هاتان الوسيلتان منمصلتين أو غير
متصلتين ، هذا وإن إظهار قوة آشور بما فيه معاقبة أولئك الذين أذنبوا بالنسبة إلى
آشور وأهالها ، لم تكن موجهة ضد أولئك الذين عابوا بشكل مباشر فحسب بل
أيضاً ضد الذين سمعوا بتلك الإهانات عن بُعد

وهناك مراجع متكررة في الحوليات الآشورية تشير إلى الملك الذي صبَّ جام
غصبه على الأعداء ما يمكن أن نترجمه بأنه سوف يسبب الحوف الرهيب ، ولقد
استعملت عدة كلمات أكادية للدلالة على هذا ولكيها جميعاً تمتلك نوعاً من
العارق الدقيق فهي تشير إلى نوع من المزع المملوء بالخوف الذي يأتي من مقابلة
شيء على المستوى الإلهي

وهكذا فإن الملك الآشوري عمد تمييز بعض الأعمال التي تشمل أحياناً
الأعمال المظلمة الشنيعة التي توقع الدعر في الأعداء هذا الملك كان يفكر
بنفسه أنه كان يدخل محافة الله في أولئك الذين من الممكن أن يعكسوا
بممارسة آشور . وهذا يمثل استعمال الآشوريين بشكل واع للإرهاب ليس لأسباب
سارية بل لأجل الحرب النفسية.

وهنا يشير سحاريب عملاً إلى الحقيقة التي مفادها أنه قد أزعج نفسه بإجراء
تظاهرة تحديدية ضد عيلام ، ولكن الموت المصاحب للملك عيلام بعد أقل من ثلاثة

أشهر قد نُصِبَ على العرش أخاه الأصغر الذي لم يكن يملك من الذكاء والعظمة ليستنتج الاستنتاج المناسب ويستخلص العبرة المناسبة فيما يتعلق بمظمة آشور، ومن وجهة نظر سنحاريب فإنه من غير المناسب وليس من المتوقع أن تتدخل عيلام في شؤون بابل (وهي التي تدخل تحت النفوذ الآشوري) وذلك بعد إظهار آشور لقوتها ولقد تأكد من موقف سنحاريب لتلك الحقيقة التي معادها أن اختار الملك الميلاسي الشاب إلى الذكاء والعظمة أشير إليه ثلاث مرات من خلال عدد من النصوص.

تظهر نتائج السياسة الآشورية الطبيعية المنتظرة في تلك الحادثة التي ععد فيها الملك آشور بانينال إلى تحريب منطقة من الأراضي المانية (في شمال عربي إيران) وصب جام غضبه عليها، ونتيجة لذلك فقد اغتيل الحاكم الماوي لأشور على أيدي رعيته واستلم الحكم الوسين ابنه الموالي لأشور ويذكر الملك سرجون بصراحة أن انتصاراته كان لها مظهر من مظاهر الدعاية

وبعد قهره لقوى معصية (أوراتو) وحملاتها بعد حملته الرئيسية عام (٧١٤ ق.م) يقول: (إن بقية الناس الذين فروا حفاظاً على حياتهم، قد أطلقت سراحهم ولكي يمجّدوا النصر الذي أحرزته سيدي الإله آشور.

ولقد مات بعض هؤلاء التمساء المباحين نتيجة لتصرفاتهم في الجبال ولكن ناضل الآخرون للرجوع إلى بيوتهم حيث إن روايتهم المزعومة حول القوة التدميرية الصارية لأشور وللجيش الآشوري أصابت المستمعين بالهكم.

ويقول سرجون (لقد كان قوادهم من الرجال الذين كانوا يهتمون معاني الممارك والذين هربوا أمام أسلحتي وصلوا إليهم وهم مضطربون بسبب الموت ورووا لهم عن عظمة آشور بحيث إنهم أصبحوا وكأنهم رجال موتى).

ومن الممكن رؤية نفس مبدأ الحرب النفسية الذي قصد به تخفيف الحاجة إلى العمل المعطي من الممكن رؤيتها في التوراة عند حصار اورشليم، فقد أصبر

القائد الآشوري على الإعلان باللفة العبرية وذلك ليفهمه كل الناس وكل المواطنين ويمد ذلك أكد بهذه المناسبة أن ليس هناك من بلد قادر على مقاومة قوة آشور بنجاح.

وقد قال: (هل استطاع أحد الآلهة عند الأمم أن يخلص بلاده من سطوة ملك آشور؟)

لقد أظهر المظهر البعسي للحروب الآشورية عن طريق الأسلوب الذي استعمل في تصوير النقوش الناهرة لمشاهد الحروب، ففي قصر آشور ناصر بمل في كالاخ كانت مشاهد الحرب هي السائدة والنقوش الناهرة ولكن في القاعة التي كانت تستخدم كمقر اجتماع المستمعين فقط.

وإنه لاستنتاج معقول أن نذكر أن سيادة المشاهد الحربية إنما كانت للتأثير على رؤية ووعي الزوار من الحكام والمقراء لعظمة آشور وقوتها العسكرية، أما في المرب الأخرى في القصر فقد كانت مخصصة للموضوعات الدينية أو الاحتفالية

وقد كان بعض المظالمات التي اقترفتها الآشوريون مظهراً من مظاهر الدعاية، فلم تكن مجرد أعمال عقاب ولا مجرد سيادة، إذ هناك مثال مناسب لهذه الفكرة ما وقع لسرحون الثاني ففي الجانب الآخر من جبال راغروس على السفح المقابل لآشور في شمال غرب إيران وإلى الجنوب من بحيرة أورما كان هناك شعب (المانيان) الذين كانوا في وضع غير مريح لوقوعهم في منطقة عازلة ما بين دولة آشور ومناهستها الشمالية الرئيسية وهي مملكة أورارتو في أرمينيا

وفي عام (٧١٦ ق.م) كان ملك المانيان موالياً لآشور، ومع ذلك فقد أقنع ملك أورارتو اثنين من الحكام المانيين بأن يقوموا بالمصيان ضد الملك الموالي لآشور ثم قتلاه، وعندها بدأ سرجون بالعمل وهو يقول:

((لقد رهمت يدي لآشور ورجوته أن ينتقم من المانيين ويرجع أراضيهم إلى حدود بلاد آشور، ولهذا فقد استجاب لي الإله وأمسك بأحد الحكام الثمريدين وسلخ جلده، ثم عرضه أمام المانيين)).

ولم يكن هذا مجرد عقاب وحشي، فقد شكلت الدعاية تقضي تأكيد حماية الأنشطة الموجهة ضد الحكم الآشوري والتمرد ضد الملك الموالي للآشوريين بشكل لا مجال للشك فيه، ولذا فهم بعض المانيين هذا درس.

هذا وقد افتتح (أولوسونو) شقيق الملك المقتول ووريثه الذي كان قد عقد تحالفاً مع مملكة أورارتو بمد أن لمس الحماقة التي اقترعها.

وسرى سرجون يقول: ((لقد تجمع أولوسونو الماسي مع جميع رجال بلاده معاً وأمسك بقدمي لذلك فقد أشفقت عليه وقد غفرت لأولوسونو ذنبه وأرجعته إلى عرشه واستلمت الجزيرة منه)).

ومن الواضح أن سرجون لم يكن مهتماً بإزالة عقوبة ضد أي شخص قد عارض آشور في أي وقت من الأوقات، فالجيش الآشوري كان أداة من أدوات الدولة وكانت القضية توجب الرضا إذا تم إرجاع أي حاكم معاد إلى الحضيرة، وأن يصبح تابياً وموالياً بمجرد إظهار القوة.

وحيث كان المارصون المهرومون يتمرضون للمعاملة القاسية كما كان الحال بالنسبة للحاكم المنسرد المذكور أعلاه، لم يكن هذا قضية تعذيب انتقامي بل كان موجهاً لإقامة مثال وإعطاء إنذار بإظهار ما حدث لأولئك الذين قاوموا آشور مقاومة نشطة

وهناك مثال مناسب لشرح هذا المبدأ يقدمه لنا تصريح لأشور بانيبال، فهو يذكر في إحدى رسائله بمعاملة عصيان بابل أن جد سنحاريب قد قدم وزنة من المصبة مكافأة على قتل الزعيم المنسرد، وقد قال إنه نفسه كان سيعطي هذا المال ذهباً مكافأة لجلب أي زعيم متمرد ضده سواء كان حياً أو ميتاً، وإن الحقيقة التي مفادها أن المرض كان ليجرد تسليم المتآمر ولو كان ميتاً، إنما يُظهر بوضوح أن عرض الملك هو إعلان مصير أي شخص متمرد وليس الابتهاج الساري بإيقاع التعذيب على المتمرد، هذا هو عرض الملك.

الجيش أثناء الحملات العسكرية

وطبقاً لما ذكره الملك سرجون فقد كان هناك موسم للحملات العسكرية وهو يصف هذا الموسم بكونه شهر الإله الأعظم والأقوى (نينورتا) ابن الإله أنليل أقوى الآلهة الذي سجله رب الحكمة (مينشيكو) في أحد الألواح أنه هو المسؤول عن جميع الجيوش والمسيكرات بكاملها والشهر المشار إليه هو شهر تموز، وهذا أظهر حسن التدبير لدى رب الحكمة نظراً لأن الحملة سوف تتوجه إلى الجبال حيث ترتفع درجة الحرارة في سهول منطقة ما بين النهرين إلى درجة 120 ههرنهايت، وقد كانت هذه الفترة مناسبة لجميع الجيوش والإمدادات الوهنية لأن عمليات الحصاد تكون قد انتهت في نهاية شهر أيار أو بداية حزيران مما يقدم فرصة مناسبة للإسهام في الخدمة العسكرية من قبل الفلاحين.

ونقد كان تشكبل موسم للحملات عملاً من ابتداء الملك سرجون ولحكمة ثم يحافظ على مواعيده بانتظام نظراً لأن إحدى حملاته قد بدأت في شهر أيار مع أن ذلك قد حصل بشكل إجباري نظراً لحصول عصيان كان لابد من معالجته، ولكن وبالتأكيد وفي خلال القرن التاسع قم نجد أن الحملات كانت تبدأ في أي شهر من أشهر نيسان أو أيار أو حزيران أو تشرين الأول أو تشرين الثاني مع أن الملك المحارب آشور ناصر بمل العظيم كان يفضل شهر أيار أو حزيران وكانت الحملات في فصل الشتاء غير مرغوب فيها وغير عادية

وإن أحد العوامل المسببة لهذا الميع هو أن الأنشطة الزراعية في آشور كانت تبدأ في شهر تشرين الأول وتشرين الثاني بحيث كانت تحدث مشكلات خطيرة إذا كانت جموع المقاتلين بالخدمة العسكرية من الملاحين وكانت لا تزال تخدم في الجيش في ذلك الوقت.

أما العمليات العسكرية التي كان من الممكن للجيش النظامي القيام بها لوحده فلم تتأثر بوجود هذا الاعتبار، ولكن العامل الثاني كان الطقس الذي كان يتحكم في العمليات العسكرية في الجبال في فصل الشتاء.

ومع ذلك فإننا نسمع من النقوش الملكية التي تتحدث عن الحملات أن هذه كانت مستمرة في شهر كانون الثاني وشباط، مع أن تلك التعليقات التي تتحدث عن الطعن المعاكس كانت تذكر أن هذه التواريخ تعتبر من الأمور الشاذة.

القواعد العسكرية والتحضيرات اللوجستية

يحتاج الجيش المرابط إلى قواعد دائمة، التي كانت تؤمن في العواصم المتتالية والتي تسمح عن وجود مجمع يدعى (إيكاكال مشارتي) وهو يعني حرفياً قصر المكان الذي يتجمع فيه الجيش (أي. الثكنات)

وكانت هذه الثكنات عبارة عن أبنية ذات باحات واسعة تستخدم لعدة أغراض، ولكن مع تزايد واجبات الدولة العسكرية أصبحت هذه الثكنات صغيرة فلا تستطيع تلبية الأعراس المبوطة بها

وقد تحدث عدة ملوك بصراحة عن هذا الأمر إذ يخبرنا أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩) أن (الإيكاكال مشارتي) في نيسوى الذي أقامه الملوك الدين سبقوني وهم أجدادي وذلك لاستيعاب ترتيبات المعسكر وللعناية بالعمهول والنهال والعربات ومعدات القتال والفنائم التي تُستخلص من العدو...

ذلك المكان قد أصبح صغيراً جداً فلا يتسع لتدريب الخيول وتمارين العربات. وتشير بعض النصوص الأخرى أن الأسلحة والتمرينات العسكرية كانت تحزن في (الإيكاكال مشارتي) بحيث أصبحت هذه تولى ترسانة أكثر من مكانها ثكنة، وكان فيها هيئة من الكتبة وهم يؤمنون دائرة قسم الأدوات.

كانت الثكنات الدائمة في العاصمة تؤدي أعمالاً أخرى عدا خدمتها كقاعدة للعمليات العسكرية، إذ إن وجود قوات ضاربة مستعدة لتقوية الملك ضد التهديدات أو العصيان ماعدا في حالة حدوث انقلاب يُعده قائد الجيش بذاته.

وربما كان هناك علاقة مباشرة بين الحقائق التي مفادها أن الملك شلمناسر الثالث هو الذي أسس (الإيكاكال مشارتي) في كالاخ وأنه في حوالي نهاية حكمه

حدث عصيان كبير اشتركت فيه كل المدن الرثيمية ما عدا كالاخ، إلا أنه وبقاء كالاخ تحت سيطرته الناعة فقد انتصر هو ووريثه الشرعي.

لم تكن المواسم المتعاقبة على طول نهر دجلة هي التي خدمت كقواعد للعمليات العسكرية إذ إننا نسمع مثلاً عن وجود جيوش آشورية عاملة ابتداء من (أربيل) إلى مدينة تدعى (كالبزي) إلى الجنوب الغربي من أربيل وعلى بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الشرق من كالاخ.

ولقد بنيت قواعد في الأراضي المستولى عليها خارج آشور وكانت غالباً عبارة عن معازل قديمة للسكان الوطنيين وقد حطمت هذه المعازل واستخدمت لهذا الهدف، ولكن أطلق عليها أسماء آشورية مثلاً في سجل حملاته ضد أورثوا عام (٧١٤) يتحدث عن وجود قلعة حصينة استولى عليها في شمال غرب إيران ذات موقع استراتيجي بحيث تشرف على مقاطعتين وهو يقول.

(لقد عملت على تقوية ودعم هذه التحصينات في ذلك المعقل وجلبت لها الذرة والزيت والمعدات الحربية).

وعندما يبدأ الجيش بالزحف خارج قواعده وفي داخل الأراضي الآشورية عندها تصبح مسؤولية الحاكم تأمين المؤن المتوفرة وبالتالي فهي أراضي الممالك التابعة فإن هذا العمل يصبح واجب الحاكم المحلي.

وعند العمل خارج الأرض التابعة للدولة الآشورية فإن الجيش مسؤول عن تغطية نفسه من المؤن التي أحدثت كمائنهم، وربما كان هذا الاعتبار هو الذي أملى عليهم اختيار الطريق داخل أراضي العدو دون الحصول على المواد الغذائية، وكانت الذرة والتبن تحمل من قبل الجيش وكانت متوفرة كوجبات للجنود والخيول.

وكانت إحدى الموائد المبرمة للاستيلاء على إحدى المدن هو فتح باب أهراء الحبوب بحيث يستطيع الجمود أن يأكلوا حتى الشعب دون تحديد للوجبات، وكان هناك مشكلة المياه التي كانت تظهر في المناطق المأهولة بالسكان فإذا نفذت المياه كما كان يحصل في مناطق كثيرة من الشرق الأدنى فإن هذا كان

يؤثر على انضباط الجيش، وينسكب سرجون حالة قريية من التمرد بسبب الإرهاق
وهلة المياه

ولقد صادف أسرحيون مشكلات بالنسبة للمياه أثناء غزو مصر ولم يستطع
أن يسير بجيشه بأمان خلال صحراء سيناء إلا بعد أن عمدت بعض القياثل العربية
إلى بجدته وذلك بجلب الماء للمساكره في قريب موضوعه على الجمال.

الجيش أثناء تنقله

عندما كانت تقتضي الضرورة كان باستطاعة الآشوريين أن يقدموا إلى
الميدان القتال عنداً من الجمود يزيد على مائة ألف جندي، ويذكر سلسا صر
الثالث أنه قد يمر الفرات باتجاه الغرب وهو يقود جيشاً تعداد ١٢٠ و ١٠٠ جندي،
عام ٨٤٥ ق.م وهناك إشارات أخرى تتفق مع هذا الرقم، ومن جهة عديدة كان
الجزء الأعظم من الجيش الآشوري العظيم يتألف من مجموعات جمعت بمعرفة
الحكام المحليين.

ونجد ذكراً لعدد من المساكر جميعها تحت قيادة أحد الحكام تقدر
بـ (١٥٠٠) جندي من الفرسان و (٢٠٠ و ٢٠٠) من الرماة، ولما كان هناك حوالي
عشرين ولاية يستطيع هؤلاء جمع مئات الألوف من الجنود فإن هذا الرقم يصبح
صحيحاً وممكناً.

وهذا يتفق مع الإصابات التي تلحق بالمدو في معركة واحدة، مثلاً المعركة
التي حاصها سنجاريب في عيلام في هالولي عام ٦٩١ ق.م وقد ادعى سنجاريب أن
حساثر الهيلاميين كانت ١٥٠٠٠ قتيل ومن الممكن أن يكون هذا مبالغ يقصد
بها الدعاية، ولكن إذا كنا سوف نصنق إلى العدد المذكور لا يمكن أن يريد
عن الحجم الممكن للجيش العيلامي مع وجود أعداد مقابلة يمكن مقارنتها مع
الجيش الآخر وهو الجيش الآشوري.

وكانت المدبحة التي تلت عنعما التقت الحيوش فالمركة قد ظهرت في مناظر على ألواح المقوش النافرة مثلاً اللوحة التي تظهر أحد الطيور الكاسرة وهو يحمل أحشاء جندي مقتول.

ليس هناك سبب يجعلنا نضكر أن جميع الجيش الصارب في آشور كان يستدعى للخدمة كل عام، فقد كانت بعض الحملات (التي ربما كانت تتم خلال شهر) تجري باستخدام قوى أقل معدداً أو ربما باستخدام الجيش المرابط فقط بحاصة عندما تحدث الحملة خلال المصول الزراعية

ويحبرنا اسرجون أنه وأثناء الجزء الأخير من حملته ضد أورارتو عام ٧١٤ ق.م فقد أعاد معظم جيشه إلى آشور وفام ينضمه بمتابعة عمله فوق حبال صعبة التصاريص ولم يكن معه سوى عربة حربية وألف من الجيود الخيالة

كان ترتيب الرحب يعتمد على اعتبارات تكتيكية مثلاً الخوف من وجود كمين أو الحاجة إلى السرعة، ولقد سُجلت أخبار عدة حملات يقول فيها الملك بصراحة إنه تحرك دون إجراء احتياطات عادية، ودون استمراض الجيش أو دون تجهيز فرق النقل التي كانت تؤلف مؤجرة الجيش، وفي زمن سرجون الثاني كان الترتيب العادي للمسيرة عند عدم وجود أي اعتبارات أخرى كما يلي

أولاً: سارت أعلام الآلهة بمرافقة موظفين دينيين وبعدها يأتي الملك راكباً عربة يصاحبه سائقو العربات والمرسان والذين يصفهم بأنهم الفرق الحربية التي تسير على الجانبين (الحقيقة أن سرجون مات في إحدى المعارك)

وتفيد الدلائل أن هؤلاء المرسان كانوا تحت إمرة الملك مباشرة وكانوا يزلمون الحرم الخاص للملك، ورأس الرمح للهجوم ويأتي خلف هؤلاء القسم الرئيسي من الجيش الآشوري، وأخيراً تأتي فرق النقل التي تؤلف المؤجرة

وتسمح لنا التفاصيل التي نحصل عليها من تحركات وحدات الجيش العسكرية أن نحسب أن الجيش كان يتقدم مسافة ثلاثين ميلاً يومياً وكان هذا سهلاً جداً بالنسبة للخيالة عدا عند مصلافتهم دياريس أرضية صعبة ولكن هذه المسيرة كانت صعبة بالنسبة للمشاة.

وعندما يدخل الجيش ميدان المعركة كانت الوحدات التنظيمية التي تؤلف نواة الجيوش الآشورية تظل في حالة تأهب واستتعار دائمة للدخول في المعركة، وهذا واضح مما قاله أسرحدون حول الحوادث في الزمن الذي اعتيل فيه والده سنحاريب عام ٩٨١ ق. م.

وكان أسرحدون عندما يقود جيشاً متجهاً نحو الغرب ويجرب أن أنه عندما سمع الخيروبيد أن تلقى نبوة مشجعة من الآلهة...

((لم أتأخر يوماً واحداً، ولم أنتظر حتى اكتمال تعبئة جيشي، ولم أهتم بوحدة المؤخرة، ولم أهتم باستلام الخيول والمعدات وتجهيزات القتال، ولم أكون المول للارمة على الطريق، ولم أخش من الصقيع ولا الثلج الذي يسقط في شهر شباط ولا صمويلت الشتاء)).

وعلى العكس فقد بدأ بالحركة حالاً لملاحقة قتل الملك وقد كان هذا ممكناً لو كان لديه بين وحدات جيشه وحدات قتالية في حالة استعداد لدخول القتال فوراً.

لم تكن حملات الآشوريين كلها حملات قتال، فلقد حصل ببعض الآشوريين خصوصاً بعض الملوك على متعة كبيرة عند اشتراكهم في مثل هذه الحملات العسكرية خصوصاً عند ارتقائهم التلال والجبال تلك الأعمال المنفصلة عن الاشتراك في المعارك، فالجبال إلى الشرق وإلى الشمال من آشور تتميز بمناظر خلابة وفي الصيف يكون الطقس مبهجاً جداً

وقد سجل بعض الملوك انطباعاتهم أثناء ذلك فقد ذهل سرجون عند رؤيته مناظر جبال زغروس ولقد اهتمتسا تعليقاته الشعرية حول هذه ولكن ابن سرجون وهو سنحاريب كان أقل شاعرية ولكنه بكل شعر بالبهجة عندما ذهب لتساق الجبال.

وهنا نقتبس قطعة نثرية كتبها عند صعوده أحد الجبال لمطاردة بعض رجال الجبال المملدين له.

((لقد قُدت المجموعة مثل ثور وحشي هائج، ومعني حراسي الخاص المُنتقون، وعساكر الجيش الذين لا يرحمون عند المعركة، ولقد قطعت الوديان والسهول والوهاد والمنحدرات الخطرة وأنا محمول في محفّتين ولحس انطلقت ومثبت على قدمي لمتابعة الطاردة حتى القمم العالية وكنت مثل العزال، وعندما ثُمّنت ركبتي جلمت على صخرة في الجبل، وعيبت الماء البارد من شريتي لكي أطفئ ظمئي))

المواصلات

كانت سرعة الحركة طبعاً عنصراً فعالاً في الحروب الباحة وإن كثيراً من مناطق الشرق الأوسط خارج منطقة ما بين النهرين كثيرة المقبات التي تعيق التقدم، مثلاً الجبال الوعرة، الأراضي الصخرية أو الصحراء الواسعة، بينما هنالك في السهول يجري نهر الفرات ودجلة وروافدهما المتعددة، وهي عقبات تؤخر تحركات الجيش.

وكان لدى الجيش الآشوري مواصلات بالمربات ذات العجلات وليس بالعربات بحسب بل أيضاً في مركبات تجرها أحياناً البغال وأحياناً الثيران وحتى الجيود، وكانت هذه تستعمل لنقل الملو والتجهيزات ولقد ذكرنا سابقاً استعمال المهندسين المسكرين لشق الطرق حيث تعطّل التضاريس الطبيعية تقدم المربات والمركبات، وفي بعض الأمكنة حتى هذه الاحتياطات لم تكن عملية.

ولكن هذا لم يكن ليوقف تقدم الآشوريين، فقد كان الجيش يترك المربات ذات الدواليب خلفه لكي تجمع ههنا ههنا، أو عندما يعلمون أن الطريق سوف يتعصّن فقد كان الجنود يدفعون المربات والمركبات بالأيدي وبذلك يتقلّبون على الصعوبات.

من الممكن أن تعيق الأنهار حركات الجيش الآشوري، لكن الجيش لم يتوقف، وحيث يكون خوض النهر غير عملي، خير ممكن فقد كان الجيش

يستعمل القوارب والأطواف المتوهرة وهي التي كانت تجلب مع الجيش لهذا الغرض.

ويذكر آشور ناصر بعل عن بناء القوارب في إحدى المدن (التي كانت دون شك تحتوي على المواد المناسبة والمعدات المناسبة) حالما يقترب من الصرات، وفيما يلي بضعة أسطر ذكرها لوصف الحوادث.

((إنه وبواسطة القوارب التي صنعتها وهي القوارب المصنوعة من الحلود، والتي حملتها معي على طول الطريق فقد عبرت نهر الصرات عند مدينة خريدي))

وإن القوارب المصنوعة من الحلود تشبه الأطواف التي سميها الكيلىك، ولم تكن هذه بدعة بالعبسية لأشور ناصر بعل نظراً لأنه في نحو (١١٠٠ ق. م) قد استعمل قذلات بلاسر الأول مع الوسائل للوصول إلى الآراميين المرعجين الذين تواجدوا عند الجانب البعيد من نهر الصرات.

وفي أوائل القرن السابع قبل الميلاد صنع الملك سنجاريب طريقة طموحة لاستعمال القوارب وكان هذا أشاء حربه مع عيلام (جنوب غرب إيران) لقد كان هذا مشمولاً في مجرى حروبه مع عيلام، وإذا قبلنا الفكرة التي مفادها أن صانعي القوارب المهرية من الآشوريين كانوا عبر أكفاء، لذلك فقد جلب بُناة للسفن من السوريين لكي يبنوا له السفن في نينوى، وهو يقول

((إنهم سوف يستعملون أساليب صنع السفن في بلادهم)) وهو يمي طراز السفن في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

ويعد ذلك فقد أبحرت تلك القوارب بواسطة البحارة المتفوقين إلى أسفل منطقة نهر دجلة (إلى حيث تقع بغداد الآن) ومن هناك (نظراً لأن الجزء السفلي من دجلة غير قابل للملاحة) فقد نقلت القوارب بطريقة العمل اليدوي إلى نهر الصرات وهكذا حتى الخليج الفارسي حيث استعملت لتقل الجنود والخيول استعداداً للهجوم البحري.

لم يصاحب الملك جيشه دوماً في حملاته بل كان دوماً على علم بما يجري من العمليات، ونحن نعلم ذلك من المراسلات المتعددة التي كانت تجري والتقارير كان الضباط في ميدان المعركة يرسلونها إلى الملك بملامحه بالنشاطات التي كان الجيش يقوم بها كسكل، أو أخبار الوحدات العسكرية المختلفة.

وكان الملك بدوره يرسل التعليمات إلى القواد العسكريين تشمل في بعض الحالات تعليماته حول المفاوضات مع العول الأجنبية في المنطقة، وقد أصبح هذا الاتصال الجيد بين العاصمة والجنود الذين همما وراء الحدود الآشورية ممكناً وذلك بسبب وجود نظام المواصلات الفعال.

وقد اشتمل نظام المواصلات الآشوري على نظام معاينات عسكري، وقد أنشأ المعلومات المستمعة حول هذا النظام من الحدود الشمالية الشرقية حيث كانت آشور تواجه مملكة (أورارتو) في أرمينيا

ولقد رُوِّدَتِ الرسائل المرسلة من الضباط الآشوريين في الجبهة بكثير من المعلومات حول استخدام الجواسيس للحصول على المعلومات حول مراكز الأورارتية ونواياهم.

وهكذا نجد أن بعض الضباط يرسلون تقارير إلى الملك حول حركات الجيود الأورارتيين مع إيراد التفاصيل عن الإعداد والطرق والوجهات المقصودة.

ونجد في إحدى هذه الرسائل أن خمسة حكام أورارتيين ذكرت أسماءهم قد جمعوا عساكرهم في مدينة معينة وكان من الواضح أنهم يستعدون للقهاقهم بحملة وبعدها هناك إضافة لهذه الرسالة: ((وبخصوص الأمر الذي أرسل لي سيدي الملك رسالة حوله يقول ((أرسل رجال دابالو)) ولقد أرسلت رجلين، وقد رجع بعضهم وقدم لي هذه المعلومات والبعض لم يرجع بعد من أراضي العدو))

إن هذا السيلق لا يدع مجالاً للشك أن رجال دابالو كانوا كشافين أرسلوا للحصول على المعلومات، وللحصول على مثل هذه المعلومات كأسماء الحكام في أراضي العدو فإن هؤلاء العملاء ينبغي أن يكتبوا قد أحروا اتصالات مع جماعات

من أهالي البلد وداحل أراضي العدو إما بالحصول على الأمرى واستجوابهم، أو عن طريق الدخ للجواسيس تلك الأمور المروفة للجميع.

لدينا رسالة تذكر كيفية الحصول على أسرى من العدو لاستجوابهم عن أوضاع الأعداء، مع أنه وفي هذه الحالة كان بعض المتمردين البابليين يحاولون عمل ذلك لاكتشاف تمركز الجيود الآشوريين أثناء الاستجوابات الآشورية لضباط الوحدة المتعددة، واكتشفت أهدافهم وتحولت الأمور ونحن نعلم شكل هذه المعلومات من تقرير الضابط الآشوري إلى آشور بانيبال.

تشير التقارير التي أرسلت إلى الملك الآشوري أن المخاضات العسكرية لم تكن مهمة بتحركات عماسكر العدو وأحوالهم بحسب، بل بالقصة التي تؤثر على معنويات العدو، وهذا له علاقة ببعض التفاصيل للرواية التوراتية حول حصار اورشليم تحت قيادة سنجاريه.

وبهذه المناسبة فإن التوراة تصف كيف أن القائد الآشوري (ريشافي) قد قام بهجوم للتأثير على معنويات المدافعين، وأن إحدى الوحدات العسكرية لمحاولاته كانت تحدي لاعتمادهم على مساعدة إلههم يهوه.

وكانت محاولاته التي تتحدى وتهدم ثقتهم أن يهوه نفسه الذي نال حرقها مقامه العالي ومذبحه قاتلاً لليهود وأورشليم.

((إنكم سوف تميدون أمام هذا المذبح في اورشليم)) (٢ ملوك ١٨ ٥٢)

وهذا كان إشارة إلى بعض الإصلاحات التي قام بها الملك حرقها بقصد إلقاء أماكن العبادة المحلية القديمة من جميع أنحاء فلسطين وتركيز العبادة في اورشليم.

ولقد ناقش بعض الباحثين في علوم التوراة قائلين: إن القائد الآشوري لم يقل ذلك لأنه لم يمكن يعرف شيئاً عن هذه الإصلاحات إذا كان هناك حقاً إصلاحات، ولكن لم لا؟ وبالتأكيد على الأقل أن جزءاً من خطبة (ريشافي) ينبغي أن يكون قد أتى بشكل أو بآخر من شخص ما قد سمعها

ولقد تحقق هذا دور أي مجال للشك عن طريق إجراء مقارنة مع رسالة بالخط المسماري مكتوبه إلى أحد ملوك آشور من قِبَل أحد القواد الذي كان يحاصر بابل قبل ثلاثة عقود من حصار اورشليم.

ويخبر هذا القائد في بابل الملك أنه خاطب السكان وحثهم على الاستسلام تماماً كما فعل (ريشافي) فيما بعد في اورشليم.

إن السجل التوراتي من الواجب أن يكون تعميلاً حقيقياً لنوع الاقتراب الذي قام به القواد الآشوريون في هذا الوقت، ولم يكن بإمكان أي كاتب عبري أن يخترع حججاً وهمية قريبة من تلك الحجج التي أطلقها القائد القديم خارج بابل.

وإذا كان قد تأكد جزء من حطية (ريشافي) فليس هناك من سبب معقول أن شك في مصداقية ذلك الحرة المتعلق بإصلاحات حرفها، أو ربما كان هناك كثير من عدم الرضا والسخط في يهوذا بسبب إلقاء الأشكال المحلية من العبادة للإله يهوه التي كانت تتمتع بالقدم والقداسة التي اكتسبهاها من معالمتهم للبهاركة وللبي سموئيل، ولا شك أن (ريشافي) الآشوري قد جعل كل هذه المعلومات حول السخط الديني المنتشر واستمد منه بذكاء.

هذه الحادثة التوراتية تحلب لنا ظاهرة أخرى من مظاهر المخابرات العسكرية الآشورية فقد كانت الحيوش الآشورية نحتوي أشخاصاً يتكلمون اللغة العبرية بطلاقة، مما سبب الدعر لدى السلطات في اورشليم.

وكذلك فإن الحقيقة التي مصادها أن القواد الآشوريين لم يكن لديهم أي مشكله بالنسبة للتواصل مع الأورارتيين أو الأسرى الآخرين، كل هذا يدل أن الجمرال الآشوري كان يقضي في هيئة موظفيه مترجمين ماسحين في منطقة عملياته، فقد كان بلاط ملك آشور يحتوي على كثير من المترجمين الذين يقومون عدداً من اللغات وذلك كما يدل النص الذي اهتمننا.

التكتيك العسكري

لقد استطاعت الجيوش الآشورية أن تدخل التنويع في تكتيكها طبقاً للمناسبات فقد كانوا يشتركون في حرب المصائب في الجبال، وفي معارك نظامية في الأراضي المفتوحة، وفي حصار أي مدينة ولديا روايات آشورية عن كل هذه الأنواع من القتال، وكان أكثرها دموية تلك المعارك النظامية بين جيشين في ميدان مفتوح ويصف سحاريب إحدى هذه المعارك عندما صدّ جيشه الجيش العيلامي الفازي عن نهر دجلة عام (٦٩١ ق. م).

((لقد أتوا وكانهم أسراب الجراد في الربيع، وكانوا يرغبون أن أشترك في معركة معهم، وقد كان الفيلار الذي يخرج من تحت أقدامهم يعطي وجه السماء وكانه العاصفة القادمة في طقس بارم قاسٍ وقد رثبوا أنفسهم في نظام المعركة ضدي في (حائومي) على صفة نهر دجلة، وقد فعلوا طريقي لياه الشرب واستمدوا للمعركة (ولقد صلى سحاريب إلى الآلهة لكسب المعركة ولهم ذرعه، وركب عربته الحربية وبادر إلى العمل).

ويأمر من آشور الإله السيد الأعظم اندفعت على العدو وكابي عاصفة، ولقد هزمتهم وأرجمتهم القهقري، ولقد أظفنت جنود العدو بالرماح والسهم.

ولقد قطعت حناجر جيش هومان - أنداشا القائد الأعلى لجيوش ملك عيلام بالإضافة إلى نبلائه وبدأت خيولي المعنادة على القتال تنعمس في دمانهم المتفجرة وكانها تحوص في مهر، وقد امتلأت دواليب عربتي الحربية بالدم والقادورات.

وقد ملأت السهل بجثثهم وجثث محاربيهم كما يمثل بالأعشاب، وكان هناك عربات مع حيولهم قد دُبح ركبها حالاً وصلوا إلى ميدان القتال، وهكذا تحررت الخيول، وبدأت الخيول بالرجوع والتحرك في جميع الجهات إلى مسافات تبلغ ساعتين مزدوجتين (حتى عشرة أميال).

وبالنسبة لشيوخ الكلدانيين لقد ساد الذعر من هجومي عليهم وكناني
شيطان، ولهذا فقد هجروا خيلهم وهربوا حفاظاً على حياتهم، وداسوا على جثث
جنودهم وهم يهربون وفي لحظة ذعرهم من شدة خوفهم راحوا يبولون ويتغوطون في
عرياتهم)).

ولقد ادعى سنحاريب أن انهزام الأعداء كان كاملاً بحيث خسروا 150000
رجل، وإذا اعتبرنا أن هذا العدد فيه مبالغة كبيرة وقسمنا العدد على عشرة فإن
الخسائر تظل جسيمة بالمسبة للمركة دامت بضع ساعات.

كانت المعركة التي ذكرها سنحاريب قد اشترك فيها راسكيو العربات
والمشاة بشكل كثيف ويمتلح والده سرجون معركته كسبها من طريق
الفرمان، وقد وقعت في جبال شمال عربي إيران، فقد تراجع (روتسا) ملك أورارتو
مع حلفه الرئيس لاستفراج سرجون حتى (وذلك حسب رأي سرجون) امتدت
مواصلاته إلى نقطة انحصمت فيها معنويات جنوده وأصبح من الصعب عليه
السيطرة على جنوده كلهم، وعند ذلك أرسل (روتسا) رسولا (وذلك تحدياً منه لي)
طلب منه أن يقترب ويشارك في القتال.

وعندها بدأ سرجون يصلي للإله آشور ولقد كان له أسلابه، وهنا نجد أن
رجل التكتيك الألماني الشهير كلاويفتش يشير إلى ذلك في كتابه عن الحرب
ككما يلي:

يا لها من أراضٍ جبلية غير مواتية بالمسبة للمركة الفاصلة، وعن المقاومة
الهائلة التي تقدمها مجموعات صغيرة من الجنود في أرضٍ جبلية يصبح الرأي العام
متأثراً بأن جميع الدفاعات الحيلية قوية للغاية، إن الوصول إلى ملجأ دفاعي في
بلاد جبلية عند حدوث معركة فاصلة صعب جداً، لذلك فإننا نصبح أي قائد وقع
في مثل هذا المأزق أن يتجنب مثل هذه المعارك بقدر الإمكان.

وبعكم (رويا) فقد أدرك سرجون الوضع التكتيكي وقد انتهز الفرصة
التي سمحت له ويفضّل النظر عن المشكلات بالنسبة لجنوده فقد قاد حرسه
الشخصي من الخيالة، كانت هذه تحت قيادة صابط ذكر اسمه اندفع إلى وسط

المعركة وكان موجوداً في عربة خفيفة ربما كان ذلك بسبب البروتكول وقد كسر هجوم سرجون خط العدو واستولى على مقر القيادة ووصل إلى معسكر (روتسا) نفسه حيث عطلوا عربات (روتسا) بقذخها بالسهم وقذف الخيول بالسهم، وعندما ترك ملك أورارتو عربته الحربية وهرب ودرل عن ظهر حصان ولكن لم يكن حصاناً بل فرساً.

وهذا أشار هره الآشوريين الذين كانوا يعتمدون أن الملك ينبغي أن يمتطي حصاناً فعلاً، وقد حدثت منبحة عظيمة في صفوف الجيش الأورارتي وهرب الباقون بشكل فوضوي إلى الجبال.

لقد كانت الإجراءات التأديبية للجيش الآشوري في أراضي الأعداء غير منحصرة في الأعمال العسكرية فحسب، فقد كانت إحدى الأعمال التي يؤسف لها هي قطع الأشجار التي كان يشار إليها وكأنها إجراءات تأديبية

وكذلك قطع أشجار النخيل والكروم أو غابات أو أشجار معروسة حول الأمكنة المهجورة، وقد حدثت مناسبات ليست بالقليلة عندما حُرِّب الجيش الآشوري عن عمد مناطق بكاملها، مثلاً يستجل سرجون بأسلوب مرتب يتكرر مراراً مع بعض تغيرات طميفة هكذا يلي:

لقد هُزِّمت قرية أنباشتانيا ومعهما سبع عشرة قرية حولها وسويت بها الأرض، ولقد أشعلت النار في الموارض الخشبية الطويلة في مقوف موارلهم واحترقت معاصيلهم الرراعية وتبنهم، ولقد فتحت أبواب أهرانهم المحكومة بالدر، وأمرت الجنود بأكل أكواز الدرة، وقد أرميت الحيوانات التي كانت في المعسكر إلى مراعيهم وكأنها الجراد المتشجر، وقد نزعوا العشب الذي كانت تعتمد عليه المدينة، وقد خربت جميع مروجهم.

وفي مكان آخر يصف سرجون تحريره لنظام الأتية الذي كان يجلب الأردهار في إحدى المناطق.

وكان هناك شكل آخر من أشكال الحروب الآشورية وهو عملية الحصار وكانت هذه العملية في غاية التنظيم.

وكان أول مستلزمات هذا العمل هو عمليات النقل الفعالة التي تلزم لجلب آلات الحصار مثلاً منجنيقات القصف المدرعة ذات المجلات التي ترى صورها في اللوحات المحسمة.

أما السلاالم التي تتكون من قوالب من الطين والحجر مع هياكل خشبية قد كانت تبني لتحصن تلك الآلات من الوقوف أمام النقاط المرتفعة من الأسوار ، أما جنود الهندسة العسكرية فقد كانوا يحصرون الأنفاق لهدم أقسام من الأسوار وكان جنود المشاة يتسلقون على السلاالم ويتسلقون الأسوار والأماكن الضيقة بالنسبة لأحوال الدفاعية.

وقد كان وابل من السهام وحجارة المقاليح يهزم فوق رؤوس المدافعين من الرماة ورماة المقاليح.

وكان هناك سلاح آخر مستعمل وهو النار ، وقد استعملت طريقة ربما أثبتت في منطقة ما بين النهرين القديمة والتي ذكرت في مراجع من النصوص السامرية التي تذكر بيران القصب التي تُقوّس التحصينات وذلك بحكمس حجارة السور بتسلط النار عليه وتكون الحرارة شديدة جداً ، ولكن ربما كانت هذه الطريقة فعالة بالنسبة لأسوار هريفة وليس لديها أي شهادة تثبت أن الآشوريين قد استعملوا هذه الطريقة من الإجراءات.

وإن ما كانوا يفعلونه هو إشعال النار في المدينة بأكملها وكانت إحدى الوسائل لعمل ذلك هو إطلاق سهام تحمل جمرأ ملتهباً وكان المدافعون يرمون المحاصرين بالنار أيضاً وقد كان البترول الخام مُستعملاً لأغراض عسكرية (لا سيما وإن هناك كثيراً من النقاط التي كان يحرج منها البترول بشكل جرمي في منطقة الشرق الأدنى) وقد استعملت هذه الطريقة في أحوال خاصة نمرقها من قبل المدافعين الذين كانوا يحاولون تخريب المنجنيقات والسلاالم التابعة للمحاصرين الآشوريين.

وهنا نرى أسمر جدون يصف ما حدث.

وبينما أتجول بشكل المتصر في هذه المنطقة كان هناك سلم قد نصبته مند
.. في مدينة (أوبيوم) وفي هدوء الليل صبوا البترول على ذلك السلم وأشعلوا النار
فيه، وبناءً على أوامر مردوخ ملك الآلهة هبت الريح الشمالية وهي التسيم العليل
التابع لصيد الآلهة وحولت ألسنة اللهب التابعة لإله النار نحو مدينة أوبيوم ولم تحرق
هذه النار الملال بل أحترقت سور المدينة وحولته إلى رماد.

وبينما كانت تجري عمليات الحصار كان الجيش الأشوري يبني معسكراً
محصناً خارج المدينة يقصد منه أن ترتاح الجيود فيه.

ونحن نرى في النقوش النافرة مشاهد تظهر الخيام المجهزة بالمروشات وبحر
نرى عملية إعداد وجبات الطعام وبرى عملية سقي الخيول بالماء وعملية سياسة
الخيول وقد فُسر هذا المشهد بأنه صورة جنود حارحين للاستحمام وهم لا يرتدون
ملابسهم العسكرية وهم جالسون في حفلة مع النساء اللواتي كنَّ يُبغْنَ الجيش
في معسكراته، ولكن الأكثر احتمالاً هو أن هذه الجماعة كانت تتألف من
بعض الأسرى وهم تحت الحراسة.

وبينما كانت عمليات الحصار تجري كانت حلقة من الحراس الأشوريين
المنتشرين حول المدينة المحاصرة تحاول أن تمنع المدافعين من تلقي المؤن. وكانت
النتيجة المحتومة هي أنه إذا كانت المعينة قوية جداً بحيث لا يمكن احتلالها
بالقوة إلا أنها سوف تسقط بسبب المجاعة والجوع.

وكانت إحدى الصفات المروعة بالنسبة لقضايا الحصار هي أكل لحوم
البشر الأمر الذي كانت الحكايات المسمارية تشير إليه، وكذلك في التوراة،
ويصف آشور بانيبال بشكل يثير الازمئزاز نتائج حصاره لمدينة بابل وهو يقول لقد
حل بهم الجوع ويسبب جوعهم فقد أكلوا لحوم أبنائهم وبساتهم وقد مضوا
الأحرمة الجلدية

معاملة الأسرى

بعد أن تسقط إحدى مدن الأعداء فقد كانت قصية معاملة الأسرى تختلف بالنسبة للظروف، وهنا تبرز مسألة المظالمات التي كانت ترتكب وهذه تتطلب شيئاً من المرافعة نظراً لأن الآشوريين قد لصقت بهم أسماء وأوصاف سيئة على هذا الصعيد، ولقد عالجت هذه الموضوع أيضاً ولكنّه عرضة لتوضيحات أكثر.

وعندما يسمع المرء ما سجله آشور ناصر بعل بنفسه عن قائلده، فليس هنالك مجال للشك أنه من الممكن اتهام الآشوريين بممارسة القضايات وما هو يكتب واصفاً نتائج إحدى معاركه:

((لقد قتلت ٢٠٠٠ جندي من جيودهم المقاتلين، وقد أحرقت كثيراً من الأسرى الذين أسرتهم منهم بالقتار، وأبقيت الكثير منهم أحياء وقد قطعت أيادي بعضاً منهم حتى الرسخ وقطعت أنوف آخرين وأذابهم وأصابهم، وقد سمّلت عيون كثير من الجنود وقد أحرقت شبابهم وشاباتهم حتى الموت.))

وعند احتلال مدينة أخرى كتب يقول:

((لقد كُومت كومة من الجثث أمام بوابة المدينة وقد سلخت جلود النبلاء من الذين تمردوا وقد نشرت جلودهم على أعمدة، وقد سلّخت جلود الكثيرين من أهل البلاد ونشرت جلودهم على الأسوار.))

إن مثل هذه الأحبار لا تسبب لنا أي ارتياح ومع ذلك ينبغي أن ننظر إلى هذه المشاهد ضمن منظور الحروب القديمة

لقد مارس معظم ملوك آشور ابتداء من آشور ناصر بعل فصاعداً سياسة توسعية ولعكس المعاملة المتوحشة من النوع الذي راياه في المقتطعات السابقة لم تواجه في كل الأحوال بشعكل من أشكال عدم التمييز بين المدن أو المناطق خصوصاً تلك التي انصمّت إلى التلك الآشوري حديثاً وتلك التي قامت بتمردات سابقة

والحقيقة أنه في حالة أولئك الذين كانوا من الفئة الثانية أي: الذين أظهروا بعض التمردات هم الذين تعرضوا لمثل تلك العقوبات التي استعملت فيها تلك البربرية والمنف للسكان الملوك على أمرهم.

وإن الحادثين اللذين ذكرناهما آنفاً هما حادثان متعلقان بحالتي تمرد من أكبر التمردات التي جرت ضد الدولة الآشورية.

وقد استعملت إحدهما تمرداً قام به المستوطنون الآشوريون الذين حاولوا الاستيلاء على قاعدة عسكرية مهمة على مدينة منخفضة لبحر الخزن.

أما الحادثة الأخرى فتعود إلى تمرد في مدينة تحكمها دولة آشور حكماً مباشراً وقد قُتل الحاكم الآشوري هناك وحلب رجل آرامي ونصب ملكاً، وكان هذا تابعاً للدولة الآرامية المعادية لآشور

وفي أمكنة أخرى ذكرت في حوليات آشور ناصر بعل كان هنا رواية عن عملية عسكرية جرت بقصد الاحتلال وليس بقصد قمع التمرد ولذلك لا نجد في هذه العملية أي ذكر لأعمال القتل العظيمة الجماعية، ولم يحدث سوى أخذ بعض الأسرى دون الإشارة إلى إعدامات أو تشويهات.

إن أي شخص قد غسل دماغه بروح الاعتقاد بأن الآشوريين كانوا ساديين دوماً ينبغي على هذا الشخص أن يلقي نظرة على ثقافتنا التي نود أن نشرحها بالافتقار النائي الذي أحدثناه من حملة **Financial Tiner** فانتا نشال تايني وذلك من برنامج مخصص للأطمال والتمريون في عام ١٩٧٨م والبرامج بقول.

(لا أحد سوف يأخذ روحه سواي سوف أسلخ الجلد عن جسمه الحي وأصعبه على جسمي كأنه عبادة).

إن مثل هذه الأعمال العظيمة كالتى حدثت في آشور لم تكن مظهراً من المظاهر السائدة بل عبارة عن أعمال تأديبية معتمدة قد أمرت بها السلطات العسكرية في الحكومة الآشورية المتمثلة بالملك وليس لدينا أي إثبات عن حالة

وقعت فيها أعمال فظيعة اقترفها أفراد من الجيش الآشوري كفضيحة تتجلى فيها السادية المجردة.

حقاً لقد كان هناك بعض المشاهد على الألواح والنقوش النافذة بدت فيها أعمال بربرية (مثلاً سلخ الجلود) بالنسبة للأمري، ولكن هناك دلالات بأن هذه الأعمال قد ارتكبت بحق زعماء التمردات ولكن بأمر من الملك ولم تكن أعمالاً عشوائية بربرية ارتكبتها أشعاص بمصردهم بتشكيل اعتباراتي قام بها جنود عاديون.

حقاً كان هناك بعض الدلالات عن إصرار الملك على تطبيق النظام بصرامة بالنسبة لمعاملة أسرى الحرب، وهناك رسالة ملكية موجهة إلى أحد الولاة الآشوريين تتعلق بتأمين التموين لولاة الأسرى ويحذر الملك هذا الموظف بقوله: ((يبغي الانكون مهملاً وإلا هابك سوف تموت)).

إن أفضل مصير عادي للأسرى عند التقلب على منطقة أو مدينة متمردة كان الترحيل أو النفي، وإن بذل العلية بهؤلاء المرحلين هو أمر نموذجي، مع أن أساس هذه المعاملة ربما كان لأعراض عملية أكثر منها إنسانية، فقد أصبح الأسرى جزءاً من الموارد المتاحة في الإمبراطورية الآشورية، وقد كانت الحملات الآشورية ترعب أن يصل هؤلاء إلى الأماكن المقصودة وهم في صحة جيدة وأن يكونوا ذوي فائدة هناك.

ولقد اتخذت إجراءات إدارية حازمة لهذا الغرض، وقد سمعنا عن ترهيبات مصصلة لتنفيذ هؤلاء المهجرين في طريقهم إلى الأماكن التي يقصدونها، وقد اهتمت الدولة حتى بتأمين أحذية لهم وهم في طريق سيرهم.

وفي إحدى الحالات حصلت مساعدة على الزواج، ونحن نرى من ألواح النقوش المافرة أن بعض العريبات كانت متوهرة لمقل السماء والأطمال أو ركويهم على الحمير أو ظهور الحمير وهما دلالات تشير إلى ترحيل العائلات وهذه الدلالات واردة في النصوص المسمارية التي تدل على أن عائلات بكاملها ومجتمعات كاملة أيضاً قد رحلت بتشكيل مجموعات.

لقد كان هدف الترحيل لا ينعصر في قضية التأديب بقدر ما هو وارد لمصلحة الإمبراطورية الآشورية ولمصلحة الأمن، فقد استقر بعض المرحلين في المدن حيث شكّلوا احتياطياً من اليد العاملة لتمييز مشاريع البناء فضلاً عن تأمين مصدر من مصادر الحرفيين المهرة، وقد ذهب آخرون إلى مناطق غير مأهولة وذلك لزيادة مساحة الأراضي الزراعية وزيادة المنتجات الزراعية، وبالتالي إحراز الازدهار الاقتصادي.

زد على ذلك فقد وصل آخرون لإعادة إعمار بعض مناطق في الإمبراطورية كانت قد أخلّيت من السكان بسبب محركات سابقة أو حالات من العصيان والتمرد، وهناك مثال ثوراتي معروف وهو قصة السامرة في فلسطين التي أصبحت خالية من السكان لدرجة أن سكنتها الأسود وكانت هذه الأسود مشكلة

ويبدو أن بعض المهجرين تحت الحكم الآشوري كانوا يستقرون في بيوت جديدة، ويجدر بالذكر أن الإسرانيين الذين سباهم الآشوريون ونقلوا من السامرة إلى منطقة نهر الحابور في شمال غرب منطقة ما بين النهرين وإلى شمال غرب إيران قد انضموا إلى المنطقة تماماً نظراً لأننا لم نعد نسمع عنهم شيئاً، ولكن حدث العكس مع اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر وأسكنهم في بابل فقد احتفظوا بحس الانتماء لبلدنا بحيث رجع قسم كبير منهم إلى اورشليم.

والحقيقة أن الصرق ربما يعود إلى أن الآشوريين كانوا يتمسكون بهجير السكّان إلى أماكن مشابهة للأماكن التي كانوا فيها، فقد عمد الرجل الآشوري ربشاكاح في خطابه على تحريض أهالي اورشليم المحاصرين على الاستسلام وأخبرهم بأنه سوف يقلّهم إلى بلاد تشبه بلادهم (٢ ملوك ١٨ - ٢٢)

البواعث الآشورية: الحوافز والإنجازات

لقد ترك الآشوريون انطباعات دامعة في تاريخ العالم بحيث إنه وبعد أكثر من ألفي عام لمسقوطهم واحتقائهم النهائي، فإنهم استطاعوا أن يثيروا احكاماً عاطفية موجّهة ضدّ برعهم الاستبدادية وهظاعاتهم (التي ربما كان مبالغ فيها).
كيف كان معاصروهم يظنون إليهم؟

لقد أصدر النبي أشعيا الذي عاش دروة المظوة الآشورية، حكمه عليهم ولعكس الإدانة التي أصدرها لم تكن بسبب وحشيتهم واستبدادهم، فهو في الحقيقة يهرو هذا ويعتبره جزءاً من المشيئة الإلهية لعقاب اليهود.

آلا يا آشور يا عصا غضبي

وعصا سخطي

لقد أرسلتك ضدّ أمة لا تخاف الله

وصد الشهب الذي غضبت عليه وأمرته

أن ينهب ويحصل على الفنائم

ويدوس عليهم كما يدوس على الوحل في الشوارع (أشعيا ١٠. ٥-٦)

وبالنسبة لأشعيا، فقد كان ديب آشور مختلفاً عن مجرد الاستبداد، بل إنه التكبر وعدم الاعتراف بمصدر وينبوع القوة العظمى وهو يهوء،

إن يهوء سوف يعاقب ملك آشور على تكبره وتفاخره وكبريائه البهيمية لأنه يقول

((بقوة يدي قد فعلت ذلك وبقوة حكمتي لأنني أنا مصدر الحكمة (أشعيا

١٢-١٠ ١٣)

هذا وإن المباهة والتكبر ما هي إلا استخلاص من عبارة عبرية وهي شجرة عظمة القلب ((وهي تدل على اعتبار عظمة المرء دامة من عظمة قلبه من الداخل،

وإن ما كان أشعيا يدينه هو الاعتداد بالنفس الذي كان يطفى على آشور، وهذه صفة غير مرغوب فيها في إسرائيل، وينبغي أن تكون للرب وحده.

تقد كانت الثقة بالنفس صفة من صفات ملوك آشور في الألف الأول، ومع أن هذه الثقة كانت ملاحظة بوضوح في الحوليات الملكية حيث يتباهى الملوك بحرية بصفتهم الشخصية، وبمجزاتهم الوطنية لأنها تظهر أيضاً بواحي أخرى ولاسيما في كثير من المشاهد الحربية المرسومة على النقوش الجدارية الناهرة.

ولم يكن في أي مكان تساؤل أو شك بما كان يفعله الآشوريون أو لماذا أو كيف يفعلون ذلك، ولم تكن هناك أي إشارة أو مرجع يعزو مجاح الآشوريين إلى دعم العناية الإلهية.

حقاً إنه كان هناك شيء في القرص المجمع (الذي يمثل الإله آشور وقوى أخرى إلهية) يظهر عالياً في السماء فوق صورة الملك، ولكن ليس هناك شيء في هذا يشير بأي نقص في ثقة الملوك الآشوريين بأنفسهم ويقواهم.

والحقيقة أنه في مثل هذه المشاهد ليس هناك من دلالة أبداً على خوف الملك من الإله الذي فوقه، بل بالعكس كان الإله هو الذي يبدي الخوف من الملك، نظراً لأن جميع أعمال الإله كانت تربيداً لأعمال الملك (مثلاً تصويب القوس أو ما شابه ذلك).

لقد كان الآشوريون يعلمون أنهم كانوا على حق، وهكذا فقد اعتبروا أنه من المسلمات أن تكون القوى الإلهية العظمى دائماً داعمة ومؤيدة لمصالح الآشوريين.

هناك بعض الألواح الناهرة المحتوية على مظاهر طفوسية، وفي هذه المظاهر يظهر الملك وكأنه قد اتصل اتصالاً مباشراً بالقوى الإلهية، ومع ذلك لم يكن هناك أي انتقام من قيمة الملك وهو واقف أمام الإله.

مثلاً - عندما يقف آشور ناصباً بل أمام الشجرة المقدسة فإن الملك كان بعيداً جداً عن إظهار أو الاعتراف بوجود أي مسافة ما بين الآشوريين والبشر وبين الإله،

بل بالعكس نرى للملك مرفوعاً إلى مستوى الإله عن طريق القوى السرية التي كان الحكاثان الفيبيان يوجهانه إليها ، وبالاستفادة من الشجرة المقدسة

والحقيقة أنه وحيث نرى الملك واقفاً أمام الإله نرى أن الثقة بالنفس لا تزال موجودة ، ففي الرسوم الجدارية التي تمثل الإله سرجون واقفاً أمام الإله آشور أنه الملك وليس الاله هو الواقف في الوسط ، وتشير الصورة أنه ليس من واجب الملك أن يظهر الخشوع أمام الإله ، بل إنه من وظيفة الإله أن يقوي ويدعم الملك.

إن نوع الموقف وهو ثقة الآشوريين المطلقة بقواهم البشرية ، هذه الحالة مرتبطة بضعف سلطة الدين التقليدية المؤسسة على المواقف التي ترجع إلى الألف الثالث.

فالمواقف القديمة تقص وتقول: إن الآلهة هي التي خلقت نظام هذا العالم ، وهذا كان الأرم وحيود ثقل اكتسبته القوى الرجعية المحافظة ، وهذا أدى إلى التأثير على أي نوع من التغيير أو التقدم.

فالآشوريون لم يصكروا تلك المعتقدات علناً ، ولكن في بلاد آشور وفي الألف الأول بدأنا نلمس دلالات على شوء وجهة نظر مختلفة أو طبعاً للأفكار القديمة كان العالم ساكناً أو بالأحرى دوري الحركة أي أنه إذا تغيرت الأشياء فإنها تتغير ضمن إطار متكرر ، فالنظرة الجديدة للحياة وللعالم تتلخص أن الآلهة كان لديها محط في التاريخ ، وأن آشور هي المامل الرئيسي في هذا المخطط.

وكان العصر الرئيسي في هذا المخطط عاملاً دينياً سياسياً لكونه يمثل التوسع المستمر وسيطرة آشور وهي تحت الإله القومي آشور ، ولكن مجرد الاعتقاد وإمكانية التطور داخل التاريخ كان يعني إمكانية التعبير بصورة عامة فالأشكال الملوطة بالحياة لم تعد محددة بالطرق القديمة.

وطبقاً لذلك بدأ الآشوريون يقللون الأفكار الجديدة ، وهكذا أو كما رأينا فقد بدأ الملوك الآشوريون يتبنون الأساليب المعمارية الجديدة من الخارج فقد بدأوا يفتشون على مصادر جديدة للخشب والحجر وقد شجعوا المملكات الجديدة في صنع المعادن ، وشجعوا استعمال المواد الحديدية ، مثل القطن ، واستخدموا الحرفيين المهرة كمحاثي العاج وبناء السفن وقد شجعوا هؤلاء على تقديم مهارات جديدة إلى

آشور تحت الحماية الملكية للفقهاء الممارسة بأشكال جديدة من الفنون وذلك بالاختراع وبمدها بتطوير الألواح الناعمة ووضعها أسساً للفن الروائي.

ولقد شجع الملوك الآشوريون وجلبوا الألعاب الأصبية ومن ثم عرف ذلك من ألواح اللعب المعقدة التي تتميز بوجود ثقوب صغيرة وورود وذلك أثناء حكم أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩).

وقد أنت هذه اللعبة من مصر، فقد شوهدت هناك قبل قرون من جلبها إلى آشور، وكان أسرحدون أول فاتح لمصر ومن المؤكد أنه رأى اللعبة عندما كان هناك وأحبها، وكانت الألواح التي جلبت إلى آشور من أهل مصر ومن حجارة مصرية، ويقول تفلات بلاسر الأول. إنه عندما كان في الخارج أخذ بمص المواضع النادرة التي لا توجد في بلاده وزرعها في حدائق آشور وقد جلب سنجاريب بنة القطن.

وجلب أحد الولاة تربية النحل من بلاد أجنبية وسجل هذه الحقيقة بفهر، وكل هذه البدع تظهر أن الآشوريين كانوا راعيين في النظر حولهم بعقل متفتح وأن يتبنوا أفكاراً جديدة، وأن يقلوا عن وعي وإرادة أنه من الممكن تمثيل الإطار القديم للأفكار والأعمال التي وصلت إليهم من الألف الثالث ق م.

إن كان الأمثلة المعطاة تعود لجميع الإبداعات التي استعادت منها آشور كثيراً، ولكن اهتمام الآشوريين بالمالم حولهم تقدم إلى أبعد من ذلك.

إذا جازاً توسعت آفاقهم الجغرافية فقد توسعت آفاقهم الذهنية أيضاً، وقد اهتموا بطرق الحياة المختلفة عند بعض الشعوب التي قابلوها

ونجد بعض المراسلين (ربما كان بابلياً في أصله المرقسي بل كان آشورياً بمعكس وجهة النظر الآشورية) يحبر الملك عن بعض القبائل التي صادفها أنهم كانوا يعيشون على الخبز المسوع من نبات (الموروتو) ويذوق النفيير والبشرة تأكله الحمير الوحشية.

وقد علق آشور بانيبال على إحدى القبائل الجبلية التي كانت ترسل الجorie إلى الرجال هناك كانوا يقصون شعورهم كالتساء.

ولقد أعجب أسرحدون بطريقة الحياة التي يعيشها المبيقيون الذين وصفهم بأنهم الملوك الذين يسكنون البحر وأن تحصينات أسوارهم هي البحر والأمواج هي جدرانهم الخارجية، وهم الذين يركبون السفينة وكانها عربة وبدلاً من الخيول يستعملون المجاذيف.

ولقد رأينا من قبل الإعجاب الذي أداه الملك أسرحدون بعملية تدريب الخيول التي كان يقوم بها بعض الشعوب في ما وراء زاغروس.

ولقد أظهر الآشوريون اهتماماً جاداً بالطبيعة أي - كلا المياطر وحياة الحيوانات البرية ولقد ذكرنا أيضاً حساسيتهم تجاه المياطر الجميلة، أما بالنسبة للحياة البرية فمع أن الملوك الآشوريين قد تلقوا قسماً كبيراً منها فقد أنشأ بعضهم حدائق الحيوان في بلادهم وفي عواصمهم وهذه ما تدعى حدائق الصيد.

وفي هذا السياق كننا قد اشرنا إلى ثلاث بهلاسر الأول ويحمرنا آشور ناصر بعل في القرن التاسع ما يلي:

لقد اصطدت الحيوانات ومسكنها وهي أحياء، ولقد حُمِئت في العاصمة كالكاح قطعاناً من الثيران الوحشية والميلة والأسود والنعام ودككور وإناث القروود، والحمر الوحشية والغزلان والذئبة والنمور ومن جميع أنواع الحيوانات التي تكثر في السهول والجبال، وقد عرضتها على الشعب في بلادي).

ولكن ليس هناك من إثبات أن الحيوانات كانت طليقة في حدائق الصيد أم كانت محصورة في أقفاص، وقد أشار آشور ناصر بعل أن أشبال الأسود الصغار في أقفاص، ومن المحتمل أن بقية الحيوانات كانت تعامل بهذا الشكل، ومع ذلك فإنه من المؤكد أن الملك سنحاريب الذي حكم فيما بعد قد أنشأ حديقة من حدائق الصيد حول نينوى حيث حكما يروي:

((قد نمت اجمات القصب بسرعة وبمت طيور السماء اعشاشها وولدت
الخماير البرية والوحوش صفارها بكمية وافرة.))

وتشير اهتمامات الآشوريين بالعالم حولهم ورغبتهم بقبول الأفكار الجديدة
على وجود حماس وحيوية ذهنية توازي أو ربما تفدي حماسهم العسكري وبدعهم
الإدارية ، وكان لكثير مما عملوه تحت تأثير هذه البواعث نتائج مهمة في
التطورات التي حدثت بعد ذلك في الشرق الأدنى ، وهكذا فقد اكتشفت مصادر
جديدة من الخامات والحجارة والخشب ، وانتشرت التقنيات ، ولقد بدأت بمص
الوسائل الجديدة في الحكم ذات الأهمية القصوى بالنسبة للشرق الأدنى فيما بعد
تحت حكم الآشوريين.

مثلاً نظام الطرق الإمبراطوري بالإضافة إلى نظام بريدي سريع لتأمين
المواصلات بين حكومات الولايات والمملك ، وينبغي أن يقال إن بقاء تلك التجم التي
نقلت إلى جميع أنحاء العالم عن طريق الحضارة المومرية هذا البقاء مدين جداً
لقوة الآشوريين العسكرية.

وابتداء من زمن الآراميين والموشكي إنشاء حكم تفلات بهلاسر الأول حتى
زمن السبانيين في نهاية الإمبراطورية الآشورية ، كان هناك وبصورة متكررة
تهديدات من هجرات بربرية جديدة إلى منطقة ما بين النهرين ، حيث لم يستطع
الآشوريون صد هذه الشعوب ولكن حيث استطاعت فإن هذه الشعوب وبمصل
ردود الفعل الآشورية فقد جلبت هذه الشعوب المهاجرة لتقرب من عادات شعوب ما
بين النهرين.

ونحن نلاحظ هذا وبصورة خاصة في حالة الميديين والعرب الذين قابلناهم
لأول مرة وهم بشكل بدو رحل في القرن التاسع ق.م.

وقد برهن هؤلاء أنهم تلاميذ أكفاء لأسباطهم الآشوريين ، لدرجة أنه بعد
هزم من سقوط آشور ظهرت إمبراطورية فارسية حكمت منطقة ما بين النهرين
وبقية أقطار من الشرق الأدنى دون إجراء أي انقطاع في النظام المذكور أعلاه.

ولكن ربما كان قد أتى إسهام الآشوريين في التاريخ العالمي كنتيجة لواحد من الأشياء الأكثر بُغْضاً وكراهية في الفكر الحديث، وهذا هو تهجير وإجلاء الشعوب المهجورة، فقد كان عند الناس الذين تأثروا بعملية التهجير كبيراً وهماً، ولقد قُدِّرَ أنه في أثناء القرون الثلاثة الأخيرة من عصر الإمبراطورية العارسية بلغ هذا التهجير حوالي أربعة أو خمسة ملايين وقد كانت النتائج طويلة الأمد لهذا التهجير مؤثرة على عملية الاختلاط العرقي فقد كانت الاعتبارات الجغرافية من جبال وأسهار وصحاري والمضايق إلى العوامل التاريخية التي عملت على تقسيم الشرق الأدنى إلى عدة دويلات منفصلة، والتي تطورت في حو من العزلة ويرى الإنسان مثلاً ممتازاً لهذا الذي في فلسطين حيث وجدت عدة مجتمعات من الفلسطينيين والإسرائيليين وشعب يهودا والمزايين والعموريين وشعب صيدوم وعدة شعوب قبلية بقيت متميزة لوقت طويل.

ولقد كانت سياسة الآشوريين المتمثلة في التهجير هي التي عملت على كسر هذه العزلة، وقد كان الإسرائيليون مثلاً على ذلك وعندما نقل هؤلاء إلى صيدا ومطقة نهر الخابور عندها احتضت لديهم النُصرة الشخصية الوطنية وقد بقوا هناك ولعكهم اندمجوا

وفي بعض المواقف الكبرى في الدولة الآشورية نصمها سكان الآشوريين المرفقيون أقلية وذلك بسبب مجيء شعوب من عروق مختلفة واستقرارهم هناك ومماثلتهم كمواطنين متساوين رغم اختلاف أسلافهم وأجدادهم، ومع استمرار عملية إعادة الإسكان المميدة فوق كامل المنطقة خلال حوالي ثلاثة قرون فقد حدثت زيادة لا بأس فيها في الاندماج والاختلاط العرقي وإضفاف الميزة العرقية الاستثنائية (بإستثناء الأماكن التي حافظت على العزلة فيها عن طريق الوسائل الدينية كما حدث مع اليهود).

ولم تكن هذه عملية سريعة ولم تظهر نتائجها حالاً ولكنها مهدت الطريق لنمو الوحدة الثقافية في المنطقة بأكملها مما أثر على التاريخ التالي لمطقة الشرق الأوسط.

لقد تأمن وجود قاعدة للتجانس الذي مهد لدخول الثقافة الهلينية في الشرق
الأدنى بعد عهد الإسكندر الأكبر، وكانت الهلينية بدورها عاملاً مهماً في
انتشار الديانة المسيحية بسرعة عبر المنطقة، وبعد ستمائة عام انتشر الإسلام

الفصل السابع عشر

الكتابة والأدب الآشوري

إنه وبدون الوثائق المكتوبة تبقى معرفتنا عن آشور جراً ضئيلاً مما هي عليه الآن، فالبقايا الحية لأمة حضارية من هئونها وأدواتها ومفروشاتها وأساليب الدهش فيها كل هذه من الممكن أن تمرقنا بالشعوب القديمة ولكنها قاصرة عن التمرير الذي يحصل عن طريق النصوص المكتوبة

لقد اخترعت الكتابة في جنوب منطقة ما بين النهرين في زمن قصير قبل عام ٢٠٠٠ ق.م.، وكانت أقدم أشكالها المعروفة تتألف من صور مرسومة بواسطة قسبة تكتب على قطعة من العصار الرطب المضغوط الذي كان يضغط بين كفي اليد ليتعد شكل كمنكة مسطحة

ومع مرور الزمن أصبح شكل العصار نظاماً كلوح من العصار مستطيل ذي حواف مستوية أو مدوّرة أو محدّبة قليلاً، وكان اللوح صغيراً بحجم علبة كهربيت أو بحجم كتاب من قطع الرّبع مع أنه كان بحجم قطعة الصابون.

وفي أوائل الألف الثالث تمّ رُضت هذه الإشارات لبعض التعميرات عندما بدأ الكتابة يصفطون بواسطة قسبة تسمى (قلم السّمة) وهي مقطع مثلث بدلاً من الرسم، وقد استج هذا العمل إشارات مؤلفة من خطوط وخطوط مستقيمة (مسمارية) كانت في بعض الحالات تظهر أنها متماثلة مع الأصل، وهو ذلك ولأسباب متصلة بالطريقة التي كان الكتاب يحمل بها لوح الطين والقلم فقد تحولت اتجاهات رسم العلامات إلى الحلف خلال تسعين درجة، وهكذا وصغت جميع العلامات على ظهرها وهذا أضعف صلة الوصل مع الصور الأصلية.

وفي الشكل الذي اتحدته الكتابة المسمارية أخيراً فقد كانت الكتابة تسير بشكل أفقي عبر اللوح وفي معظم الأحيان (وليس دائماً) موازية لمحورها الأفقي من اليسار إلى اليمين، وكانت الألواح الأصغر تنقش في عمود مستقل والألواح

الكبيرة في عمودين أو أكثر، وعندما كان الكاتب يصل إلى أسفل الوجه الأول
كان يقلب اللوح حول المحور الأفقي وليس العمودي أي أنه لم يكن يقلبه كما
يقلب صفحات الكتاب عندما

ونتيجة لذلك كانت الكتابة على أحد وجهي اللوحة تبدو مقلوبة بالنسبة
للكتابة على الوجه الآخر.

كانت الكتابة الأصلية بهذا الشكل تمثل الكلمات باللغة السومرية وربما
كانت اللغة السومرية تمتلك نسبة كبيرة من الكلمات ذات المقطع الواحد حين هذا
قد سمح بإحداث تطور أصبحت به إحدى العلامات المميزة لا تمثل معنى الكلمة
محسب بل اللفظ الخاص بها، وكانت الحال مثلاً كما لو رسمت صورة نملة **BEC**
وبعدها صورة ورقة شجر **LEAF** وهكذا نستعمل هاتين الصورتين لكتابة كلمة
BELEF معناها اعتقاد أو ظن.

وإن قيمة هذا التطور أن أصبح بالإمكان استعمال هذا النظام في كتابة
اللغات عدا عن اللغة السومرية، وابتداء من منتصف الألف الثالث استعمل هذا
النظام في اللغة السامية وهي الأكادية.

وكانت اللغة الآشورية إحدى لهجات هذه اللغة واللهجة الأخرى كانت
البابلية، وقد استمدت بعض الإشارات السومرية التي تدل على كلمات كاملة
تستعمل في بعض الأسلوب في اللغة الأكادية مثلاً الإشارة التي تعني ملك التي
تلفظ بشكل لوجال في السومرية كانت تستعمل ببعض المعنى في الأكادية مع
أنها كانت تلفظ بشكل (سادرو) ولعكس أصبحت إشارات كثيرة تستعمل
كمقاطع.

ونظراً لحدوث مثل هذا التطور أصبح النص الأكادي مريجاً من العلامات
التي تعني بعضها كلمات كاملة، والأخرى تعني مقاطع، وكانت نسبة وجود
كل منها تختلف حسب نوع النص وحسب الفترة الزمنية

وكانت الألواح الطينية ومع أنها كانت الوسيلة الأعم لتدوين الكتابة
المسمارية إلا أنها لم تكن الوسيلة الوحيدة، فقد كان من الممكن تدوين

الكتابة المسمارية على ألواح من الفخار مصنوعة بأشكال أخرى مثلاً الأسطوانات الموشورية أو المخروطية أو حتى (بشكل ممتاز لبعض التماويذ) نماذج من أعضاء حيوانية.

ولكن حدث تطور من نوع آخر وهو استعمال الألواح لكتابة مصنوعة من قطع خشبية مقطعة بالشمع كانت الإشارات تطبع عليها، وكان من الممكن كتابة الإشارات المسمارية عن طريق نحتها بالإبريل على حجر أو معدن، أو أن تطبع على الفخار أو أحياناً كانت الكتابة المرسومة ترسم بالألوان على سطح من السطوح، ولكن في حالات معينة كانت تعتبر مجرد إضافة إلى لوح منقوش بالطريقة العادية

وكان الفرص الأصلي الذي جعل المومريين يخترعون الكتابة حفظ السجلات والوصلات والبضائع الموجودة في المحارن، ولكن سرعان ما تطور استعمالها إلى تطبيقات أوسع، فهي أوائل الألف الثانية كانت الوثائق البابلية المكتوبة بالحمد المسماري تشمل الأساطير والقصص البطولية وأدب الحكمة (أي النصوص التي تشبه الأمثال التوراتية) والقوانين والملاحظات الفلكية والمسائل الرياضية والسجلات التاريخية وقرارات المحاكم والجداول التاريخية (أي تتابع السنوات التي يطلق على كل منها الاسم المشتق من الحوادث التي حدثت فيها) والتعليمات الزراعية، وعقود العمل، والوثائق الإدارية والنصوص المستعملة في العبادة والطقوس المستعملة لأعراس السحر، وسلسلة من التماويذ والتمازين المدرسية اللازمة للكتابة المتعززين والمعاهدات الدولية والقواميس التي يدعوها المهتمون بالتاريخ الآشوري باسم جداول المترادفات، وكذلك الترامات في قواعد اللغة المومرية، وألوف الرسائل الموجهة لأشخاص عابدين أو إلى الملوك وحتى الآلهة

ولقد ساهم الآشوريون في تراث المومريين، وكانت معظم أنواع النصوص التي وجدت في آشور وجميع الكتابات الأدبية كلها أُنشئت من بلاد بابل ولكن

كان هناك بعض الاستثناءات وكان اثنان من هذه ذات أهمية لا بأس بها بالنسبة
لمعرفتنا بالتاريخ الآشوري.

المخطوطات الآشورية الملكية

كانت المخطوطات الملكية الآشورية تمثل أشهر الأشكال الأدبية التي
تطورت في آشور وابتداءً من زمن السومريين في جنوب منطقة ما بين النهرين في
الآلف الثالث ق.م.

لقد كتب الملوك مخطوطات لها علاقة بالذئور أي. المخطوطات التي تسجل
تكرير بعض الأشياء المقدمة للإله أو تصنع لأجل الآلهة، وكانت مثل هذه
المخطوطات تتخذ أشكالاً مختلفة بسيطة أو معقدة، ولكن العنصر الأساسي
كان تحديد شخصية الملك والتعريف به وذكر الهدايا أو الأعمال الخيرية
والمناسبة التي حصل فيها الإهداء، ومع مرور الزمن حدثت تطورات قد أنتجت
أخيراً الإطار النهائي الآتي:

أ- اسم الملك، ألقابه، وعلاقته الخاصة بالآلهة.

ب- ذكر الحوادث التي تثبت النقطة الرمزية

ج- ذكر أعمال الخير؛ عادة عملية بناء.

إن العنصر (ب) يقدم الوسيلة التي يستطيع فيها الملك أن يشير إلى الأشياء
الأخرى التي قام بعملها لمروسة الآلهة، فهي آشور بعد أن تطورت الفكرة التي
مماها أن الإله آشور ادعى السيطرة على العالم أصبحت رواية حملات الملك
لمروسة الإله مناسبة لتلك النقطة

وهكذا وابتداءً من عام ٢٠٠٠ ق.م بدأ الملوك الآشوريون (وليس ملوك بابل)
يطورون هذه النقطة فأصبحت تمثل وصف ما كان الملوك يفعلونه في المجال
العسكري، وبعد قبول هذه الممارسة فقد فتح هذا إمكانات معتبرة لتمجيد الملك
لنفسه، وقد تطور هذا ليصبح شكلاً تحكلم فيه الملك بضمير المتكلم مباشرة
ويذكر كل ما عمله في المجال العسكري أثناء حكمه ويصلح للتأريخ، ويمكن

ترتيب التفاصيل بعدة طرق إما عن طريق المناطق منطقة بعد منطقة أو عاماً بعد عام.

وإن ترتيب التفاصيل بعام بعد عام من الممكن أن مدعوها حوليات إنما حدثت في آشور في زمن تغلات بيلاسر الأول (1115-1077) ولقد افترض أن هذا النوع مدين إلى الحثيين ولكن ليس هناك ما يشهد لدعم هذا الرأي عدا الحقيقة التي مصادها، أن الحثيين كانوا يملكون بصورة بشكل حوليات في هترات أقدم، ومع أننا نفكر أن هذه النصوص من هذا النوع هي نصوص تاريخية. إلا أنها كانت سابقاً لا تزال نقوشاً تعليمية تنتهي دوماً برواية مناسبة عن عمل سرى، من المادة أن يكون بناء معبد أو قصر

ومع أن هذه المخطوطات كانت مثيرة ولذيذة بالنسبة لنا، إلا أن معظم هذه المخطوطات لم يقصد بها في أول الأمر أن تكون مخصصة للبشر قطعاً أو أن يراها البشر، وذلك لأن كثيراً منها قد كتبت على أسطوانات أو مخاريط ودقت في أسس بناية يصمون عملية ترميمها بحيث لا يراها (إلا الآلة

وقد كان من المعروف أن ليس هناك من بناية دائمة البقاء وأنه فيما بعد سوف يعتمد بعض الملوك الأنقياء إلى الحمر وحتى أساسات البناية وعندها سوف يجدون المخطوطات ويقرؤونها، وكان هناك صيغة نظامية مكتوبة في نهاية كثير من المخطوطات الملكية وهي تعطي هذه المناسبة.

((في الأيام القادمة إني أوصي أي ملك من الملوك من أبنائي وأحمادي الذين أعلى الآله آشور أنه قد نصبه ليرعى البلاد والشعب، إني أوصيه أنه عندما يصبح هذا القصر قديماً وعلى وشك السقوط أن يعيد ترميمه، وأن ينظر إلى النقوش التي كتبت وتحمل اسمي وأوصيه أن يدهن هذه النقوش بالزيت وأن يريق الحمر عليها تكريماً، وأن يعيدها إلى مكانها، عند ذلك سوف يسمع الإله آشور صلاته)).

لم تكن جميع المخطوطات الملكية مدفونة تحت الأرض إلا بعضها كانت منقوشة على ألواح بافرة موصوعة فوق جدران القصور، والأحرى كانت منقوشة

على التماثيل الحجرية الملكية التي تمثل الثيران والأسود والتي كانت تحرس
بوابات المدينة.

وبعضها كانت منحوتة على الأنصاب الملكية المقامة على الحدود النائية
لملكي نخلد ذكرى الانتصارات الآشورية التي حدثت هناك، ولم تمد بعض هذه
النقوش من هذه العثات مجرد نقوش للبناء في شمسكها، بل قد تجاوزت الأطر
الأصلية وأصبحت ترمز مضمناً لثمة مآثر الملك، وربما تكون هذه
التطور قد حدثت كنتيجة لوجود هذه الأنصاب نفسها أو لوصف بعض أنشطة
الملك نظراً لأنها كانت تعتبر من الأعمال الدينية الخيرية المقامة على شرف الآلهة
لضماهي في قيمتها المعنوية بقاء معبد أو ما شابه ذلك، ونحن نرى إمكانية صحة
هذه التفسير بوضوح في بعض النقوش المنحوتة على بعض التماثيل الهائلة التي تمثل
الأسود والثيران التي أقامها آشور ناصر بل.

وكان القسم الأعظم من هذه النصوص يمثل إطرأ وتمجيداً للملك عند
قيامه بحملة حربية في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، ولكن قبل أن ينتهي
النص ينتقل الملك فجأة من الشؤون العسكرية إلى الإذعاء أن الإله نينورتا وبيرجال
قد أوكلا برعاية شؤون الحيوانات، وأمراء أن يصطاد هذه الحيوانات وسرعان
ما ينتقل النص لذكر مجموعة من الفيلة والثيران البرية والأسود التي قتلها الملك،
ويبدو أن هذا كان تكريماً مزمناً للآلهة بالنسبة لصيد الحيوانات البرية.

ومن الممكن أن نفترض أن الفرس من إقامة نصب منقوش وعرضه في مكان
عام أن يقرأ جميع البشر هذه النقوش بصورة عامة وبإسهاب، ولكن ولو وصفا
النصب في وسط مدينة آشور المكتظة فإن ذلك يظل مستحيلاً لأن المتعلمين الذين
يستطيعون القراءة هم أقلية صغيرة، ولكن حينما تنصب الأنصاب في الحدود
الشمالية والشرقية البعيدة حيث السكان جهلة بالنسبة للغة الأكادية التي كتبت
بها النقوش، ما عدا بعض الضباط في الأقليات الآشورية المبعثرة، فإن إمكانية
قراءة السكان مثل هذه النقوش تكون أقل، ولكن لو كان المقصود بهذه
النقوش تذكير الشعوب المغلوبة بمظمة آشور، فإن الملك الآشوري سيكتب هذه

النقوش بلفتين أي: الأوراثية والأكادية وذلك كما فعل أحد ملوك اورارتو في إحدى المناسبات.

وبالنسبة للنقوش النافرة المتواجدة في القصور الآشورية، فلم يطلع عليها سوى عدد من موظفي القصور، وبعض الموظفين من الروار والأجانب المرموقين.

جداول ليمو

هنالك نوع ثار من النصوص ذات بعض الأهمية التاريخية التي تطورت داخل آشور وهذه ما تدعى (جداول ليمو).

وقد كان اسم ليمو يعني: الموظف المسؤول عن إقامة المراسيم الحكومية الدينية في مدينة آشور، وقد كان الملك والموظفون الكبار في الدولة يخدمون بشكل (ليمو)، بالدور بكل منهم لمدة سنة واحدة، الملك في أول سنة من سنوات حكمه، والآخرون يتبعون ترتيبات تتم بالقرعة، وفيما بعد حسب الترتيب في المكانة في السلطة.

وقد كانت هذه السنة تعرف رسمياً باسم الليمو الذي خدم فيها، وهكذا كانت جداول الليمو تشير إلى تتابع السنوات.

هناك عدة أشكال من قوائم الليمو بعضها كان يقتصر على أسماء الموظفين، بينما كانت الأخرى تذكر الاسم وبعده أسماء الولايات التي خدم فيها الموظف بالإضافة إلى بيذه قصيرة عن الحملة التي قام بها أو أي حادث آخر

وإلى ما يلي سنذكر مقتطفاً قصيراً من القائمة التي نتحدث عن السنوات التي كانت سابقة أو لاحقة لاعتلاء الملك تقلابي بيلان العرش:

بالنسبة لليمو نقرال - ناصر	والي نقيبين	نمرود في كالكج
بالنسبة لليمو نابو يعل أشور	والي أوببوما	في الثالث عشر من أيار اعتلى تعلان بيلابر العرش ، وفي تشرين ذهب إلى منطقة بين الأنهار إلى الشمال الغربي من منطقة ما بين النهرين .
بالنسبة لليمو نابو يعل أشور	والي كالكج	إلى نامري
بالنسبة لليمو تفلان بيلامر	ملك آشور	إلى أرياد انتصر على أورارتو
بالنسبة إلى ليمو نابو دالي - ناني	والي تورنلان	إلى أرياد

هذا ، وإن القطع المتناثرة من جداول ليمو تتداخل فيما بينها ، وهذا يساعد على إعادة ترتيب أجزائها مدة (٢٦٤) عاماً متتابعاً ، ولحسن الحظ أن إحدى فقراتها تشير إلى الحادث التالي:

(في شهر سوان "حزيران" حدث كسوف الشمس)

والآن ونظراً لأننا نعلم ويشكل تقريبي السنة التي حدث فيها هذا الحادث عندها يستطيع علماء الملك أن يحسبوا بدقة في أي سنة رؤي كسوف الشمس في آشور في شهر حزيران ، ويظهر أن هذه السنة هي سنة (٧٦٢ ق.م)

هذا ، وبعد تأكيد هذه السنة يمكن تأريخ السنوات إلى (٢٦٤) في هذه السلسلة ، وبذلك يصبح التاريخ الآشوري خلال هذه الفترة دقيقاً جداً

وإن ملاحظة وتدوين الحوادث كل عام ولو كان باختصار يعطينا إطاراً تاريخياً ثميناً لتلك المرحلة التي تبلغ قرنين ونصف، ولكن ليس كلها تملأ نظراً لأنه بالنسبة لجزء من هذه الفترة قبل جداول ليمو قد حفظت أسماء الموظفين فحسب.

تقارير على التجميع

هناك قسم ثالث من النصوص المتعلقة بأشور كان غير ذي علاقة مباشرة بالتاريخ وهذه النصوص تحتص بالتقارير التجميعية التي ذكرت عنها بعض الأمثلة ولكن علم التجميع لم يكن معروفاً أبداً في بابل، ولكن في الألف الثالث بالتحديد عرفت في آشور فقط تقارير تجميعية من هذا النوع وكانت تقدم بشائر عن الحال بالنسبة لخبر ورهاية الدولة

المواحي

وحدثت بعض النصوص التي تعود إلى الألف الأول ق.م في آشور وهي تحمل رسائل تحتص بخير البلاد ولكنها تتألف من تقنيات مضطمة، فهي ليست آشورية صحيحة، نظراً لأن هناك أمثلة منها في أجزاء أخرى من الشرق الأدنى القديم وبما في ذلك التوراة ولكن بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين كانت هذه مقولة من آشور، وحتى في آشور لم تكن شائعة والنصوص التي نمنبها تحتص بالمواحي التي يصدرها أشخاص ملهمين وعادة كُنَّ نساء من اللواتي كنَّ يدعين أنها رسائل موجهة إلى الملك من أحد الآلهة وفي ما يلي مثال مما تقوله المواحي:

(لا ينبغي أن تخاف يا أسرحدون، إنه أنا الإله الذي يتحدث إليك، وقد فتحت في أعماق قلبك مثل والدتك التي وهبتك الحياة، هناك ستون إلهاً عظيمات يقفون معي لحراسكم فالإله (سن) واقف بجانبك، ليمنى، والإله شمش واقف

بجانب يدك اليمىرى، وهناك متون إلهاً آخرون يقضون حولك وهم يطوفون
الإعصار

لا تثق بأي إنسان بل وجه عينيكَ إلى جهتي انظر إلي.
أنا عشتار إلهة أربيل ولقد وهبتك عشتار الهناء
وعصما حكمت صغيراً حملتك بين يدي لا تخف بل احترمني

الرسائل

إن معظم أنواع المكتابات التي وجدت في آشور كانت مأخوذة من بابل،
وهنا هو الحال بالنسبة لمعظم النصوص التي من الممكن اعتبارها أدباً بالميمى
الضيق، أو الأمثلة التي كانت حولها من أنماط آشورية ولكنها مأخوذة من
نصوص مملوكة بشكل جيد من بابل، هذا وإن أهم الأمثلة من الفئة الأخيرة وعلى
الأقل بالنسبة للمعلومات التي يقدمونها لنا وهي الرسائل. إذ هناك بعض من هذه
الرسائل قد أتت من الفترة الآشورية القديمة (وهي تبدأ اعتباراً من الألف الثاني)
وقد وجدت بين بعض الوثائق التي أتت من ككلاء وككيا

وهناك بعض الرسائل الخاصة المرسله من عدة مواقع تعود إلى الفترة الآشورية
الوسطى (وهي نهاية الألف الثاني) وهناك مجموعات من الرسائل المرسله من ككلاء
شيرجات (آشور القديمة) ومن تل حلف (جورين القديمة) ومن نمرود (ككلاء
القديمة) ومن (ككويونيجيك) (نيموى القديمة) هذا وإن العدد الأكبر منها الذي
يبلغ حوالي ألفين أرسلت من (ككويونيجيك) بالإضافة إلى حوالي مئتين من نمرود،
ويرجع تاريخ المجموعتين الكبيرتين إلى القرن الثامن والقرن السابع ق م أما
الأخرى فهي أقدم قليلاً.

ومع أن هذه المجموعات تحتوي على بعض الرسائل الخاصة إلا أن الباقي
كانت عبارة عن مراسلات تخص الدولة، ومعظمها كان مرسلاً إلى الملك وقليل
منها مرسلاً منه، وبالنسبة إلى الرسائل من الفئة الأخيرة، فإن الأنواع التي نملكها

ينبغي أن تكون نسخاً احتفظ بها للحفظ وذلك نظراً لأن النسخ الأصلية ينبغي أن تكون قد غادرت العاصمة وأرسلت إلى الأشخاص من المعينين في الولايات.

وقد كانت الرسائل الموجهة للملك مؤلفة من هتتين إحداهما تتألف من رسائل أرسلها حراء الملك وتحتص بالمحجر والفيقيات، وقد همر هؤلاء المتعلمون كثيراً من علائم الفأل للملك وأحبروه متى يمكنه فعل بعض الأشياء ومتى لا يمكنه ذلك، نظراً لأنه كان سعيد الإيمان بالخرافات، وسوف نورد مثلاً أو مثالين يعطينا فكرة عن محتويات تلك الرسائل.

((إلى سيدي الملك من خادمك عشتر - شم - أيديس أرجو أن يكون سيدي بصحة جيدة وأرجو أن يباركك يا سيدي الملك الإله نابو والاله مردوخ يا سيدي وبخصوص معبد الإله باشوخ الذي أرسل لي سيدي الملك رسالة بخصوصه قائلاً

اختر يوماً يكون ذا فال حسن واكتب لي كيف تسير أمور بنائه.
وأما أقول إن شهر حيوان (حزيران) مناسب واليوم السابع عشر منه أيضاً مناسب، ومع ذلك فإن هذا الشهر قد انتهى وذهب وهكذا متى سوف يقدرون عملها تمام العمل؟

إن أيلول شهر جيد وهو الشهر المناسب لهذا العمل، دعهم يعملونه ودعهم يبدؤون بالعمل خلال ذلك الشهر))

وهناك رسالة تعتبر مثلاً عن الفأل الحسن وهي تعود إلى فترة تشييد ملك بابل، إذ عندما حذر الملك بالفأل السيئ أحضر للانزعاج واتخذ لقب مزارع بشكل مؤقت بينما حكم حاكم بديل بالبيان، عه، ويمدها استقال ذلك البديل وهنا نورد النصف الأول من هذه الرسالة:

((إلى سيدي المزارع من خادمك نابو - زر - ليشر أرجو أن تكون بصحة جيدة يا سيدي، وأرجو أن يباركك الإله نابو والإله مردوخ مدى السنين الطويلة.

لقد كتبت لك جميع البشائر بعدها مهما كان سواء كانت من السماء أم من الأرض أو الموالييد بشكل وحوش وقد رددتها الواحدة تلو الأخرى أمام إله الشمس، لقد جعلتهم يطلبون ويأكلون الطيور المحصورة بالنبيذ والتي غسلت بالماء ودهنت بالزيت، أما الملك البديل فقد اتخذ لنفسه نذر بلاد آشكاد).

وأما الفئة الثابتة المريحة من الرسائل فقد كانت مرسلة من الموظفين الإداريين إلى الملك، ومعظمهم من الولاة وأمري الحاميات العسكرية، وكانت هذه الرسائل تتضمن الحديث عن أي شيء مع أنها كانت تعطي تفاصيل المعابرات العسكرية أو تفاصيل عن الأعمال العسكرية، وحركات أسرى الحرب، وجميع مجموعات الخيول لمصلحة الجيش وأمور الخصومات التي تحدث بين الموظفين.

الوثائق الاقتصادية

هناك عدة أمثلة آشورية عن مثل هذه النصوص التي كانت واسعة الانتشار وحلال منطقة ما بين النهرين في جميع الأوقات، وكانت عناوينها تحتوي محتويات هصفاة تقطي عدة فئات متميزة، ولكن هناك مبرزين اثنين لاستعمالها أحدهما إن أهم ما نشر من النصوص الآشورية الجديدة من هذه العثاات قد عولج بشكل جماعي.

أما المجر الثاني فهو أن الألواح الاقتصادية العائدة لكثير من الفئات المختلفة كانت مخرونة لدى الآشوريين أنفسهم. واعتبرت جزءاً من قضايا شخصية خاصة، وتشمل أنواعاً من هذه النصوص التي تندرج تحت هذا العنوان المريض، مع أشياء أخرى كالأتي:

وثائق الأراضي التي منحها الملك، ووثائق بيع (الأراضي، والبيوت، والمبيد) وعقود الزواج واتفاقات التبنّي، وتقسيم الإرث، وعقود القروض (بيع الشعير، والمصّة، والبروز) والإيصالات عقود العمل (الحصاد، وبناء البيوت) وفرارات

المحاكم وقوائم الأجور ، وفي بعض الحالات وبعض الفترات الرسمية مكاتب وشانق العقود تحفظ من التغيرات والتبديلات بشكل غير قانوني فقد مكاتب هذه الوثائق تحفظ في ظروف من الطين والفضار ، وكان الطرف متقوياً بمحتويات العقد أو خلاصة تلك العقود ، وفي حالة نشوء خلافات كانت الظروف تكسر المكشوف عن محتوياتها

القوانين

كانت أول مجموعة من القوانين المدونة تعود إلى القرن الثامن عشر وإلى حمورابي ملك بابل ، ولكن هناك مجموعات أخرى من بابل ولديها أمثلة من آشور ، ولقد اكتشفت مجموعتان من قوانين آشور في العصر المتوسط في مدينة آشور وكانت واحدة منهما تختص بامتلاك الأراضي والأخرى تختص بالنساء

وبعكس قوانين حمورابي فلم تكن هذه مكتوبة بشكل قرارات اتحدتها الملك بل كانت عبارة عن ملاحظات حصلت مع رجال القانون (الذين كانوا يملكون ضمن إرشادات الملك) وتتضمن الممارسات القانونية التقليدية في مناطق معينة.

ومن المهم أنه لم يثر على أي آثار من هذه القوانين في مكتبة كيونيجيك الكبيرة المحتوية على نصوص تعود إلى القرن السابع ق.م ، ومن الممكن أن يكون هذا ناتجاً عن المصادفة ولكن ليس هذا محتملاً نظراً لوجود كميات هائلة من محتويات المكتبة ، وحتى التي كانت بشكل قطع مكسورة ، وكانت الملاحظات هي أنه مهما كان غرض نالك القوانين في الفترة الآشورية المتوسطة ، إلا أنها لم تكن تحدم كمجموعة كاملة مكتوبة للقوانين الوطنية التي كانت تستعمل كأساس للقرارات القانونية.

ولم تكن هذه القوانين أيضاً جزءاً نظامياً من منهاج الدراسة الذي يدرسه الكتبة ، وإلا فمن الواجب أن نطويع قد وجدنا أمثلة متأخرة عنها وهي بشكل نماذج نسخت لاستعمال الطلاب (شأنها شأن نصوص أخرى).

النصوص المنقبة من بابل مباشرة

إن الفئات التي ذكرت حتى الآن إما أنها قد تطورت في آشور أو أنها صيغت في آشور على غرار النماذج البابلية، ولكن عدا عن هذه فإن أغلبية النصوص التي وجدت في آشور كانت منقبة من بابل بشكل مباشر، وإن أكثر الأمثلة التي تريد هذا القول هي مجموعة من النصوص التي وجدت في المكتبة الملكية في بينوى التي اكتشفت عندما كشفت الحفريات عن كويونيجيك في القرن الماضي، وقد جلبت هذه النصوص إلى المتحف البريطاني، والحقيقة أنه كان هناك أكثر من مكتبة نظراً لأن بعض التذييلات ذكرت أن النصوص قد وصفت في القصر، وفي تذييلات أخرى ذكر أن النصوص تنتمي إلى مكتبة المعبد في نايو ولذلك ونظراً لأنها كانت تحت سيطرة ملك واحد وأنها جميعها الآن موجودة بشكل المجموعة نفسها في المتحف البريطاني لذلك فمن المناسب أن نعالجها كوحدة منفردة، وقد رتبها العالم الألماني كارل بيزولد **Carl Bezola** بشكل خمسة مجلدات عنوانها ((فهرس الألواح المسمارية في كويونيجيك)) ومجموعاتها موجودة في المتحف البريطاني (١٨٩٨-١٨٩٩)

وهناك عدد كبير من القطع المتناثرة لم تصبغ في أي بيان أو فهرس، وإن المجموع النهائي لهذا الفهرس يبلغ ٢٥٠٠٠ أو أكثر ولكن ونظراً لأن كثيراً منها كانت عبارة عن قطع مكسورة ولهيست ألواحاً كاملة لذلك يتناقص العدد إلى (٥٠٠٠) وفي بعض الحالات فإن ألواحاً عدة تكرّر النص ذاته ولهذا فإن العدد المقدر ينحصر ما بين ١٠٠٠-١٢٠٠ لوح.

ولقد وجدت مكتبات أصغر تحتوي على نصوص مسمارية في مواقع آشورية أخرى ولاسيما في مدينة آشور وكالاخ، وأيضاً في موقع سلطن تيب (حوزيرنيا القديمة) قرب حرّان في جنوب شرقي تركيا، ولقد نشرت أعداد كثيرة ثبتت أهميتها بالنسبة لمرقّتها بالمشؤون الطقوسية في آشور مع أنها تشير إلى مظاهر أخرى من الحياة الآشورية أيضاً.

ولذلك علينا نعتبر أن القوانين الآشورية في الفترة المتوسطة قد أتت من آشور، هذا وإن المجموعه التي وجدت في كالاح إنما تؤلف مكتبة معبد الإله بابو الذي كان يحتوي على مكتبة أيضاً نظراً لأنه كان هو إله الكتبة، ولكن هذه لم تتشر بعد، ما عدا استثناءات قليلة أما نصوص (سلطان تيب) التي نشرت في محلدين فهي تحتوي على كثير من المادة الأدبية. لم تأت جميع الألواح والقطع المتناثر المسجلة في ههرس كيونيجيك في المتحف البريطاني لم تأت من مكتبة بهوى أو من نيسوى نفسها على الإطلاق.

يد لم تشمل وسائل الحفريات في القرن التاسع عشر أي تسجيلات دقيقة حول البقعة التي وجد فيها كل لوح مسماري، وبالنسبة لموقع مساحته حوالي مائة فدان ويحتوي على عدة قصور، فليس من الضروري أن يفترض أن جميع الألواح التي وجدت قد أتت من نفس البقعة

والحقيقة أننا نعلم من محتويات الألواح أن بعض تلك الألواح التي أظهرت ضمن مجموعة كيونيجيك قد أتت من أحد المواقع غير موقع كيونيجيك، ولكن هناك مثلاً عدة ألواح يرجع تاريخها إلى قرن من الزمان بعد سقوط نينوى.

ولكن حتى ضمن الأكثرية الهائلة التي أتت بالتأكيد من كيونيجيك إلا أن هناك البعض التي ظهر أنها لمحت من مكتبة آشور بانيبال.

وإن معظم الرسائل الرسمية من المحتمل أن تكون ضمن بعض المحفوظات الرسمية الظاهرة من المكتبة، وإنه ومن المؤكد أن المكتبة الوطنية الملكية لا يمكن أن تكون مأوى تلك الوثائق الاقتصادية التي كانت تملأ قصايا مثل عقود بيع خاصة بالعبيد أو البهوت، وعقود تختص بالحصاد وما شابه ذلك، ولقد تمزقت هذه الاستنتاجات عن اكتشاف وثائق اقتصادية مشابهة في نيسوى في السبعينات من القرن العشرين (١٩٧٠م) في منطقة بعيدة عن تلك القصور

ومع ذلك فإن معظم الألواح التي وجدت في مجموعة كيونيجيك لم تكن تنتمي إلى القصر الملكي أو المكتبات الملكية في نينوى.

إلا أننا نعلم شيئاً عن أحد هذه المكتبات وهذه المعلومات أنها كانت بفصل آشور باتييال، مع أن النواة تعود إلى أسلافه الذين صنع بعضهم بعض المجموعات من الألواح.

وابتداءً من حوالي ١١٠٠ ق م لقد أسس تفلات بيلاسر الأول مكتبة في أحد المعابد في مدينة آشور قد عرف حوالي المائة من الألواح فيها من اللقيات التي وجدت هناك.

ولكن لا يشك أن مجموعة آشور بابييال في آشور هي أعظم جامع للألواح، ولقد نشرت أمشطلته المختصة ليس بذكر اسمه في نسبة كثير من الألواح التي وجدت في بنوى فحسب، بل عرفت أيضاً عن طريق إحدى الرسائل التي كانت تعالج هذه القضية، والرسالة هي كما يلي

((هذا أمر ملكي إلى كودورانو أمل أن تكون بخير، وأن تكون مسروراً في اليوم الذي يقع بصورك فيه على هذا اللوح، حذ تحت إمرتك (عدة أشخاص ساهم، والخبراء في الكتابة من بورشيبا - وهي مدينة قرب بابل) وفتش عن جميع الألواح التي سوف تجدها في البيوت، والألواح المتواجدة في (ايزيدا) وهو المعبد الرئيسي في بورشيبا والتي إليها هو بابو

وبعد ذلك تستمر الرسالة الملكية وتذكر بعض النصوص سلسلة من النصوص التي كان يرغب الملك في إيجادها، وهذه كانت تشمل سلسلة من المعارك بالإضافة إلى الألواح التي تنتمي إليهم مهما كان العدد

مثلاً: النصوص الطقسية من نوع الصلاة التي تدعى: "رفع اليد" والنصوص التي تدعى: "التقوش على الأحجار" و: "ما هو مفيد للملك" وتستمر تفاصيل تعليمات الملك كما يلي.

((فتش عن وأرسل لي أي ألواح نادرة من الألواح المروضة لديك وهي غير موجودة في آشور...))

وينبغي أن لا يستكشف أحد عن إظهار الألواح التي تطلبها ، وإذا هناك أي لوح أو أي طقوس لم أدكرها في حين أنك تجد هذه الألواح مناسبة لقصري عسها حصل عليها وأرسلها لي)).

ومع أن هذا الأمر الملكي لم يحتو على اسم الكاتب (ولا تشير الوثائق إلى ذلك) إلا أن ذكر آشور لا يمتي مجالاً للشك أن هذه الكتابة هي كتابة الملك الآشوري ، وإن مظاهر اللغة تظهر أن هذه الرسالة قد كتبت قبيل سقوط الإمبراطورية الآشورية ، ولهذا فإن الملك المقصود معرفته هو آشور نينبال.

وتظهر محتويات الرسالة السبب الذي جمعه هذه الألواح ، ولهذا فإن الفئات التي تقع تحتها هذه الألواح تملؤذ الفال ، والطقوس والصلوات والابتهالات وكان لهذه النصوص أهمية خاصة.

فقد سكنت الحياة على الأرض مقطرة بظلال ما وراء الطبيعة التي سكنت تأثيراتها تدل على عدم التنظيم مثل قصية الخط ، وليس هناك من شخص يهتم بهذه الأشياء إلا الملك وهو تجسيد للدولة ، فهي أي وقت ربما تحدث المصيبة ، ولكن إذا تمت قراءة علاماتها حكما يجب فإن إذاراً سوف يتم إعطائه لإظهار الأخطار القادمة ، وهكذا فسوف تتخذ خطوات وتدابير سعيرة للتخلص منه ، وهكذا فقد أظهرت نصوص المال أن هناك خطراً يهدد الدولة وليس هناك سوى الطقوس والابتهالات والصلوات ، القدرة على تقديم وسائل للتغلب على هذا الخطر.

في هذه الرسالة كان من الواضح أن آشور نينبال قد صادر الألواح الموجودة في معبد بورشيا وقد وجدت ألواح كان مصدرها بابل (لكونها متميزة عن المسخ المأخوذة من ألواح بابلية) في مكتبته ، وكان هناك أشياء أخرى أخذها من العواصم الآشورية القديمة وهي مدينة آشور وكالاخ ، ولكن الممد الأعظم من الألواح الموجودة في مكتبته (أو بشكل أدق في مكتبته) قد نسخت بشكل خاص خدمة له.

ونحن نعلم مثل هذه التفاصيل من التنبيلات، فالتنبيل إذا قصد به اللوح المسماري ما هو إلا تصريح مكتوب في النهاية يقدم بعض التفاصيل حول أحد الألواح، وأما تلك التي استعملها آشور بانيبال فهي واقعة ضمن ثلاثة وعشرين نموذجاً وهناك ثلاثة أمثلة كما يلي:

((آشور بانيبال الملك العظيم، الملك القوي، ملك الجميع، ابن اسرحدون ملك آشور وهو ابن سنحاريب الذي كان هو أيضاً ملك آشور، لقد كتبت هذا اللوح وأنا بصحبة خبراء في كتابة الألواح وكتابة الألواح الأصلية من بلاد آشور ومومر وأككاد (أي: بابل) فحسنتها وراجعتها ثم وصفتها داخل قصري لاستعمالي الملوكي الخاص، إنني أدعو على أي شخص يمسح اسمي ويحذف اسمه بدلاً من اسمي أن يمسح نابو العكاتب العالمي اسمه أيضاً)).

والمثال الثاني يمثل أطول نوع من الأنواع التي وجدت:

((أنا آشور بانيبال، ملك الجميع، ملك آشور الذي وهبني نابو وتاشميتو (زوجة نابو) الذكاء (في الأصل أذنأ وأعية) ووهبني عيوناً صافية لأرى فيها أشس أخبار المعرفة، أنا الذي من بين الملوك الذين سبقوني ولم يفهم هذه الأمور شييري، لقد كتبت على الألواح حكممة نابو أو رسم العلامات المسمارية مهما كان عددها وبعبارة فقد حسنتها وراجعتها وقد وضعتها في مكتبة معبد سيدي الإله نابو السيد الأعظم، تلك المكتبة التي هي في بينوى وذلك حفظاً لحياتي وحراسة روعي بحيث لن يصيبني المرض، وكذلك لتأمين وتقوية أسس عرشي: أيها الإله نابو انظر إليّ نظرة عطف وحبور وبارك مملكتي، وخذ بيدي كلما دعوتك وأرجوك أن تبارك حطواني وأنا سائر في بيتك ومعبدك، وعندما أضبح هذه المنصوص في معبدك وأمامك انظر إليها وتذكرني بمظهر وحنان)).

إن هذا التنبيل يكشف لنا أشياء كثيرة فهو يوضح أن اهتمام آشور بانيبال بالألواح لم يكن مجرد الحماس الأدبي بل كان فيه عنصر ديني قوي، فلم تكن المنصوص أدباً بقدر ما هي نص من نصوص العكاتب المقدسة، وذلك بما تعنيه تلك الكلمة من معانٍ لها علاقة بالأسس التوراتية فهي تحتوي على حكممة نابو، وهذه

النصوص القديمة كانت كلمات مقبضة أيضاً ، وهذا هو السبب في ورود التأكيدات والتدجيلات بوجوب فهم ومقاربة هذه النصوص بالنصوص الأصلية التي كانت تحمل الأشكال القديمة.

وحتى عندما كانت التدجيلات مختصرة جداً إلا أنها كانت تشير إلى التطابق مع النص الأصلي كما هو الحال في المثال الآتي.

لقد كُتِبَ وقُورِن طبقاً

لكلمات اللوح الأصلي من كوثام

هذا وإن الاهتمام الذي ظهر في التدجيلات التي ذكرت لتأمين مصداقية الواح هذه المكتبة يعني أن تكون قد عكست نظاماً بارعاً من أنظمة ترتيب المعلومات.

دعمت وجهة النظر هذه بوجود فهارس لمناوين النصوص ، ولصوء الحظ ونظراً لعدم علماء الآثار القدماء عن تسجيل الأمكنة التي وجدت فيها هذه الألواح والتفاصيل المرفقة بها إذ ليس لدينا أي معرفة من الدرجة الأولى عن كيفية تخزين هذه الألواح في مكاتب فينوى.

ومع ذلك فقد ملأت الحمريات التي حصلت في ممرود هذه الثمرة ، فقد أتت الرسائل الرسمية التي وجدت هناك من أرض غرفة في البناء الواقع هناك والمعروف بالقصر الشمالي الغربي ، ولا تزال المحاولات التي حفظت فيها هذه الألواح ترى هناك.

وكانت هذه المحاولات بشكل مصاديق يبلغ حجم الواحد منها قدماً مكعباً ونصف قدم ، وهي مصنوعة من الحجر المشوي الكبير ، ويبدو أنه من المحتمل أن تكون الواح مكاتب آشور بانيبال قد حُزنت بنفس الطريقة

إن أنواع النصوص التي وجدت في مكاتب آشور بانيبال تعطينا دلالات عن وجود أدب تعليمي مدرسي رئيسي كان من أصل بابلي وهو مستعمل في آشور ، ولا يقدم لنا الاستعراض التالي قائمة مستفيضة بل هو يدل على بعض الأصناف الأساسية للنصوص.

وأما الأصناف الموصوفة من قبل في أول هذه الكتب فلم تذكر مرة ثانية ما لم يكن هناك نقطة خالية ينبغي ذكرها حول هذه الأصناف.

نصوص تملؤ الفال

كان أكبر فئة من فئات النصوص التي وجدت في مكتبة آشور بانيبال مختصة بالفال، وقد قدر أن أكثر من ربع المجموع المقرب ١٠٠٠-١٢٠٠ لوح كانت من هذا النوع.

ولقد شكلت قضية ملاحظة ومعرفة المال في الثقافة البابلية والآشورية جزءاً هاماً بارزاً من هذه الثقافة.

فقد كانت وسيلة يستطيع بها الملك أو أي شخص عادي أن يعرف ممسبباً أي حوادث سيئة تنتظره بحيث يستطيع القيام بالخطط اللازمة لتعصب النتائج الحطرية. ولقد نشأ في دولة آشور في الألف الأول شكل من أشكال التعميرات وهو استعمال النصوص الأثرية، ولقد أنتجت بابل ومن وقت مبكر أنواعاً أخرى كثيرة وهي الأصناف التي ذكرها أكثرها في مكتبة آشور بانيبال.

وإن قضايا الفال يمكن ملاحظتها في عدد واسع من الحالات والظروف مثلاً: ظهور عدد كبير من العمل أو الكلاب أو المواشي أو الفم أو الحيوانات الأخرى أو الطيور أو الأنواع أو العقارب أو الأحلام والتمائمات، أو من ظهور السار أو من الدخان أو من نماذج طمو الزيت فوق الماء، أو من الممارسة الجنسية للبشر، أو من الولادات الوحشية، وقد رثبت هذه الحالات من المال بشكل تتابع طويل اتخذ في المستقبل، على المدى البعيد من الزمن شكلاً رسمياً أو دينياً.

وقد عرفت مثل هذه النصوص بشكل تقني كسلاسل لكل واحدة منها اسمها الخاص ووضعها الخاص مثلاً: إذا كانت المدينة مبيئة على ثلة إلخ.

ولكن الحقيقة أننا نحتاج لسمحات عديدة لنعطي أمثلة على كل نوع من الأنواع الرئيسية ولكن فيما يلي نوضح بعض هذه الأشكال.

إذا رأى أي رجل مناماً يظهر فيه مكانته من صفاتي الأختام فإن ولده سوف

يموت

وإذا رأى نفسه يقوم بعمل قصار للتسيج بواسطة الققع أو الإجماء

فإذا كان ذلك الرجل فقيراً فإن ذلك يعني: أن المصائب سوف تطارده ولن

تصيبه

إذا صب الإنماء على باب داره واتخذ الماء المصبوب بشكل أفعى

فإن هذا الرجل سوف يعارس شيئاً من الأفعال الشريرة

وإذا رأى المرء نفسه مقطراً بالثليل

فإنه سوف يجد طعاماً يأكله إذا حدثت مجاعة في بلده

نصوص تعليم الكتابة

لقد كانت هذه المراثية الثانية لأهم مجموعة من النصوص وأصلاً كانت هذه

عبارة عن مصاعمات مصاحبة للمعرفة التقنية الأكاديمية المطلوبة لتأهيل الكتبة في

اللغة الأكادية والسومرية.

وكانت هذه تشمل قوائم من العلامات المسمارية مع تمارير وفواهم مشابهة،

وقوائم من الكلمات السومرية أو الأحيبة مع ترجمات أكادية ونصوص مكتوبة

بلتين: لغة سومرية ولغة أكادية مشابهة في أساسها الموسوعة روجيه (Roger's

(Thesaurus

الطقوس والابتهالات

تشمل هذه الرجاء المباشر من الآلهة وما ندعوه طقوساً دينية وسحرية لتقديم الحماية ضد الشر أو لإطلاق سراح شخص من تلك القوى الشريرة، وقد كانت بعض هذه النصوص مخصصة للطقوس الملكية الرسمية بينما تطبق الأخرى على فرد من الأفراد المهنيين بالمصائب أو المصابين بها.

ولقد ذكرنا بعض المقطوعات من هذه الفئة في الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب والنصوص التي نحن بصندھا تشمل سلسلة مستمتعة ضد عمل السحر، وأخرى ضد الأرواح الشريرة التي كانت مغمية وغير ظاهرة وباستطلاعها أن تهاجم الإنسان في أي زمن وفي أي مكان، وهناك سلسلة ثالثة تحمل اسم الحرائق وهي مأخوذة من الابتهالات والطقوس المصاحبة لهذه الظواهر

وكانت تستعمل لملاج أي رجل يشكو من مرض يظن أنه قد أصابه من دخول إحدى الأرواح الشريرة إلى جسده نتيجة لارتكابه إحدى الممنوعات الدينية أو المحرمات أو نظراً لافتراقه ذنباً من الذنوب، وهناك مجموعة خاصة تمعن وتحدد أسباب الإصابات وتشمل الذنوب التي يصنفها حسب معاييرنا الحديثة بأنها خرافات ضمن المجتمع والدين ومن الممكن أن يكون الأذى ناتجاً:

عن الممنوعات الشريرة التي تناولها في طعامه

وعن كثير من الأعمال السيئة والذنوب التي ارتكبها.

وعن تقريظه جماعة من الناس

وعن الجماعة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً والتي فصلها بعضها عن البعض الآخر

وعن عدم احترامه لأحد الآلهة وإحدى الآلهات

وعن حنثه بوعده قديمه من قلبه وهمه ولم يقدم

وهناك قسم من هذه السلسلة يشيرون بشكل حارم إلى الأثام الاجتماعية والعرقية واعتبارها بسبب من الأسباب إصابة الإنسان بالأذى وهذا القسم يدعو إلى التخلص من:

أن فلاناً الفلاني، ابن فلان الفلاني، وآله فلان الفلاني
وآله الفلاني، وإن أسماء فلان الملاي مذكورة بالضبط في النص (بعد الدعوات والابتهالات يذكر اسم الشخص الصريح)

وفلان الملاي هو مريض ومضطرب البال

وهو الذي فرق الابن عن أبيه

والذي فرق الأب عن ابنه

والذي فرق الابنة عن أمها

والذي فرق الأم عن ابنتها

والذي فرق الكنة عن حماتها

والذي فرق الأخ عن أخيه

والذي فرق الصديق عن صديقه

والذي فرق الرفيق عن رفيقه

والذي لم يطلق سراح الأسير ولم يطلق سراح العبد

والذي لم يدع الرجل السجين وهو في السجن يرى ضوء النهار

إن معالجة الأمور المستعملة في سلسلة سحرية تشمل طقوس التطهير مع استخدام السحر العاطفي، وإن المظهر المركزي فيه هو أن الأشياء تناول شيئاً من البصل أو التمر أو قطعة من الصوف وثم مرّوها إرباً إرباً وألفاها في النار في الوقت الذي يتلو بعض الابتهالات، وحالما كان البصل يقشر ويترك يحترق هكذا كان الشرف حسب الإنسان يقشر ويحترق ويتلاشى.

وهناك قسم من هذه الابتهالات ككالاتي

ابتهال. حائلا يقشر هذا البصلة ويرميها في النار
ويلتهمها اللهب نهائياً

بعيث لن تزرع في حديقته

ولا تقف بإزاء خندق أو شاة للري

ولا تمتد جذورها داخل الأرض

ولا يظهر لها أغصان ولا ترى الشمس

ولا تميل إلى مائدة أحد الآلهة أو أحد الملوك

وهكذا أرجو أن يقشر المرض الذي أصاب جسمي ولحمي وأوردي كما

قشرت هذه البصلة

وأرجو أن تلتهم النار الأمي في هذا اليوم.

الأساطير والملاحم (القصص البطولية)

هناك طبقة من النصوص البابلية والآشورية تروى للقارئ العادي في هذه
الأيام، ولكن ليس هناك من سبب يدعونا أن نمترض مساهمة أهالي منطقة ما
بين النهرين في هذا الإعجاب.

والحقيقة أن الأساطير والقصص البطولية كانت متخلصة بالنسبة لنصوص
المأل والأدب المدرسي في عدد الألواح الموجودة في مكتاب هيكوبيجيك، ويدخل في
هذه الفئة نحو أريمين نصاً

إن التمييز ما بين الأساطير والملاحم أي: القصص البطولية هو أن الأساطير
تعالج الأنشطة على المستوى الإلهي والديني، بينما تهتم الملاحم بأعمال الأبطال
ومع أنها تحتوي على كميات كبيرة من مواضيع ما وراء الطبيعة إلا أنها لا تخرج
عن المستوى الإنساني.

ولقد أنتج بحث أصول وهدف الأساطير ولا يزال ينتج كميات واسعة من
التحمين الذي ليس هناك من محال لتحته هنا.

ولكن من الواضح أنه وبالنسبة ليابل القديمة (التي أخذ الآشوريون أساطيرهم منها) من الممكن تمييز مظهرين من مظاهر الأساطير
أحدها: تفسير حول النظام في العالم.
والآخر: تقرير النوات التي سوف تظهر على المستوى السياسي وحتى
الشخصي.

وقد اشتملت الموضوعات الخاصة بالأسطورة على المجالات التالية:
وأصل هذا الكون والخلافات بين الآلهة وخلق الإنسان والنظام الاجتماعي.
إن أهم أسطورة وجدت في منطقة ما بين النهرين في الألف الأولى كانت
أسطورة الخلق التي ارتكز عليها عيد رأس السنة في بابل.
وقد اشتمل هذا على ثلث من عدد من الأساطير الأقدم عهداً والتي تم جمعها
وتجويدها بقصد تمجيد مردوخ إله بابل.

ولقد قدمته الأسطورة كإله صغير ولكنه جبار وقد تقلب على قوى الفوضى
التي كانت بشكل التهيئة ثيافات وجنودها ، ولذلك فقد وهبت الآلهة السيادة
لمردوخ في مجتبع الآلهة التي كانت حاكماً على الآخرين.

وقد كانت نتيجة ذلك أن انتقل إلى بابل وهي المدينة التي كانت المجلية
بالنسبة لكثير من المدن الأخرى التي كانت تعود في أصولها إلى زمن السومريين.
انتقلت إلى بابل الحكمة والهيبة كمركز من المراكز الدينية الأشد احتراماً
ولقد اقتبس الآشوريون تلك الأسطورة ، ولكنها بدورها سببت لهم مشكلة
لاهوتية ، فقد ادعوا أن الإله القومي آشور احتفظ بالقوة العالمية وهذا عبر منسجم
مع اللاهوت البابلي الذي يُعص على سيادة مردوخ ، ولقد حل الآشوريون هذه
المشكلة بأن استبدلوا مردوخ بالإله آشور خلال تلك الأسطورة.

لقد كانت الملحمة العظمى في كل من بابل وآشور هي ملحمة جلجامش.

وهناك شاهد جيد يشير إلى أنه كان هناك شخص اسمه جلجامش وقد كان حاكماً على مدينة أوروك (أبريش) في أوائل الألف الثالث ولقد أنشئت عدة ملاحم حول هذا الرجل مكتبها جماعة من الكتبة السومريين في الألف الثالث.

وفي أوائل الألف الثاني ظهر شاعر بابلي عظيم استلم هذه الملاحم السومرية وترجمها إلى اللغة الأكادية وجمعها كلها معاً بأسلوب دكي ليشكل ملحمة واحدة عظيمة، حتى أنه تدخل في قصة الطوفان التي لم يمكن لها علاقة بجلجامش، وهناك عدة مواضع ثانوية في هذه الملحمة ولحكن السمة الأساسية التي تجري وتتمتم فيها هي مشكلة موت الإنسان ومحاولة الإنسان أن يساوي نفسه مع الآلهة الخالدين، فضلاً عن القتل المحتوم لهذا الهدف عند انحدار الإنسان في هاوية الشيخوخة والموت، ومع ذلك وفي النهاية ينتصر جلجامش والإنسانية التي يمثلها جلجامش معبراً عن منجزات البشر الخلاقة.

وقد كانت هذه الملحمة معروفة خلال منطقة الشرق الأدنى القريبة، وذلك طبقاً لما كنا نعرفه من مقاطع من النصوص التي وجدت في عدة أماكن بما فيها فلسطين الواقعة خارج منطقة ما بين النهرين، ولا عجب أن تتمثل بوجود عدة نسخ منها (ولكنها ليست كاملة) في مجموعة كويونيجيك.

وبمن لا نعرف ما هي الأغراض التي خدمتها ملحمة جلجامش بالنسبة لأشور، وليس هناك من سبب أن نفترض أنها قد استعملت في الطقوس، ولحكن دون أي رموز درامية، ويمكن أن نحس أن هذه الملحمة كانت تتلى أثناء الحفلات في القصور الملكية، ولكن ليس هناك من شاهد ملموس يزيد هذا الرأي.

تشتمل نصوص كويونيجيك معظم الملاحم الأخرى المعروفة من بابل، ولحكن هناك ملحمتين قد تم تأليفهما في آشور ولحكنهما لم تكونا تقارنان مع ملحمة جلجامش في صنفها وفي قيمتها الأدبية.

ولكن كليهما قد حلتا انتصارات ملوك آشور في العترة المتوسطة، وفي هذه الحالة نحن نتمرف على هدفهما، وقد كان هذا الهدف هو الدعاية فقد كان لهما

غرض سياسي ديني وهو إظهار حادث استيلاء آشور على بابل بأنه كان طبقاً
لرعية الآلهة

أدب الحكمة

تمثل هذه العنة من الأدب القديم في المشرق الأدنى المعروف لدى الشعراء
الغريبيين، ما كتب في التوراة عن هذا الموضوع مثلاً سفر الأمثال، سفر أيوب،
سفر الجامعة

ولا نعلم عن أي عمل من هذا النوع كان أساسه آشور، ولكن معظم أدب
الحكمة البابلي كان موجوداً في آشور، وما عدا وجود مثل عربي مقتبس من
الرسائل فليس هناك أي دلالة أن مثل هذه المصنوع قد لعبت دوراً مرموقاً في
الحياة الآشورية والمكر الآشوري، ولم تكن الأمثلة الرائجة في آشور لتخرج عن
الدوائر الكتابية المحدودة.

ولكن هناك ثلاثة أعمال ذات أهمية جوهرية فلا يجوز إغفالها

الأول هو ناليم ما يدعى (الاسوف أمدح إله الحكمة) حيث نرى
المتكلم في مرتبة الأمراء المرموقة، ولكنه يحد نفسه مهجوراً من قبل الآلهة
ويطرد من الوظيفة والامتيازات، ويصاب بالأمراض والألم، ومع ذلك فهو يصبر
على أنه لم يهمل واجباته تجاه الآلهة، وهكذا فإن النص مؤلف نوعاً ما من
الامتحان كما هو في سفر أيوب التوراتي، وبالنسبة لمشكلة الشر فهو في مستوى
أدنى بكثير

وفي النهاية نقول إنه من الممكن نشوء نزاع نظراً لأنه ليس بمقدور البشر أن
يعرفوا إرادة الآلهة المعصية، إن ما هو مناسب للإنسان ربما كان ذنباً بالنسبة
للآلهة. وما يبدو حقيراً أو خسيساً بالنسبة للإنسان ربما كان مناسباً بالنسبة
للآلهة، ولكن من هو الذي يعرف إرادة الآلهة في السماء.

وهناك عمل آخر معروف (التبرير البابلي للاهوت البابلي) وهذا ظهر بشكل حوار جرى بين شخص متألم وصديقه، يشكو المتألم من الظلم الذي يكثف الحياة.

ولكن الصديق يقدم أجوبة مبتذلة عن روح التدبير البابلية التقليدية وعندما يشير المتألم إلى أمثلة عن أولئك الذين خدموا الآلهة دوماً ومع ذلك فإنهم يتألمون ويصادفون الصعاب، فإن الصديق يؤكد أن التقيد الكامل بالتقوى وبالتدين ينبغي أن يكافأ بالخير والأرذار. وعندما يشير الشخص المتألم إلى وجود رجال أشرار ولحكمهم ناجحون ومرهرون، فإن الصديق يؤكد له أن هؤلاء سوف في النهاية ينالون عقاباً على أعمالهم السيئة دون شك.

وهناك تأليف آخر يدعى (حوار حول التثاؤم) وهذا يمثل حواراً بين أحد الأسياء وأحد العبيد الذين يملكهم هذا السيد

وهنا يقترح السيد إعلان مجموعة معينة للعمل، ولكن العبد يوافق بشكل باعث على التثاؤم، وعند ذلك يعبر السيد رايه فوراً مشيراً إلى الفباء الذي عرضه في اقتراحه الأول، وعندما يتغير رأي العبد ويقدم أفكاراً تدعم وجهة نظر السيد الأخرى، وهكذا تبين أن هدف القصيدة هو الإشارة إلى أن الأنشطة البشرية هي في غاية التفاهة.

أصناف أخرى من النصوص

هناك نصوص أخرى كثيرة مأخوذة بعضها من مجموعة هكينيونجيك وبعضها من مواقع آشورية أخرى ليس أهلها من آشور ولكنها لا تتناسب بسهولة مع أي فئة من الفئات الرئيسية الأخرى.

مثلاً القصة المعروفة باسم (الرجل الفقير من نيبور) وهي تتحدث عن رجل فقير قد غشّه حاكم المدينة، فلهذا استعمل هذا الرجل المقير وسائل ذكية للحصول على وسائل الانتقام.

وقد ذكرنا هذه الحادثة في فصل سابق وفي مناسبة أخرى ، وهناك على الأقل نصّ آشوريان يعودان إلى القرن الثامن أو أوائل القرن السابع وهما يتّصمان بالميل نحو الدعاية السياسية ضد بابل تحت ستار ديني ، كما وجد نص متماثل مع البابليين

ويحتوي أحد النصوص المؤثرة وهو من أصل آشوري قصيدة من الشعر حول حملته مراحون وقد اقتبسنا من تلك القصيدة بعض أبيات بشكل رسالة إلى الإله آشور وهناك رسائل من هذا النوع معروفة.

وليس لديها سوى مثال واحد عن نصوص تشمل عقود معاهدات مع الأتباع ، أو شرعة تحدد بعض الامتيازات الخاصة التي سوف تتمتع بها مدينة آشور ، وهناك نص يتناول تدريب الحبول ولعكس هذه القائمة لم تكتمل ولن تكتمل ، وحتى القائمة الكاملة لن تكون نهائية نظراً لأن هناك مئات الأنوف من الأنواع المسماة التي لا تزال مجهولة ولم يقرأها أحد ، وهي محفوظة في متاحف العالم وهناك أعداد أكبر لم تكتشف بعد ولم تُجر أي حفريات بالنسبة لها ولهذا فمن الممكن أن تبرز أي نصوص تقدّم لنا أشياء جديدة كلياً بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين القديمة

الفصل الثامن عشر

اكتشاف بلاد آشور من جديد

بعد أن سقطت آشور في نهاية القرن السابع قـم حُلَّ محلها كمركز للإمبراطورية العالمية أولاً بابل واستاء من عام (٥٣٩) إيران.

ولم تُعمر بنايات آشور رمزاً طويلاً بعد الدولة التي أنشأتها

وحسبى في أيام عر آشور فإن المعابد الرئيسية والقصور لم تكن لتستمر في بنائها ، وإذا حكمنا على طريق محلات الترميم فإن أكثر أيامها كممراسم صالحة للاستعمال قلما تجاوزت ثلاثة قرون ، وغالباً ما كانت أقل من ذلك.

ومع أن أبنية منطقة ما بين النهرين القديمة كانت جميلة بما فيها من الحجارة والقرميد المشوي ، إلا أنه وعلى العموم كانت أبنية كثيرة تتألف من القرميد والطين وهو الوضع الذي يتأثر بهطول الأمطار ، ومع أن المعدل الوسطي لهطول الأمطار في آشور منخفض نسبياً فإن مثل هذه الأمطار التي تصاحبها أحياناً العواصف الطويلة الأمد في آشور القديمة مما يسبب دخول الماء في شقوق موجودة في سقف المنازل.

وبعد سقوط آشور ساءت الأحوال ، فقد حدثت الحرائق التي ساهمت في تخريب كثير من الممارل بشكل سريع ، وفي خلال قرن لم يبق أي شيء بممكن تمييزه في العواصم الآشورية ما عدا المعالم الخارجية لأسوارها وحصونها

وقد علمنا ذلك من الوصف الذي أطلقه كنز نهمون وهو أحد الجنود المورجين اليونانيين عندما حضر في عام ٤٠١ قـم بصفته قائداً لأحد الجيوش المترفعة التي كانت تحارب في طريق رجوعها من بلاد الفرج إلى بلاد اليونان.

فقد نصب بعض المعسكرات مع رجاله في أمكة لم تكن معروفة بالنسبة إليه ، ولكننا نعرفها عندما يشير إلى أماكن مثل كالأخ ونيموي ، ويبدو بأن كلا المدينتين قد أصبحتا أمثلة لما كنا نعرفه من الكلمة العربية (نل) فالنل هو مرتفع

صناعي ناتج من احتلال بشري قديم ، وقد سكان المستوطنون الأوائل ينون بيوتهم ومعابدهم على أرض بكر وغالباً ما تكون على مرتفع طبيعي بسيط.

وعندما انهار وسقط هؤلاء المستوطنون الأولون وانهارت الأبنية فإن الجيل الثاني كان يسوي الأنقاض ويعيد البناء فوق الأبنية القديمة

وهكذا يرتفع مستوى سطح الأرض ، وهذه العملية تسهم في زيادة تراكم الأتربة والأوساخ ، وفي بعض الحالات كانت المعابد والقصور تبنى فوق منصات ، وكانت هذه العملية تستمر دون كلل أو ملل بحيث إنه وفي خلال قرون أو آلاف السنين كانت المستوطنة ترتفع عالياً فوق السهل الأصلي.

ونحن نعرف على سبيل المثال أن جزءاً من كويوبيجييك ومنطقة القصر في ميموي ترتفع سبعين قدماً فوق الأرض البكر

وعندما أصبحت المستوطنة خالية من السكان بسبب الحرب والأمراض أو لأسباب أخرى عندها أصبحت هذه المناطق وبسبب التواضع الرملية التي طالما اجتاحت العراق والتي كانت تعطي خرائب الأبنية وبالتدريج عملت على إنشاء مرتفع ذي سطح أملس ومكسور

وذلك باستثناء بقايا المراجورات والأبنية المرتفعة التي تبرز إلى الأعلى فوق المستوى المعروف ، وإن مثل هذه التلال المتدحرجة في أشكالها ابتداءً من أقل من فدان حتى ما يزيد على ثلاثمائة فدان بالنسبة لقلعة مرجان (أشور القديمة) وهذه الأبنية متناثرة في جميع أنحاء منطقة ما بين النهرين.

وهناك أماكن يريد عددها على المئة ومن الممكن رؤيتها لو زار كمرنيمون منطقة كالاخ وبيموي في ظروف مواتية فإنه يمكن سوف يعلم شيئاً عن هوية تلك الأمكنة وتلك الخرائب من السكان الأصليين ، إذا إن سقوط الإمبراطورية الآشورية لم يسمح من الوجود السكان الأصليين فقد كان هؤلاء وبشكل واضح مزارعين وفلاحين.

وبطراً لأن آشور كانت تحتوي أعظم الأراميين المختصة برعاية القمح في الشرق الأدنى، فإن اتصال العلاجين الآشوريين سوف يبينون قرى جديدة حسب ما تسمح به الظروف فوق المدن القديمة، ويستمترون في حياتهم الزراعية وهم يتذكرون تقاليد المدن السابقة

وبعد سبعة أو ثمانية قرون أصبح هؤلاء مسيحيين، وقد عمد هؤلاء المسيحيون مع المجتمعات اليهودية المبعثرة بينهم إلى إحياء تذكري مواقع أجدادهم الآشوريين، بل لقد ربطوها مع التقاليد المأخوذة من التوراة، ولقد أصبحت التوراة عاملاً قوياً في إحياء ذكرى آشور ولاسيما نينوى، فقد كانت نيموى واقعة في مركز الخرافات التوراتية، هناك قصة النبي يوشا الذي حاول عبثاً أن يتخلص من واجباته الدينية بالتهشير لدى العاصمة الوثنية.

وفي جرة من حرائب مدينة نينوى كان هناك مرتفع مقدس وكان هذا معبداً آشورياً عمد المسيحيون واليهود إلى وصفه بأنه المكان الذي كان النبي يوشا يبشر فيه، ولذلك فقد بيت كنيسة في ذلك المكان وعلى ذلك الموقع، وعندما استولى المسلمون على منطقة ما بين النهرين في القرن السادس بم جعلوا يوشا (يونس) وأصبح محترماً عند المسلمين واليهود والمسيحيين، ولقد حل محل الكنيسة مسجد ولكه ظل محتفظاً باسم يوشا.

ولقد كتب الحمرا في المسلم "المقدس" في القرن العاشر عندما وصف منطقة الموصل ((هنا سامح الإله شمع النبي يوشا)) أفلا تحتوي هذه المنطقة على مسجد النبي يونس في تل التوبة الذي يقال إن سبع ريارات لهذا المجد تعادل الحج إلى مكة، وهناك رائد آخر مسلم وصل إلى الموصل في بعض القرن وهو ابن حوقل قد تحدث عن أرض نينوى الحصبة حيث دفن النبي يوشا.

روايات الرحالة

إن أحد العوامل التي ساعدت في عظمة آشور هو موقعها على الطريق الطبيعي الرئيسي على نهر دجلة، ولقد أكد هذا العامل مرور الحجاج الكثيرين والتجار في كل قرن من القرون بحرائب آشور، وكان أول الرحالة هؤلاء الرابي اليهودي بنيامين من توديليا في إسبانيا، وقد رحل هذا إلى عدة مدن من الشرق الأدنى في القرن الحادي عشر بـم وكان يستطلع المجتمعات اليهودية والمواقع التوراتية ويكتب ما يلي عن الموصل:

((إن الموصل تمثل آشور العظمى، ويعيش فيها حوالي سبعة آلاف يهودي، وتقع الموصل على نهر دجلة وهناك جسر يصلها ببيسوى، وببيسوى هذه الآن حربة ولكن ضمن خرائبها هناك بعض القرى والمجتمعات ويمكن تحديد مساحة بيسوى من خلال أسوارها البالغة أربعين ميلاً فارسياً، وتمتد حتى مدينة أربيل وفي بلدة آشور هناك ككيس (عوبيا) الذي يباه (يونان)))

وهذه ومع التحديد الدقيق لموقع بيسوى نجد تقديرات مبالغاً فيها عن طول أسوار المدينة، ولقد تأثر هذا بالرعية في التوافق مع الأقوال التوراتية التي تذكر أن بيسوى كانت بلداً كبيراً للعناية على مسيرة ثلاثة أيام.

وقد وقع (بنيامين) بالخطأ عندما ذكر أن الموصل هي نفس مدينة آشور، ومع ذلك فإن التحديد الصحيح لموقع آشور إلى الجنوب معروف بشكل تقليدي وذلك كما نعلم من جغرافيا عربي آخر، وهو أبو المداء من أوائل القرن الرابع عشر بـم وهو يقول عن الموصل:

((وفي المقابل على الضفة الشرقية تقع خرائب بيسوى وإلى الجنوب من الموصل يلتقي نهر الراب الأصغر بنهر دجلة قرب خرائب مدينة آشور))

وفي القرن السادس عشر رار الموصل شخص اسمه (راؤولف) وهو ألماني يوصف بأنه مشهور بمهارته في معرفة المنوحات الطبيعية وأعمال الحاج، ويقول ما يلي في وصفه تلك الزيارة:

((وفي هذا المكان وفيما حوله تقع المدينة الجبارة نينوى التي كانت عاصمة آشور ، ولكن ليس هناك في هذا الوقت أي آثار ظاهرة ما عدا القلعة الواقعة على التل وبعض القرى التي يقول السكان عنها بأنها كانت تابعة لها في الأرملة القديمة))

إن غياب الآثار البارزة ذُكر مرة ثانية في أوائل القرن السابع عشر من قبل المبعوث الإنكليزي إلى بلاط دولة فارس وهو (أنطوني شيرلي) ، وهو يجرب أن أنه لم يبق هناك حجر مستقر في نينوى من المصكن أن يطلي الانطباع بوجود مدينة صميرة ، ونظراً لافتقارها إلى وجود الآثار لم يكن لدى (السير أنطوني) أي شك بالنسبة لموقع نينوى وذلك لأنه يصيب ما يلي :

((وعلى بعد ميل واحد من هناك مصلان يدعى الموصل وهي شبه صمير ولكنها شاهد على عظمة الآخرين وعظمة الآلهة أكثر من إظهار أي مظهر من مظاهر العظمة نفسها))

وكان هناك أحد المعاصرين وهو (جون كارترايت) الذي كان يستطيع أن يرى في الحرائب أكثر من رأي (السير أنطوني) وهنا نراه يصف وصوله إلى الموصل ويقول

ها وفي هذه السهول الآشورية على ضفاف دجلة بُنيت نينوى من قبل بمرود ولكن أنهاها نينوس ، ويبدو أنه بمشاهدة الخرائب والأسس (التي رأيتها رأي المين) إنها كانت مبنية ولها أربعة جوانب ، ولكن لم تكن هذه الجوانب متساوية ، ولم تكن مربعة لأن الجانبين الطويلين كان كل منهما بطول مائة وخمسين فيرلونغ أي : ستون ميلاً ، وأما الجانبان القصيران فيبلغ طول الواحد (٩٠) فيرلونغ أي : (٣٦) ميلاً

لقد كان تحمين (كارترايت) مبالغاً فيه ولكنه قد حنّد بدقة أطوال أسوار نينوى ، ولقد سبقه في ذلك الرحالة المسلم في القرن الرابع عشر وهو ابن بطوطة الذي ذكر موقع نينوى بالموصل وهو يقول :

((لا تزال آثار السور المحيط بالمدينة قائماً ومن الممكن رؤيته وتُرى مواقع البوابات التي كانت فيه بوضوح)).

وهناك رجل فرنسي هو (ج.تافير بارون أوبوني) وهذا قد زار الموصل في النصف الثاني من القرن السابع عشر وقد زاد على تقديرات كارترايت حول أبعاد مدينة نينوى وهنا نقرأ ترجمة معاصرة لما ذكره نقرأ ،
ليس هناك ما يستحق الذكر في موقع الموصل..

ولكن الآن دعونا عبر دجلة ، وهناك جسر من القوارب ، لتري منظرًا حزيناً لخرائب مدينة أثار صعبة كبيرة في العالم مع أنه لم يَدُ هناك ما يدكرها بمعلمتها الماسية

ولقد بُنيت على الشاطئ الأيسر لنهر دجلة على الجانب الأشوري ولكننا أصبحت الآن كومة من القاذورات ممتدة على بعد حوالي فرسخ على طول النهر ، وهناك عدد من المراديب والكهوف غير المستكونة ولا يمكن لأحد أن يحرر هيمًا إذا كانت هذه هي المستكن القديم للسكان أو هيمًا إذا قد بُنيت أي بيوت في ذلك الموقع في الأزمنة القديمة وعلى بعد نصف فرسخ من نهر دجلة تقع ثلة صغيرة تحيط بها البيوت وقد بُني مسجد هناك

ويقول سكان المنطقة إنها هي المكان الذي دُفن فيه يومان ، وبعد أن قطعنا نهر دجلة سافرنا لمدة ثلاثة أرياع الساعة من نينوى (أي ميلين أو ما يقارب ذلك) وابتداءً من سمعتي النهر حتى المكان الذي سكنوا فيه في ذلك المساء ولم ير أي شيء سوى الخرائب المستمرة التي تجعلني اعتقد أن المكان الذي تقع فيه نينوى القديمة

وحتى الآن تتفق التقاليد وتقارير الرحالة بشكل إجماعي وتؤكد أن الخرائب المقابلة للموصل هي نينوى القديمة.

ولكن ظهر أخيراً أحد المعارضين ، ففي حوالي منتصف القرن الثامن عشر حكم الرجل الفرنسي (م. أوتو) يميل إلى وجهة النظر التي مفادها إن نينوى لم

تكن مقابل مدينة الموصل، ولكنها كانت تتمثل في بعض الخرائط الواقعة في مكان يدعى (أسكي موصل) (أي: الموصل القديمة باللغة التركية) وهي على بعد ثلاثين ميلاً إلى الشمال.

وقد أيد هذا الرأي بما قيل إنما هو ادعاءات ناتجة عن أسكي موصل القديمة فيونان مع أنه كان علماً بالتقاليد التي نقلها أبو الفداء وغيره من الجغرافيين العرب، وقد أنهى كلامه بقوله :

((إن كلاً من أبي الفداء والسكان الأصليين كانوا محطتين))، ولكن نظراً لأنه ليس هناك من تعرف على التقاليد بالنسبة للموصل القديمة لذلك فمن المرجح أن هذه المشكلة كان سببها هو (أوتور) نفسه

وعندما نتحدث عن التقاليد الخاصة بالموصل في الأزمنة القديمة فإن السكان في شمال العراق لا يزالون يستخدمون استعمال الاصطلاح الذي يميز الموصل القديمة. وهذا في زمن أوتور وكانت اللغة التركية هي اللفظ المائد في شمال العراق، وقد كان أوتور يتكلم تلك اللغة بنفسه ، فإذا كان أوتور يستعمل اللغة التركية لكي يسأل السكان المحليين عن تقاليدهم فإنه كان من الممكن أن يشير إلى الموصل في الأزمنة القديمة باسم الموصل القديمة.

إن تحديد (أوتور) لمكان ينبو كان نوعاً من الضلال والخطأ ، إذ كان من الواجب أن يكون أكثر معرفة ودراية بالأمر ، وذلك لأنه وفي منتصف القرن الثامن عشر كانت الموصل مشهورة بخرائطها حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يذهبوا إلى هناك.

وقد عرفنا ذلك من شخص اسمه (بارثلميو بلاستيد) وهو مهندس ومساح كان يعمل في شركة الهند الشرقية ففي عام ١٧٥٠ قد سافر إلى وطنه من بلاد الهند براً من البصرة ومع أن طريقه إلى الوطن فكانت تمر ببغداد بعد الصحراء السورية إلى حلب فقد أشار ناصحاً المسافرين الآخرين أنه كان هناك بديل مناسب فقال :

((إذا كنت سوف تشعر بالتعب من فترة الانتظار في بغداد عندها يمكنك التقدم نحو الموصل، وذلك سوف يقدم لك كمية كبيرة من التغير نظراً لأن هناك كثيراً من بقايا وحرائب قديمة سوف تسبب لك شيئاً من المتعة والتسلية خصوصاً إذا كان لديك ميول من هذا النوع

وحلال عقدين من الزمن بعد (أوتير) صرّح المستكشف الدانيمركي (كارستن نيبور) بأن ليس لديّ أي شك أبداً أن خرائب نينوى تقع قرب الموصل، وهو يذكر اسم قرية تدعى تونيا وأهمه على تلة كبيرة ومسجد كان قد دس فيه النبي يونان.

وهناك تلة أخرى في هذه المنطقة تدعى (كالونيا) أي قلعة نينوى وفي التلة الأخيرة كان هناك قرية تدعى (كوتقن جاع) ويقوم بإبراز صورة عن منظر المسجد وقرية تونيا وأسوار المدينة

تفسير المخطوطات

لم تشمل إعادة اكتشاف آشور إعادة معرفة وبيان الحفريات في مواقعها فحسب، بل أيضاً تفسير كتاباتها، إذ إنه وابتداءً من القرن السابع عشر ق. م. ظهرت تقارير عن وجود كتابات غريبة مؤلفة من إشارات إسفينية منقوشة على القرميد والحجر في مواقع قديمة مختلفة في الشرق الأدنى

مثلاً هناك رجل إيطالي يدعى (بيريتود بلا فالي) قد كتب لأحد أصدقائه في عام (١٦٢٥) بمصر ما قد وجدته في بعض الأطلال في منطقة ما بين النهرين الجنوبية التي تدعى (موهيجد) التي تعرف الآن باسم (أورو) القديمة، وقد كتب يقول:

((لقد وجدت على الأرض قطعاً من الرخام الأسود وهو قاسٍ وجميل، وهو منقوش ببعض الحروف المنقوشة على القرميد، وبين الأحرف الأخرى التي اكتشفها في ذلك الوقت القصير وجدت حروف متكررين في بعض المكان، أحدهما يشبه الهرم المثل هكذا ..

والآخر - يمثل نعمة ذات ثلاثة أبعاد..))

ولكن المنطقة التي جَذِبَتْ الانتباه كانت في جنوب بلاد العجم، ففي مكان يدعى: (تحت جاشد) وهو معروف الآن بموقع - (بير سوبو ليس القديمة) إلا أن هناك بقايا ذات مظهر مؤثر لقصر رخامي وفيه عدة حجارة منقوشة.

ولقد نشر (بيثرو) هذا بحثاً عن الكتابات التي وجدت هناك مع بعض المعينات، وقد أتبع هذا النظام عدة أشخاص آخرين خلال القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، وبعضهم قد نسخوا ونشروا نقوشاً طويلة

ولقد أتى الإسهام الهاماً من (كارستن نيبور) إذ إنه لم يبق بإعداد بعض السبع المتارة من النقوش في (تحتي حامشيد) فحمب، بل أيضاً قد عرف أنها كانت تحتوي ثلاثة أنظمة مختلفة من الكتابات وكان أحدها أجدباً

وبن يعرف الآن أن الملك الفارسي داريوس الذي بني (بيرسوبوليس) قد كتب مخطوطاته بثلاث لغات البابلية والهيلامية والمارسية القديمة، وكان لكل لغة من هذه اللغات نظام خاص من العلامات المسمارية

أما بالنسبة للغة الفارسية القديمة فقد استعملت الأبجدية، هذا وإن شرسع نيبور في عام (١٧٧٤-١٧٧٨م) قد أثار الاهتمام فيما بين الباحثين في أوروبا وقدم المادة اللازمة والحوافز لإجراء محاولات لتفسير المخطوطات، وكان الباحث الذي أحرر أعظم نجاح هو الألماني (ج. ف. جروتفند) من (جوتنبرج) ولقد عرفنا مبادئ طريقته وسوف لا ننبهها هنا

ويكفي أن نقول إنه وفي عام ١٨٠٢ استطاع بشر ورقة تشير إلى القيم الصحيحة بالنسبة إلى حوالي ثلث الأحرف الهلثية المارسية المسمارية. ولكن الفصل في التفسير الكامل يعود إلى رجل إنكليزي يدعى (هيري كريمويك رولنسور) الذي سوف نقابله فيما بعد.

دعونا نرجع إلى منطقة ما بين النهرين فلقد أرسل عدد من الرحالة قطعاً من الفهارس المنقوشة إلى أوربة، ولكن لم تحدث أي حمريات علمية بعد ذلك، وإن أول

محاولة في هذا المجال بدأت خلال عقد من زمن (جروتفند) وأبحاثه ويحافظ تلك الأبحاث جزئياً، وكان الرجل المني هو (كلوديوس جيمس ريتش) وقد ولد هذا في فرنسا من والدين إنكليزيين عام ١٧٨٥ بهم ولقد عيّن في عام ١٨٠٢ موظفاً في شركة الهند الشرقية نظراً للمهولة التي أبداهما في تعلم اللغات الأجنبية الشرقية

وبعد سفره بعدة سنوات في الشرق الأدنى بقصد إجادة معرفته باللغة العربية والتركية وصل إلى بومباي في أواخر عام ١٨٠٧ بهم وقد اشترك في معيشته مع السير (جيمس ماكنتوش) المسجل العدلي في مدينة بومباي وهو فيلسوف إنكليزي متميز ورجل مثقف وفي ربيع عام ١٨٠٨ تزوج (ريتش) باليسة الكبرى للسير جيمس، ثم تعين وهو لم يبلغ الأربعة والعشرين من العمر في وظيفة مرموقة وهي المندوب السامي للحكومة البريطانية في بمباد، والتي كانت وظيفة شاعرة

وعندما استقر في منطقة ما بين النهرين التي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، فقد قام بخدمات عظيمة للمصالح البريطانية التجارية والقضائية السياسية، وكذلك خدماته بالنسبة لعلم الآثار ككبيدة، ويستحق حماء (أي والد زوجته) بمص المضل بالنسبة للخدمات الأخيرة وهي علم الآثار، وذلك كما سوف نلاحظ من النسيخة التي أرسلها السير جيمس إلى ريتش

((إنه وعلى الرغم من الأبحاث والتحريرات في المناطق المجاورة (لهيلا) التي قام بها (بيرو ديلافالي) و(بيبور) و(بوشامب) إلا أن هناك الشيء الكثير الذي ينبغي عمله بخصوص آثار بابل)).

ويقول الميجور دينيل: ((إن وضع أسوار المدينة لا يزال من الممكن التحقق منها حتى اليوم نظراً لأن التصاريح والحملات قد تركت آثاراً واضحة، وهذا وإن تحطمت ووصف الموضع والآثار سوف يبرهن على وجود إحدى القطع الأثرية العربية التي صادف وعرضت في الأزمنة الحديثة.

ولها فإني أعتبر أن هذه القضية مهمة وتستحق إعطائها اهتمامك ومواهبك، وإن موهبة الرسم عندك سوف تقدم لنا خدمات مهمة، فإذا استطعت أن تجد آثاراً مهمة فإنك تكون قد أدت خدمة عظيمة)).

وبالانسجام مع اقتراحات ونصائح حماد (أي والد زوجته) بدأ ريتش بتمهيد أولى حيرياته العلمية (المحتلمه عن الحضر لإيجاد أسماء تحكورية) وذلك في بابل وقد نشر في عام ١٨١٢ كتاباً اسمه (مذكرات حول طرائف بابل) وبمدها تمه في عام ١٨١٨ المذكرات الثانية ، وقد خلد الشاعر نابرون هذه البداية في قصي علم الآثار من منطقة ما بين النهرين بقوله

العمس من الكمار الذين لا يريدون

نظراً لأنهم لا يستطيعون أن يمشوا

على تلك البقعة في بابل بل لأنهم لا يريدون

مع أن كلودويوس ريتش المحترم قد حصل على قطع من القرميد

وهكتب كتابين من مذكراته في هذا الشأن

وفي عام ١٨٢٠ ولكي يهرب من الحرارة المحيطة في بغداد قام ريتش برحلة استكشاف من خلال جبال كردستان ، ويمد رجوعه عن طريق أربيل والموصل تقدم ببعض الملاحظات القيمة حول المواقع الآشورية في كل مكان قام بالتمرف وتسجيل الشواهد على وجود الآثار القديمة ، مثلاً ((الثلة الاصطناعية العالية من الزمن القديم)) في (سكارواليمس) (وهذا موقع آشوري ولم يكشف عنه بعد)

وفي أربيل تأكد أن ذلك المرتفع القديم الذي يطل على المدينة الحديثة كان يحتوي على كتل من المواد الفخارية مع أنه ربط هذا الفخار ببلاد المجمع وليس بالآشوريين.

وكذلك قام ريتش بفحص شامل لأطلال نهوى وحتى ذلك الوقت وبمساعدة مساح يوباسي قام بمسح المنطقة لإنتاج مخطط ثمين لموقع نهوى

ويدعى المرتفع الحصوي الرئيسي لنيبوى يومس (الاسم العربي للنبي يوزان) ويعتبره المسلمون في تلك المنطقة مقدساً بسبب المسجد الذي يعلو المنطقة ، وبالنظر لأقترانه مع يوزان بحيث أصبح من الصعب إجراء حفريات في تلك المنطقة حتى هذه

الأيام نظراً لقدمها وهكذا أصبح البحث عن الآثار الآشورية منحصراً في الأبنية أو ترميم البيوت، وقد استفاد ريتش من هذا الوضع وكتب يقول:

تضم قرية النبي بونس حوالي ثلاثمائة ألف بيت، وهي مبنية على المرتفع الاصطناعي القديم وهي لا تعطي مساحة كل هذا المرتفع، ولقد تأكد قدم هذه المنطقة عن طريق وجود بعض الآثار التي ظهرت عند الحفر فيها بشكل عميق عندما ظهرت قطع من القرميد وقرميد كامل، وقطع من الحس وكلها مغطاة بالنقوش على الطريقة المسمارية

واليوم وجدنا بعض القطع تحت أسس بعض الأبنية، وكان أحدها قطعة مكسورة من الجبس وعليها أحرف مسمارية، وجدت في مطبخ بيت ضئيل، وقد ظهر أنها جزء من جدار ممر صغير يقال، إنه يصل إلى الجبل.

ولقد حفر بعضهم في هذه المنطقة في السنة الماضية، ولكن نظراً لأن هذه الحمريات ينبغي أن تتم تحت المنازل وحولاً من تمرض هذه المنازل للهدم فقد أقتلوا هذا المشروع، وملأوه بالقاذورات.

وعلى بُعد قليل وفي غرفة صغيرة تمسكها امرأة من سكان البلدة، وقد كانت هذه المرأة لطيفة جداً، وبشكل أدب سمعت لنا بالدخول وفحص المكان في أوقات فراغها

وهناك وجدنا نقشاً آخر محفوراً بأحرف مسمارية كبيرة على قطعة من الجبس، وهذا النقش محبر وهو يمثل مركبة العادي، ومن الممكن أن نجد آثاراً قديمة أخرى في هذا التل، ولكن القسم الأكبر منها كان مغطى بأبنية من البيوت الصغيرة، ولهذا فإنه لا يمكن اكتشاف أي شيء إلا عند ترميم هذه البيوت أو سقوطها وهدمها

وفيما بعد قام ريتش بفحص كامل سطحي في أكبر هذين المرتفعين في نيوى وكيويبيجيك وهو يصف هذه الأعمال بما يلي:

((إن حوائط هذا المرتفع محدرة وقمته منبسطة، وعلوه حوالي ثلاثة وأربعين قدماً، ومحيط قاعدته (٧٩٦) قدماً، وإن قمة هذا المرتفع لا تشير إلى أنه كان أعلى مما هو عليه في الوقت الحاضر، ولكن من الواضح أنه كان هناك أبنية فوقه وهي على الأقل حول أطرافه.

ومن الممكن استخلاص الحجارة والقرميد في كل مكان من هذا المرتفع، وبينما كان سطر حول هذا المكان وجدا قطعة من القرميد والقحار مغطاة بشكل كثيف بكتاتبة مسمارية جميلة.))

لقد تعرف ريتش طبعاً على القصص التي تتعلق بالحرائب قرب الموصل في بيسوى، ولكن لم يكد لديه أي برهان حول هويتها، وقد اختلف بالقول هذا بالنسبة للحرائب الباقية التي رآها في المبي يونس وكويويجيك والأسوار المحيطة، ولكن سواء كانت هذه تنتمي إلى بينوي أو أي مدينة أخرى فإن هذا مسألة أخرى لم تثبت صحتها بعد، ولكن ليس هناك مجال للشك في كونها من عمر واحد وصفات واحدة.

ولقد لفت ريتش النظر إلى أهمية المرتفع في قلعة شيد خان الذي يعلم الآن أنه موقع عاصمة آشور القديمة، وقد قدم صورة له تظهر أدناه:

((يظهر أن هذا المرتفع مصنوع من التراب وفي أسفله جدار متهدم، وهو مرتفع فوق مستوى من الحرائب، ولقد كانت هناك أكوام من القمامة مبعثرة هنا وهناك حيث يُمكن أن تُرى صفوف من الحجارة المبنية وعليها إسمنت كلوسي فوق سطحها، وهناك قطع من القرميد المربع.

وقد كانت هذه الحرائب تستحق الاهتمام والفحص، وهي تشكل كتلة علوها نحو عشرين قدماً، وهي ممتدة باتجاه شمالي جنوبي على طول الضفة الغربية للقهر لمسافة ميلين تقريباً.))

وفيما بعد وفي نفس المسة رحل ريتش إلى شيراز في بلاد المعجم عند انتشار وباء الكوليرا هناك، وقد هجر المدينة الأمير مع جميع عائلته وجميع النبلاء، والطبقات العليا من السكان، ومن كان قادراً من الطبقات الدنيا

ولكن السيد ريتش رفض مفاداة المكان، واستمر في تطمين السكان بشكل نبل ووفاء، وفي مئة مئة مئة المرضى الذين هم على وشك الموت، ولكن أخيراً انتقل إليه المرض وتسبب في وفاته، وكان في الخامسة والثلاثين من العمر، ولقد وصلت مجموعته عن آثار منطقة ما بين النهرين إلى المتحف البريطاني، وأصبحت من ممتلكاته.

بوتا ولامار وتولسون آباء علم المراسات الآشورية

لقد بدأت الحمريات الرئيسية بعد وفاة ريتش بعشرين عاماً، ولكن عمل ماملان بصورة خاصة على حدوث هذا.

وكان العامل الأول والأهم هو حدوث نوع من الاهتمام بالآثار لدى الطبقات العليا من المجتمع، وقد بدأ هذا الاهتمام ابتداءً من أوائل القرن السادس عشر بـم. فقد أطلق هنري الثامن ملك بريطانيا على قسيسه الخاص لقب (مسؤول الآثار لدى الملك) ولقد زاد انتشار هذا الاهتمام أثناء القرن الثامن عشر، وفي نهاية هذا القرن انتشرت عادة جمع الآثار خلال أوربة حتى أن تشارلز ديكنز يذكر على سبيل الدعابة اللطيفة هذه الدعابة في كتابه (أوراق الكويك) نشر عام (١٨٣٦-١٨٣٧) حين أشار المهد بـكوريك لاكتشافه على جانب الطريق حجراً يحمل نقوشاً مكتوبة هكذا:

Bilst
UM
Pshi
S.M.
ARK.

وقد كتب تشارلز ديكنز كراسة أو كتيباً يحوي على ست وتسعين صفحة بالحرف الصغير، وفيها سبع وعشرون قراءة مختلفة لتلك النقوش. وقد كوفئ على ذلك بانتخابه عضواً فخرياً، في سبع عشرة جمعية وطنية وأجنبية لقاء اكتشافه هذا

وكان العامل الآخر الذي ساعد على بدء الاهتمام هو عامل سياسي، لقد كانت هناك عدة بلدان أوروبية مختلطة في مقدماتها إنكلترا وفرنسا مهتمة اهتماماً كبيراً بالهند.

وكانوا يفتشون عن طريق برية للاتصالات بالهند، ولذلك فقد انتهزت بريطانيا وفرنسا أي مناسبة ممكنة للاستيلاء على مناطق مختلفة من الشرق الأدنى والأوسط مثل مصر ومنطقة ما بين النهرين وبلاد المجر وبسط نفوذها على هذه البلدان لحماية الطريق إلى الهند، وكانت إحدى الوسائل الموصلة لهذه الغاية هي الاهتمام بعلم الآثار، وأرجو أن أقول قوياً:

بأنه لم يحدث أي اقتراح مهما كان ضئيلاً ولا أي تلميح، وإن علم الآثار في الشرق الأدنى كان بداية لهذا التدخل.

إذ إنه كان غطاءً لأعمال التجسس والتعريب، ولحسن كان له نتائج شريفة سواء في كسب المعرفة حول الأحوال المحلية أو بإنشاء رويط محلية من الصداقة.

هذا وفي الأربعينات من القرن التاسع عشر ١٨٤٠ فقد كان من المحتمل بسط نفوذ البلدان الأوروبية خلال المناطق ذات العلاقة في الشرق الأدنى.

وفي عام ١٨٤٢ أنشأت الحكومة الفرنسية قنصلية لها في الموصل وعينت لده القنصلية (بول أميل بوتان) وقد كان رجلاً مرموقاً ولم يكن من العرب الذين مارسوا الخدمة القنصلية فحسب، بل إنه بعد أن درس الطب في شبابه، قام برحلة حول العالم في بعثة خاصة بعلم النبات، ومع أن مواقفه وميوله كانت ضد بريطانيا بشكل عييف، ولكن هذا لم يمنعه من إقامة صداقات حميمة مع بعض الإكليرك كآفراد، حيث قال أحدهم: إن (بوتان) قد تنمر وشكا مرة أو مرتين.

وأرغب السفير الفرنسي في القسطنطينية بذكره قصصاً مثيرة وعجيبة حول دساتيسا في بغداد.

ولقد وعدت الجمعية الآسيوية في باريس التي كانت متأثرة كمجموعة (ريتش) من الآثار الموجودة في المتحف البريطاني لقد وعدت هذه الجمعية بدعم يورتا دعماً كاملاً في أي نشاط في علم الآثار من الممكن أن يقوم به. وهكذا بدأ بالحفريات في كيوتيجيك في كانون الأول عام ١٨٤٢ ولكن نتائج حفرياته كانت ذات مردود ضئيل نظراً لأنه لم يكن يهتم في أعماق كافية.

وفي شهر آذار عام ١٨٤٩ نقل عمليات الحفر إلى حورساباد على بعد عشرة أميال إلى الشمال الغربي من الموصل، وفي خلال عشرة أيام توصل عماله إلى جدران من الألواح الحجرية مغطور عليها مشاهد من المقوش الماهرة

وعندما وصلت أخبار هذه اللقى الحساسة إلى باريس بادرت الحكومة الفرنسية إلى وضع أموال جديّة تحت تصرف يورتا لكي يستمر في هذه الأعمال، وإن ما وجده يورتا لم يكن سوى أحد القصور التي بناها الملك سرجون الثاني في عاصمته الجديدة (دور شاروكين)

والآن ينضم إلى المشهد رجل إنكليزي آخر وهو أحد عمالقة عالم الآثار في منطقة ما بين النهرين وهو (هري أوتن لايلارد) وقد ولد في باريس عام ١٨١٧ وقد رُبي حتى أصبح في الثانية عشرة من العمر في فلورنسة ثم تمهده أحياناً خاله وكان محامياً ناجحاً في لندن.

وفي شهر حزيران عام ١٨٢٩ وجد نفسه مقبلاً كمدّح عام في المحكمة الملكية، وبمآه على نصيحة عمه الأصغر الذي كان قد أنهى خدمته وتقاعد من منصب عالٍ في الخدمة المدنية في سيلان، لهذا قرر الذهاب إلى سيلان حيث من الممكن أن تسمح له مؤهلاته أن يصبح محامياً عاماً حيث كانت علاقاته العائلية تؤمن له النجاح

ولقد انضم لايلارد إلى شخص يدعى (إدوارد منمور) للقيام برحلته الموعودة وكان هذا رئيسه في العمل، وقد بدأ كلاهما الرحلة في شهر تموز عام ١٨٢٩ من بروكسل براً، ولكن حماس لايلارد للرحلة رافقته رغبة في التبرص والتمتع في

الأمر، إذ قبل مغادرته اتخذ خطوات لتعلم شيء عن فن الملاحة والإبحار والطرق وعادات الشعوب، وتلقى معلومات استثنائية عن الطب والإسماعيات الأولية وتعلم كتابة اللغة العربية وقليلاً من السامرية.

وبالإضافة إلى ذلك فقد اطلع على ما أتيج له من معلومات حول منطقة ما بين النهرين وبلاد العجم، وبمضى المكتتب عن المكتابة السامرية وفي شهر تشرين الثاني كان الرجلان في حلب، وبعد مخاطرات ككل لا يارد أن يمقد حياته فيها من القبائل المادية وصلاً إلى الموصل في نيسان ١٨٤٠

وهناك نرلاً ضميم على (وليم دانيس ايسويرث) وكان هذا طبيباً كثيراً ما يسافر في طلب الآثار، وكان لديه اهتمامات تعلم الآثار وكان قد أصدر كتاباً عنوانه "أبحاث حول آشور وبابل وبلاد الكلدان" وعلى شطص اسمه (كريستيان ريدم) وهو رجل مسيحي من أهل البلاد قد عمل كمساعد قنصل، ولقد قصى لا يارد وقتاً طويلاً في الموصل واهتم بمرتفع ككيونيجهيك، وكان يقوم بالقياسات ويبحث عن قطع من الرعام والأجر التي تحمل نقوشاً سامرية، ولقد أحد مصيفوه هؤلاء المسافرين إلى الصحراء لرؤية مدن أخرى مهدمة

وهنا يصف لا يارد الانطباعات التي أثرت به ويقول: ((يستحق المشهد حوائها للتأمل، فالوحشة تتلو الوحشة، ويتأهي الشمو بالرهية إلى الدهشة ولقد ولدت هذه المرتفعات الصعبة في آشور انطباعات عميقاً في نفسي، وأنتجت أفكاراً أكثر جدية، ولكن المكان المقصود كان سيلاً.

وهكذا توجه لا يارد ومنفورد إلى بغداد حيث التحقا بقافلة مسافرة إلى بلاد العجم، وهناك كانت الصعوبات تنتظره، فقد معاً من السفر شرقاً في الطريق الذي اقترحه نظراً لأن هذا الطريق يؤدي إلى أراضٍ مختلف عليها ولكن قدمت لهما بعض البدائل.

ولقد قبل منفورد ولم يقبل لا يارد، ولذلك اختلفا وكان لا يارد يأمل أن يسير في طريقه المقترحة فسافر جنوباً إلى أصعها، وعندما وجد أنه لا يزال تائهاً قرر أن ينعطف نحو لوريستان حيث جبال زاغروس وإن جزماً معاً كان يجذبه إلى

هناك هو تحديداً أطلال مدينة شوشان (سوسة) التوراتية، والمعروف أنها كانت موجودة في تلك المنطقة مع أن ذلك الموقع قد وقع عليه حلاص.

ولقد قضى بيلارد عشرة أشهر في تلك الجبال مع قبيلة بختياري وقد قسم وقته ما بين فحص الأنقاض بقصد الحصول على معلومات دقيقة حول إمكان القيام بأعمال تجارية في المنطقة، والقسم الثاني لمعالجة بعض الدسائس السياسية دعماً للقبيلة التي كانت على وشك العصيان ضد الشاه، وبعد اعتقال الخان رئيس القبيلة وصع لا يارد تحت الاعتقال المبرح ١٨٤١ وبعد أن تخلى عن فكرة الذهاب إلى سيلان هرب ورجع إلى البصرة، وكنلت تحت الحكم العشامي.

ولقد أرسل تقريراً عن رحلاته في لوريستان إلى حملة الجمعية الجغرافية الملكية التي نشرت خلاصته في عام ١٨٤٢، وبعد رحلاته في جنوب المنطقة ما بين البحرين وبلاد المعجم المجاورة وذلك لفحص الآثار والإمكانات التجارية قرر الرجوع إلى إنكلترا

وفي هذا الوقت كان الضائم بالأعمال البريطاني الكولونيل تايلور مهماً بإعطاء السفير البريطاني في استنبول معلومات كاملة عن الخلافات الحدودية بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الفارسية تلك الخلافات التي كانت تؤثر على المصالح البريطانية، وقد كان لا يارد قد قرر الرجوع إلى إنكلترا عن طريق استنبول، وهكذا ونظراً لمعرفته التامة بشؤون الخلافات القبلية قرر تايلور أن يوصل به أمر الرسائل المرسلة إلى السفير ككاذب مع التهامم بأنه سوف يضع نفسه تحت تصرف السفير ككاذب لتقديم معلومات إضافية إذا طلب منه ذلك.

بدأ لا يارد بالرحلة تحت حماية أحد القناصل (الذين كانوا مسؤولين عن المراسلات الحكومية) ولقد قضى لا يارد ثلاثة أيام في الموصل ومن ضمن حظه أن تمره على القنصل الفرنسي المقيم حديثاً وهو بونا الذي عامله معاملة حسنة، وقدم له المساعدة ما استطاعه إلى الخراب وكينونجيك والني يونس.

وفي القسطنطينية عمل لا يارد انطباعات جيدة بالنسبة لكاذب الذي كان مسروراً للاستفادة من معرفة لا يارد وخبرته ولم يرغب ككاذب أن يخسر خدمات

ذلك الرجل الشاب فاخترع له وظيفة ودعاه للذهاب في مهمة لـكشف الحقائق في المنطقة التي تعرف بـيوغوسلافيا حيث كانت الاضطرابات هناك تهدد المصالح البريطانية والمصالح الأوروبية

وهكذا فقد حسم لايارد كـسكرتير خاص للسفير، وشكل بذلك جبهة مفيدة يستطيع السفير أن يستفيد منها بممارسة نفوذه عن طريق اشتراكه في تحرير الجريدة المشهورة في حوض البحر الأبيض المتوسط وهي **Malta Times** مالطة تايمز.

وعندما أُنجز بوتاً لقيادته المرموقة في حورسباد في شهر آذار عام ١٨٤٢ أبدى كرمًا بإرساله إلى لايارد وصفاً دقيقاً عن هذه المكتشفات، وقد استخدم لايارد هذه المعلومات لريادة اهتمام السفير كاندج به فأصبح يدعى حاضراً بالأنار في الحمريات القائمة في منطقة ما بين النهرين.

والآن سوف نقابل شخصاً انكليزياً آخر سوف يتقاسم مع لايارد وبوتا شرف بداية علم الآثار الآشوري وهو (هـري كـريـمـبـويك دولنسون) وكان باحثاً كلاسيكياً جيداً ورياضياً جيداً وكان موظفاً في شركة الهند الشرقية، وبعد أن حصل على معلومات جيدة في اللغة العربية والفارسية عين في دائرة المخابرات.

وفي عام ١٨٢٥ أرسل إلى بلاد المجمع بصفة مستشار عسكري لأخي الشاه، وهناك كرس وقت فراغه في نميخ النقوش المهمة القديمة الموجودة على الصخور والتي كان أشهرها نقش كبير مكتوب بثلاث لغات علانياً فوق صحراء عالية في مكان يدعى، بيمستون قرب كركيسسي.

وفي عام ١٨٤٢ عين رولسون قائماً بالأعمال في بغداد خلفاً للكولونيل تايلور وهذا قدم له الوقت لحل رموز نقوش بيمستون، وسرعان ما استطاع حل رموز الحروف الهجائية العارسية القديمة التي بدأ بها جروتيفند قبل أربعين عاماً

وفي أوائل عام ١٨٤٥ نجد رولنسون يبدأ في مراسلات مع لايارد شجعت عليه تلك المقالات التي كان لايارد قد كتبها في صحيفة مالطة تايمز **Malta Times** حول حمريات بوتاً وكذلك تلك الملاحظات حول النقوش التي كان

تركها مع الكولونيل نيلور ، ولقد عرف رولنسون من بعض النقوش التي كان لا يارد قد نسخها ولحكنه طالب إعطائه تفاصيل عنها من أي مثال كان من الممكن أن يساعده في التحاليل التي بدأ بها

وفي أثناء ذلك فقد كان بوتنا وبعد أن تملب على معارضة والي الموصل التي سببت له بعض التأخير قد بدأ في متابعة خبراته في خورساباد بعد أن أحرز نجاحات مرموقة ، ولذلك فقد أقفل مشاريع حصرياته في شهر تشرين الأول عام ١٨٤٤ وقد جمع منتجات من أفضل اللقيات المحفوظة التي تشمل تماثيل هائلة من الثيران الحجرية ، كل هذه أرسلت إلى فرنسا عن طريق بحر دجلة بواسطة طوف ينقلها إلى إحدى السفن ومن ثم إلى فرنسا.

لقد أعطى نجاح بوتنا دفعة قوية لقضية الحفريات في منطقة البحر الأبيض المتوسط، ولقد كان رولنسون يطمح بأن تبدل بعض الجهود البريطانية في هذا السبيل ، ولذلك فقد قام هو بنفسه بحفريات على مقهاش ضيق في جنوب العراق وقد كتب إلى لا يارد في تشرين الثاني عام ١٨٤٥ ما يلي:

((سوف أكون في غاية السرور إذا استطاع الصمبر من خلاله جعل الحكومة البريطانية أن تقتنع ببذل بعض الاهتمام بالآثار القديمة في هذه البلاد ، وإنه ليؤلمني غاية الألم أن أرى المرممين يحتكرون هذا المجال ، وذلك لأن ثمرات أعمال بوتنا التي تم إحرازها ولا يزال يتقدم ليست من الأشياء التي سوف تمر في يوم أو يومين بل إنها ستؤلف المجد لتلك الأمة في المصور القادمة في المستقبل عندما تصبح الإمبراطورية العثمانية التي نحن لا نزال نحلمد لإبقائها سوف تصبح قضية من قصايا التاريخ.))

وفي هذا الوقت كان لا يارد قد أقنع السفير في دعمه مادياً لبدء فترة صغيرة من العمل في الحفريات في منطقة ما بين النهرين ، هناك مذكرة مكتوبة بخط كانانج نفسه والتاريخ مكتوب (ليس بخط كانانج) في ٩ تشرين الثاني عام ١٨٤٥ كما يلي:

((إنني أمل أن ينتبه السيد لا يارد مشكوراً إلى النقاط الآتية.

١- أن يستمر في إعلامي عن عملياته وعن أي شيء ذي أهمية أو أثر قد
يكشفه.

٢- أن ينتبه غلبة الانتباه للمسائل السياسية والدينية وبأكثر ما يمكن بشؤون
المبشرين أو رعاء القبائل الوطنيين الذين تضمهر لهم السلطات التركية العداء
والفيرة

٣- الحصول على رضا الباشاوات وموظفي السلطان الآخرين بكل معنى
الكلمة

٤- أن يتذكر دائماً طبيعة أعماله كرجل سائح مولع بالآثار القديمة والمناظر
الجميلة، وبأنه يستحسن معرفة جميع المعدات المربية في آسيا.

٥- أن لا يبدأ بترك العمل والرجوع إلى الوطن دون الحصول على موافقتي
المسبقة بعد تقديم تقرير عن تحرياته الأولى ومحاولاته الاستكشافية.

٦- في حالة إحرازه أي نجاح ينبغي عليه أن يقدم لي معلومات مبكرة ودقيقة
عن طبيعة المواد المستكشفة وأحسن الطرق لاستخراجها إل...مع التقديرات
اللازمة للتكاليف بالإضافة إلى راتب قدره ٢٠٠ جنيه إسترليني سويًا، وهذا راتب
مستمر بالإضافة إلى ٢٠٠٠ قرش قد حصل عليها مقدماً لقاء مصاريف
التجهيزات، فإن السيد لا يارد سوف يستلم من السيد هانسون مبلغاً آخر قدره
٢٠٠٠ قرش على حساب نفقات الصمر، وقد زُوِّدته بالرسالة المرفقة إلى السيد
رسمًا في الموصل التي تضمن بالإضافة إلى توصيه بالتكثُر بالمساعدة، وتحتوي
على اثنان أو ديس واجب علي بمبلغ ١٠,٠٠٠ ليرة تركية

إنني أقدر أن يصل السيد لا يارد إلى الموصل حوالي نهاية شهر تشرين الأول
حيث سوف يتمكن من إتمام دراسة مستفيضة حول أفضل الأمكنة ملائمة
للاستكشاف خلال الشهرين التاليين، وإذا كان لديه من الأسباب التي تقتضي
إضافة عشرة أيام أو أسبوعين على الموعد المحدد فله ذلك، وهو مخوّل أن يستعمل
عقله وإدراكه في هذا الخصوص.)

ولقد ابتهج رولتسون عند سماعه خبر وصول لايلارد إلى الموصل (٢٧ تشرين أول عام ١٨٥٤) وكان مستعداً لإسداء نصيحة.

وهكذا فقد كان لدى لايلارد فكرة واضحة عما ينبغي عليه عمله، وبعد تقديم أوراق اعتماده إلى حاكم الموصل المستبد مع أنه لم يحبره عن أهدافه فقد تقدم هوراً لتمييز خططه، وكان من الضروري أن يتخذ جانب الحذر نظراً لأنه لم يملك أي تفويض رسمي من السلطات التركية لإجراء الحفريات، لهذا فقد تظاهر بأنه ذاهب لصيد الخنازير البرية وانطلق راكباً قارباً يدعى الكيكليك ضوياً فوق نهر دجلة يرافقه صديقه هنري جيمس روس وهو تاجر بريطاني في الموصل، وحارس وعامل بناء مع بعض الأدوات اللازمة للعمل قد تم صنعها

وقد كانت وجهته نمرود وهو تل متميز على بعد نحو عشرين ميلاً إلى الجنوب من الموصل وهو على ارتفاع نحو أربعين قدماً فوق السهل وهو يعطي مساحة قدرها حوالي مئتين فداناً مع بقايا باقورة واقعة على تلة بارزة واقعة في الراوية الشمالية الغربية، وهو يعرف كهف أنه وفي إحدى المناسبات عندما كان مسافراً إلى بغداد بواسطة كيكليك في نيسان عام ١٨٤٠ عندها رأى تلة نمرود وهو سائر فوق نهر دجلة وقد قرر في ذلك الوقت أنه سوف يقوم باستكشافها في يوم من الأيام.

((رأيت خرائب نمرود للمرة الثانية، وأصبحت لدي فرصة أفضل لفحص هذه الخرائب، وكان قد حل المساء عند وصولنا إلى المنطقة، وقد عملت أمطار الربيع على إكساء التل بالعشب الأخضر.

وقد كانت المروج الخصبة الممتدة حوله مغطاة بالأزهار من مختلف الألوان، وفي وسط هذه الخصرة البهيجة كانت هناك قطع من القرميد والمخار والممرر التي كان يظهر فوقها الآثار الإسفنجية ذات الصفات المسمارية، ولقد امتدت خطوط من المرتفعات والتلال المتتالية التي لا تزال محتفظة بمظهر الجدران أو المتاريس وهي ممتدة من قاعدة الخرائب مشكلة ساحة رياضية الزوايا واسعة.))

وجد لايلارد أن القرية القريبة من نمرود قد أصبحت مهجورة نتيجة لعمليات النهب التي كان يمارسها والي الموصل الوغد ، وكان الشخص الوحيد الموجود في القرية هو أحد شيوخ القبائل الذي مهت قبيلته وتفرقت ، وقد لجأ إلى كوخ مهجور هناك وقد استخدمه لايلارد لتنظيم جمع بعض العمال من المستوطنات المجاورة للمساعدة في عمليات الحفر

بدأت الحفريات في يوم تشرين الثاني عام ١٨٤٥ ولقد تلا ذلك النجاح الأكيد وبعد أسبوع استطاع لايلارد أن يكتب لكاندج :

((بعد أن فتحت حديقاً صادقت حجرة طولها ٢٥ قدماً وعرضها ١٤ قدماً وهي مشككة من ألواح من الرخام طولها ٨٠٥ قدماً ويحتوي كل لوح على نقوش بالخط المسماري ، وبعد عمل أربعة أيام أصبت بحصى خفيفة أجبرتني على الرجوع إلى الموصل ، وبعد ذلك تركت الحفريات تحت حراسة (القوامس) وهو الحارس المخلص وأمرت أن ينظف الحجرة))

لقد انتهز لايلارد فرحة وجوده في الموصل للتفاهم مع الوالي وقد كتب إلى كاندج يقول: ((لقد ردت الباشا الذي كانوا قد أخبروه أنني قد اكتشفت كنزاً ، ولكنني فسرت له طبيعة أبحاثي ولذلك لم يمرض ولقد تجنبت أن أحدثه في طلب الإذن للاستمرار في عملية الحفريات))

لم تكن المشكلة هي الوالي فحسب ، فقد علم لايلارد أن القنصل الفرنسي (م. روتيه) وهو خليفة بونا كان يقوم بالتعرض على إيقاف الحفريات ، وبالتالي إلى سعيه للحصول على الأولوية بإتمام ما يمكن إتمامه من العمل قبل أن تتعد الخطوات لإيقافه عن العمل ، لذلك أمد عماله بالقيام بحضر خنادق في ستة مرتزمات آشورية أخرى ، والتي كان كاندج قد أمره بحفرها ، ولذلك استمر هو نفسه في متابعة الأعمال في نمرود وهناك وفي نهاية شهر تشرين الثاني وحد ألواحاً تحمل سلسلة رائئة من النقوش الناهرة التي تصور الممارك الحربية لأشور ، وكان قد أجبر كاندج عن إحرازه النجاح عندما نجح الفرنسيون في إلابيهم التي أنتجت تدخل الوالي لإيقاف الحفريات ، ولكن كانت هذه نكسة مؤلمة حاول لايلارد

الالتفاف عليها عن طريق صداقته الشخصية مع أحد الصباط المعزول عن قيادة الجنود المحليين، وقد كان يأمل أن يجد متحولات كبيرة وسرعان ما تسنى له ذلك.

ففي ١٩ كانون الأول استطاع أن يرسل تقريراً إلى كاتينج يخبره أنه قد وجد ثورين مجسدين عظيمين، وكذلك وحوشاً من الحجر الصلصلي بارتفاع أربعة عشر قدماً، وقد كان بوذا قد وجد تماثيل مشابهة قد أثارت ضجة كبيرة في أوروبا على الرغم من أن النقوش لم تكن قد وصلت إلى فرنسا بعد.

لقد استمر لايارد في مواجهة التحديات من أن لأحر بشؤون حميراته التي لم يحصل على إذن بالاستمرار في القيام بها بعد، ولكن إحدى مواهبه كانت مهاراته في التغلب على معارضيهِ، وهكذا استمر في العمل وتسجيل وتفسير لغياته التي تشمل نقوشاً ماهرة تحوي على صور ثيران حميرية وأسود.

ولكنه لم يكتف بأعمال الحفر والقدرة في علم الآثار ولذلك فقد اشتمل نفسه في محاولة حل رموز النقوش الآشورية، فقد كان رولنسون في بغداد يقوم بنفس العمل ومع أنه كان في ذلك الوقت متقوفاً عليه في هذا المضمار (فقد كان قد أكمل حل رموز حروف الهجاء الفارسية) لكنه كان يعامل آراء لايارد بالنسبة للنقوش الآشورية باحترام وكان يمتنن بأرائه.

لقد كان كاتينج متحمساً لما لمسه من نتائج أحررها لايارد والاهتمام الشخصي الذي سوف تصادفه هذه النتائج، وحتى ذلك الوقت كانت تمويلاته للايارد شخصية أي من جيبه الخاص ولكنه خطط أن يتصل بالوزير السير روبرت بيل عند رجوعه إلى بريطانيا بعد وقت قصير ويطلب منه مساهمة الدولة في مساعدة لايارد كما حدث بقضية بوذا بالنسبة للحكومة الفرنسية.

وفي أثناء ذلك حاول كاتينج جاهداً الحصول على رسالة من الصدر الأعظم التركي تقدم للايارد الصلاحية بإجراء الحفريات في محافظة الموصل وهذا نص الرسالة التي حصل عليها.

((هنالك وكما يعلم سعادتك في جوار الموصل كميات من الحجارة والأثار القديمة، ولقد أتى أحد الرجال الإنكليزي إلى هذه المنطقة للتفتيش عن مثل هذه الحجارة، وقد وجد على ضفاف نهر دجلة في بعض الأماكن غير المأهولة بالسكان بعض الحجارة القديمة التي تحتوي على صور ونقوش، ولقد طلب السعير البريطاني بأن لا تقام المقبات والصعوبات في طريق ذلك الرجل الإنكليزي المذكور أعلاه عند أخذه تلك الحجارة التي ربما كانت معيدة له بما فيها ما يمكن أن يكتشفه خلال تلك الحفريات، ولا مانع من إرساله تلك المكتشفات إلى إنكلترا)).

وكانت الصداقة الحميمة التي وجدت بين الحكومتين سهلت قبول تلك الطلبات، ولذلك لم يكن هناك من مانع لأخذ تلك اللقيات والحجارة الموجودة في تلك الأماكن المهجورة وهي حجارة قديمة تحتوي على صور ونقوش فقد طلب السعير البريطاني عدم وضع المقبات والصعوبات في طريق ذلك الرجل، أو عندما يقوم بإجراء حفريات في أماكن غير مأهولة بالسكان حيث يمكن إجراء ذلك دون إحداث أي إزعاجات لأحد، أو في أخذ هذه الأشياء حسب رغبته بين تلك التي استملاع استكشافها.

لم يكن كادج فحسب هو الذي تأثر بلقيات لايرد فقد كانت المجتمعات الإنكليزية والأمريكية قد بدأت بالاهتمام العميق بأقوال التوراة وتاريخ الممالك العبرية القديمة، وكان هناك كثير من الناس في ذلك الزمن يشعرون بنفس شعور تلك السيدة التي كتبت عنها الشاعر ماثيو بروور

لقد حفظت هذه السيدة بعض أجزاء التوراة عن ظهر قلب

وقد ابتهجت بقراءة الأخبار التاريخية في ذلك الزمن

ويعلم الجميع أن الآشوريين قد أسروا القبائل المشرقة الإمبراطورية وأن مسحاريب وعن طريق قائده رابشا قد حاصر مدينة أورشلهم المقدسة وقد كانت هذه الأشياء قد حازت على اهتمام الرأي العام والثقافة البريطانية والأمريكية والوعي في تلك البلدان، وبالنسبة لتلك الأقلية من المثقفين المهتمين بالتاريخ القديم

فقد كانت اللقيات التي وجدها بوتا ولايارد ذات أهمية بالنسبة للثقافة البشرية على العموم، ولكن معظم الزخم كان منصباً على الحوادث الثوراتية. وبالإضافة للقياته الرئيسية التي تتمثل في تلك الألواح من النقوش المسافرة والتمائيل العظيمة في معروف فقد صادف لايارد نجاحاً في خطوط سيره في مكان آخر، فقد كتب يقول:

((لقد فتحت عدة خنادق في التل الكبير في (باشيخا) واكتشفت قطعاً من النقوش وقرميداً منقوشاً وأواني فخارية، وفي ككارامليس أزيح التراب عن منصة من أعمال القرميد، وقد ثبت الأصل الآشوري لهذه النقوش عن طريق قراءة النقوش المرسومة على الصخور التي احتوت على اسم ملك خورسباد.

وكان من الواضح أن لايارد أصبح قادراً على فهم الكتابات السامرية بشكل استطاع أن يميز به اسم الملك والأسماء الأخرى في مواقع أخرى.

وحتى الآن فقد امتنع لايارد عن المقر في المرتفع الكبير في ككيونيبيك عبر نهر دجلة من جهة الموصل نظراً لأنه مع اهتقاره لإن رسمه بالحفر كان يخشى التدخلات من قبل الشعب في الموصل.

ولكن بعد أن تسلم بكتاب المصدر الأعظم بدأ بالعمل بثقة وشعور بالإفلات من العقوبة، وكانت المعارضة الوحيدة التي صادفها هي معارضة القنصل الفرنسي الذي ادعى بأن له حقوق الأسبقية، ولكن لايارد لم يأبه لهذه المعارضة.

منذ أن رحل بوتا حل محله (روتيه) حصلت منافسات بين الإنكليز والفرنسيين، وقد وصلت هذه المنافسات إلى الصحافة، فقد كتب أحد أصدقاء لايارد رسالة له من القسطنطينية في (٨ حزيران عام ١٨٤٦ م) يقول

قبل بضعة أشهر ظهر في جمعية **literary gazette** من القسطنطينية رسالة تتحدث بلغة مثيرة عن أعمال روتييه الفرنسي، وبشكل استعفاف واضح عن أعمالك لذلك أمل أن أكون قادراً على كتابة شيء موثوق إلى رئيس التحرير بخصوص النتائج المقارنة لتلك الحفريات.

وكان هناك مظهر آخر لهذه المناقصات وهو الأول الذي يمرض اللقيات
الآشورية أمام الجمهور في أوربة، فقد أرسل (بوتا) عينات ولصقتها تأخرت في
بغداد، وعندما علم لايارد بذلك كتب إلى السعير كاندج في أوائل سكانون الأول
عام (١٨٤٥ م) ما يلي.

((أخبرني أن علونا أن نُعمر أمر لإرسال منعوناتنا إلى أوربا بشكل أسرع من
الفرنسيين، وهذا أمر هام بالنسبة لِمُعَقَّتَات)).

وقد دعم رولسون هذه الفكرة فكتب إلى سكاندج، وعرض استعمال
ناحرة تخص شركة الهند الشرقية الرامية عند مصب نهر دجلة وقد أرسل إلى
لايارد مَوْضِعاً هذا الأمر.

((إذا استطعت أن تخلي محتويات حجرة أو حجرين قبل بداية شهر آذار،
وان تجهز الأطلواف، فإنني صوف أرسل الباخرة في ذلك الوقت مع تجهيزاتها
ومن الممكن أن تصل هذه إلى إنكلترا في أوائل الخريف حيث تعرض
معرضاتنا في معرض له حق الأولوية ويكون نصراً لنا

ولقد كتبت إلى سميرنا شيئاً حول الموضوع وهو سير باحريتنا صموداً إلى
أعلى المناطق في النهر، مشيراً إلى الفوائد السياسية عندما يظهر علكما صاعداً في
أعلى النهر.))

ولكن المنحدرات النهرية منعت استمرار سير السفينة إلى أعلى النهر حتى
ممرود، وفي تلك الحالة اضطروا إلى نقل الأثار إلى بغداد بطريق الطوف.

ولكن المرسيين ربحوا قصب السبق أخيراً ضمن مدة ثلاثة أشهر، فقد
عرضت لقيات بوتا في متحف اللوفر في شهر أيار عام (١٨٤٧)

بينما تأخرت الألواح الحجرية الإثنا عشر من النقوش السافرة التي وجدها
لايارد والتي عُرضت في المتحف البريطاني في شهر آب (١٨٤٧).

إن العمل الذي قام به (روثيه) والذي استحق به الشاء والمديح في مجلة: literary gazete لم يكن سوى شيء زهيد بالنسبة لما عمله بوتا في خورساباد مع أنه قد حصل على بعض النقوش النافذة على وجه صخرة في موقع آخر وقد زار لايارد خورسا باد في أواسط صيف (١٨٤٦) وذكر ما يلي

منذ رحيل السيد بوتا فقد امتلأت الحجرات بالروميات بسبب تهدم الخنادق، وهكذا فقد تلت جميع المحتويات ولم يبق سوى القليل من هذا النصب المرصوف، ونضيف عبارة ممتعة وهي أن الجغرافيين العرب القدماء يصفون خورساباد بأنها تحتل موقعاً يدعى سراجون.

وهذا شاهد قديم يدل على موثوقية التقاليد القديمة الشفوية التي تذكر أن سراجون ما هي إلا شكل من أشكال كتابة اسم سرجون الذي كان عصباً مهماً من عناصر هذا الاسم.

لقد قضى لايارد شهراً أو أكثر اعتباراً من نهاية آب (١٨٤٦) وهو في حالة سفر في الجبال إلى الشمال من الموصل، وعندما رجع إلى الموصل وجد أن كاننذج بعد رجوعه من إسكندرة قد حصل على دعم رسمي للحفريات، وقد كتب كاننذج يقول

سوف يتمهد المنصب البريطاني قصبة الحمريات في نمرود بدلاً عني، وقد سمحت الخزينة بصرف مبلغ (٢٠٠٠) جنيه إمبرليني في هذا السبيل. إنك أنت الموصّل بالعمل وسوف تأخذ (٥٠٠) جنيه لك فضلاً عن (١٠٠) جنيه البهنية

أما المبلغ الذي أنفقته أنا فسوف يسدونه لي، وسوف يحصل مبالغ يتراوح ما بين (١٠٠٠-١١٠٠) جنيه لتأدية إتمام العمل بما فيه أجرة شحن المحتويات التي سوف تحدها، وعليك أن تنهي كل ما ذكر في نهاية تحريران القادم.

ولكن لايارد اعتبر أن هذه الإعانة المالية غير كافية، وفيها شيء من الشح والبخل

((إن هذه المنحة قليلة، وأنا أشك أن باستطاعتي إتمام التوقعات التي توقفتها، وإن المبلغ الذي منح لبوتلا لقاء حفرياته في حورسان قد راد بشكل كبير على جميع المنح التي وجهها المتحف البريطاني التي كانت تشمل المصاريف الخاصة، ومصاريف النقل ومكثراً من النفقات التي لا بد منها في الشرق.

ولكن قد شررت أن أقبل هذا التكليف وهذه المسؤولية، وشررت أن أقتصد بالقدر الذي أستطيعه بحيث تمتلك الأمة من المواد الأثرية الآشورية ما هو أرقى من صالة المبلغ الذي خُصص لهذا الموضوع))

ولقد استمر لا يبارد في تلخيص صعوباته فقال.

((لقد أصيبت كثير من الملاحظات بالتلف وهذه حالة يجب إصلاحها، ولم يكن التصوير المتوغل في متوفرأ بمد، وإن التمجيد لا يمكن إنجازها إلا عن طريق الرسم)).

ثم يقول لا يبارد ولم يكن هناك أي دلالة بأنهم سوف يرسلون رسالاً لمساعدتي، ولذلك فإن علي أن أراقب الحمريات عن كثب، وأن أرسم جميع النقوش الناهرة بمصري والتي تم اكتشافها.

وأن أنسخ وأقارن النقوش التي لا تعد ولا تحصى، وأن أصنع قوالب عنها، أو أن أشرف على أعمال تحريات وتعليب المبعوثات))

وكان عليه أيضاً أن ينجني بيتاً لنفسه وبيتاً للأعمال، وأن ينظم الدهاق ضد غزوات القبائل العربية، وهو قد كان يبدو مضطرباً أن يضموا بين يديه قضايا خصوماتهم الخاصة وحلالتهم المائلية ليقدر ما يجب عليه أن يحكم فيها، وفي إحدى الحالات كان عليه أن يجد زوجاً لفتاة قد تقدمت إليه طلباً لحماية.

هذا وقد استأنف عمليات الحفر على مقاييس واسع في ممرود في شهر تشرين الثاني عام ١٨٤٦ وذلك عندما اشتملت لقياته على أنواع من النقش النافر ذات الأهمية وتستحق الذكر، وهو يقدم لنا وصفاً -تياً لمجوعات مختلفة

مثلاً: تحتوي السلاسل السفلية من الألواح ذات النقوش النافرة على ثلاثة مواضيع. حصار قلعة، والملك وهو يستقبل الأسرى، والملك مع جيشه وهو يعبر النهر، ويرى المحاربين وقد جلبوا منجيقاً للقصف (وهو موجود في برج متحرك مصنوع من الأعصان المجدولة من القصب) وترى أحجاراً كثيرة قد تم إطلاقتها من المنجنيق وهي تتساقط على القسم الخارجي من السور، ويرى أحد الجنود النبي قد حوصروا وقد نجح في إمساك المنجنيق بسلسلة وهو يحاول رده وتحريره من مكانه.

ويرى جندي آخر وهو يلقي النار من الأعلى إلى آلات الحصار (وترى آثار الدخان الأحمر لا تزال عالقة على المسحوتات) ويرى الجيش المحاصر في الأسفل وهو يحاول إطفاء النار وذلك بحب الماء عليها من صنبورين موجودين في البرج المتحرك، ويرى شخصان يلعبان كمال الدروع والأسلحة وهما يحمران تحت الأسوار بواسطة أدوات تشبه الترماح المثلمة، بينما نلاحظ أن اثنين آخرين قد وجدا ممراً سريعاً يوصل إلى داخل القلعة.

وبالإضافة إلى النقوش النافرة وجد لابلارد دروعاً من الحديد والبحاس وخوداً وأواني من الرخام الشفاف ومن الزجاج، وكذلك ثوراً مجنحاً هائلاً وسلّة سوداء من الرخام علوها ستة أقدام ونصف، وإن أفضل وصف لهذه الأشياء ذكره لابلارد بنفسه

((لقد كانت هذه منجونة من جواهبها الأربعة، وكان هناك أربعة وعشرون لوحاً من الألواح المنقوشة النافرة وفوقها وتحتها وفي ما بين جوانبها كتبت نقوش تحتوي على ٢١٠ أسطر وقد كانت كلها محفوظة بشكل جيد، ولم يكن هناك أي حرف من حروف النقش ناقصاً أو مفقوداً، وكانت صور الأشخاص واضحة ومحددة كما لو أنها قد سحت قبل أيام، ويرى صورة الملك مرتين يتبعه رجاله، وأسيراً قد ارتقى تحت قدميه، ويرى الوزير ومعه بعض الخصيان وهم يقدمون رجالاً يقودون حيوانات مختلفة ويحملون مزهريات وأشياء أخرى تتعلل بالجزية..

والحيوانات المصورة هي العيل والكر كمن والجمل ذو المنامى والثور
البري، والأسد والوعل وأنواع مختلفة من القروء، وبين الأشياء التي يحملها الرجال
سكجزيه وكانت أنياب الفيل، والشالات والمزهريات المصنوعة من المعادن الثمينة،
والقواكه والقضبان من المعدن أو حُرم من الأخشاب النادرة))

تحتوي نمرود على عدد من القصور تعود إلى فترات مختلفة خلال القرن الثامن
والقرن التاسع، وكانت معظم اللقيات المذكورة من القصر الشمالي الغربي،
ولكن لا يارد كان يحمر في أقباض قصر في الزاوية الجنوبية الغربية من النل وهنا
وجد آثاراً من نوع مشابه ولكن كانت هناك هروق سجلها بناية وقد وصمها بأنها
تعود إلى تاريخ مختلف، وإن أحد العوامل التي أعطت لعمل لا يارد أهمية خاصة عند
اكتشاف بلاد آشور من جديد كانت حيرته في المجالات الفنية، وربما كان ذلك
نتيجة لتربيته الأولى في فلورنسة الأمر الذي ممكنه أن يرى بسرعة مالا يستطيع أن
يراه أحد من تتابع قطع من هتون النحت تتابعاً رمزياً.

في هذه الأيام ربما اعتبرنا عملاً غير لائق أن نسال عالم آثار عما وجده، فإنه
من المحتمل أن يجيبنا بتكلف أنه يمتش عن أجوبة لعدة مشاكل وهو لا يبحث عن
أجوبة عن الأشياء، ولكن كان للايارد موقف صلب وقد كوفى بذلك النجاح
الحقيقي الكبير وذلك بأنه استطاع أن يرسل حمولة كبيرة أخرى من اللقيات إلى
الأماسكن الموجهة إليها في المتحف البريطاني وهنا نراه يقول:

((وفي يوم عيد الميلاد عام ١٨٤٦ شعرت بالرضا والامتنان لولية طوف وهو
يحمل ثلاثاً وعشرين محفظة ومن ضمنها المسلة وهي عاتمة فوق النهر، وقد
راقتهم حتى عابوا عن الأنظار، وبمدها أسرعرت راجكضاً إلى الموصل لأحتفل بعيد
الميلاد مع حفلة قليلة من الأوروبيين الذين جمعهم الواجب أو شؤون العمل في هذه
البقعة الثانية من بقاع العالم)).

وبعد عطلة الميلاد تابع لا يارد عمله في الحفريات في نمرود وبصورة رئيسية في
القصر الشمالي الغربي خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٨٤٧، وكانت إحدى
لقيات الممتعة حجرة مملوءة بالمعاج المحفور، وكانت هناك أيضاً عرف فيها رسوم

جدارية باللون الأحمر والأزرق والأسود والأبيض، ولصكه ولسوء الحظ لم يستطع أن يحفظها من التلف.

كان هناك مكتشفات مهمة أخرى بحيث لا مجال لذكرها هنا، ولكن لا يارد قد ذكرها في مذكراته وهنا يذكر خلاصة أعماله في نمرود:

((لم يكن بوسعي القيام بأعمال الاستكشاف كما يجب، ولكن ومع وجود ذلك المبلغ الضئيل من المال تحت نصري لم استطع أن أمارس أعمال الأبحاث إلى المدى الذي كنت أتوقفه وأرغب به، ولهذا فقد تركت مرتفع نمرود لمن سيأتي بعدي من المستكشفين الذين سوف يعملون على استكشاف خرائب آشور)).

وكما سوف نرى فإن هذا التحديّ المطروح لم يتطرق إليه أحد إلا بعد قرن من الزمان وبجراح كبير على يد ب. د. مالوان (المير ماكس) فيما بعد وهو روج أجاذا كريستي

وعندما نشر لا يارد نتائج أبحاثه فقد وقع في خطأ وهو أنه طابق اسم نمرود مع نينوى التي تمثل بالحقيقة بكيويوبيجيك والنبي يونس ولم يكن الخطأ سببه لا يارد الذي ترك السؤال مفتوحاً مدة طويلة بل كان السبب هو رولنسون الذي كتب إلى لا يارد بتاريخ ١٠ كانون الأول عام ١٨٤٥ ما يلي.

((لقد فحصت مؤحراً بمناوبة تامة القضية الجغرافية والتاريخية المختصة بنمرود وأحيرت فوصلت إلى استنتاج قاطع وهي أن نمرود هي نينوى التي هدمها (سارد أبابا لوس) أما الخرائب الموجودة في النبي يونس فهي خرائب نينوى الثانية وهي عاصمة الأسرة الآشورية الأخيرة))

لم يعتمد رولنسون على الصواب، كما من الممكن أن نتصور فإذا استبدلنا كلمة عاصمة آشور بكلمة نينوى فإن ما قاله رولنسون يبدو صحيحاً، إذ إن فكرته بأن نمرود كانت عاصمة أقدم وقد حلّ محلها عاصمة كانت النبي يونس جزءاً منها، فهذا كلام صحيح ودقيق مع أن اسم نينوى يخص العاصمة المتأخرة.

لم يكتب لايارد بعلييات الحجر في نمرود وكيونيحيك، فقد سمع قصصاً من الزوار العرب عن موقع يدعى قلعة شيرجات (باللغة العربية قلعة الأرض) وهي واقعة على نهر دجلة على بعد حوالي ستين ميلاً إلى الجنوب من الموصل وهو يقول:

((كان هناك أحد العرب من قبيلة شمر (وهي قبيلة رئيسية في الجزيرة العربية) كان يقضي من وقت لآخر ليلة بين عمالي ويسليهم برواية القصص حول الأصنام والأشكال المنحوتة التي تمثل المردة التي كانت سبباً في دخول الخوف والرهبنة في قلوب القبائل المتجولة الذين ينصبون خيامهم قرب ذلك المكان)).

ويقول ((إن المظهر كان خطراً للغاية لكونه كان لقاء لكل الجماعات التي تعمل في السلب والنهب، ولكن أصبحت حركات القبائل الآن تعمل ظروفها يستطيع حلها إن يذهب حياً منها بأمان وأطمئنان ولكمه وجدها بقعة موحشة)).

ويقول لايارد، لقد توجهنا نحو الخرائب بعد الظهر وركبنا بمحذاة العابة هوجدنا الأرائب البرية والدثاب والثعالب وبنات أوى والحنازير البرية وكانت تعبر الطريق أمامنا باستمرار، وكانت طرائد الصيد متوفرة ومن جميع الأنواع وتوجد الأسود أحياناً قرب قلعة شيرجات، وحالما توجهت إلى بغداد قبل عام سمعت زئير أسد ليس بعيداً عن المنطقة.

ولقد أرسل لايارد جماعة من العمال قبل ذهابه ببيعة أيام لكي يبدؤوا بالنفريات هوجدوا تمثالاً مقطوع الرأس مصنوعاً من البازلت الأسود، وقد ساعدت لايارد إجادته وتمكنه من معرفة وفهم الحروف المسمارية تمكنه هوراً أن يحدد هوية هذا التمثال وأنه يعود إلى لقيات نمرود

وكانت قطعة الحجر التي توضع عليها التمثال مقطوعة من ثلاثة جوانب بالنقوش المسمارية، وكان السطر الأول يحتوي على اسم وألقاب الملك ولكن بشكل غير واضح، ولكن وجدت بعد قراءة كلمة أو كلمتين استطعت أن أستعيد اسماً مطابقاً للاسم المكتوب على التمثال الثور العظيم الواقع في منتصف قلعة نمرود، وعندما توجهت عيناى إلى الأسفل نحو العمود الأول من النقوش وجدت اسمي والده (وهو باني أقدم قصر في نمرود) واسم جد.

وهذا أثبت أن القراءة كانت صحيحة، وبعد ذلك جلب أحد البدو قطعة من الفرميد تحتوي على خرافة صغيرة فيها ثلاثة أسماء كاملة، وهكذا استطعت أن أعين الفترة الرمنية لتلك الخرائب المستكشفة حديثاً.

ونحن نعلم الآن أن الملك الذي دعاه الجند لم يكن سوى ثوكولتي دينوثر الأول (٨٩٠-٨٨٤) ق. م، وأما ياسي أقدم قصر في نمرود فهو آشور ناصر بمل الثاني (٨٥٨-٨٢٤) ق.م، وإن التمثال المصنوع من البازلت الأسود كان ابنه سلمناصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤) وهو التمثال الجالس الذي يعطي جمالاً لصاله نمرود المركزية في المتحف البريطاني في لندن.

لقد كانت الحالة الأمية في قلعة شيرجات سيئة مما حرم لايارد من هرحة استمرار العمل هناك ما عدا مظرة حاطمة، وكان على عمليات الحفر أن تنتظر قنوم بعثة ألمانية في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى، هذا وقد عاد لايارد إلى نمرود لإكمال حفرياته الأسامية، ولكي يرتب قضية نقل الثور المجنح العظيم والأسد وقد فعل ذلك بواسطة عجالات وعربة صنعت خصيصاً لهذا الغرض، وقد جرّها حوالي ثلاثمائة رجل كانت تشجهم الموسيقى والنساء المشدات مسافة ميل تقريباً من التلة في نمرود إلى صفة نهر دجلة، وهناك تركت هذه الآثار لتتظر ارتفاع ماء النهر الذي سوف يساعد في زحرجة التمثال الكبير وإدخاله إلى الطوف (الكهليك).

وبمناسبة حدوث موجة من الفحط انتقل سكان جميع القرى الواقعة حول نمرود إلى القلال حيث كانوا يأملون في زراعة بعض الحبوب، وكذلك فقد نرح البدو الرعاة وقبائلهم شمالاً، وهكذا لم يكن هناك أي عربي في المنطقة سوى عمال لايارد، وحالما حصل ارتفاع في منسوب النهر أصبح من السهل إدخال المحتوات إلى القارب ولكن الرجال من العمال ظنوا أن لايارد بحاجة إليهم وإلى مساعدتهم فقد قاموا بعمل إضراب طلباً لرفع الأجور، ولكن لايارد لم يكن بالرجل الجبان الذي من الممكن إرهائه، ولذلك سمح لهم بالذهاب فذهبوا ولكن بعض المائلات رفضوا معادته.

ولكن كان هناك قبيلة من البدو الرحل كانت تربطها علاقة الصداقة مع لايارد فأرسل لهم لايارد رسالة مع شخص على ظهر حصان، فترسلوا له رجالاً لا يحضون لإتمام العمل، وعندما رجع المضيرون وعرضوا استئناف العمل بأي شروط، ولكن لايارد استمع أن يتم العمل بدونهم.

وبعد أن تم نقل المنحوتات عمد لايارد إلى دهن المنحوتات الباقية بناء على تعليمات وردت من أمانة المتحف البريطاني، وقد ترك نمرود في منتصف شهر أيار عام ١٨٤٧.

وبظراً لوجود بعض المال الذي بقي من المنحة التي قدمت له قرر أن يستعمل هذا المال في عملية حفر في كيونيجيك، وقد كان يقصد بذلك عرس النمرود البريطاني هناك بقصد إحراج القصر الفرنسي الجديد وهو م. عوليس الذي كان قد قدم طالباً السماح له بالحفر هناك، وكان لايارد صريحاً بالنسبة لأهدافه عندما كتب إلى كاندج بتاريخ ١٤ حزيران عام ١٨٤٧ ما يلي

((لقد قمت بعملية الحفر في كيونيجيك خلال الأسبوعين الماضيين وقد نجحت العملية إلى حد ما، ولقد كشفت عن ثمانية حجرات، هذا وإن استكشاف هذا البناء والذي توصلت إليه الحفريات ربما تؤكد وتدعم ادعائنا بأحقية العمل في المستقبل في هذا التل فيما لو رغب أبناء المتحف البريطاني باستمرار البحوث في هذه البلاد)).

لقد كان المشكل العملي بالنسبة لأعمال الحفر في كيونيجيك والمشكل الذي جمد نشاط بوتان في محاولاته هناك عمق التربة الكبير فوق مستوى الأرض في بلاد آشور، ولقد كان لايارد عالماً بهذا الأمر، فقد حفر حنادق على عمق عشرين قدماً لكي يصل إلى الأرض التي بني فوقها القرميد المشوي بالشمس، وهذا أيضاً وجد الواحاً من النقوش القاهرة وثيراناً مائلة مجسدة

هذا وإن معرفته بالرموز المسمارية جعلته يعلم أن الملك الذي كانت هذه الآثار تنتمي إليه كان هو ابن الملك الذي بنى خورساباد، وكما نعرف الآن أن قصر كيونيجيك الذي يمثل بينوى قد بناه سنحاريب الذي كان والده سرجون بابي

قلعة مرجون (خورساباد) وقد سجل هذا الملك أيضاً عدة النواح مستطيلة مصنوعة من القصيريد غير المشوي مع وجود بعض النقوش المسمارية فوق جوانبه.

وكانت هذه أول الدلائل لوجود تلك الثروة الهائلة من الألواح المسمارية في كويونيجيك التي كانت في غاية الأهمية بالنسبة لمعرفة تاريخ منطقة ما بين النهرين.

لقد مال لا يارد مساعدات لا بأس بها في كويونيجيك من هنري جيمس روس، وحالما كان لا يارد يقوم بالاستعداد لمفادرة منطقة ما بين النهرين ككلفت المتحف البريطاني (روس) بالاستمرار وعلى مقهاش ضيق بالحمريات في كويونيجيك وكان القرض الأساسي الاحتفاظ بحق بريطانيا في هذا الموقع، وقد عادر لا يارد المنطقة متوجهاً إلى القسطنطينية في شهر حزيران عام ١٨٤٧ ووصل إلى إنكلترا في وقت عيد الميلاد وذلك بعد أن عرض رسوم المنحوتات الآشورية على رجال علم الآثار في إيطاليا وقضى بعض الوقت في مناقشة اللقيات مع (بوتا) وزملائه في باريس.

ولكن أعماله أصبحت معروضة جيداً في إنكلترا، وفي أوائل شهر تشرين الأول عام ١٨٤٦ عقد اجتماعاً للمؤسسة الملكية للعمارة برئاسة الإبريل دي جري، وذلك لأجل بحث ما وصفه لا يارد لأحد البنى الأثرية في (تل هاور) في منطقة ما بين النهرين، وكذلك لمناقشة بعض الآثار المكتشفة حديثاً في نمرود (وهو موقع نهني) وقد كان أولى لقيات لا يارد قد عُرضت في المتحف البريطاني منذ شهر آب عام ١٨٤٧ وقد أثار ذلك العرض صجة لا بأس بها في الرأي العام، وقد كان أصدقاءه حريصين أن يمال الشرف الذي يستحقه.

فقد كتب كاندج (ينبني عليك أن تقدر معظم الآثار الآشورية وأن تصنف هذه الآثار وأظهر أفضالك واجمل الجمهور يفهم أنهم قد حصلوا على جائزة كبرى).

وهكذا بدأت آيات الشرف تتوجه نحوه، إذ إنه وبعد وقت قصير من عودته إلى بريطانيا انتخب عضواً في المجمع العلمي، وفي شهر تموز عام ١٧٤٨ منح درجة الدكتوراه بـ D.C.L من جامعة أكسفورد.

ولقد ألقى اهتمام الرأي العام بالآثار الآشورية أمانة المتحف البريطاني باستثاف عمليات الحفر في منطقة ما بين النهرين ومن المفضل أن تكون تلك العمليات بإشراف لا يارد، ولكنه فضل رفض هذا الطلب لمببين وكان أحدهما مادياً نظراً لأن سُلّم الأموال التي يخصصها المتحف البريطاني لمثل هذه الأعمال كان ضئيلاً

أما السبب الآخر وهو أنه رغم نجاحه المرموق في عمليات الآثار إلا أن ذلك كان مجرد هواية بالنسبة له، فقد كان همه الحقيقي هو العمل في الحقل الدبلوماسي، فقد أحرز درجة راقية في هذا السبيل وذلك بتعيينه ملحماً ثقافياً للسفير سائر آيفور كاننج في القسطنطينية (ولكن دون راتب) وقد ترك بريطانيا للحاق بذلك المنصب في شهر تشرين الأول عام ١٨٤٨ وقال كما أخبر صديقه، إنه سوف يلتحق بوظيفة ملحق ثقلياً دون أجر وهو لا يملك ستة بنسات.

وفي أثناء ذلك كان مستمداً لنشر مكتبه ونتائج أعماله، فأصدر مجلداً يحتوي رسوم الأنصاب الذي ظهر في عام ١٨٤٩ تحت عنوان ((أنصاب نينوى)) وبعد ذلك صدرت له إصدارات جديدة عام ١٨٥١ بعنوان (مخطوطات بالرموز المسمارية من الأنصاب الآشورية) وقد وضع فيها لوحات من نسخ من النقوش المسمارية كانت في غاية الدقة بحيث إنها لا تزال ذات قيمة للباحثين بعد قرن وربع من الزمن من صدورهما

ولكن رائحته وأفضل مؤلفاته كانت كتاب (نينوى وآثارها) وكان في مجلدين وهو يعطي قصة حياة ليس بالمسبة لحفريات بصورة عامة في نمرود التي وردت خطأ باسم نينوى) فحسب، بل أيضاً بالمسبة لرحلاته وقد نشر هذا الكتاب في بداية عام ١٨٤٩ ولم يكن هذا الكتاب نجاحاً كاملاً فحسب، بل كان

ضجة قوية وقد أصيب لايلارد بالذهشة بفدر ما أصيب بالسرور وقد كتب من القسطنطينية في ٥ شباط مخاطباً أحد الأصدقاء:

((لقد غمرني العجب من المديح الذي لاحظته بالنسبة إلى كتابي المتواضع، وأنا أشك أن أحداً يمرح عني، وإن (موري) الناشر يفكر بإصدار طبعة ثانية ومع ذلك كانت تقديرات الناشر غير كاملة))

ففي شهر أيار صدرت الطبعة الثالثة، وفي تموز ظهرت الطبعة الرابعة وقد كتب أيدوين لاوريس إلى لايلارد من مكتب الخارجية في ١٩ شباط يقول:

((أهمنك لأنك أصدرت كتاب الموسم، الحقيقة لم ينل أي كتاب ما داله كتابك من التقدير وحيث ما أذهب أسمع السؤال

ما هو رأيك في كتاب لايلارد؟

وليس هناك أي شخص يسأل هل قرأت هذا الكتاب؟

لأن ذلك أمر مقروغ منه.

فقد زار كل شخص ذي أهمية ابتداء من الأمير ألبرت الأثار الأثرية في المتحف البريطاني.

وقد كتب صامويل بيرتش من المتحف البريطاني إلى لايلارد في ٢٨ آذار ما يلي
لقد جنّ العالم شوقاً لرؤية الذهب والجميع يصيحون، الثيران، الثيران ولقد
أنعمتني تلك الجماهير من الناس القادمين من صفوف اللوردات والعديدات الذين
أتوا لرؤية نمرود.

ولكن حدثت بعض المنفضات من جراء هذا المديح، فقد كتب له رولنسون
من بعداد بتاريخ ١٧ كانون الثاني يقول:

ما رأيك بتلك الهجومات الموجهة إليك من قبل المجمع العلمي الذين يمتنونك
بكونك أحد برابرة القرن التاسع عشر؟

هل تعتقد أن بوموي يفكر أن نمرود هي الثياف؟

أما يونومي فكان يكبر لايارد بعشرين عاماً وكان من الثقات في النحت وقد
حاز على شهرة عندما رسم الأصباب المصرية

وقد تابع هجومه على لايارد بنشره كتاباً ناجحاً عنوانه (مينوى وقصورها) مع
عنوان إضافي (اكتشافات بوتا ولايارد بالنسبة لشرح الكتاب المقدس) وكان هذا
تكميماً لكتاب لايارد نفسه وهو (تهنوى وأثارها) ولكن بشكل أقل أناقة وروعة.

وفي القسطنطينية كان لايارد يشك بالحكمة في اشتراكه مرة ثانية في
الحفريات في منطقة ما بين النهرين، ولكنه سمع الآن أن الحكومة البريطانية قد
أعطت التعليمات لكاندج بالاستفادة من خدمات لايارد لذلك العرص (أي
بالحفريات) وبعد وقت قصير علم أنه سوف يوظف كمحقق ثقلي ولكن باجر
قدره (٢٥٠) جنيهاً إسترلينياً سنوياً كاعتراف من الحكومة بأهمية خدماته
بالنسبة للتاريخ القديم.

وقد هنأ كاندج قائلاً أتمنى لك السرور لأنك قد أصبحت ملحقاً ثقافياً
براتب، وإن هذه الوظيفة هي بمثابة كمسكة رقيقة الحجم لنسب المجد السيف
الذي حظيت به، ولكنها ليست شيئاً على كل حال.

ولقد صوّت البرلمان على إعطاء منحة قدرها ١٥٠٠ جنيه إسترليني لمدة سنتين
مكافأة على القيام بعمليات الحفر في منطقة ما بين النهرين، ولقد تم تأمين هيئة
صغيرة تتألف من أحد الفنانين وطبيب وهرمز رسام وهو الأخ الأصغر لنائب
القنصل البريطاني في الموصل، ولقد أرسل المتحف البريطاني مذكرة إلى لايارد
مؤرخة بـ ١٤ تموز تلخص شروط الحفريات

إن الحملة التي سوف يصبح السيد لايارد مسؤولاً عنها قد شكلت للحصول
على أوسع المعلومات وأدقها بخصوص الآثار القديمة في منطقة ما بين النهرين التي
من المحتمل أن تستطيع الموارد المالية للأمانة العامة للمتحف تقديمه في هذا الصدد.
وكانت هذه المعلومات التي سوف تقدم للمتحف البريطاني سوف تكون
بشكل عيّنات مختارة من الآثار المنحوتة والمنقوشة، وجزء منها بشكل مخططات

الأنية المكتشفة ورسوم النقوش والمنحوتات ونسخ عنها مع أوصاف مفصلة عن الأشياء والمواد التي من الممكن أن تظهر أثناء الحفريات.

ولا تمتد الأمانة العامة أنه من المناسب تقييد حركة السيد لايارد بتحديد المواضيع التي سوف تشملها أبحاثه، إذ إن خبرته الواسعة بأحوال تلك البلاد ومواقفها الأثرية سوف تكون أفضل مرشد

ولقد اعتبر لايارد أن المبالغ التي وضعت تحت تصرفه كانت صئيلة وغير كافية، لذلك كتب إلى أحد أصدقائه يقول

((لا يمكنني القول إن أمناء المتحف البريطاني قد ملكوا سلوكاً مناسباً وتصرفوا بمسحاء، ومن جهة أخرى أظن أن الرأي العام قد عاملني معاملة سخية وممتازة مما يعوضني عن معاملة الأسماء.

وفي السنة التالية كان أكثر شكوى من السنة الماضية وهو يقول.

((إن أسوأ ما في الأمر هو أن الأموال المخصصة مقننة، ومن المنتظر أن أقض وقتي أيضاً، فلو منحوني المبلغ مباشرة فإني أستطيع أن أنهي العمل في مدة سنتين. أما في الظروف الحالية من تقييد الأموال فإني لا أستطيع إنهاء نفس العمل في مدة خمس سنوات أو ست سنوات، أما الرسام الذي أرسلوه لي فهو غير لائق لعمله وليس بإمكانه أن يخدم المصلحة بجدارة وعدل))

لقد غادر لايارد القسطنطينية متوجهاً إلى الموصل في أواخر شهر آب عام ١٨٤٩، ولقد كانت أعمال الحفريات التي قام بها في حملته الثانية أوسع مدى من حملته الأولى، فقد امتدت إلى بابل جنوباً حتى بيبور مع أن نجاحه كان محدوداً بسبب الأحوال غير المستقرة هناك.

وأما في آشور فقد كان عمله موزعاً ما بين كويوييجيك ونسرود مع قضاء بعض الوقت في قلعة شبرحات ومواقع أخرى.

وكانت طريقته في الحفر هي الاستمرار حتى الوصول إلى أرض الحجرات المائدة إلى القصور الآشورية وبمدها يعمل حول الجدران حتى يجد أمثلة مناسبة

من اللقبات مثل الألواح من النقوش السافرة التي كانت متوفرة في القصور
الأشورية.

ولكن في إنشاء تنظيم أراضي المرفق فقد وجد عدة لقيات ممتعة اشتملت
ممرود على مجموعة مهمة من المواد البونزية كالأجراس والأسلحة والمراجل
والمرمرات وحتى المروث الملكية.

وكذلك اكتشف تمثالاً بالحجم الكامل للملك آشور ناصر بل في حالة
جيدة تقريباً.

أما في كيونيچيك فقد اكتشف مجموعة ضخمة من النقوش السافرة وبعضاً
من تماثيل الثيران المجنحة ولكن أهم لقية وجدها في الموقع الأخير كانت أول
مجموعة كبيرة من الكتابة المسمارية من مكتبة آشور ناصر بل والتي إذا حلت
رمورها فهي سوف تقدم المفتاح للوصول إلى الأدب والدين والطب وطرق المعيشة
والتفكير بالنسبة للناس الذين سكنوا منطقة ما بين النهرين القديمة.

لقد دامت أعمال الحفريات أثناء حملته الثانية ابتداءً من تشرين الأول عام
١٨٤٩ حتى نيسان عام ١٨٥١ ولكن سادت صحة لا يارد وأصابه الاكتئاب لاسيما
بالنسبة إلى المزن والأموال التي حصصها المتحف البريطاني وهو يقول.

((لقد وصلت البعثة إلى حالة ميؤوس منها ، ولم يعد لدي أموال مناسبة ولا
عون أو مساعدة مناسبة وسوف لا تصل الأمور إلى النهاية إلى المستوى الذي كنت
أتوقعه)).

ووصلت الأمور إلى درجة أن قرر أن يترك الأعمال الأثرية إلى الأبد ، وقد أجبر
أحد اصداقائه قائلاً

((أظن أنه حان الوقت لكي أترك أعمال الحفر وأن أعود للاهتمام بواجباتي
في هذه الحياة وأن أسمى لتكوين وضع دائم لنفستي)).

ولقد أصبر على هذا القرار رغم الجهود التي بذلت لإقناعه للقيام بحملة
ثالثة ، وعند رجوعه إلى إنكلترا في شهر تموز كان قد قرر أن ينتهي وبشكل

نهائي من ميدان علم الآثار وهكذا فعل، ولكن أنجز لايلارد التزاماته من خلال إصدار كتابين آخرين وهي سلسلة ثانية من كتاب نصب نينوى والثاني قصة بعثته الثانية تحت عنوان: (اكتشاف بين أطلال نينوى وبابل) ولقد لاقى هذا الكتاب نجاحاً يضاهي نجاح كتاب (نينوى وآثارها)

وفي أثناء ذلك استمر رولنسون بالمراسلة مع لايلارد حول شؤون التعاقد الزماني حول هراة المنحوتات المسمارية، وسوف يستمرق معاً وقتاً طويلاً إذا بحثنا هنا عن تاريخ الخطوات والمراحل التي مرّ بها تقدّم رولنسون.

ولقد رأينا أنه قد أكمل حل الأبيدية المسمارية الفارسية القديمة عام ١٨٤٥ وفي عام ١٨٤٩ أعرب لايلارد عن رضاه على مقدرة رولنسون قراءة الشكل الآشوري من الرموز المسمارية، فقد كتب لأحد أصدقائه في إنكلترا.

لقد كان رولنسون هنا مؤخراً وقضى يومين أو ثلاثة أيام معي، ولقد سلمته رسالة إلى الضيوف، وهذا التصرف لم أسكن لأقدم عليه لولا معرفتي أن رولنسون أسد حقيقي فهو صديق من الطراز الأول ومن المؤكد أنه الأول في مجاله، ولا شك بأنه سوف يدهش الناس في إنكلترا باكتشافاته في مجال الكتابة المسمارية، ولا شك أنه الآن أصبح ملماً بجميع القضايا المبدئية بالمسبة لكل رموز النقوش، وأن الكتاب الذي يسوي نشره وهو في إنكلترا سيكون ترجمة تقريبية إن لم تكن كاملة لتلك النقوش الموجودة على العملة ومعظم السجلات المهمة في آشور والتي اكتشفت حتى الآن.

فكتور بلاس وهرمز رسام

في أثناء حملته الثانية أقام لايلارد مساعداً وهو هرمز رسام وهو أحد مواطني الموصل من المسيحيين وهو الأح الأصغر للرجل الذي خدم مساعداً للمفصل البريطاني، وكان لايلارد قد أرسله إلى كلية أوريال في أكسفورد لإتمام تعليمه، وعندما رخص لايلارد القيام بالحملة لثالث مرة وهي التي حطّطت لها الأمانة العامة

للمتحف البريطاني، فقد اقترح تعيين رسام في هذه المهمة، ولقد حدث عندما أرسل رسام في عام ١٨٥٢ لمحاولة أعمال الحفريات تحت إشراف رولنسون في بغداد

ومع ذلك في بداية شهر كانون الثاني عام ١٨٥٢ وصل إلى الموصل قنصل هرسبي جديد اسمه فيكتور بلاس، ولقد أخبر هذا رولنسون عن نيته بأن يرأول أعمال الحفر في كويبيجيك، ولذلك لم يكن من مانع لدى رولنسون نظراً لأنه كان يعتقد أن لا يارد قد نظف المكان وأخرج منه كل المواد ذات الأهمية الأثرية وعند وصول رسام الذي كان يعرف جيداً أن هناك أشياء كثيرة ينبغي عملها في كويبيجيك لذلك لم يمانع

وبعد ذلك بدأ بلاس ورسام يعملان كل على حدة في أماكن مختلفة من الموقع، ولقد أحرز رسام خطأ أوفر من النجاح، فهو لم يكتشف سلسلة رائعة من النقوش الماهرة من التي كانت تصور صيد الأسود من قبل آشور بانيبال فحسب تلك النقوش التي تتميز إحدى أمجاد المتحف البريطاني، ولكن اكتشف أيضاً مجموعة من الألواح المسارية التي تؤلف مكتبة الملك والتي كانت تؤلف أسس علم الدراسات الآشورية.

وبعد ذلك دخل بلاس ورسام في منافسة للحفر في قلعة شيرجات ولكن لم يفل أي واحد من هذين الرائدتين أي نجاح هناك، ولكن هناك هناك مجال مرضي للعمل في نمرود حيث استمر رسام في إنجاز أعمال لا يارد وكانت نتيجة جيدة ولاسيما في خورساباد، وهناك كشف بلاس عن مائة وست وثمانين حجرة أخرى في أحد القصور الآشورية بالإضافة إلى أربع عشرة غرفة كان قد وجدها بوتا

ولقد كان لدى بلاس أهداف تختلف عن أهداف بوتا ولا يارد مثلاً بدلاً من التركيز على لقيات قابلة للعمل فقد كان مهتماً باكتشاف المخططات المصممة للأبنية وإن ما كشفه في خورساباد لا يزال أفضل مثال لقصر آشوري.

وقد عرّض بلاس أيضاً بعض الرسوم الممتعة لواجهات الأبنية بعد ترميمها، ورغم مظاهر الاحتكاك ما بين الرجلين حول حقوق الحفريات إلا أن العلاقات ما بين رولنسون وبلاس كانت على مايرام، ولقد تبادل هذان الممثلان لدولتين

مختلطين النُصب التذكارية من كيونيجهيك ونمرود وخورسباد وأرمسلاها إلى متاحفها المختلفة ، ولكن حدثت مصيبة للأثار الغريبة وهي على نهر دجلة عام ١٨٥٥ ولذلك أعيد إرسالها بواسطة كيكليك بالطريقة المعتادة ، ولكن وفي المنطقة التي يلتقي فيها نهر دجلة مع نهر المرات تعرض الركب لهجوم من بعض القبائل المربية المتمردة وهكذا عرق اثبات من الكيكليك واحتقت حملتاها من الأثار في مياه نهر دجلة ، وهناك بقيت هذه الأثار تنتظر الأموال والتجهيزات والاستقرار السياسي والحظ للمساعدة على إنقاذها واستعادتها

ولقد أنهى بلاس ورماس حمرياتها عام ١٨٥٤ وبعد رحيل رسام أنجزت بعض الأعمال في كيونيجهيك من قبل شخص آخر يمثل المتحف البريطاني وهو W.KLOFUS (كلوفوس) الذي انحصر عمله الرئيسي في الحفر في المنطقة في جنوب بابل وقد بدأ الاهتمام الآن بالانتقال من المواقع الآشورية إلى الجنوب ، ولقد بدأ ميدان علم الأثار يظلل بتلك الأهمية التي حصل عليها تراكم الألواح المسارية.

وفي عام ١٨٥٥ استقال رولنسون من منصبه كقنصل عام في بغداد وعاد إلى إنكلترا حيث فكرس نفسه لتفسير وشرح النصوص المسمارية ، وقد كان هناك عدد من الباحثين يعملون في تفسير الرموز المسمارية ولكن كان هناك موجة من التشاؤم لدى الرأي العام بخصوص مصداقية الترجمة المقدمة ، وأخيراً قررت الجمعية الآسيوية الملكية اعتبار رولنسون وثلاثة من الباحثين الآخرين البارزين المتمدين في تحضير الترجمات بالنسبة للنفوس الطويلة ، وعندما قوربت النتائج ظهر أنها متشابهة إلى حد كبير ، مما أثبت أن تفسير الرموز المسمارية من النظام البابلي والآشوري قد تمت ببجاح وثقة

ولقد خولت الأمانة العامة للمتحف البريطاني رولنسون وأعطته كعامل المسئولية لتحضير سلسلة من المجلدات تحتوي على نصوص مسمارية مع أن معظم عمليات النسخ قد قام بها أناس آخرون ، وربما كان أشهر هؤلاء المساعدين شاب يدعى: جورج سميث ، وكان تحلّت لدى أحد نقاشي العملة وهو في الرابعة عشرة

من العمر ، ولكن اهتمامه الشديد في التاريخ التوراتي والآثار الآشورية والنصوص المختصة بذلك الموضوع أدباً به أن يقضي معظم وقته في المتحف البريطاني.

وقد لاحظ المسؤولون هذا الاهتمام ، ويعد أن أثبت بأن لديه معرفة لا بأس بها بالموضوع ، قدّمت له وظيفة لوصول قطع القنار بعضها ببعض ووصل الأنواع المكسورة المأخوذة من نيوى ، وفي أثناء هذا العمل عَلم بعنه كيفية قراءة وفهم الحروف المسمارية ، وفي عام ١٨٦٦ عُنّ مساعداً في دائرة الآثار الشرقية حيث عمل على نسخ الألواح المعذة للنشر

وفي عام ١٨٧٢ أحرر جورج سميث اكتشافاً رائعاً فقد عرف أن أحد الألواح المكسورة من كيونيجيك والتي كان يشتغل في ترميمها وكانت تحوى على نظير آشوري لقصة الطوفان في التوراة وكانت إنكلترا ما تزال أمة مسيحية لديها اهتمام عميق بالتوراة.

وعندما أعلن هذا الاكتشاف وعرضه على جمعية الآثار التوراتية في شهر كانون الأول خلق هذا العرض ضجّة كبرى فقد ظهرت الأصوات التي تنادي بضرورة استئناف عمليات الحفر في كيونيجيك لإيجاد الأجزاء المفقودة من لوح الطوفان وقدمت صحيفة **Dailytelegraph** ديلي تلفراف ألف جنيه إسترليني لهذا الغرض ، مع الاقتراح الذي يشترط أن يسافر جورج سميث ويقوم بالحفريات.

سافر جورج سميث في أوائل عام ١٨٧٣ ويعد معارصات قدمها الوالي هناك بدأ بالحفريات في أيار وفي خلال أسبوع وجد لوحاً عليه نص يحتوي القسم المفقود من قصة الطوفان.

وعندما عاد سميث إلى إنكلترا في شهر تموز ولصمهم أرسلوه للمرة الثانية ووصل إلى الموصل في أوائل عام ١٨٧٤ وقد وجد عدة مئات من الألواح في موقع كيونيجيك ، ولكن قلة خبرته والتعامل مع البيروقراطية الشرقية أنتج مصادرة بعض هذه الألواح ، وقد نشرت قصة سفرياته وعمله الملوءة بالترجمات والمناقشات حول النصوص المسمارية ، في عام ١٨٧٥ تحت عنوان (الاكتشافات الآشورية) وفي

عام ١٨٧٦ رجع جورج سميت إلى الشرق مرة ثانية ولكنه ملت بمرض الدورطاريا دون أن يستطيع القيام بأية حفريات أخرى.

ولكن وفي هذا الوقت حدث اهتمام شعبي مرموق بالككتابة بالخط المسماري في إنكلترا وأصبح الحط المسماري هو الطرار السائد في بريطانيا، وضح نجاح جورج سميت في إيجاد مزيد من الألواح في كيونيجهيك سيباً معقولاً لاستمرار التحدث بهذا الشأن.

وكان الشخص الظاهر في هذا المجال هو هرمز رسام الذي أرسل في أواسط عام ١٨٧٧ وبعد التأخيرات الناتجة عن المطالبات البيروقراطية استطاع أن يبدأ حفرياته في شهر كلون الثاني ١٨٧٥ وقام بحملات معاتلة في عام ١٨٧٨-١٨٧٩ و ١٨٨٠ و ١٨٨٢ وكان نجاحه في جميع النصوص من المواقع الأثرية الآشورية قد أدى إلى جمع مجموعتين من الألواح فيها حوالي ١٦٠٠ نص من النصوص.

وقد حملت هذه النصوص اسمه في المجلد الرابع في المتحف البريطاني، وكانت إحدى لقياته المرموقة في تل يدعى (بالاوات) على بعد حوالي عشرين ميلاً من الموصل، هي بوابة آشورية مزودة من الحشب (التي أصبحت مهترئة) وهي مزينة بالأواح من البرونز مع وجود مشاهد حربية، وهذه الألواح البرونزية قد حفظت بشكل ملاحظ، وجيد ترى الآن في المتحف البريطاني.

ولكن الجزء الأعظم من مجرودات (رسام) قد كُرس للصوامع في جنوب منطقة ما بين النهرين وليس في آشور، فقد حدث هناك انتقال هام بالاهتمام في المواقع في بابل وكانت تقدم نصوصاً تُقَدَّ بالآلوف، وخلال السنوات العشرين بعد إتمام رسام لمعلياته في عام ١٨٨٢ لم يتم أي عمل في ملاد آشور

الحملات الألمانية

هناك باحثون آخرون عدا عن الإنكليز والفرنسيين قد اشتغلوا في النصوص المسمارية وما تبعتها من التصب التذكارية.

وهناك عمل هام نشر في عام ١٨٨٢ ساعد على انتشار وشهرة علم الدراسات الآشورية في البلدان التي تتكلم اللغة الألمانية، وذلك في المؤلف الذي نشره شرانس وهو النقوش المسمارية والمعهد القديم.

وكان هذا واحداً من العوامل التي أدت إلى تأسيس الجمعية الألمانية الشرقية عام ١٨٨٩ تحت رعاية القيصر، وقد رعت هذه الجمعية عمليات الحفر في بابل التي استمرت ابتداءً من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩١٧

وقد اشتمل نشاطها الحفريات في قلعة شيرجات وهي مدينة آشور القديمة، وقد استمر العمل تحت إشراف W. Andrac (أندراك) من عام ١٩١٤

ولم يكن عمل أندراك هذا منعصراً بالبحث عن الألواح أو الآثار الأخرى، بل في عمليات تويعة باهتمام وهوس وهي متخصصة بأبحاث علم الآثار مع محاولة الكشف عن مخطط المدينة وأسوارها وأبنيتها، والعلاقات المتبادلة بينها وبين غيرها من المدن في فترات محتمة، ولقد تركزت عملية الحفر الآشورية على المثرة ابتداءً من النصف الأول للألف الأول وقد رجع أندراك عند بحثه عن تاريخ علم الآثار إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وتكهن مع أن غرضه لم يكن الكشف عن الألواح إلا أنه وجد مجموعة لا بأس بها من الألواح ذات الأهمية العالية بالنسبة للتاريخ الآشوري وهي الدين والقانون.

وبعد الحرب العظمى الأولى أعطى الانتداب الإنكليزي على العراق إيماداً جديدة بالنسبة لعلم الآثار وتشجيع من جرترويديل أنشأت دائرة الآثار وفي عام ١٩٢٤ تم تأسيس متحف بغداد، وفي نفس السنة أعلن قانون الآثار الذي بموجبه وبموجب أفضل شروطه أن دائرة الآثار العراقية ينبغي أن تستلم كل اللقيات الثمينة المكتشفة من قبل البعثات الأجنبية ونصف اللقيات غير الثمينة.

أما السنوات الواقعة ما بين الحربين العالميتين فقد أتت النتائج المرموقة من المواقع السومرية في حوض منطقة ما بين النهرين ومنها لقيات العبير (ليونارد وللي) في آشور (١٩٢٢-١٩٢٤) ومع ذلك فقد حلت بعض الحفريات في آشور مرة ثانية، وفي أعوام ١٩٢٦-١٩٣١ حفرت بعثة أمريكية في مواقع قرب كركوك وفتحت أضافاً جديدة في تاريخ بلاد آشور في الألف الثاني ق.م وذلك بتصنيفها تحت اسم أفضل مدينة معروفة فيها وهي (نوزي) وقد وجدت ألوف الألواح ذات الأهمية بالنسبة لفهمنا المجتمع في الشرق الأدنى بما فيه تاريخ البطارقة والتوراتيين، ولقد حدثت حفريات أمريكية أيضاً فيما بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٢٨ في موقعين على بعد حوالي اثني عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي من الموصل وهو (نل بيهلا) حيث صنع لايارد بعض الحفريات وثيب جاورا، وكان كلا الموقعين هامين في كون تلك الفترات المتتالية من الاحتلال كانت ترجع إلى عهود قديمة جداً وفي حالة تيب جاورا كانت تعود إلى العصر الحجري الحديث

ولقد قامت بعثة أمريكية تابعة لحاممة شيكاغو بالحفر في حورساباد عام ١٩٢٥ متجاهلة حقوق الفرنسيين القديمة بالحضر، وكانت الأهمية الرئيسية لنتائج أعمال تلك البعثة هي إحداث بعض التصحيحات في معطيات المدينة والأبنية التي نشرها فريق (بلاس) قبل سبعين عاماً مضت.

وفي أثناء نفس الفترة أعاد المتحف البريطاني والمؤسسات التابعة له عمليات الحفريات في كويونجهيك (١٩٢٧-١٩٢٢) وكانت أهم تطورات هذه الأعمال هي محاولة فحص فترة ما قبل التاريخ في ذلك الموقع عن طريق الحفر العميق الذي أعاد تاريخ الاحتلال إلى الألف الخامس ق.م، وكان هذا العمل صعباً جداً من وجهة تقنية بحيث كان الشخص المساعد والمسؤول وهو م. ي. ل. مالون كان مجبراً أن يحضر حفرة عمقها تسعون قدماً للوصول إلى الأرض البكر وذلك للحصول على معلومات مستقضة حول المستويات التابعة لفترة ما قبل التاريخ المختصة بالاحتلال والاستيطان في تلك المناطق، قام مالون كذلك وفي عام ١٩٢٢ بالحفر في الموقع القريب وهو (أريشية) حيث لم يحصل أي احتلال في تلك المناطق.

وكان المظهر الدولي للمريض للأبحاث الآشورية فيما بين الحربين العالميتين قد ظهر في اشتراك بعثة إيطالية بدأت موسماً من الحفريات عام ١٩٣٢ في مدينة آشورية تدعى (كاليهي) (هزات سابقاً باسم كاكورو إلى الجنوب الشرقي من أربيل.

ولقد منعت الظروف السياسية استمرار العمل، وكان هذا لسوء الحظ من وجهة نظر علمية، حيث إن السكان المحليين هناك وجدوا وهم يحصرون دون إذن من السلطان ألواحاً مسمارية لا تزال تعود إلى ملكية خاصة لم يشير أي شيء عن هذه الألواح ولم يقرأها أحد.

إن الحدود الآشورية القديمة لا تتطابق بدقة مع حدود الجزء الشمالي من دولة العراق الحديثة، ونتيجة لذلك هناك مواقع في شمال شرق سورية لها علاقة بتاريخ آشور، ولقد جرت أعمال الحفر في بعض هذه المواقع مع الحصول على نتائج مهمة، وكان أشهر هذه هي حفريات تل خلف قرب منبع نهر الخابور والتي قام بحفرها (بارون ماسكس فوان وانهايم) قبل الحرب العظيم الأولى وبعد العشرينيات من القرن العشرين ١٩٢٠ وقد كان أهمية هذا الموقع تعود لسببين:

أولاً: لكونه مصدراً من مصادر تأمين الوثائق المسمارية المتصلة بمركز ولاية آشورية وهو (جوزانو).

وثانياً: لكونه موقفاً يمود إلى أحد المواقع الثقافية في فترة ما قبل التاريخ لمطقة أصبحت تدعى آشور.

ولقد فحص بالوان ابتداء من عام ١٩٢٤ تلالاً رئيسية أخرى في منطقة نهر الخابور، وهذه المناطق مهمة بالعبية للتاريخ الآشوري إلى أن أوقفت الحرب العالمية الثانية جميع الأنشطة في مجال علم الآثار، ولقد كان آخر وجه من أوجه إعادة اكتشاف آشور قد بدأ عندما قرر (مالوان) إعادة فتح مشروع الحفريات في نمرود عام ١٩٤٩، وقد استمر العمل متقطعاً حتى عام ١٩٦٢ وقد كان مالوان المشرف على هذا العمل شخصياً أو عن طريق بعض علماء الآثار الشباب الذين يعملون تحت جناحه.

ولقد بدا أن معظم علماء الآثار البريطانية كانوا يحاولون أن يقرموا عن وعي أو بدون وعي بالنموذج الذي اختطه لايارد ولكن مالوان كان قادراً على شك النموذج بشكل أفضل.

ولقد أحرر بجاحاً بالنسبة للقياس من الممكن مقارنته ببجاح لايارد، ومع أن مظاهر قليلة جديدة قد فتحت بالنسبة للحياة الآشورية (ماعدا سور الحرها) إلا أن العمق والتفاصيل قد أصبحت إلى معارفنا لآشور في عدة نقاط، ولكن نجاحاته قد بدت وكأنها حجر عثرة بالنسبة لبعض علماء الآثار المتأخرين الذين كانوا مدينين في كثير من الفرص لجهودهاته

وهنا نجد إحدى السميدات النافذات تكتب في عام ١٩٨١ بأشمراز عندما تشير إلى أعمال مالوان وهي تقول:

((إن أثراً بعبضاً متعلماً من مخلفات القرن التاسع يؤكد الناحية الموجهة نحو المادة أكثر من التأكيد على المعرفة وعن الأهداف الموجهة نحو السلوك الحسن، خصوصاً أنه وقع في الإثم عندما فُكر أن المجموعة الرائعة من العاجيات المنعوتة التي اكتشفتها هي كنز من الكنوز)).

ولكن بدا الهدف الوحيد لتخصيص الأموال العامة لمصلحة علم الآثار وهو أن يعني حياة أولئك الأشخاص غير المهتمين بعلم الآثار الذين يدفعون المال في أحر الأمر، ومن المؤكد أن جمال العاجيات الآشورية المنعوتة لها دورها الذي سوف تلمبه تجاه تلك الغاية على الأقل من حيث العلم بالتفاصيل الخاصة بمثل هذه القضايا مثلاً قضية ملكية الأراضي.

لقد كانت أعمال الحمريات التي قام بها مالوان في بلاد آشور أحر حفريات حدثت حسب الأسلوب القديم وهو الذي كان يصير ضمن خطوات ذات نتائج سريعة يقصد بها كسب اهتمام الرأي العام وذلك طبقاً للمثل اللاتيني الذي يقول:

Sic briviter gloria mudi

ومعناه: هكذا يمر المجد الفنيوي ويسرعة.

لقد جرت أعمال الحفريات التالية في شمال العراق ولكن على نطاق أضيق إذ قد أثرت عليها أهداف مختلفة وأسهمت عوامل كثيرة في الوصول إلى تلك النتائج، وإحداها - تنقيح قانون الآثار العراقي بعد ثورة عام ١٩٥٨ حين ألغيت حقوق البعثات الأجنبية بالحصول على نصف اللقيات المتطابقة أي: التي لها مثيل طبق الأصل، ولقد أزال هذا الإجراء أي حافز لإعطاء الأفضلية لأي نوع من المواقع الأثرية الذي من المنتظر أن يكشف عن آثار تستحق أن توسع في المتاحف.

أما العامل الآخر - فهو عامل مادي مالي، فقد ارتفعت تكاليف العمل في المراق ارتفاعاً فاحشاً منذ عام ١٩٥٨ فقد أصبحت الآن وفي عام ١٩٨٢ في مستوى الأسعار في البلدان العربية، وهذا ما منح الأفضلية للمواقع الصغيرة التي تعتاز بأن الطبقات الاستيطانية فيها ليست مغطاة بشكل كثيف باطلال المراحل اللاحقة بها.

وهناك عامل ثالث - وهو أن السلطات المراقية أصبحت تعتبر أن المواقع الأثرية هي من الأماكن السياحية التي تجذب السياح من جميع أنحاء العالم، ولهذا فقد ضغطت السلطات المراقية على البعثات الفاتحة بالحمريات أن تقبل مسؤولية ترميم الأنصاب باعتبار ذلك تحكماً للحمريات، وهذا أمر مكلف مادياً لاسيما إذا احتوى الموقع بنايات كبيرة ومنحوتات، وهناك أيضاً قضية المراحل التاريخية وأي مرحلة هي بحاجة ماسة إلى شرح وتوضيح أكثر من غيرها ونتيجة لهذه العوامل المتراكمة انحصرت أعمال الحمريات التي تجري في آشور منذ زمن بعثات المدرسة البريطانية في نمرود، في الواقع أقدم عهداً من زمن الإمبراطورية الآشورية.

ومع ذلك فلم تهجر المواقع الإمبراطورية الآشورية نهائياً، إذ عمد فريق بولندي إلى إجراء بعض الحفريات في نمرود في محاولة لحل بعض المشكلات المتروكة منذ أيام لايبارد ومالوان، هذا وإن السلطات المراقية التي انتخبت علماء آثار من وزن عالٍ جداً قد قامت بأعمال مهمة في كل من شريف خان (وهي تاريخيزو القديمة الواقعة إلى شمال نينوى) وفي كيونيجهيك، وقد انحصر العلم في المواقع

الأخيرة في المحافظة على النصب وتزويدهم الأبنية، مما جعل أسوار وتحصينات
وبوابات صنعاء ماثلة للعيان مرة ثانية ليراهها جميع المهتمين بهذه الأمور، وفوق
ذلك فإن العالم مدين للسلطات العراقية ولعلماء الآثار العراقيين لإتقانهم تبنوي من
التجار القاريين الذين كانوا قد خططوا لإقامة وبناء منازل وأبنية في ذلك الموقع.

انتهت الترجمة في ٢٠٠١/١١/٢٦

الفهرس

المقدمة	٥
الفصل الأول	٧
آشور- الخلمية - والبدايات	٧
الإطار الجغرافي	٧
فترة ما قبل التاريخ	١٢
أقدم القرى الأولى	١٧
تل حسيونة	١٩
تل حلف	٢١
عبيد	٢٣
فجر التاريخ	٢٦
التطورات في سومر	٢٨
أسرة أككاد	٢٩
نشوء البلدات والمدن	٣٠
آشور الأولى	٣٢
الفصل الثاني	٣٥
ملوك آشور الأوائل	٣٥
قائمة ملوك آشور	٣٥
مملكة أور الثالثة	٤٠
آشور والتجارة	٤١
مستعمرات كايادوكيا التجارية	٤٢

٩٠	الهجرات الأرامية
٩١	الاتفاق الآشوري البابلي
٩٣	الممالك الأرامية
٩٥	الفصل السادس
٩٥	نشوء الامبراطورية الآشورية الجديدة
٩٥	الأمن العسكري والتطور الاقتصادي
٩٨	آشور فاصم بعل الثاني
٩٨	الاستراتيجية الإمبراطورية في آشور
١٠١	البحر الأبيض المتوسط
١٠٢	مدخل على حقن الأنعام في نصوص العهد القديم
١٠٣	فيما وراء جبال أمانوس وطوروس
١٠٤	فيما وراء زاغروس، الميديون والفرس
١٠٥	الحرب الأهلية
١٠٦	الأم الملكية التي أصبحت أسطورة
١٠٧	أورارتو - المملكة المافسة
١١١	الملوك الضعفاء والولاء المائلون في القوة
١١٥	المصلح السابع
١١٥	عنهوان الإمبراطورية
١١٥	الإصلاح الإداري
١١٧	السياسة تجاه الدول التابعة
١١٨	التوسع خلال حكم تملات بلاسر الثالث
١٢٢	النزاع مع السكثديانيين
١٢٤	اعتلاء سرجون العرش


١٢٥	المشكلة الأورارتية الحل النهائي
١٢٩	سرجون في بلاد بابل
١٣٠	بناء قلعة سرجون
١٣٢	سنحاريب
١٣٢	نينوى العاصمة العالمية
١٣٤	قلاقل كلدانية جديدة
١٣٥	حصار أورشليم
١٣٧	الحرب مع عيلام
١٣٨	نهب بابل
١٤١	الفصل الثامن
١٤١	بداية الثورة ثم السقوط والانهدام
١٤١	وراثه العرش الملكي
١٤٣	عطف المشيئة الإلهية على بابل
١٤٤	ميطرة الميديين
١٤٦	السلام الآشوري في الغرب
١٤٧	غزو مصر
١٤٩	آشور بانتيبال
١٥٢	إبادة عيلام
١٦١	سقوط الامبراطورية الآشورية
١٦٩	الفصل التاسع
١٦٩	المجتمع الآشوري والعادات الآشورية
١٦٩	الآشوريون أمة وليس عرقاً
١٧٩	الطبقات الاجتماعية

١٨١	الأساس الزراعي للحياة الآشورية
١٨٥	الفلاحون الفقراء - الأقتان والمبيد
١٩٠	العائلات الفلاحية
١٩٢	ولادة الأطفال ووفياتهم
١٩٥	الزواج
٢٠١	الحياة الجنسية
٢٠٦	التعليم
٢٠٧	الملك والبلاط
٢١٥	القصر المباشر
٢١٥	الحياة المنزلية
٢١٥	الملابس
٢١٩	لباس القدم - الحذاء
٢٢٠	المجوهرات
٢٢١	الشعر وأغطية الرأس
٢٢٢	المصروشات المنزلية
٢٢٤	الحكراسي بلا ظهر - الطاوات والحكراسي العادية
٢٢٦	الأسرة
٢٢٧	الإصاة الاصطناعية
٢٢٧	أدوات التجميل والتواليت
٢٢٨	أدوات المائدة
٢٢٩	وسائل التخزين
٢٢٩	تعددات المياه
٢٣٠	الأوزان والمقاييس

٣١١	كهنة المعبد ورجال الدين الآخرون
٣١٢	الشانفو
٣١٣	السكرانو
٣١٥	موسيقى المعبد والبلات
٣١٥	الأشيبو
٣٢٣	المراقون- البارو
٣٢٦	فئات المرافقين الأخرى
٣٢٨	علم التنجيم
٣٣٦	الساحرات والسحرة
٣٣٧	الفصل الرابع عشر
٣٣٧	الطب عند الآشوريين
٣٣٨	مفهوم الآشوريون للمرض
٣٤٢	الطبيب في الممارسة
٣٤٤	المواد الطبية
٣٤٦	دعوة الطبيب إلى المنزل
٣٤٩	الفصل الخامس عشر
٣٤٩	الفن الآشوري
٣٥٠	الألواح المصنوعة
٣٥٨	النحت الفراعني
٣٥٩	النماذج المنحوت
٣٦١	الاختتام الأسطواني

٣٦٥	.. الفصل السادس عشر .
٣٦٥	.. الجيش الآشوري .
٣٦٩	.. مقدمات النزعة العسكرية الآشورية
٣٧٣	.. الحرب النفسية .
٣٧٧	.. الجيش أثناء الحملات العسكرية .
٣٧٨	.. القواعد العسكرية والتحذيرات اللوجستية
٣٨٠	.. الجيش أثناء تنقله .
٣٨٣	.. المواصلات .
٣٨٨	.. التكتيك العسكري .
٣٩٣	.. معاملة الأحرار .
٣٩٧	.. البواعت الآشورية : الحوافز والإنجازات .
٤٠٥	.. الفصل السابع عشر .
٤٠٥	.. الكتابة والأدب الآشوري .
٤٠٨	.. المخطوطات الآشورية الملكية .
٤١١	.. جداول ليمو .
٤١٣	.. تقارير على التجويع .
٤١٣	.. المواحي .
٤١٤	.. الرسائل .
٤١٦	.. الوثائق الاقتصادية .
٤١٧	.. القوانين .
٤١٨	.. النصوص المقتبسة من بابل مباشرة .
٤٢٤	.. نصوص تعاويذ الفأل .
٤٢٥	.. نصوص تعليم الكتابة .
٤٢٦	.. الملقوس والابتهالات .

١٢٨	الأساطير والملاحم (القصة البطولية)
١٣١	أدب الحكمة
١٣٢	أصناف أخرى من النصوص
١٣٥	الفصل الثامن عشر
١٣٥	اكتشاف بلاد آشور من جديد
١٣٨	روايات الرحالة
١٤٢	تفسير المخطوطات
١٤٨	بوتا ولايار ودولتسون آباء علم الدراسات الآشورية
١٧٦	هكتور بلاس وهرمز رسام
١٨١	العمليات الأعمية
١٨٧	الفهرس



عظمة آشور

تتقد قصي انبجاحت (أشاري سافرا) اشتر من لحن
حياته وهو يدرس الحضارة الآشورية. مما جعله
أحد أشهر علماء في العالم قدرة على تقديم
وصف شامل ومتعمق لهذه الحضارة التي كانت
أحد أهم بنائر النهضة الإنسانية.

نشأت الدولة الآشورية في شمال ما بين النهرين
ثم توسعت سريعاً مشكلة أولى إمبراطورية في
التاريخ امتدت من مصر إلى مرفعات طوروس
وزاغروس، ومن آسيا الصغرى إلى صحراء شبه
جزيرة العرب.

عند قراءة هذا الكتاب لا يمكن إلا أن نشاطر
المؤلف حبه الجمل لهذه الحضارة.

فرغم الانتقادات الكثيرة الموجهة للآشوريين
بوصفهم شديد القسوة تجاه الشعوب المغلوبة،
فإن فسوتهم هذه مبالغ في وصفها بسبب الاعتقاد
على الادعاءات التوراتية. ويكشف واقع حصار
جوانب رائعة في كل المجالات سواء علمها الأدبي
والثقافي أم العلمية والتقنية.

يضيف الكتاب ثقافة شوانج السواء والموت
بتاريخ الحضارة في الشرق القديم.

Bibliotheca Alexandrina



0673412